

# الحروب الصليبية

الجزء الثاني

تأليف : وليم الصوري

ترجمة : د. حسن حبشي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥٥

تاريخ المصريين

تاريخ المصريين  
كتاب من تأليف  
أحمد حسن

مكتبة الاسكندرية  
رقم التسجيل

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA  
DL مكتبة الاسكندرية

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA  
مكتبة الاسكندرية  
كتاب من تأليف  
(احمد حسن)

رقم التسجيل  
٧٢٥٢٧



رئيس مجلس الإدارة  
د. سمير سرحان

رئيس التحرير  
د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:  
عبد العظيم الشبلي

# الحروب الصليبية

الجزء الثاني

تأليف  
وليم الصوري

ترجمة وتعليق  
د. حسن حبشي



المكتبة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

مكتبة

تفصيل  
في مهجتي

مكتبة  
مكتبة

الاخراج الفني : مراد تميم



مكتبة

مكتبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة الجزء الثاني

من كتاب ولیم الصوری

عن الحروب الصليبية

كتبها الأستاذ الدكتور حسن حبشي

الكتاب الحالي هو الجزء الثاني من أربعة أجزاء من الترجمة العربية لكتاب « تاريخ الحرب الصليبية » المعروف في الغرب باسم « تاريخ الأعمال التي تمت وراء البحار » لوليم الصوري الذي ختم حياته رئيساً لأساقفة صبور ، والذي عاش في بلاد الشام وفلسطين في فترة عاصرها بعض هذا الصراع العنيف الذي امتد حقله من الزمن طالت حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، شهد خلالها الشرق الاسلامي بل والشرق المسيحي احوالا على ايدي مهاجرين اوربيين تسربوا بمسوح الدين والنصرانية ، وان لم يزاعوا حتى حقوق المسيحيين الشرقيين الارثوذكس ، كما افصحت عن ذلك أحداث معارف بالحرب الصليبية الرابعة التي ازالته الامبراطورية البيزنطية

المسيحية ديناً ، الأرثوذكسية مذهباً ، لفكرة من الزمن بلغت نصف قرن تقريباً ، ولم تشهر هذه الحملة المسماة بالرابعة سيفا في وجه المسلمين » ، ولاخلصت - كما هو مفهوم الصليبية الغربى - أرضاً من أيديهم بل نزلت كالأعصار الجارف على القسطنطينية التي كانت كنيستها إحدى الكنائس الخمس الكبرى في العالم المسيحي على اختلاف مذاهبه ، فغيرت هذه التجربة الصليبية من معالم الوجود المذهبي ، وأزالت دولة الروم ولكن لترجع على أيدي بنائها الذين لم يؤثر فيهم العنت ولا الاضطهاد ولا السيطرة الأوربية ، ولا غلبة المسيحية الكاثوليكية .



ويمتاز هذا الجزء الذى بين يدي القارئ في صورته العربية بميزتين ، أولاهما أنه امتداد في أحداثه للجزء الأول ، وثانيتهما أنه يتناول فترة عاصرها المؤلف في شبابه ، وتعرف فيها على موازين الثقل في توجيه التاريخ السياسى والمذهبي لبداة الشام في حقبة امتدت أمداً غير قصير من عمر هذا المشرق .

ويتجلى للقارئ المطالع الشخصية وتحقيق المصالح الذاتية فيما ضمنه وليم في ثانياً هذا المجلد ، وهى مصالح ارتبطت بالشخصيات القيادية الصليبية وزجت في أتون معاركها بالجماعات الشعبية وعامة المسيحيين الغربيين ورعاهم الذين تغلب عليهم الديماغوجية أكثر مما يسيرهم العقل ، فلما طفت هذه الأطماع على السطح - حتى قيل استيلائهم على بيت المقدس - راح كل زعيم من هؤلاء الزعماء الغربيين يناقش الآخر في تحقيق ما فيه مصالحه ، وأدى ذلك الى ما يسميه وليم « بالشقاق الصليبي » الذى كان في استطاعة القوى الإسلامية أن توظفه لمصالحها ، لكنها أضساعت الفرصة - وما أكثر ما تكررت - من يدها بسبب الأثرة والأنانية وعدم

رعاية حقوق الرعية ، وتمثل ذلك فى قيام البعض منهم لالتماس معونة هؤلاء الوافدين ، فأحدثوا شرخا فى جبهة كان فى مقدورهم أن يجعلوها جبهة صمود ومقاومة ترد المهاجمين مهوورين ان لم تنلهم ، وما كان هؤلاء الوافدون فى مجموعهم سوى شرانذم من الأفاقيين ، ساعدها تفكك المسلمين على أن تكون « قوة » وما كانت بالقوة ، كما يتضح من ثنايا هذا المجلد أن عوامل الشقاق الغربى كانت فرصة طيبة لتخليص المسلمين من هؤلاء الغزاة ، كما أن انتشار الأوبئة والطواعين كان فى صالح الجبهة الشرقية التى لم تعرف - للأسف - كيف تستغل هذه الظروف المواتية .

ويقدم هذا المجلد صورة قلمية عن بدأ قيام « مملكة » صليبية على يد « جود فروى » ، ولو كانت عند الشرق الاسلامى حينذاك نظرة استيعابية دقيقة واعية للظروف المحيطة به وبالصليبيين لأمكن تحويل دفعة الأمور الى ما فيه صالح هذا الشرق على يد أبنائه ، ولكن بعض « المسئولين » راحوا يترامون على اقدام الصليبيين ، فكانوا يمدونهم بالمال حيناً وبالمعونة فى مغرفة الطرق حيناً آخر ، حتى مكنوهم من رقابهم ، ولقد وقف أهالى القدس فى بداية الأمر موقفا صليبا شريفا فى وجه الصليبيين الغزاة ، ولم يدخروا وسعا فى صدهم ، ولا تراخت عزائمهم عن مقاومتهم ، كما يشهد الكتاب ، ولكن يد واحدة لا تصفق .

وسقطت القدس غنيمة بأرادة فى أيدي الصليبيين الذين لم تأخذهم شفقة ورحمة بأحد ما من المقدسة الذين صادفهم ، فأعملوا فيهم القتل والنذبح « حتى فاضت الأماكن بدماء الضحايا » ويصف وليم فظاظة الصليبيين ووحشيتهم بل وهمجيتهم وصفا دقيقا وان حاول تبريره فخانه المنطق فكان تبريرا أعرج .



على أنه باحتلال القدس تبدأ مرحلة جديدة هي المرحلة التنظيمية للوجود الصليبي من الناحية الادارية والدينية والمذهبية ، وبذلك تستقر أقدام الغزاة ليجعلوا من أرض الشام وفلسطين بلدا لهم ، وهم الأغراب عن هذا التراب .

وإذا لم يكن عهد جود فروى كملك ، « حام للقبر المقدس » كما لقب نفسه - قد استمر طويلا فإن الدولة أخذت الجد في وقتها على حساب القوى الاسلامية المبعثرة ، كما حاول رجالها في الوقت ذاته التوسع على حساب القوة البيزنطية ، وهي قوة « نصرانية ، لكن المصالح الذاتية لا تقيم وزنا للدين عند الصليبيين مما يكشف القناع عن أطماعهم الدنيوية وكذب ادعاءاتهم الدينية ، مما أدى الى ظهور قوى « أوربية » أخرى دفعتها أطماعها لأن يكون لها نصيب من الأخرى من هذا العالم الشرقي ، ومع أن هذه الأطماع كانت في بداية الأمر قاصرة على بلاد الشام وفلسطين إلا أنها سوف تشرش إلى بلاد أخرى كمصر والعراق ، ورتب للغرب خطته هذه على مراحل تكشف عنها مجريات الحروب الصليبية عامة والاتفاقات التجارية ، لولا أن استطاعت مصر الوقوف في وجه هذه التطلعات الشرهة الآتمة .

ان هذه المقدمة ليست عرضا لمحتويات هذا المجلد لكنها المامة ببعض معاله ، واننى لأدع الكتاب يحدث قارءه بالكثير والكثير من الأحداث والصراعات وما تمخضت عنه من تركها بصماتها في تاريخ المنطقة بل والعالم منذ ذلك الحين .

كما اننى أترك القارئ يستشف مايرى من مطالعة هذا الجزء ولا أملى عليه رأيا خاصا ، وسوف يكون لدى القارئ بعد مطالعة

هذا المجلد رأى سوف يستكمل ان شاء الله فى المجلدين الثالث والرابع .

وأحب ان أشير هنا الى أن الفهرست التفصيلي سوف يكون فى ختام الجزء الرابع .

كما أحب ألا يفوتنى الشكر لهيئة الكتاب على قيامها بطبع هذا السفر ، وأرائى مدينا بالشكر للصديق الكريم الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان فقد كان حفيا بهذه الترجمة فجعلها من سلسلة تاريخ المصريين التى يشرف على اصدارها .

وأرجو من الله العلى التوفيق .

حسن حبشى

القاهرة - الدقى



## الكتاب السابع

### الشقاق بين الصليبيين وزحفهم الى بيت المقدس

#### فصول الكتاب السابع :

- ١ - ارسال هيج الكبير وكونت هينولت مبعوثين الى الامبراطور ،  
واختفاء كونت بلدين أثناء الطريق وعدم رجوع هيج العظيم  
ووفاة أسقف بوى وظهور الطاعون .
- ٢ - الصباح الناس الشديد بمتابعة السفر الى بيت المقدس ، لكن  
تأجل الرحيل الى أول أكتوبر ، كما ذهب « بوهيموند »  
الى قيليقية واستولى على الناحية بأجمعها .
- ٣ - صاحب « أعزاز » يناشد الدوق أن يساعد ضد مولاة  
رضوان ، فيستدعى الدوق أخاه بلدين فيسرع الى هناك .

٤ - بلدوين يخرج بقوة كبيرة لمقابلة أخيه ، كما أن الزعماء الآخرين يبعثون بالعموم والمدد فيهرب رضوان ، ويهلك بعض رجالنا أثناء الزحف ، ويقتل حوالي عشرة آلاف من جند العدو .

٥ - الدوق يمشى إلى بلد أخيه متجنباً خطر الوباء ، وهنا يخرب قلاع جماعة من الخونة كما يتوجه بعض الزعماء الآخرين إلى الرها أيضاً لينعموا بكرم بلدوين الباذخ .

٦ - أهل الرها يتآمرون ضد حاكمهم ويفضّسون منه لا يثأره اللاتين عليهم ، ولكن خير هذا التآمر يصل إلى سمع بلدوين فيأمر بقتل المتآمرين .

٧ - « بلاس » يدبر مؤامرة ضد الكونت الذي يتخذ من الإجراءات ما يضمن سلامته ، ويلقى القبض على طائفة من حلفائه ، ولكن فولبرت دى شارتر يهون من شأن هذه النكبة ، وينتهى الأمر بذبح « بلدوك » المتآمر .

٨ - كونت تولوز يستولى على مدينة « البارة » ويقوم أسقفية بها ، دخول سفن تيبوتونية في الميناء وتناقص عدد القوم بسبب نفشى الموت .

٩ - الصليبيون يحاصرون المعرة ويستولون عليها . موت أسقف أورنج وذيوع صيت « جوفيه دى لاتور » .

١٠ - الدوق يعود إلى أخيه ، ويستأنذه في الرجوع فيقع في كمين في أثناء عودته إلى الجيش ولكنه ينجو منه لم ينله أذى .

١١ - النزاع يشتد في المعركة بين كونت تولوز وبيوهيموند الذي استولى على أملاك الكونت بأنطاكية ، فيجتمع الزعماء في «الروج» ولكنهم لا يصلون إلى قرار حاسم ، ويصنارع الناس المجاعة .

١٢ - اغارة كونت (١) ( ريموند دى تولوز ) على أرض للعدو واستيلائه على ماشيته ، ثم شروعه في الزحف على بيت المقدس حين رأى نفسه عاجزا عن مقاومة الحاحات الناس أكثر من ذلك ، فينضم إليه في مسيرته هذه «كونت نرماندى» و «تاتكريد» .

١٣ - اللصوص يهاجمون جيش الكونت ( ريموند ) أثناء زحفه لكنه يصددهم ببراعة ويستولى عنوة على قلعة حاولت مقاومته ، ثم ينصب معسكره أمام «عركة» ويفد إلى أبواب الزعماء ( الصليبيين ) رسل البلاد التي حولهم .

١٤ - وصف «عركة» وتسلم رجالنا رسالة من بعض أسمرانا في طرابلس يحثونهم على وجوب محاصرة عرقة .

١٥ - مغادرة فريق من الصليبيين للمعسكر واستيلائهم على مدينة «انطربوس» بالقوة ، ثم عودتهم محملين بالأسلاب الضخمة والاستمرار في محاصرة عرقة .

١٦ - وصول (دوق) جود فروى إلى اللانقبة ويصبحته كونت فلاندرز وبقية القوات . نجاح الدوق في تحرير «جينيما» .

---

(١) لقيه وليم المصورى في الأصل بالدوق ولكن الصواب هو «كونت» .

من الحبس كما يعيد اليه أسطوله • وقيام بوهيموند بمرافقة  
العسكر فى رحيلهم حتى « اللانقية » •

١٧ - الدوق ( جو فروى ) وجيشه يحددون بجيلة غير أن مكائد  
كودت تولوز ترغمه على رفع الحصار وتحمله على الاسراع  
الى « عرقة » فينضم الى القادة الآخرين ، ولكن حصار هذه  
المدينة ينتهى بالفشل •

١٨ - اشارة موضوع حرية المسيح من جديد ، بطرس ( بارتلميو )  
مكتشف الحربة يمشى وسط النار الملتهبة ولكنه يموت بعد  
ايام قلائل من ذلك •

١٩ - عودة السفراء الذين كان زعمائنا قد ارسلوهم الى مصر •

٢٠ - سفراء من الامبراطور ( البيزنطى ) يصلون الى الجيش  
شاكين من بوهيموند ، ويذيعون النبا بقرب مجىء الامبراطور ،  
والتنازع بين قواتنا • شبوب معركة مع اهل طرايلس ينهزم  
فيها العدو ، ويعود الصليبيون متقصرين الى معسكرهم •

٢١ - صاحب طرايلس يحصل على اتفاقية مع الصليبيين بعد ان  
دفع لهم مبلغا كبيرا من المال ووصلهم بكثير من الهدايا •  
ثم يرحل القادة سالكين الطريق الساحلى نزولا على نصيحة  
المخلصين من سكان تلك النواحي •

٢٢ - الصليبيون يعاودون السير مرة ثانية ويمرون ببعض البلاد  
الساحلية ثم يصلون اخيرا الى اللد والرملة •

٢٣ - أهالى القدس يحصنون مدينتهم تحصينا قويا ضد الصليبيين،  
ويزودونها بالرجال الأبطال وبالسلاح والذخيرة ويخرجون  
منها معظم سكانها النصارى .

٢٤ - أهالى بيت لحم يبعثون الرسل الى القادة الذين يوفدون  
تأثيرا الى تلك المدينة فيستولى على كنيستها وعلى الموقع  
معا .

٢٥ - الجيش يواصل زحفه حتى يصل الى بيت المقدس ، لكن تقوم  
مناوشة فى نفس الوقت يهلك فيها بعض من رجال العدو .



Figure 1. The effect of the concentration of the *Agrobacterium* suspension on the transformation efficiency of *Agrobacterium* strains.

## هنا يبدأ الكتاب السابع

---

### الشقاق بين الصليبيين وزحفهم الى بيت المقدس

- ١ -

حين استقرت الأمور في أنطاكية على هذه الصورة (١) عزم القواد بالاجماع دون معارضة من أحد على ارسال مبعوثين الى الامبراطور يدعونه للمحضور بذاته في الحال لمساعدتهم وفاء بالاتفاق الذي أبرمه معهم من قبل ، وألقوا الى مبعوثيهم أن يخبروه بأن الصليبيين على وشك الزحف الى بيت المقدس ، ويسألونه أن يمضى حالا في اثرهم حسبما التزم به في المعاهدة التي أمضاها وأياهم ، فان لم يف بشرط الاتفاق أصبحوا في حل من الالتزام بعهدهم معه .

وأختاروا لهذه السفارة اثنين من نبلائهم ووجه القوم فيهم ،

---

(١) راجع الجزء الأول ص ٢١١ - ٢٦١ .

هما « هيج العظيم » Hugh أخو ملك فرنسا وبولنديين « كوثت هينولت » Hainault ، الذى اختفى فى أثناء سفره فى معركة قاتل فيها العدو وكان مصيره محروطا بالغموض وموضع جدل ، فمن قائل يقول انه لاقى منيته فى هذا الاشتباك ، الى آخر يذهب للقول بوقوعه فى أسر العدو الذى حمله معه يرسف فى الأغلال الى بعض نواحي المشرق القاصية .

على أن لورد هيج نجح فى تجنب مكائد العدو فوصل سالما الى الامبراطور ، لكنه - واسفاه - عند بلوغه هذا المنعطف كسف بريق أعماله المجيدة بسحابة شديدة القمامة باعدت بعدا كبيرا بينه وبين أمجاد قومه الباهرة ، فإذا كان قد أتى فى أثناء مسيرة الحملة بكثير من أعمال البطولة التى اكسبته مجدا لا يبلى فانه لطلخ اسمه الكريم ومرقه فى الوحل فى أثناء هذه السفارة التى أنجزها لمن كلفوه بها ، لكنه لم يأت اليهم بالرد ، ولم يكبد نفسه مشقة الرجوع اليهم فأظهره تقصيره فى أداء هذا الموضوع بمظهر شديد الغرابة تنكره عليه مكانته السامية ، لأن كتاب جوفينال يقول « أن كل شائبة فى الخلق تنطوى فى حد ذاتها على جرم أكبر كلما كبر مقام مرتكبها وعلت مكانته » .



ما كاد حصار أنطاكية ينتهى هذه النهاية الرائعة بالاستيلاء عليها ، وما كادت أمورها تستقر ويسودها الهدوء حتى ضرب الناس بطاعون لا يعلم أحد أسبابه ، وتزايد عدد ضحاياه زيادة مفزعة ، وقضى حتى قل أن كان ينقضى يوم الا ويخرج الناس لدفن ثلاثين جثة أو أربعين ، والحق أن القلة التى بقيت من الناس بعد الحصار قد تضاءلت حتى كادت أن تكون عدما .

ولقد هاجم هذا الطاعون الخبيث الجميع على اختلاف طبقاتهم،  
لم يفرق بين صغير وكبير ، وكان من بين الذين ساروا اذ ذاك  
فى الطريق الذى لابد لكل مخلوق ان يسير فيه « اديمار اسقف بوى » ،  
Adhemar of Puy وهو رجل شريف الخلق ، عظيم القدر ،  
خالد الذكر ، فبكى الناس كلهم فيه ابا وهاديا لهم ، وشيعة الجميع  
الى جدته بيزفرات باكية وآهات تصدع الأفئدة ، ودفنوه فى توفير  
كبير فى كنيسة بطرس الطوبانى فى الموضع الذى يقال انهم وجدوا  
به حربة المسيح .

ولقد فتك هذا الطاعون القاتل فيمن فتك « بهنرى ديش »  
D'Esch الكريم نسبا السامى خلقا ، فمات ودفن فى قلعة  
« تل ياشر » .

كما هلك بنفس السوباء « رينهولك فون امرزباخ »  
Rhenauld Von Ammershach وهو محارب عظيم شرف قومه  
بشجاعته الذاتية ، فوورى جسده فى ساحة كنيسة امير الرسل .

وقد تفشى هذا الطاعون اكثر ما تفشى فى النساء على وجه  
الخصوص ، حتى لقد هلك منهن فيه ما يقرب من خمسين الف امرأة  
فى أيام قلائل .

وحاول بعض اهل حب الاستطلاع ان يستقصوا اسباب هذا  
الوباء الملعون فاذنبتوا الى خواتيم تخالف كل خاتمة منها الأخرى ،  
فقال بعضهم انه نشأ من جراثيم تسبح فى الهواء ولا تراها العين ،  
على حين قيل ان الجوع كان قد عض الناس بانياه ، فلما تاتى لهم  
الحصول على الطعام الوفير اقبلوا فى نهم وشراهة على الأكل  
تعويضا عن أيام المسغبة ، فكانت بطونهم الجوعى علة هلاكهم ،  
واشار هذا البعض الى الحقيقة القائلة ان من كانوا وسطا فى اكلهم

أو تقللوا منه كانوا أحسن حالا من غيرهم ، وأنهم سرعان ما عادوا  
الى ما كانوا عليه فى السالف من الصحة » (٢) .

- ٢ -

فى هذه الأثناء عاد الناس يلحون على قادتهم الحاحا شديدا  
بمعاودة الاستعداد للسير الى القدس ، وسواء أكان الحاحهم  
صادرا عن رغبة منهم فى النجاة من الطاعون ، أو كان نابعا عن  
حبهم للحج الى بيت المقدس التى هى بيت القصيد الذى جاءوا من  
أجله ، فإن الأمر الذى لامرأ فيه هو أنهم طالبوا قادتهم بالاستعداد  
للخروج والمسير قدما بجيش السيد لانجاز الغرض الأساسى الذى  
دفع الجميع لترك أوطانهم ، ومن ثم اجتمع كبارهم وتشاوروا فيما  
بينهم بشأن رغبة العامة التى رأوها جديرة بالتلبية .

وقد اختلف رد الفعل الشخصى للقادة على هذا الطلب ، فرأى  
فريق منهم أن الواجب يقتضيهم ألا يتوانوا عن الخروج فى ساعتهم ،  
وبذلك يكونون قد أرضوا رغبات الناس .

وأما غيرهم فقالوا ان العقل يفرض عليهم تأجيل الخروج  
حتى شهر أكتوبر ، وكانوا ناظرين فى ذلك الى ما هم فيه الآن من حر  
الصيف القاتل الذى لا يطاق ، ومن ندرة المياه وقلة ما تحت يدهم  
من الخيول ، وتضعض الناس بسبب طول المجاعة التى كابدها ،  
وقال أصحاب هذا رأى ان الناس فى خلال هذه الفترة (٣) يكونون  
قد حصلوا على مزيد من الجياد ، كما تتاح فرصة من

---

(٢) ذكرت المترجمة الانجليزية أنه لم يمكن تحديد طبيعة هذا الطاعون  
تحديدا باتا ، وانما كان وباء عم أقاليم البحر الأبيض المتوسط الشرقية .  
(٣) المقصود بذلك الفترة المنصرمة من هذه اللحظة حتى دخول شهر  
أكتوبر .

الراحة للخيول التى عندهم الآن ، وبذلك يعود الناس الى ما كانوا عليه من قبل بفضل ما نعموا به من الاستجمام والمطعم مما يمكنهم من النهوض بعافية ، ويجعلهم أقدر على تحمل مشاق الزحف ، وقد قوبلت هذه الحوافط الأخيرة باستحسان الجميع ، واتفق رأيهم - دون استثناء - على البقاء حتى يدين ذلك الموعد المقترح .

حينئذك تفرقوا أملا منهم فى تجنب الموت الذى يهددهم ، كما بدا أنه من المحتمل أيضا أنهم قد يجدون فى هذه الأثناء فى ناحية أخرى غير التى هم فيها الآن وفرة من الميرة ، وأصبح عقهوما لديهم جميعا وجوب عودتهم فى الموعد المضروب دون تأخير ، فذهب بوهموند الى قتيقية واستولى على مدن طرسسوس ، وأثنة ، والمصيصة وعين زربة ، ونصب حكاما من قبله على هذه الأماكن ، وجعل من نفسه الأمير الأكبر على الأقليم بأكمله .

أما الزعماء الآخرون فقد تفرقوا فى المدن المجاورة بعيدين عن الجيش ، جاعلين همهم استرداد صحتهم وعافية جيادهم .

كما بادر كثير من أشرف الناس وعامتهم على السواء الى عبور نهر الفرات ، وأخذوا السير فى لهفة قاصدين الرها حيث كان الحكم فيها لبلدوين أخى الدوق ، وكانوا يطعمون فى نواله ورقده ، فأحسن الكونت لقاءهم ، وحباهم بالآث ، ولم يدخر وسعا ولا قصر فى عطفه عليهم طول اقامتهم فى رحابه ، ثم ردهم فى النهاية الى اخوانهم وقد امتلأت نفوسهم بالغبطة ، وأيديهم بالعطايا الجمة .

- ٣ -

حدث فى ذلك الوقت أن استجلب رضوان - صاحب حلب - على نفسه نقمة واحد من أتباعه ، وكانت قلعة « أعزاز » فى يد هذا التابع .

ووصلت الخصومة بين الاثنين حدا حمل الأمير على استـ  
العسكر من كل النواحي التابعة له ، وضرب الحصار على  
القلعة التي أدرك متوليها إلا قبل له في الوقوف في وجه غـ  
مولاه القوى الحائق مالم ينجده الفرنجة ، فأرسل في الحال و  
من خاصته وأهل بلده - وكان مسيحيا مخلصا له - إلى ((  
( جود فروى ) يسأله محالفته ، وزوده بالهدايا إليه ضمنا لـ  
تأييده ، وزاد بأن وعده أن يخلص له قلبا وروحاً .

وأبدى رغبة في أن يرتبط به باتفاقية يلتزم بها التزاما قـا  
وأفصح عن استعداداه لإرسال ولده إلى الدوق رهينة عنده  
يكون على ثقة تامة فيما يقوله ، وحتى لا تخالجه لحة شك في ((  
بعده له .

وألحف في الرجاء إلى « جود فروى » أن ينهض في لـ  
هذه ليخلصه من الخطر المصدق به ، وأعدا إياه أن يجازيه الـ  
الأوفى على حسن جميله هذا في الوقت المناسب .

وأتت هذه الكلمات أكلها ، وحركت نفس ذلك الرجل .  
فوثق علاقات المودة بصاحب قلعة ( أعزاز ) وأظله بعطفه ، و  
فأرسل في لحظته رسلا من جهته إلى أخيه بلدوين كونت اـ  
يدعوه للقدوم عليه بعسكره ليكون عوناً له في رفع الحصار ، اـ  
لذلك الصديق .



أما رضوان فقد نصب معسكره قبالة قلعة « أعزاز »  
خروج الدوق جودفروى من أنطاكية بخمسة أيام ، وكان في صـ  
عدد كبير من أخلص أتباعه الذين دعاهم ليكونوا عوناً له في المشـ

الذى يزعم النهوض به ، فتألفت منهم جميعا طائفة قوية خرج بهم  
مغذا السير لنجدة أعزاز .

احس رسل صاحب أعزاز الذين بعث بهم الى الدوق أن قد  
لازمهم التوفيق فى انجاز سفارتهم على أكمل وجه فقد حصلوا على  
التأييد التام لسيدهم عند الدوق ، على أنه كان من المستحيل عليهم  
القيام شخصيا بإخبار مولاهم بما انتهوا اليه بسبب احاطة العسكر  
المعادى له للقلعة من كل جانب ، مما استحال معه قيام أحد ما  
بالدخول اليها أو الخروج منها ، لذلك اطلقوا حمامتين من الحمام  
الزاجل المدرب على مثل هذه المهمات لايصال الرسالة ، فريطوا فى  
ذيلى (٤) الحمامتين كتبنا تتضمن التفاصيل الوافية عن نجاحهم ، ليكون  
مولاهم على علم تام بكل ما نسنى لهم القيام به ، وما كاد الطائران  
يطلقان فى الجو حتى طارا خفيفين الى ديارهما ، وهناك أمسكهما  
المسؤولون عن الحمام الزاجل ومن ربوهما ، وقضوا الرسائل ،  
وافضوا بمضمونها الى صاحب حلب ، فاستولى عليه الفزع الشديد  
من العدو المحيط به ، فأيأسه الخوف وفل مقاومته ، ومع ذلك فان  
قراءته لهذه الرسالة ملأته بالأمل المفرح فى الا خوف عليه ان هو  
أخذ المبادرة فى مهاجمة عدوه .

#### - ٤ -

كان الدوق ورفاقه قد قطعوا مسيرة يرم واحد حين صادفهم  
بلديون فى طائفة من ثلاثة آلاف مقاتل مدججين بأحسن السلاح ،

---

(٤) يبدو أن هنا خطأ من وليم الصورى فى قوله ان الرسلتين ربطتا  
الى ذيلى الحمامتين ، فالمعروف ان الرسالة كانت توضع تحت جناح الطائر  
حفظا لتوازنه ، انظر الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب ، حاشية رقم ١  
صفحة ٣٠٢ .



فرحب جود فروى بأخيه ترحيبا يفيض بالحب العميق والود الصافي، وشرح له كل تفاصيل الحملة ، مركزا على وجه الخصوص على مخالفة الصداقة التي أبرمها مع صاحب « اعزاز » ، فاستصوب بلدوين كل ما قصه عليه أخوه ، وأن حذره من أن قواته ليست بكافية لفرض حصار شديد كهذا الحصار الذي يزعم القيام به ونصحه غاية النصح أن يبعث الى القادة المقيمين بأنطاكية - قبل أن يقدم على أى شئ - يرجوهم مساعدته ، لأن مجيئهم اليه يقوى جانبه ويشتد بهم ساعده ، فيتقدم فى تنفيذ مشروعه بمزيد من الثقة .

استمع الدوق بنفس راضية الى نصيحة شقيقه ، وبعث فى الحال برسول الى كل من بوهيموند وكونت تولوز يناشدهما مناقشة حارة - بحق ما بينه وبينهما من روابط الأخوة - أن يهبأ من غير ابطاء الى مساعدته فى جهوده القائم بها من أجل حليفه ، وأكد لهما أنه راد لهما هذا الفضل فى الوقت المناسب ، والحق أنه كان قد سألهما هذه المعونة قبل مغادرته المدينة بطريقة فى غاية الود ، والتمس منهما الانضمام اليه ، ولكن الفخيرة من أن صاحب « أعزاز » استنجد بجودفروى أولا حملتهما على رفض متابعتة والخروج معه ، فلما كانت هذه المرة الثانية عرفا أنه لم يعد بمقدورهما رفض التماس الدوق حفظا لشرفهما ، ومن ثم جمعاً قواتهما وخرجا بها فلحقاه فى حملته ، فلما تأتى لجميع القرات أن ينضم بعضها الى البعض بلغت زهاء ثلاثين ألف محارب .

ويقال انه كان عند رضوان أربعون ألفا من الترك ، ومع ذلك فانه لم يطمئن الى قوته هذه واستولى عليه الفزع من اقترابنا الذى أخبرته عينونه بأنه بات وشيكا ، فسرح جيشه وعاد الى حلب .

لم تعلم قوات « جود فروى » بفرار العدو فظلت توالى زحفها ،

وتبعها من خلفها كثير من الجند المشاة والفرسان القادمين من  
انطاكية للانضمام للكتائب التي سبقتهم .

وثاكانوا على مسافة غير قصيرة وراء الجيش فقد شاء سوء  
طالع الكثيرين منهم أن يقعوا في الكمائن التي كان العدو قد عنى  
برصدها لهم ، وإذا لم يكونوا مكافئين للترك في العدد ولا في البأس  
فقد تمت الغلبة عليهم في يسر ومن غير عنت ، فهلك الكثيرون منهم  
وأسر غيرهم .

ما كاد الدوق والزعماء الآخرون يعلمون بما جرى حتى توقفوا  
عن الزحف ، واتفقوا على أن يتعقبوا هؤلاء الجناة ، وشاء حسن  
طالعهم أن يصادفوا الترك قبل تمكنهم من الوصول الى مواقعهم أو  
بلوغهم الأماكن التي اعتادوا الاختفاء بها ، فكر الصليبيون عليهم  
بسيوفهم كرة ضاربة ، وسرعان ما فرقوا صفوفهم وشتتوا شملهم  
وانتقوا طائفة من رجالنا الذين كانوا قد وقعوا أسرى في أيدي  
الترك ، وأسروا عددا كبيرا من رجال العدو وأعملوا القتل في  
الكثيرين منهم .

وفر من نجا فتضاءل عدد العدو حتى كاد ألا يكون شيئا مذكورا ،  
وكان هؤلاء من الصفوة المنتقاة من رجال رضوان وحاشيته ومن  
خاصته وهم قرابة عشرة آلاف شخص .

بعد أن أحرز جيشنا النصر مضى كله قدما صفا واحدا حتى  
بلغ غايته ، فخرج للترحيب به صاحب قلعة أعزاز في ثلاثمائة فارس  
من فرسانه ، وجثا - على مشهد من الجميع - على ركبتيه ، مطأطء  
الرأس ، مزجيا الشكر للدوق أولا ثم للزعماء الآخرين ثانياة على  
ما فعلوه ، وأعلن على رؤوس الجميع أنه التسابع الأمين للقادة  
الصليبيين ، وقطع على نفسه يمين الود مؤكدا أنه لن ينكث بشيء

من هذا العهد ، أو يخرج على تلك الطاعة ، أو يشجب الوفاء لهم  
مهما تغيرت الظروف أو تبدل الزمن .

وهكذا أدى الدوق لحليفه المساعدة المرجوة ، وانتهى الأمر  
على خير ما تكون النهاية ، وأذ ذاك انقلب بلدوين - أخو الدوق -  
راجعا إلى الرها ، وعاد الجيش إلى أنطاكية .

- ٥ -

لما كان الوباء لا يزال منتشرا في أنطاكية ، والموت متفشيا بين  
سكانها ، وتزداد حدته يوما بعد يوم ، فقد قرر الدوق أن يستجيب  
لندوة أخيه له ليزور بلده الرها ، وكان بلدوين يلح على «جودفروي»  
- أثناء اشتراكهما في الحملة الأخيرة - أن يتقبل رجاءه ويتجنب  
قيظ أغسطس ، ويفر من عدوى الوباء المنتشر في الجو ، ومن ثم  
اصطحب الدوق معه في سفرته هذه بطائفة الخاصة وطائفة كثيفة  
من فقراء الناس الذين كان يرى لزاما عليه إعالتهم ، ونزل بهم أرض  
أخيه ، واستقر وأياهم في ناحية تل باشر<sup>(٥)</sup> وحطب وراوندال حيث  
يغدو ويروح كيفما شاء ، وينعم بين آن وآخر بصحبة أخيه .

وكثيرا ماحدث أثناء مقامه هنا أن قدم عليه أهل تلك النواحي  
من المنديين لاسيما الزهاد المقيمون بالاديرة الكثيرة المتناثرة بها ،  
مستصرخين به من أخوين أرمينيين هما « بكراد » Pahard

---

(٥) في الأصل Hatab ولم استطع الاستدلال على مرادفها في  
العربية إلا أن تكون « الحثا » التي أشار إليها ياقوت ومراسد الاطلاع ،  
انظر في ذلك Le Strange : Palestine Under Moslems P. 450.  
أو لعلها « عيقتاب » القريبة من تل باشر .

و « كوراسيلويوس »<sup>(٦)</sup> Corasilus (أو كوخ فاسيل ) ، وكانا من ذوى المكانة الرفيعة فى قومهما ولكنهما كانا غاية فى الدهاء والمكر ، وكان بايديهما قلاع حصينة قوية من قلاع هذا الاقليم يعتمدان عليها كل الاعتماد ، فكلفا السكان من أمرهم شططا - لاسيما أهل الأديرة - بابتزازهما الأموال الطائلة منهم بغير حق ، وبلغ عسف هذين الكبيرين غاية حين راحا يقطعان الطريق على سالكيه ويسلبانهم ما يحملون ، وكان ممن تعرضا لهم رجال بعثهم كونت الرها بالهدايا الى أخيه الذى كان لايزال اذ ذاك مشددا الحصار على أنطاكية ، وعمدا الى هذه الهدايا التى كانت مخصصة للدوق « جودفروى » ، فارسلاها الى لورد بوهيموند كسبا لتأييده لهما ضد بلدوين كونت الرها ، فلما سمع الدوق الشكوى غلا مرجل غضبه عليهما ، وبعث على الفور ضدهما رهطا من خمسين من خاصة فرسانه ، مع طائفة من أهل تلك الناحية ، فاقتحموا كلهم قلاعها بقوة السلاح وسورها بالأرض ، لتخضيد شوكة هذين الكبيرين - ولو الى حدما - وحملهما على الكف عن سفههما الذى لم يعد محتملا .

وقد وفد على الدوق أثناء مقامه فى هذا البلد رهط كبير من أبرز رجال جيشنا ، كما تزاحمت على بابه أعداد ضخمة من العامة راحوا يتدافعون طمعا فى نواله وفيض يديه ، وليدرا عنهم الفقر المدقع الذى ناء عليهم بكلكلة ، وارهقهم أمدا طويلا ، وكان ذلك منهم على وجه الخصوص بعد أن صارت قلعة عزاز تحت حمايتنا ، وهى القلعة الواقعة فى منتصف الطريق المؤدى الى الرها ، فرحب الكونت بهؤلاء القوم أحمل ترحيب ، ثم ردهم بمد أن أغدق عليهم هداياه الجمة ، مما اثار دهشة الجميع ومن جاءوا الى هنا يلتمسون فضل عطائه .

(٦) ذكرت المترجمة الانجليزية ، ج ١ ص ٣٠٤ حاشية رقم ٩ ، أنه ينعى « كوخ » أى اللص ، ثم عادت وأشارت الى أن هناك من يتكرر هذا اللفظ .

أخذت زرافات الصليبيين تتوالى فى القدوم الى الرها أرتالا بعضها فى اثر البعض ، حتى تبلبلت خواطر الأهالى جزعا من جموع اللاتين هذه ، وعلى الرغم مما لقيه هؤلاء الضيوف من كرم مضيفيهم الكبير الا أنهم سرعان ما أصبحوا مصدر ازعاج بسبب سلوكهم الذى كان ملؤه التحدى ، كما راح بلدوين - من ناحية أخرى - يقلل من اعتماده على مشورة النبلاء المحليين الذين كان لهم الفضل فى استحواذة على تلك المدينة العظيمة ، مما اثار حنقا بالغا ضده ، وضد بنى جنسه ، وندمت رعيته أشد الندم على أن جعلوا له الحكم فيهم ، يوم وضعوا زمام الأمور فى يديه ، وساورهم الخوف ، فلما رأوا الا نهاية لمطامعه وتطلعاته خافوا ان ينتهى الأمر به أخيرا الى تجريدهم من كل شىء يملكونه ، ومن ثم راحوا يحيكون ضده مؤامرة مع بعض ولاة الناحية الأتراك ، ويرسمون خطة تؤدى الى اغتياله دون توقع منه حتى يبدو الأمر وكأنه جرى بمحض الصدفة ، فان لم تسعفهم المؤامرة بقتله فلا أقل من أن تنتهى بطرده من المدينة واخراجه منها ، وحملتهم هذه المحاولة على أن يودعوا كل ثرواتهم وجميع ما يملكون عند أصدقائهم من أصحاب القلاع والمدن الجاورة ، وبينما كانوا منهمكين انهمساكا دقيقا فى تنفيذ منططاتهم هذه اذا بكلمة عن هذه المؤامرة تصل الى سمع بلدوين نقلها اليه أحد أصدقائه الأوفياء ، فلما تقصى الكونت الخبر وتجمعت بين يديه البراهين التى لا تجد عن صدق هذا المشروع بعث قوة كبيرة من خاصية رجاله للقبض على المتآمرين وتقييدهم واعتبارهم قتلة ، وأدت اعترافاتهم الى كشف كل جوانب القضية ، وأذ ذاك أمر بسماع عيون زعماء المؤامرة ، وحكم على من دونهم جرما بالنفى من المدينة ومصادرة أملاكهم ، ، اما غير هؤلاء وهؤلاء فقد تفضل بالاذن لهم بالمقام فى الرها مع الزمامهم

بدفع غرامة مالية ضخمة صناد بها كل ما ملكته أيديهم وجعله ملكا خالصا له لا يشاركه فيه مشارك ، واستطاع الكونت بهذه الوسيلة أن يحصل على قدر من الذهب بلغ عشرين ألف قطعة ، سعى بها كلها على ضيوفه (اللاتين) الذين أدت مساعدتهم آياه الى سيطرته على البلاد والقلاع المجاورة حتى أصبح ذكر اسمه مبعث فزع للمدن وسكان تلك الناحية ، مما حمل الكثيرين منهم على العمل جديا لتدبير ما فيه هلاكه ، حتى لقد فر حموه خلسة الى الجبال معتصما فيما له بها من المعقل ، وذلك خوفا من أن يلج في مطايبته بما تبقى له عنده من مهر ابنته الذي كان قد تمهد له بدفعه ، ولكن لم يف له بعده حتى الآن .

## - ٧ -

كان هناك شريف تركي الجنس اسمه « بالاس » يعيش في تلك الناحية من البلاد ، ولى ذات مرة حكم مدينة « سروج » ، وقد ارتبط مع الكونت بحلف صارت الصداقة بمقتضاه بين الاثنين على أتم ما تكون الصداقة بين خدنين ، وذلك قبل وصول اللاتين في هذه الأعداد الضخمة ، ثم لاحظ هذا الرجل تضائل ود بلدوين نحوه ، فذهب الى الكونت لأمر في نفسه ، مدعيا أنه يرجوه أن يتفضل مشكورا بالحضور اليه ليتسلم بنفسه القلعة الوحيدة التي لازالت باقية في حوزته ، وربما كان مدفوعا للقيام بهذا العمل باحساسه بالضيق ، أو ربما كان ذلك نزولا على التماس الأهالي ، وصرح لبلدوين أنه قانع بعطفه عليه ، وأنه يعتبر ذلك جميلا يسديه اليه ويقدره هو كل التقدير له ، وأنه غاية ما يتمناه ، وأعلن اليه أنه معتزم احضار زوجته وأطفاله وكل ما تملك يمينه الى الرها ، وتظاهر بأنه في خوف مقيم من أهل بلده لما بينه وبين الصليبيين من روابط

الورد الأخوى ، وراح يلاحق الكونت لتحقيق اربته ، راجيا أن يضرب له بلدوين يوما يزور فيه ذلك المكان ، فلما جاء اليوم المحدد خرج الكونت على رأس مائتي فارس من فرسانه وسار الى القلعة وقد سبقه اليها « بالاس » الذى عمد سرا الى تقوية وسائل الدفاع عن القلعة ، فرتب يداخلها مائة فارس معلمين ، وزودهم بأقوى سلاح ، وأخفاهم داخل ذلك المكان بصورة لم يظهر معها أى واحد منهم .

فلما أصبح بلدوين امام القلعة التمس منه « بالاس » أن لا يدخلها الا فى رهط قليل جدا من رجاله ، مبررا هذا بخوفه من الخطر على موجوده ان يدخل الفرسان كلهم معه ، ونجحت توسلاته فى حمل الكونت على الرضوخ لكل ما طلبه منه « بالاس » ، غير أن حسن حظ بلدوين أبى الا أن بعضا ممن معه - من أهل الحجا والعقل - توجسوا خيفة وخشوا أن يكون الغدر وراء ذلك الالاح ، فقالوا بالقوة بين الكونت - رغم احتجاجه - وبين السماح له بدخول الحصن ، وكانوا على حق فى شكهم فى نوايا هذا الرجل الخسيس ، وراوا السلامة تقتضى تقديم نفر سواه أولا ليعرف ماذا يكون مصيرهم ، فاستجاب الكونت لهذه المشورة الحكيمة ، وأمر أن يدخل المكان اثنا عشر رجلا من أشجع رجاله وعليهم من السلاح أحسنه ، على أن يقف هو مع بقية رجاله ساكنين فى الخارج على مقربة من المكان يراقبون ماذا تكون خاتمة التجربة ، فما جاوز هؤلاء الفرسان الأشاوس عتبة المكان حتى وقعوا ضحية الخيانة الدنيئة التى دبرها بالاس الخبيث ، ان طلع عليهم الأتراك المائة الذين أشرنا اليهم من قبل من مخابئهم وهم فى كامل سلاحهم ، وأمسكوا بالفرسان الذين جازت عليهم الحيلة غدا ، ولم تغلج مقاومتهم فوقعوا فى أسرهم فقيدهم بالسلاسل ، فكان حزن الكونت شديدا ، وأفزعه مآل رجاله الأوفياء إذ فقدهم بهذه المكيدة القذرة ، فراح

يدنو من الحصن حتى صار أقرب ما يكون إليه ومضى يهتف  
ببالاس ، مذكرا إياه بيمين الولاء الذى قطعه له على نفسه ، وحثا  
إياه على إعادة الأسرى الذين أخذهم غدرا ، ووعده بقدر كبير من  
المال فدية لهم ، فأبى بالاس كل الأباء الا اذا رد الكونت عليه  
« سروج » فلما أيقن بلدوين عجزه عن عمل أى شيء أكثر من هذا  
لموقع القلعة على أرض شديدة الانحدار واستحالة اقتحامها بسبب  
شدة حصانتها وأحكام بنائها استبد به الغضب أن يأخذ بالاس  
رجالہ اسرى ، وانقلب راجعا الى الرها يفكر مليا فى الخديعة التى  
جازت عليه .

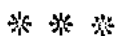
فى ذلك الوقت كانت مدينة سروج المذكورة حالا فى حراسة  
« فولبيرت دى شارترز » صاحب الخبرة الكبيرة فى فن القتال ،  
وكان معه حامية مؤلفة من مائة فارس فى كامل عدتهم الحربية ،  
مجهزين تمام التجهيز للعمل ، فلما سمع بالمحيلة التى جازت على  
مولاه تفطر قلبه رحمة به ، وشرع يخطط جديا كيف يرد هذه الاهانة ،  
فنصب - ذات يوم لهذا الغرض - أمام قلعة بالاس كمينا تخير له بقعة  
ملائمة كل الملاءمة لمشروعه ، ثم تعمد أن يخرج فى شردمة قليلين  
من الحرس اقترب بهم من الحصن بصورة يخيل لرائيها كما لو كان  
يحاول نهب قطعان من الغنم . أما غرضه الحقيقى فهو أن يغرى العدو  
بمطاردته ، فلما رأت الحامية التى بالداخل أنه يحاول سرقة القطعان  
من سرحها هبت الى سلاحها ومضت تطارده ، فتظاهر « فولبيرت »  
بالفرار فألح العدو فى تقصيه حتى جاء عند الكمين الذى كان رجاله  
مختفين به فبرزوا من مخبئهم ، فاشتد عزم فولبيرت بهم وكر راجعا  
على مطاردية وهاجمهم ، فقتل بعضهم ، ونجا غيرهم بشق النفس ،  
ففروا الى الحصن معتمسين به ، ولكنه أسر منهم ستة نفر .

وتم بعد وقت قصير تبادل الأسرى بين الجانبين ، واسترد



« فولبيرت » ستة من الصليبيين مقابل من اسرهم ، كما نجح اربعة من نفس الاثنى عشر فى التخلص من حراسهم واسترداد حريتهم ، أما الاثنان الباقيان فقد قطعت رقابهما بأمر من ذلك الرجل الخبيث الفاسق .

ولقد أخذ بلدوين منذ ذلك اليوم يرفض عقد أى حلف صداقة مع الترك ولم يعد يثق بأيمانهم . وقدم الدليل الواضح على ذلك بعد قليل .



كان فى نفس الناحية امير تركى آخر اسمه « بالدوك » هداه تفكيره أن يبيع للكونت ( بلدوين ) مدينة سميساط القديمة المنيعة الحصين ، وكان « بالدوك » التزم حسب نص الاتفاق المبرم بينه وبين الكونت على أن يحضر زوجته وأولاده وكل أهل بيته الى الرها . غير أنه كان يقدم من الأعذار المقبولة كل مرة ما أرجأ معه الوفاء بعهوده هذه . كل ذلك ارتقابا منه لفرصة تسعفه بانزال الضرر ببلدوين ، وحدث فى أحد الايام أن جاء الرجل الى الكونت ليقدم كعادته عذرا تافها يبرر به تأخره فى الوفاء بما وعد . فما كان من بلدوين الا أن أمر باطاحة رأسه ، واستطاع بهذا العمل الوجيز أن يمنع امكانية حدوث خيانة اخرى فى المستقبل .



بينما كان جودفروى لايزال مقيما فى ناحية تل باشر . وبينما كانت الأحداث التى سجلناها حالا تجرى فيما حول الرها . اذا بكونت تولوز ينهض من انطاكية وفى صحبته أتباعه وطاقفة كبيرة من فقراء الناس بها . واذ كان حريصا على ألا يبقى ساكتا

خلال فترة سيره هذه ، فانه قام بحصار « البارة » وهى من المدن القوية التحصين فى ولاية « أفامية » التى تبعد عن أنطاكية مسيرة يومين تقريبا ، فلما تم لريموند غزو جميع الاقليم المجاور له وسقوط « البارة » فى يده ، نصب فيها أسقفا هو بطرس النربرنى أحد خاصته ، وكان رجلا ورعا طاهر السيرة ، كريم الخلق ، فوهب ( ريموند ) للأسقف الجديد فى لحظته هذه نصف المدينة ونصف ضاحيتها شكرا لله على ما أثابه من أن أصبح للمشرق أسقف لاتينى .

واستجاب بطرس لتوجيهات الكونت فشحص الى أنطاكية ل تتم فيها مقاليد الترسيم ، وهناك تقلد جميع الصلاحيات الكنسية ، وحدث فيما بعد - حين أخذ برنارد فى تنظيم الكنيسة بأنطاكية - أن نقل بطرس - وهو أول بطرك لاتينى للمدينة - تبعية مطرانيته الى تلك الكنيسة ، وأصبح هو ذاته كبير أساقفتها ، كما تسلم شارة الترسيم من يد برنارد .

كان فى رفقة كونت تولوز حينذاك شريف اسمه « وليم » شاء حسن طالعه أن يأسر - لحظة الاستيلاء على مدينة أنطاكية - زوجة واليها ياغى سيان وطفلين صغيرين لابنها شمس الدولة ، فبقى ثلاثتهم فى رعاية « وليم » الذى بسط عليهم ظل رعايته ، فافتداهم شمس الدولة منه بقدر كبير من المال ، فلما تسلم وليم الفدية أطلق سراح السيدة والطفلين وردوا الى حريتهم السابقة .



كذلك حدث قرب هذا الوقت أيضا أن أرست بميناء السويدية طائفة كبيرة من الناس تقدر بالف وخمسمائة شخص ، وكان رسوهم فى أعقاب رحلة حالفهم فيها التوفيق ، وأصلهم من إقليم « راتسبون »

من بلاد التيوتون (٧) ، لكن مالبث هؤلاء القوم جميعا أن ضربهم الطاعون الذى كان منتشرًا إذ ذاك ، فماتوا فى فترة وجيزة ، وقد ظل هذا المرض الخبيث يفتك بالناس طوال ثلاثة أشهر متتالية حتى مستهل ديسمبر ، وفنى بسببه أكثر من خمسمائة رجل من طبقة الفرسان وحدهم ، أما ضحاياها من العامة فكانوا فوق الحصر .

— ٩ —

عاد الى المدينة يوم أول نوفمبر جميع القادة الذين كانوا قد غادروها فرارًا من الطاعون حسب اتفاقهم على ذلك ، وكانت مدينة البارة قد سقطت فى أيديهم كما ذكرنا من قبل ، ثم جاء اجماعهم الآن على قبول الاقتراح القاضى بمهاجمة « المعرة » ، وهى مدينة شديدة المناعة بفضل تحصيناتها القوية ، وتبعد عن « البارة » ثمانية أميال ، وكان من الضرورى خلال هذه الفترة القيام بشيء من التحرك نظرا للحاح الناس الدائم على قادتهم بوجوب متابعة الزحف الى بيت المقدس ، وهو الحاح لم يكن فى الاستطاعة التهرب منه ، ومن ثم اتخذت الاستعدادات اللازمة ، حتى إذا وافى اليوم المقسوم خرج كونت تولوز وكونت فلاندرز وكونت نرماندى ، كما نهض الدوق ( جودفروى ) ومعه أخوه اسكاس وتانكريد ، وزحفوا مجتمعين العزم على حصار مدينة المعرة التى كان أهلها شديدي الدل والتفاخر بثرائهم الفاحش ، وزاد من قبيحهم تبايهم بأنهم فتكوا ذات مرة من قبل بعدد كبير من رجالنا ، وهو فتك عدوه نصرا باهرا لازالوا يعتقدون به اعتدادا حملهم على الاستهانة بالجيش الصليبي وتجريحهم قواده بالاهانات المؤلة يصبونها عليهم صبا ، حتى انهم

---

(٧) تشير الترجمة الانجليزية ( ج ١ ص ٣١٠ ، حاشية رقم ١٢ ) الى أن العهدة على « البرت ديه » فى هذا الخبر .

رفعوا الصليبان على حصونهم وأبراجهم ازدراء منهم بشعبنا ،  
وتنادوا فى غيهم فأخذوا ييصقون على الآثار المقدسة •

وإذ بلغت هذه الفعال منهم حد انتهاك حرمة الأحرام الطاهرة  
فقد فاضت نفوس الصليبيين غيظا ، وتسعرت حنقا فلم يملكوا منع  
أنفسهم من القيام بشن سلسلة من الهجمات العنيفة على المدينة التى  
كان من الممكن سقوطها فى أيديهم غداة وصولهم لو كان قد توفر  
عندهم الكافى من السلاح •



ولما كان اليوم الثالث انضم اليهم بوهيموند بأمدادات كبيرة ،  
واستمر فى محاصرة المدينة فأحرق بالجانب الذى ظل مفتوحا منها  
حتى هذه اللحظة ، وبعد بضعة أيام من وصوله تأفف الحجاج لطول  
توقفهم عند المعرة من غير طائل ، فصنعوا أبراجا خشبية ،  
وأرادوا حمايتها فنسجوا لها عصائب من الليف جعلوها جدائل  
كسوها بها ، ثم نصبوا آلات الرمى •

غير أن صبرهم أرفض لطول تأخرهم وضاقوا به ذرعا ،  
وانطلقوا يقصفون المدينة هذه المرة قصفا فاق كل قصف سبقه ،  
فقاومهم المدافعون الواقفون خلف الأسوار مقاومة عنيفة ، بإذلين فى  
ذلك غاية جهدهم ، وراحوا يرمون أعداءهم بشتى صنوف القذائف ،  
حتى إذا يسوا من طرد العدو من تحصيناته راحوا يقذفونه بالحجارة  
وخلايا النحل وهى تشفى به ويرمونهم بالنيران والكلس ، ولكن  
الرحمة الالهية الواسعة لم تمكنهم من أن يوقعوا الضرر - إذ  
وقع - إلا برمط قليل من رجالنا •

تبين الآن بوضوح تام أن جميع جهود المدافعين راحت هباء ، وأن قوتهم أخذت تتضعض مما شجع الصليبيين على أن يشددوا الحصار عن ذي قبل ، وراحوا يقذفون المدينة من كل ناحية ، واستمر الهجوم بلا انقطاع من مطلع النهار الى غروب الشمس ، فذب الارهاق في أبدان المدافعين وأضناهم ما صرفوه من جهد عذيف ، فتراخى بأس مقاومتهم ، وقل عزيمهم ، وحينذاك نصب الصليبيون السلالم على الأسوار فنجحوا في عبور الخنادق بالقوة . وكان أول المتسلقين « جلفيروس » المعروف « بجوفيه » « البرجى » وهو من أشرف أبراشية « ليموجس » وتبعه كثيرون غيره ، فسقطت في أيديهم بعض الأبراج ، ولكن حال دخول الليل دون متابعتهم عملهم والاستحواذ على المدينة بأكملها ، ولذلك أجلوا هذا الأمر الى الغد ، واستعدوا لمعاودة الهجوم مع مطلع الفجر - واستمر الفرسان - ومعهم عدة طوائف من الرجال البارزين - يقومون بمراقبة ما حول المدينة طول الليل منعاً للعدو من مغادرتها .



على أنه حدث في هذه الأثناء أن ضاقت العامة ذريعا بالجهد الطويل الذى بذلوه ، وأضنتهم قسوة المجاعة التى طال أمدها ، فاقتحموا البلد دون علم من كبارهم ، مغتتمين فرصة عدم ظهور أحد من الأعداء على أسوار المدينة التى بدت لهم وقد لفها الصمت المطبق ، فدخلوها ، فإذا هى بلا مدافع عنها ، فامتدت أيديهم الى الغنائم تتهبها ، وانصرفوا خلسة يحملونها معهم ، وكان الأهالى أن ذاك قد فروا الى الخنادق التى تحت الأرض لضمان سلامتهم وحفاظا على أرواحهم ولم الى حين .

ولما طلع الصباح هب القادة واستولوا على المدينة من غير كيد ، ولكنهم لم يجنبوا أسلابة كبيرة يأخذونها معهم ، وتبين لهم

أن الأهالي قد اختفوا في السرايب فأضرموا حولها نيرانا تعالت  
فعدت سحبا كثيفة من الدخان حملت الهارين على الاستسلام ،  
وبقى القتل بعض من اضطروا لمغادرة المخايء ، وأسر سواهم .

ومات في هذا الحصار ولیم أسقف اورانج الطيب الذكر  
المخلص للرب ، الخائف منه .

وبقى الدوق ومن معه في المعرة خمسة عشر يوما ، ثم عاد  
الى انطاكية حيث تطلبت شئونہ الخاصة عودته هذه ، وكان في  
معيته في الرجوع كونت فلاندرز .

- ١٠ -

رأى جودفروي دوق اللورين في هذه الأثناء أن الناس يعدون  
العدة للخروج ، وأنهم دائبو الإصلاح على القادة لمواصلة زحفهم  
شطر بيت المقدس ، غير أنه عزم قبل مغادرته تلك الناحية على زيارة  
أخيه ليسعد بالحديث معه ، ومن ثم خرج مع حرسه الخاص الى  
مملكة بلدوين ، وبعد أن انتشت نفسه بلقائه أياه ، وفرغ من الأمر  
الذى جاء من أجله ، استأننه في الرحيل وانقلب راجعا الى انطاكية  
حيث كان القادة الآخرون في انتظاره ، فلما كان على بعد خمسة  
أميال أو ستة من المدينة استلقت نظره بقعة مخضرة لطيفة يجرى  
بجوارها نبع يتدفق منه الماء عذبا فزاتا ، فترجل عندها عن جواده  
ليتناول طعامه ، وبينما كان رفاقه مشغولين بعمل مثل هذه الترتيبات  
بقدر ما يسمح الزمان والمكان اذا بكوكبة من فرسان العدو تبرز لهم  
فجأة من بين عيدان القصب المتشابكة ، وكانت مدججة بالسلاح من  
رأسها الى أخمص قدميها ، فاندفعت نحو الدوق ورفاقه وهم متعلقون  
حول طعامهم ، فهب الدوق ورفاقه الى سلاحهم قبل أن يصل الترك

اليهم ، ووثبوا على صهوات جيادهم ، ونشب في أعقاب ذلك قتال  
خرج منه الدوق بفضل الرب منصورا ، إذ تمكن من قتل الكثيرين  
منهم ، وأرغم بقيتهم على الفرار ، ثم تابع سيره الى المدينة مظفرا  
منصورا .

- ١١ -

حدث بعد الاستيلاء على المعرة أن شبيب خلاف عنيف بين  
بوهيموند وكونت تولوز الذي اقترح تسليم المدينة المفتوحة الى اسقف  
البارة ، فأبى بوهيموند أن يستجيب لاقتراح ريموند بالتنازل للأسقف  
عن ذلك الجزء من المدينة التي استولى هو بنفسه عليها الا اذا وافق  
الكونت أولا على أن يسلمه الأبراج التي لازالت في قبضته بأنطاكية،  
وانتهى الأمر أخيرا الى انصراف بوهيموند عن القتال في المعرة ،  
وعاد غضبان حنقا الى انطاكية حيث استولى عنوة على الأبراج التي  
كان اتباع الكونت ريموند قد حصنوها ، وكانت لم تزل في يدهم بعد  
أن أخرجوا قسرا منها المدافعين عنها ، واستطاع ( بوهيموند ) بهذه  
الحركة السريعة أن يستولى على المدينة كلها وجعل من نفسه سيدها  
ولا سيد لها سواه .

ولما رأى الكونت أن خصمه قد انسحب مما ترتب عليه أن  
أصبح في قدرته هو وحده أن يقضى في المدينة المفتوحة بما شاء فقد  
أقطعها لأسقف البارة حسب عزمه في الأصل ، ثم شرع في مفاوضات  
الأسقف بشأن حماية المكان من العدو ، وأقام حراسا من الفرسان  
والمشاة قبل أن يكشف الناس (\*) خطته ، فلما كشفوها سخطوا عليه

---

(\*) يقصد الصليبيين .

أشد السخط ، وعمت شكايه بعضهم لبعض من أن القادة يحاولون على الدوام اختلاق معاذير يبررون بها تراخيهم ، وقالوا انه يبدو انهم نسوا تمام النسيان هدفهم الأصلي من أمر حجبهم ، وذلك لأنه ما من مدينة كانت تقع في أيدي الزعماء حتى كانوا يتشاحنون فيما بينهم حولها ويختلفون عن يملكها منهم ، لذلك قام العامة من تلقاء أنفسهم بعقد اجتماع من بينهم أسفر عن قيامهم بتخريب مدينة المعرة حالما يبعد الكونت عنها لأي سبب من الأسباب ، وكان هدفهم من هذا التدمير أن يزيلوا أي عائق يعوق المشروع الذي أقسموا الأيمان على انجازه .

وحدث في هذا الوقت (٨) بالذات أن اجتمع القادة في مدينة الروج الواقعة في منتصف الطريق بين أنطاكية والمعة ، وكان الغرض من اجتماعهم هذا هو النظر في طلبات العسكر الملحة بوجوب متابعة الحج ، وحدث أن تلقى الكونت ( ريموند الصنجيلي ) دعوة لحضور هذا الاجتماع فحضره ، واختلفت آراء القادة كلهم ، وتباينت حول هذا الموضوع تباينا أدى الى عدم وصولهم الى اتفاق مثير أو قرار مفيد بشأنه .

لكن بينما كان الكونت في « الروج » أذا بالناس الذين تركهم في المعرة يفتنمون فرصة غيابه لتنفيذ عزمهم ، فقاموا بهدم الأسوار والأبراج من أساسها رغم معارضة الأسقف ونهيه أيامهم نهيا باتا عن ذلك العمل ، لكنهم لم ينتهوا ، فقد حطموا أسوارها وأبراجها وسووها بالأرض حتى لا يجد الكونت ( ريموند ) عند عودته أي مبرر لتأخير السير مرة أخرى .

---

(٨) كان ذلك في الأسبوع الأول من يناير ١٠٩٩ وتحددتها الترجمة الانجليزية بالرابع منه .



ولما عاد ريموند شجته هذه الكارثة وغمته ، ولكنه ان كان يدرك رغبات الناس فقد رضى للعقل والحكمة فكتب مشاعره ، على حين ظل القوم متمسكين بمطالبهم لا يتزحزون عنها قيد أنملة ، وتضرعوا اليه أن يقوم بما يقرضه عليه واجبه كقائد لعيال الرب فى اتمام الحج الذى كانوا قد بدعوا رحلته ، ثم راحوا يهددونه - ان أبى عليهم ذلك - أنهم عامدون الى واحد من الجند وجاعلوه قائدا عليهم ليمسير بهم فى طريق السيد .

ومما زاد فى بلاويهم تفشى المجاعة فى صفوف الجيش ان ذاك ، ونقص ما عندهم من الطعام نقصا بينا حمل الكثيرون منهم على الخروج على العرف ، فنهجوا نهج الوحوش الكاسرة ان لم يعفوا عن اكل لحوم الحيوانات القذرة ، ويؤكد البعض - وان كان ذلك امرا يكاد العقل لا يصدق - أن حاجتهم الى الطعام النظيف حملت الكثيرين منهم على التردى فى هوة سحيقة اكلوا معها لحوم البشر .

وتفشى الطاعون بين الحجاج أيضا وهو امر لم يكن ثم مفر منه لاضطرار الناس للتسوء الى العيش على الأطعمة الفاسدة القذرة (أن جازت تسمية هذه المأكولات المخالفة للطبيعة بالطعام ) ولم تكن هذه المجاعة القظيمة التى اجتاحت الناس حدثا عابرا لا يلبث أن يزول بعد قليل ، بل ظل القوم عرضة لهذا الوباء لمدة طالت حتى بلغت خمسة أسابيع أو جاوزتها ، كل ذلك وهم مرابطون أمام المعرة يحاولون الاستيلاء عليها .

ولقد هلك أمام هذا البلد طائفة من السراة أصحاب الجاه العريض والرتب السامية ، ولم يكن هلاكهم بسبب أحداث القتال وحده ، بل وأيضا نتيجة لشتى الأمراض ، وكان من بينهم واحد فى شرخ الشباب يبشر طالعه بمستقبل زاه ، ذلك هو « انجراند بن هيچ » كونت سنت بول ان ألم به مرض خطير اودى بحياته .

اضطرب خاطر كونت تولوز - ذلك الرجل البارز العلم - وتبلبل  
شكره ، وتحير لا يرى أى طريق يتحتم عليه سلوكه ، فكم كان ثقيلا  
على نفسه النبؤس الذى ران على أقباعه المعرضين للخطر ، وأحزنه  
موقفهم العصيب ، فقد كانت قلوب القوم - صغيرهم وكبيرهم -  
وهم المعرضون للخطر تصطرم برغبة جامحة لمقابلة الحج ، كما أن  
مطالبهم الدائمة وبكاءهم المستمر وتوسلاتهم الحارة حرمت الكونت  
من أن يذوق للراحة طعما ، ومن ثم فإن أملة فى إيجاد علاج ناجح  
لكل هذه المتاعب حمله على تحديد الخامس عشر من الشهر (٩) موعدا  
لبده زحفهم الى بيت المقدس ، وقد فعل ذلك ارضاء لمطالب الناس  
وبدافع من ضميره رغم يقينه الجازم بعدم رضا الزعماء الآخرين  
أن يتابعوه فى هذا المسلك .

ودفعت ريموند رغبته فى انقاذ القوم من خطر المجاعة الجائحة  
المتزايدة لأن يستعرض أشد رجاله بأسا ، وانتقى منهم طائفة من  
الفرسان وأخرى من المشاة ، واقتحم بهم أرض العدو . أما من  
سواهم فقد تركهم فى المدينة راحيا من وراء ذلك أن يحصل بأى  
ثمن على كل ما هو لازم لتوفير العيش للناس ، ودخل بهؤلاء الرجال  
الأقوياء أرضا للعدو كانت شديدة الخصب ، وأغار على كثير من  
بلداتها الحصينة ، وأحرق بعض أرباضها ، وعاد من هذه الغزاة  
بقطعان كثيرة من الماشية والدواب ، والعديد من العبيد والجوارى ،  
وكميات ضخمة من المأكلا اكتظت بها بطون الجوعى الخماس  
فاكلوا حتى أصابتهم كظة ، كما أصبح فى مقدور ( ريموند دى

---

(٩) المقصود يناير ١٠٩٩ م .

تولوز ) أيضا أن يبعث بجزء وفير من المثونة لمن ظلوا باقين في مدينة المعرة لحراسيتها .



تردد الكونت ( ريموند دى تولوز ) بعد عودته من هذه الغزاة حول الطريق الذى يسلكه ، ذلك لأن الناس عادوا يصيحون من جديد بأن اليوم المحدد للرحيل قد دنا ، ورفضوا أى توان عن الزحف ، ولما كان ريموند موقنا أن القوم فى الواقع على حق فقد شعر أنه لم يعد قادرا على الوقوف فى وجه توسلاتهم ، وإذ ذلك عمد الى اضرام النيران فى المدينة حتى صارت هشيما ، ذلك لأنه أصبح وحده فى جانب الخروج إذ لم يوافقه أحد من الزعماء الآخرين على السير معه ، وغن ثم شرع فى سفره ، لم يصحبه غير أتباعه وحدهم .

ولما لم يكن معه غير عدد ضئيل من الفرسان فقد التمس من أسقف البارة أن يرافقه فى زحفه ، فلم يخيب الأسقف التماسه ولم يرده خائبا فيما طلب ، فعهد بأموره الخاصة الى واحد من كبار النبلاء اسمه « وليم الكوملياكى » تاركا معه سبعة من الفرسان وثلاثين من الجند المشاة ، وقد أدى هذا الرجل ما عهد اليه به باخلاص وصدق عظيمين ، حتى لقد زاد عدد فرسانه السبعة قبلغوا أربعين ، وبلغ مشاته ثمانين أو أكثر ، بعد أن كانوا ثلاثين فقط ، وترتب على مجهوداته هذه أن اتسعت أملاك مولاة اتساعا كبيرا .

خرج الكونت فى اليوم المحدد للسير لم ينتظر أحدا ، وسار فى صحبته مايقرب من عشرة آلاف رجل ، ليس فيهم من الفرسان أكثر من ثلاثمائة وخمسين فارسا ، كما انضم اليه كونت نرماندى وتانكريد ، ومع كل واحد منهما أربعون فارسا ، ورفقة كثيرون من

العسكر والمشاة ، ولم يفارقاه قط فى سيره ، وصانفوا فى طريقهم  
بعد خروجهم وفرة كبيرة من كل مايحتاجونه حتى لم يعودوا فى  
حاجة الى مزيد .

ولما مروا بشيزر وحماة وحمص التى تسمى فى اللغة الدارجة  
« بكاميل » أمدهم حكام هذه الأماكن بالحراس ، وجوزوا لهم أسواقا  
يتم فيها البيع والشراء على أحسن ما يكون للبيع والشراء ، هذا  
بالاضافة الى مبادرة المدن الحصينة والقرى التى مروا بها الى  
اهدائهم الكثير من الذهب والفضة وتزويدهم بالماشية والأغنام ، كما  
قدمت اليهم جميع أنواع المثونة منعا لأيديهم من أن تمتد بالسوء الى  
تلك المناطق ، وأخذت قوة الجيش تزداد يوما بعد يوم ، وتتحسن  
أموره بسبب توفر كل مايلازم العسكر ، كما تمكنوا شيئا غشيا من  
الحصول على أعداد كبيرة من الخيل التى كان نقصها يعود بالضرر  
العظيم عليهم ، فكان حصولهم عليها بالشراء تارة والهدية تارة  
أخرى ، أما الآن فقد صار تحت أيديهم - وقبل التقائهم بالزعماء  
الآخرين - أكثر من ألف جواد صالحة لخدمة الجيش ، لم تكن عندهم  
من قبل .

وبعد سيرهم بضعة أيام فى الطريق الداخلى اتفقوا جميعا على  
العودة الى الطريق الساحلى ، لأنه ييسر عليهم التأكد من وضع  
الزعماء الآخرين الذين كانوا قد خلفوهم وراءهم فى أرض أنطاكية ،  
كما أنه يساعدهم على شراء ما قد يحتاجونه مما تحمله السفن  
القادمة من أنطاكية واللاذقية .

- ١٣ -

جرت أمور الصليبيين طوال سفرهم - منذ مغادرتهم المعرة -  
على أحسن وجه ، ولم يضايقهم سوى أوشاب الناس الذين دأبوا

على الاغارة على مؤخرة الحملة ، وعلى القيام بين آن وآخر بسرقة المرضى والشيوخ الذين لم تسعفهم قوتهم بمجاراتة الجيش فى سرعة زحفه ، فهلك بعضهم ، ووقع البعض الآخر منهم فى الأسر ، ولكن رد الكونت على هذه الهجمات كان عنيفا ، اذ امر الجيش بالزحف بقيادة كل من تانكريد وروبرت دوق نرماندى وأسقف البارة ، أما هو فقد تخلف وراءهم مع رهط من رجاله الشجعان يتريصسون للصوم فى كمين نصبه لهم ، وعزم على أن يتحين اللحظة الملائمة ليهاجم هؤلاء الأوغاد الذين كانوا يتعقبون مؤخرة العسكر الزاحف ، ويقطعون الطريق على كل ضال وشريد منه ، لذلك فانه ماكاد هؤلاء الأشرار يهاجمون المؤخرة على مألوف عاداتهم حتى برز لهم الكونت فجأة من مخبئه ومن حيث لا يدرون ، وهاجمهم مستأصلا شافقتهم ، ثم عاد الى جنده فرحا مسرورا ومعه ما استولى عليه من الخيول ، وما اصابه من الغنائم وطائفة من الأسرى استصحبهم معه ، واذ ذاك تابع الصليبيون سيرهم آمنين غير ملاقين نصبا ، بعد أن أصبح فى حوزتهم الكثير من كل احتياجاتهم الضرورية .

ولم توجد مدينة أو بلدة على يمين أو يسار هذا الاقليم الذى سار فيه الصليبيون الا وبعثت بهداياها الى الجيش وقواده مصحوبة بالتماساتها فى عقد معاهدات صداقة معه ، ولم يشذ عن هذه كلها سوى مدينة واحدة قد اخذت العزة اهلها بالثقة فى عددهم الكبير وحصانة الدفاع عن بلدهم ، فانكروا عقد سوق للبيع والشراء ، ولم يسعوا فى عقد اتفاقية ، واستكبروا أن يبعثوا للقواد بالهدايا ، بل ساروا على التقويض من ذلك كله اذ جمعوا كل عسكرهم وحاولوا عرقلة مسير الحملة ، فلما رأى الصليبيون ذلك منهم اشتد سخطهم عليهم ، وكروا عليهم كرة رجل واحد ، وما لبثوا غير قليل حتى فرقوا صفوفهم واسروا جماعة منهم ، واستولوا على المكان عنوة ،

وساقوا أمامهم ما وجدوه من قطعان الدواب والأغنام والخيول التي كانت في المراعى المجاورة ، وغنموا كل ما للعدو من متاع .

كان مع الجيش في هذه الأثناء رسل من بعض الحكام المجاورين الذين جاءوا ينشدون السلام فشاهدوا بأنفسهم قوتنا وأقدامنا ، فعادوا الى بلادهم وهم يرجون السلامة لساناتهم الذين أوفدوهم ، وقصوا عليهم ما رأوا من عادات الصليبيين وبسالتهم ، ثم ما لبثوا أن رجعوا على جناح السرعة الى الجيش الصليبي محملين بالهدايا من الجياد وشمى أنواع السلع .

وانقضت عدة أيام أمضاها الجيش آمنا في عبور هذه المنطقة الوسطى ، ثم نزل بعدها سهلا قريبا من البحر ، قد حصنته الطبيعة احسن تحصين ، وبه مدينة قديمة العهد اسمها « عرقة » ، ف ضرب الصليبيون معسكرهم قربها غير بعيدين عن أسوارها .

... ١٤ ...

وعرقة هذه هي إحدى مدن ولاية فينيقية ، وتقع على مرتفع شديد المناعة عند سفح جبل لبنان ، وتبعد عن البحر مسافة أربعة أو خمسة أميال ، ويمتاز السهل الفسيح الذي توجد فيه بخصبه وكثرة خيراته ، ومراعيه الفسيحة الرائعة ، كما تكثر به القنوات المائية ، وتقول الروايات القديمة ان اسمها مشتق من اسم مؤسسها « اراديوس » سابع أبناء كنعان ثم تحرف هذا الاسم في وقت متأخر الى Archis أرخيس .

نصب الصليبيون — كما قلنا — معسكرهم أمام هذه المدينة ، ولم يكن ذلك منهم اعتباطا ولكن نزولا على نصيحة تضمنتها الرسائل

التي بلغت من بعض قومنا الذين كانوا في أسر العدو ، فقد كان هناك رهط من الصليبيين عوقوا رغم انهم في مدينة طرابلس الساحلية الرائعة التي تبعد مسافة خمسة أو ستة أميال عن عرقة ، ذلك أن قلعة الميرة عند الصليبيين منذ بداية حصار مدينة أنطاكية حتى زمن متأخر بعد فتحها فرضت على هذا النفر ( من الصليبيين ) الضرب في أرياض تلك النواحي التماسا للطعام ، ولما كانوا لا يأخذون حذرهم في خروجهم فقد كان من الطبيعي أن يكونوا عرضة للوقوع في يد العدو ، وترتب على ذلك أنه ما من مدينة أو قلعة في تلك الناحية الا وكان بها من رجالنا نفر من الأسرى الذين كان منهم في مدينة طرابلس - التي ذكرناها حالا - أكثر من مائتي أسير ، فلما سمعوا أن جيش الصليبيين أخذ في الاقتراب بعثوا الى القادة يحذرونهم ان تفوتهم عرقة ، بل يتحتم عليهم حصارها بكل السبل ، إذ من اليسير عليهم الاستيلاء عليها في أيام قلائل ، والا ففى مقدورهم أن يستخلصوا من وإلى طرابلس مبلغا كبيرا من المال ثمنا لمجاوزتهم مدينة عرقة دون اخذهم اياها ، كما أنهم يستطيعون حين وضعهم شريطهم أن يخلصوا من بها من اخوانهم المعتقلين ، ونفذ الصليبيون هذه الوصية فزحفوا في الحال على مدينة عرقة ، وضربوا مخيماتهم حولها ، وشرعوا في حصارها ، واضعين نصب أعينهم أمرين : أولهما معرفة مدى صحة الخبر الذي جاءهم ، وثانيهما أن يشغلوا انفسهم بشئ ما اثناء انتظارهم بقية الزعماء الذين كان من المتوقع حضورهم سريعا في أعقابهم .

غادر المعسكر مائة فارس وطائفتان من المشاة تقدران بمائتي رجل بقيادة « ريموند بيليه » سعيا وراء حاجات المعيشة الضرورية ويحثا عن العلف ، فلجوا في السير وابتعدوا حتى بلغوا

مدينة « انطرسوس » (١٠) المعروفة عادة باسم طرسوس والتي تبعد عن عرقة مسافة عشرين ميلا .

وتقع « انطرسوس » أو « Tortosa » « طرسوس » على ساحل البحر ، ويوجد على بعد ميلين تقريبا منها جزيرة صغيرة كانت بها في الأزمنة الموعلة في القدم مدينة « أرواد » (١١) القديمة التي ذاعت شهرتها على مدى عدة عصور ، ويشير حزقيال (١٢) الذي الى هذا المكان حين يكتب الى أمير صور فيقول : أهل صيدون وأرواد كانوا ملاحيك ، ويقول في موضع آخر (١٣) : « بنو أرواد مع جيشك على الأسوار من حولك ، والأبطال كانوا في بروجك » .

وقد استمد المكان الذي هو موضوع كلامنا الآن اسمه من المدينة القديمة التي كانت تدعى « انترادوس » لأنها كانت واقعة مقابل

---

(١٠) وردت هذه المدينة في الترجمة الانجليزية باسم Antarados ثم وُضع المترجمان مرادفا آخر لها هو Tortosa وبالرجوع الى فهرست المدن الملاحق بكتاب :  
Le Strange : Palestine under Moslems, P. 562, Vol. I,  
P. 602, Col. 2.

نجد أنه وردت المرادفات التالية :  
Antaratus, Antradas, Antarsus & Tartus

وقد أشير اليها كلها بكلمتي « انطرسوس » وانطرطوس .

(١١) جزيرة « أرواد » - وتعرف أيضا باسم « رواد » - وأرادبوس Araddus وقد ورد ذكرها في سفر حزقيال كما سيورد ولیم حالا وهي واقعة ( كما يقول الديرسي القرن الثاني عشر ) على مقربة من « أنطرسوس » ، انظر Le Strange : Op. Cit., PP. 398 — 400.

(١٢) حزقيال ٢٧ : ٨ .

(١٣) حزقيال ٢٧ : ١١ .



المدينة الأخرى « ارواد » وكل من المكانين فى ولاية فينيقية ومؤسسهما  
واحد هو « ارادبوس » أصغر أبناء كنعان بن حام بن نوح .



كانت الفصيلة من جيش الكوث المشار اليه حالا قد تقدمت الى  
انطرسوس وهاجمتها اعنف هجوم ، فقاومها المواطنون بروح عالية  
فلم يسعف هذا الهجوم الصليبيين فى الحصول على كثير مما كانوا  
يأملون من ورائه ، ذلك لأنهم رأوا - وقد دخل الليل - أن يرجئوا  
كل عملياتهم الحربية الى صباح الغد حين ينضم اليهم رفاقهم الذين  
سوف يأتون فى اثرهم فى اليوم التالى ، مؤملين أن تكون هجمتهم  
التالية يومذاك اقوى مما عليه هجمتهم فى يومهم هذا ، غير أن  
الخوف تسرب الى قلوب اهل البلد وخافوا ان وصلت الامدادات الى  
عدوهم تحت جنح الظلام أن يصبحوا هم عاجزين عن المقاومة ، غير  
قادرين على الصمود ، ومن ثم تسربلوا بالظلام وحملوا نساءهم  
وأطفالهم وكل ممتلكته ايديهم وفروا الى الجبال يلتمسون فيها  
الامان .

ولما بدت طلائع الفجر الوليد حمل الصليبيون سلاحهم ، وهم  
لا يدرون شيئا عما جرى من الأحداث تحت جنح الدجى ، وراح كل  
واحد منهم يصيح بصاحبه منتشيا ، وزحفوا على المدينة لاتمام  
هجومهم الذى بدأوه بالأمس ، غير أنهم لما قاربوها رأوها خاوية  
على عروشها فدخلوها وقد زابتهم الرهبة ، واقتحموها بقلوب  
شجاعة لا تحس خروفا ، وأسعدهم الحظ ان عثروا على كميات ضخمة  
من المثونة والغنائم ، وانقلبوا الى خيامهم فرحين بما أصابته  
ايديهم ، وقصوا على رفاقهم كل ما جرى لهم اثناء غيابهم عنهم .  
ولقد اترع نجاح هذه الحملة قلوب الجيش كله بالفرح الطاغى .

وأهل شهر مارس فاقترب اليوم المقسوم لمتابعة رحلة الحج ،  
وإن ذلك شـرع من كان قد تخلف فى أنطاكية من الصليبيين فى  
الضغط الشديد على الزعماء لجعلهم على بدء السفر ، وراحوا  
يلحسون على « جودفروى » دوق اللورين وروبرت كونت فلاندرز  
والقائد الآخر<sup>(١٤)</sup> أن يتهيئوا للخروج وقيادة الناس الذين أمضهم  
الشوق للوفاء بأيمانهم التى قطعوها على أنفسهم<sup>(١٥)</sup> ، ولهجت  
السنتهم بالثناء على ما عليه كونت تولوز ودوق نرماندى وتانكريد  
من اخلاص راسخ ، وأظنوا فى مدح ما أبداه هؤلاء القادة من  
العطف على شعب الرب حين قادوه أياما طويلة قيادة صادقة فى  
طريق السيد . وقد أثارت هذه الكلمات وأمثالها خامد همة القادة  
الذين ذكرناهم حالا ، فسررتهم للعمل ، فأخذوا فى اعداد متاعهم  
وكل ما يحتاجه سفرهم هذا ، واستصحبوا معهم جميع الفرسان  
والجند المشاة ، وقد فاضت نفوس الجميع بالرغبة العارمة فى  
السير فى الطريق المؤدى الى بيت المقدس ، فلمّا كان  
اليوم الأول من مارس ، تجمع فى اللانقية بالشام خمسة وعشرون  
ألف محارب فى أحسن عدتهم الحربية تحت قيادة الزعماء المذكورة  
أسمائهم من قبل ، ورافقهم بوهيموند وجيشه حتى اللانقية ، ولم  
يستطع مزاملتهم الى ما بعدها ، أو اطالة مكثه فى ذلك الموضع حتى  
لا يترك أنطاكية - التى استحوذ عليها منذ قريب - من غير راع  
قوى ، إذ ما كان لها أن تظل ولو لفترة وجيزة بلا حام لها ، يدفع

(١٤) المقصود بكلمة « الآخر » هنا الكونت ريموند الصنجيلى ، كما  
سيرد بعد قليل .

(١٥) يقصد بذلك ما كانوا قد تعاهدوا عليه من الخروج والزحف الى  
بيت المقدس والوصول الى كنيسة القيامة .

عنها غائلة الأعداء (١٦) المحيطين بها من كل جانب ، لكن تذكره محالفته الزعماء الآخرين وروابط الصداقة التي قامت بينه وبينهم وهم جميعا فى طريق السيد دعاه الى مرافقتهم حتى اللاذقية ، مخلصا لهم كل الاخلاص ، ومبديا تجاههم كل ضروب المجاملة والركة ، مما عمق ذكراه على الدوام فى نفوسهم حتى بعد افتراقهم بعضهم عن بعض ، فلما بلغوا جميعا اللاذقية فارقهم ، وودع الزعماء بكبد تنفطر أسى وعيون دامعة ، ثم استأذنهم فى الرحيل وعاد ليولى المدينة صادق عنايته .



واللاذقية من أجمل المدن الساحلية المطلة على البحر ، وهى ذات تاريخ موغل فى القدم ، وسكانها من النصارى ، كما أنها المدينة الوحيدة بالشام الخاضعة لسيادة الامبراطور الاغريقى ، وقد جاءها واحد اسمه « جينمار » من أهل بولونيا ، وكان قد أرسى كما ذكرنا من قبل (١٧) بأسطوله فى مدينة طرسوس من أعمال قيليقية وقت أن كان بلدوين - أخو الدوق جودفروى - يحتل هذه المدينة .

وقد فشل جينمار « فى محاولته الاستيلاء على اللاذقية وادخلها فى طاعته لعدم توفر القوات الكافية تحت يده اذ ذلك ، قامسك به أهل البلد وزجوا به فى الحبس مع جميع من معه تقريبا .

---

(١٦) اذ كانوا يعدون انطاكية هذه الملحظة تابعة لهم ، وكانوا يتوقعون أن يردها الصليبيون اليهم بعد فتحهم اياها تنفيذا للاتفاق المبرم بين الطرفين ، انظر ترجمتنا لكتاب الكسباد للاميرة « أنا كرمينا » ، وراجع أيضا Chalandon, Alexius Commènes I.

(١٧) راجع ص ٢٤٤ من الجزء الاول من ترجمتنا هذه .

فالتمس الدوق جودفروى من الحاكم ووجوه رجاله ان يطلقوا سراح «جينمار»، وكان الدافع له الى ذلك ان جينمار هذا كان قادما (١٨) من أرض جودفروى ، هذا بالإضافة الى ما أداه من خدمة جليلة لأخيه بلدوين فى طرسوس ، فاستجاب أهل اللاذقية للدوق اذ كانوا لا يجرون على مخالفة كلمة واحدة مما يقول ، وزادوا فمنا على أسيرهم جينمار بفك سراحه هو وجميع رفاقه ، كما أسلموا الى الدوق الأسطول الذى جاء فيه هؤلاء الناس ، فبادر جودفروى بإعادة جينمار فى لحظته هذه الى قيادة سفنه ، وأشمار عليه أن يتابع رحلته بحرا فى خط يوازى تقدمه هو ذاته برا ، فاطاعه جينمار فيما أشار به عليه .

## - ١٧ -

خرج الجيش بعدئذ من لاذقية الشام وقد اشتد بأسه بالمسيحيين من أهل تلك المدينة ، كما جاء غيرهم من أنطاكية وقبليقية ومدن تلك الناحية ممن لم يكونوا قادرين من قبل على المغامرة لأمر كانت تشغلهم ، فانضموا هم أيضا الى الجيش وساروا برا مصاقدين للساحل حتى بلغوا مدينة « جبلة » المعروفة أيضا باسم « جبلين » والواقعة على بعد اثنى عشر ميلا من اللاذقية ، فعسكروا متحلقين حول المدينة وشرعوا فى عمليات الحصار فترة من الوقت .

وإذ كانت هذه هى أولى المدن الساحلية الخاضعة لنفوذ خليفة مصر ، فقد جاء واليها بصحبة نائبه الى الدوق يعرض عليه ستة آلاف قطعة من الذهب ، الى جانب العديد من الهدايا ان رفع الحصار عن المدينة ، لكنه لما رأى ازدياء جودفروى لعرضه الخسيس

---

(١٨) انظر الحاشية السابقة ، ص ٢٤٤ ، ن ٤ من الجزء الاول .

وأنه ليس بالرجل الذى يقبل الرشوة فقد سلك طريقا آخر ، اذ ارسل مبعوثين من قبله الى كونت تولوز لما يعرفه فيه من الطمع ، وعرض عليه نفس القدر من المال ان هو انتزع المدينة من يد الدوق ، ويقال ان الكونت قبل هذه الرشوة سرا ، لكنه ادعى أن جيشا كثيفا من عسكر العدو بقيادة كربوغا موشك على المجيء من أرض فارس ، انتقاما للأهوال التى حافت ببنى جلدتهم الموجودين فى انطاكية ، كما ادعى أنهم يتأهبون لمعاودة قتال قواتنا من جديد ، وعلى مجال اكبر من حربهم السابقة ، وزعم ( ريموند كونت تولوز ) انه تلقى هذه المعلومات المفصلة والموثوق بها من رسل لايمكن الشك فى صدق ما يقولون .

ثم بعث بأسقف « البارة » الموقر على رأس سفارة الى الدوق والى كونت فلاندرز ، وأرسل معه كتباً تلح عليهما التحا قويا برفع الحصار عن « جبلة » والاسراع لدرء الخطر المشترك بدافع ما بينهما من الحب الأخرى ، فما كاد القادة يعلمون من ظاهـر الأمر أن اخوانهم مهددون بمثل هذا الخطر حتى بادروا بحسن نية الى فك الحصار والزحف فى الحال ، وأسرعوا فى سيرهم فاجتازوا بفالينيا إحدى المدن البحرية الواقعة تحت حصن المرقب ، ثم ساروا فى « مراقية » وهى أول مدينة فينيقية يصادفها القادم من الشمال ، ثم وصلوا بعد ذلك الى انطربوس المسماة أيضا طربوس فى الاقليم المذكور أعلاه ، والواقعة هى الأخرى أيضا على ساحل البحر . فابصروا المكان مقفرا من أهله ، ثم أعجبتهم جزيرة مجاورة فى مواجهة المدينة من الناحية الغربية ، وقد رست بعض سفننا فى إحدى المرافئ الملائمة ، واستفاد الصليبيون اذ سلكوا أقصر الطرق من طربوس حتى أصبحوا بعد أيام قلائل بكامل جيشهم أمام أسوار « عرقة » فهب تانكريد لاستقبالهم ، وشرح للزعماء كل تفاصيل

خيانة الكونت ، فلما فرغوا من الانصات الى ما قاله تانكريد نصبوا معسكرهم على حدة ، وعلى مسافة بعيدة بعض الشيء من معسكر القوات التى سبقتهم .

سرعان ما تبين للكونت تغير قلوب الزعماء الآخرين عليه ، فراح يصلهم بالهدايا ويبذل الجهود الكبيرة لاسترضائهم ، ومالئث أن استمالهم اليه بهداياه التى أصلحت ذات البين بينه وبينهم ، ولم يشذ عنهم فى ذلك سوى تانكريد الذى لم يكف عن رمى الكونت بكل تهمة نكراء .

على أن جميع القوات أصبحت الآن حول عرقة متحدة كجسم واحد .



كان الكونت ( ريموند ) قد أعد كل عسكريه أمام هذه المدينة قبل وصول الدوق ببضعة أيام ، فلم تأت جهوده هذه كلها ثمرتها المرجوة بل ضاعت هباء ، غير أن مجيء القادة الآخرين فتح له باب الأمل فى الاستيلاء على المدينة فى يسر وسهولة ، وفى الوصول الى الغاية المنشودة من جراء هذا الحصار المزهق ، بيد أن الخاتمة جاءت على غير ما كان يطمع فيه ، ذلك لأن الرب كان قد أمسك رحمته عن خطة الصليبيين قبل وصول هذه القوات وبعد وصولها ، فلطالما اغاروا على المدينة لكن بلا جدوى ، فتفتنوا فى ابتداع وسائل يضايقون بها المحصورين كنقبهم السسور ، لكن ما كان أكثر العقبات التى اعترضت طريقهم فأنهبت مساعيهم أدراج الرياح ، واتضح لهم أن العناية الالهية تخلت عنهم فى حصارهم هذا لمرقة ، وأدركوا أن

من هلك من رجالهم انما هلك من غير طائل ، وان السراة الامجاد  
الذين ضحوا بحياتهم انما ضحوا بها من غير فائدة .

وشاء الحظ العاثر ان يلقى نفس هذا المصير اثنان من ذوى  
الشرف الصاعد فيهم ، فاما احدهما فهو « انسلم دى بيمونت » وكان  
اخ غمرات لا يهدأ عن خوض غمار الحرب فاستحق خلود الذكر ،  
واما الآخر فهو « بونس دى بلازون » الرقيق القدر واحد اصدقاء كونت  
تولون العالى المنزلة ، وقد لقي هذان مصرعهما من قذيفة حجر  
اصابتها ، ون يادة على ذلك فقد عوق الناس فى عرقة رغم انوفهم ،  
لان رغبتهم الوحيدة كانت تتمثل فى اتمامهم الحج الذى نهضوا من  
اجله ، ولم يعد يعنينهم امر حصار البلد ، ولا يهتمهم ماذا تكون نتيجته ،  
لاسيما بعد وصول الدوق ، حتى ان اتباع الكونت واصدقائه الخالص  
ممن جاءوا فى معيته قد اقاموا هناك على كره منهم ورغم ما تمليلهم  
ضمائرهم ، ولم تكن اقامتهم هذه الا طاعة لمشيئة الكونت القوية ،  
حتى انتهى الامر بهم اخيرا الى ان دبوا خطة انسحابهم ، مؤملين  
من وراء ذلك ان يشاطرهم الكونت ضسجرهم فينهج نهج القادة  
الآخرين ويقتفى اثرهم فى زحفهم فى طريق السيد .

## - ١٨ -

فى هذه الاثناء اثير من جديد موضوع الحرية التى عثروا  
عليها فى انطاكية ، وتساءلوا : احقا هى الحرية التى فجرت الدم  
والماء عن جنب المسيح ؟ ام ان الامر كله مجرد خدعة ؟ وتشكك  
الناس فى الخبر ، بل وتبلبلت خواطر القادة فالكذ البعض انها كانت  
نفس الاداة التى اخترقت جنبه ، وهو مرفوع على الصليب ، وما  
كان كشفها الا لان العناية الالهية قد ارادت ان تشد عزائم الناس ،

وقال آخرون بل هي برهان صريح على خبث الكونت وانها حيلة احتال  
بها لخدمة مآربه .

كما قالوا ان المؤلف الحقيقي لهذه القضية التي صارت مثار  
جدل انما هو رجل اسمه « ارنولف » وكان صديقا واشبيننا لكونت  
نرماندى ، وكان يحيا حياة فاسقة شهوانية ، ويجد اللذة فى اثارة  
النزاع بين الناس على الرغم من انه كان رجلا عالما ، وسيرد الكثير  
عنه فى الفصول التالية .

ولقد ظلت هذه المسألة موضع جدل طويل بين الحجاج حتى  
انتهى الأمر أخيراً بقيام بطرس ( بارتلميو ) الذى زعم انه قد أوحى  
اليه بخبر الحرية ، وسأل القوم أن يوقدوا نارا كبيرة ، وقال لهم  
انه بعون الرب سيبدد شكوك المتشككين عن طريق التحكيم الفعلى  
للنار ، وأن ليس فى الأمر شيء من الاحتيال ، وسيؤكد لهم - رغم  
ظنونهم - أن الوحي الالهى هو الذى كشف عن هذه الحرية : عزاء  
للناس وسلوى لهم .

ومن ثم أوقدت نار عظيمة أثارت حرارتها خوف الواقفين  
حولها ، وكان ذلك يوم الجمعة السابق لعيد القيامة المجيد ، وفى  
هذا اليوم الذى نقرأ عنه أن مخلصنا تعذب فيه من أجل خلاصنا  
اجتمع الناس قاطبة : عامتهم وخاصتهم ، صغيرهم وكبيرهم ،  
ليشهدوا التجربة الحية بشأن هذا الموضوع الهام ، فتنطرح لدخول  
هذه التجربة الشديدة الخطورة الرجل المدعو «بطرس بارتلميو» ،  
وكان خوريا قليل الحظ من التعليم ، قد أجمع الناس على سداخته  
واخلاصه ، فتوجه بالخطاب أول ما توجه الى الجنود الذين تجمعوا  
حولہ ، وتقدم حاملا فى يده حرية المسيح ، واقتحم النار فاجتازها  
ولم يبد للناظرين أن قد مسه ضرر ولا حاق به أذى .



غير أن عمله هذا لم يفضل فحسب في إزالة الشك من عقول الناس ، بل أنه أثار مشكلة أكثر خطورة ، إذ ما لبث بطرس هذا أن مات بعد أيام قلائل ، مما حدا ببعض لأن يعلن أن تجربة النار هذه أدت إلى هلاكه قبل أن يحين أجله ، وأنه كان سبب دمار نفسه لمعاونته على التدليس ، ودلل هذا البعض على صدق ما يقولون بأن مظاهر الصحة والقوة كانت بادية عليه قبل دخوله هذه التجربة .

وادعى آخرون أنه خرج من النار سالما معافى ، ولكن حدث أن حمس الناس فاندفعوا اندفاعا قويا نحوه وتكاثروا عليه ، فأصابه منهم أذى أفضى إلى موته .

وهكذا فإن الموضوع الذى شب حوله الجدل لم يحسم فيه برأى قاطع ، بل بقى على النقيض أكثر من ذى قبل .

## - ١٩ -

فى غضون هذا الوقت عاد إلى زعمائنا المبعوثون الذين كانوا قد أوفدوهم استجابة لرجاء الرسل المصريين الذين بهتهم - كما ذكرت من قبل - خليفة مصر أثناء حصار أنطاكية ، ولقد ظل رسلنا هؤلاء فى ذلك القطر مدة عام قسرا وحيلة ، فلما عادوا عادوا ومعهم رسل من أمير المصريين مزودين برسائل يختلف فحواها هذه السنة اختلافا بيّنا عن فدوى ما تضمنته الرسالة السابقة ، ففى خلال فترة هذا العام بذلوا أشد الجهد وأصدق لاعتساب ود قادتنا ، راجين وقوفهم إلى جانبهم ضد غطرسة الترك وعنجهية الفرس المتناهية ، أما الآن فقد تغير ذلك كله تمام التغير ، وراحوا يلوهون بأنهم يسبقون فضلا كبيرا على الصليبيين حين يأذنون للحجاج غير

المسلحين بالذهاب الى بيت المقدس في زمر تتألف كل واحدة منها من مائتين أو ثلاثمائة حاج ، ثم يعودون سالمين بعد اتمام حجهم .

غير أن قادة القوات الصليبية عدوا هذه الرسالة اهانة لهم ، وأرغموا المبعوثين ( المصريين ) على العودة حاملين الرد بأن الجيش لن يرضى بالذهاب الى هناك في فئات قليلة حسب هذه الشروط التي اقترحتها مصر ، بل انهم على العكس سوف يدخلون القدس كجيش موحد ويهددون مملكة مولاهم .

كان السبب الذي أدى الى تغير موقف المصريين قد نشأ مما جد بعد انتصارنا في أنطاكية ، إذ كان الترك حينذاك يمرون بظروف حرجة ، مظهرها تزعزع قواهم الحربية في كافة أرجاء الشرق ، وتدهور سمعتهم الى الحضيض بعد أن كانت قد بلغت الذرى ، فما حاربوا أمة من أهم الأرض الا ودارت عليهم الدائرة ، مما ترتب عليه تصاعد قوة ملك مصر شيئا فشيئا وعلو نجمه على نجم الترك ، ثم ما لبثت جهود أمير معين لهم هو ( الأفضل ) القائد العام للجيش المصرى أن أدت الى سلب مدينة بيت المقدس من أيدي الترك بعد أن كانوا قد انتزعوها من المصريين قبل ذلك بثلاثين سنة .

حينذاك رأى المصريون تدهور قوة خصومهم الترك بعد أن كان العرب يداخلهم منها ، باعتبارها تفوق قوتهم ، ويرجع السبب في هذا التدهور الى ما قام به الصليبيون من عمل أدى الى سقوط بأس الترك الى الحضيض ، ومن ثم كان هذا سببا في انسراء المصريين للمساعدة تأتيهم من جانب قومنا ، بعد أن كانوا حريصين كل كل الحرص عليها ، جادين كل الجد في طلبها .

كذلك قدم رسل من قبل امبراطور القسطنطينية يشكون من الشكوى من مسلك بوميموند، ويعلمون أنه خالف شروط الاتفاق الذى كان قد أبرمه مع الامبراطور ، حين أعلن عزمه على الاحتفاظ بأنطاكية ملكا خالصا له ، وبذلك يكون قد حثت يمين الولاء الذى قطعه على نفسه ، ووقف هؤلاء الرسل وسط الزعماء معلنين أن جميع من مروا عبر القسطنطينية قد أدوا يمين التبعية لمولاهم ، وأنهم قد انقسموا وأيديهم على الكتب المقدسة ألا يستبقوا لأنفسهم قلعة أو مدينة كانت تابعة من قبل للامبراطورية ، حتى ولا القدس ذاتها ، وكذلك جميع الأماكن التى يستولون عليها الا ردها فى الحال الى الامبراطور يدير بنفسه شئونها ، ثم سكت المبعوثون ( الاغريق ) عن غير هذا من شروط الاتفاق .

ومن الجلى الواضح أنه كان قد تم مثل هذا الاتفاق بين الامبراطور والقادة فى القسطنطينية ، على أنه فى ختام هذا الاتفاق اضعف شرط ينص على أن الكسيوس سوف يلحق بهم من غير توان بكل بطانته ، وبقوة كبيرة من عسكره ، وأنه عمدهم ومعينهم بما يكونون فى حاجة اليه ، لذلك رد القادة بإجماع الآراء على مطالب السفراء بأن الامبراطور هو أول من شجب الشروط التى اتفق عليها ، وعلى ذلك فالواجب الذى ليس غيره من واجب هو أن يتحمل خسارة ما كان يحق له حسب شروط الاتفاق ، إذ لا عدل فى الوفاء بعده مع شخص سلك مسلكا مناقضا للعهد الذى نص فيه على أن يلتزم الامبراطور بجمع جيوشه والسير فى اثر القادة حالا فى زحفهم ، وأن يهيئ فرصة دائمة للحجاج للمتاجرة مع السفن القادمة بحرا ، وأن يعمل على تقديم وفرة من السلع للبيع لهم جميعا طوال سيرهم ،

ولكنه تجاهل عن عمد هذه الشروط ولم يف بها رغم أن الوفاء بها كان يسيرا عليه . ومن ثم فإنهم يصبون أن يقرروا له أن الاجراء الذى اتخذه بشأن ائطاكية يجب أن يعتبر قرارا نهائيا لا رجعة فيه ولا نكوص عنه ، لأنهم لم يفعلوا الا ما تجيزه لهم حقوقهم ، يضاف الى ذلك أن تنازلهم عن ائطاكية بمحض ارادتهم لمن ارتضوه اميرا لها يجعله حريا بتملكها وتوارثه اياها للأبد .



ولقد بذل رسل الامبراطور جهودا شاقة رجاء حمل الجيش على انتظار حضور مولاهم الذى سيكون يوم أول يوليو ، واضافوا الى ذلك قولهم انه سوف يصل كل الزعماء بالهدايا الجمّة ، وسيصرف أجورا مجزية للعسكر تمكنهم بلا شك من أن يعيشوا عيشة شريفة ، لذلك عقد الزعماء مؤتمرا لبحث هذا الموضوع ، لكنهم اختلفوا حوله اختلافا جديا فيما بين بعضهم والبعض الآخر ، فكان من رأى كونت تيلوز أن صالحيهم يقتضيهـم انتظار قدوم الأمير الكبير ( الكسيوس كومنين ) ، وراح الكونت يعرض هذه الفكرة ، وربما كان صادرا فى ذلك عن ايمان بها ، أى ربما كان بهذا الادعاء يحاول تعطيل القادة والجند حتى يفرغ من غزو المدينة التى كان لايزال يحاصرها ، اذ كان يدرك مدى العار الذى يلحقه والشانار الذى يمسّه ان لم ينجح فى مشروعه ، أو عجز عن الاستمرار فى تنفيذه .

وكان هناك آخرون يرون رأيا يخالف هذا الرأى كل المخالفة ويعتقدون انه من الأصوب الا يتأخر الحجاج عن مسيرة حجهم التى بدأوها ، فتمامها يؤدى فى النهاية الى خاتمة موفقة للمشروع الذى تحمّلوا المشاق الجمّة من أجله ، وكان قرار هذا الفريق الثانى قائما على تجنب حيل الامبراطور الماكرة وكلماته المعسولة التى جربوها

طويلا ، وأن قرارهم هذا أجدى عليهم من أن يلقوا بأنفسهم من جديد  
فى مناهات مراوغاته الماكرة التى قد يجدون من الصعب تخليص  
أنفسهم من حبالها أن هم سقطوا فيها .

ولقد نجم نزاع بين القادة حول هذا الموضوع ، إذ كانت  
رغباتهم متباينة يستحيل التوفيق بينها .

وكان والى طرابلس قد عرض من قبل قدرا كبيرا من المال  
على الصليبيين ، عساهم يرفعون الحصار عن بلده ، وينزحون  
بقواتهم ، أما الآن - وقد علم بالخلاف الناشب بين قادة الجيش -  
فانه لم يكتف بالتراجع عن حدهم بالمال الذى كان قد تعهد لهم به ،  
بل زاد فسارح لأن يكون البادئ بمحاولة مواجهة الصليبيين وتجربة  
حظه فى محاربته أياهم .

لكن ترتب على ذلك أن أجمعوا بلا استثناء على النهوض لقتاله ،  
فخرجوا وقد خلفوا وراءهم لحماية المعسكر ( فى عرقة ) أسقف  
« البارة » ومعه بعض من الزعماء المتمرسين بفنون الحصار . أما  
بقيتهم فقد صفوهم للمعركة وزحفوا بهم شطر طرابلس ، فوجدوا  
والىها فى انتظارهم هر وأهلها ، فاخذت الحماسة الفرسان والمشاة  
أن أخذوا أماكنهم أمام المدينة متاهبين لقتالها ، أما كونت تولوز فقد  
ظل أكثر من شهرين متتاليين يحاول عبثا الاستيلاء على عرقة فلم  
تجده محاولته هذه نفعا ، بل راح الطرابلسيون ينظرون الى  
الصليبيين نظرة ازدراء ، وأخذ خوفهم منهم يتناقص شيئا فشيئا ،  
وتلاشى ما كانوا يظنونونه من شجاعة هؤلاء القوم ، لاسيما وقد قامت  
البيئة على انحرافهم عن العزم القوى الذى كانوا يظهرونه .



ولما بلغ الصليبيون طرابلس وأبصروا قوات العدو وقد أعدت صفوفها لقتالهم بادروهم فى الحال بكرة غازية ، أدت منذ اللحظة الأولى الى بث الفوضى فى معسكرهم وحملوه على الفوار ، كما أن اصرار الصليبيين القوى أرغم الأمالى على الهروب الى المدينة يرتجون الاستخفاء بها ، ولكن الصليبيين لم يكفوا عن مطاردتهم حتى قتلوا منهم سبعمائة شخص ، ولم يفقد من معسكرنا غير ثلاثة رجال أو أربعة ، وهذا كان الاحتفاء بعيد الفصح يوم ١٠ ابريل .

- ٢١ -

ثم عادوا الى معسكرهم بعد أن واثم النصر ، واذ ذاك بادر الناس قاطبة لرفع صوتهم عاليا مطالبين بوجوب تخلى القادة عن هذا الحصار المدمر ، وبضرورة البدء بالسسير الى بيت المقدس ، فالكل مشوق للزحف ، وقد أتى هذا الاصرار العنيد أكله المرجوة حين قرر الدوق وكونت فلاندرز وكونت نورماندى وتانكريد تقويض المعسكر وحرقه ارضاء للجماهير ورفع الحصار عن عرقه ، غير أن كونت تولوز رفض رفضا باتا التخلي عن خطته ، وراح يبذل غاية جهده فى مقاومة ما قرره الزعماء ، بيد أنهم ضربوا بمعارضته عرض الحائط ، ومضى الزحف فى طريقه شطار طرابلس لتعاود مسيرة الحج ما انقطع منها ، وكان من أكبر المتحمسين لتنفيذ هذا القرار رهط كانوا منذ البداية فى معسكر ريموند ( كونت تولوز ) لكنهم انفصلوا عن صاحبهم وساروا متحمسين وراء القادة الذين ذكرناهم حالا .

ولما تكشف للكونت ما فعله أصحابه ، وأدرك فشل كل ما يبذله لهم من وعود لصرفهم عن المسير ولارجاعهم اليه لم يجد بدا من الخضوع للضرورة. وما يفرضه الواقع ، فتتبع الآخرين ولكن على

كره منه ، وسار وساروا حتى اذا صاروا على بعد خمسة أميال  
تربيا من مدينة طرابلس نصبوا خيامهم امامها ، فتخلى حاكم المنطقة  
الموكرل اليه النظر فى شئون الخليفة بها عن مسلكه المتعجرف الذى  
اظهره قبل ذلك الوقت بقليل ، حين حاول أن يتعامل مع قوادنا معاملة  
النند اللند ، فترسل سفارة لاجراء مفاوضات الصلح وعرض خمس  
عشرة ألف قطعة ذهبية الى جانب هداياه من الحياض والبغال والحرير  
والاوانى الغالية الثمن ، كما وعد برد جميع الأسرى الصليبيين  
الذين كانوا رهن قبضته ، فرضى الزعماء أن يغادروا ولايته على  
هذه الشروط . ثم زادوا على ذلك بأن وافقوا على التخلي له فى  
اثناء مسيرهم عن المدن الثلاث التابعة له ، وهى عرقة وطرابلس وجبيل  
بملحقاتها ، ثم زاد الوالى على هداياه التى ذكرناها فأرسل من لدنه  
الى الصليبيين قطعانا من الماشية والأغنام وكميات وفيرة من الزاد  
حتى لا يحملهم نقص الطعام على العيث فسادا فى المزارع التى  
يمرون بها ، وانزال الذى بالفلاحين القاطنين بزراعة الأرض هناك .



وكان هناك طائفة معينة من نصارى الشام تعيش على قمم  
جبال لبنان الشاهقة والتى تطل ذراها العالية على المدن الواقعة الى  
الشرق كما ذكرت حالا ، وجاء هؤلاء النصارى (المعروفون بالمارونيين)  
مهثئين الحجاج ومبدين لهم حبيهم الأخوى ، ولما كانوا على دراية  
تامة بالمنطقة وما حولها فقد استدعاهم القادة مستفسرين منهم  
- باعتبارهم أهل خبرة بالناحية - عن أسلم الطرق وأيسرها الى  
بيت المقدس ، فصدقهم هؤلاء السوريون القول ودلوهم على الدروب  
المختلفة المؤدية الى حيث يقصدون ، وبينوا أطوالها ، ثم زكوا لهم  
فى النهاية طريق الساحل لأنه أقصر الدروب المباشرة الى وجهتهم ،

ولأن الحجاج - ان سلكوا ما اشاروا به عليهم - امكنهم الحصول على المعون من سفنهم التى سوف تتبع الجيش فى تقدمه .

لم يكن الأسطول الصليبي قاصرا على سفن جينمار ورفاقه التى قدمت من فلاندرز وفورماندى وانجلترا كما قلنا ، ولكن كان هناك أيضا شوان من جنوة والبندقية واليونان ، وان كانت أغلب السفن قادمة من قبرص ورودى وغيرهما من الجزر وهى محملة بشتى صنوف البضائع ذات الفائدة القصوى لكتائبنا .



وبالإضافة الى من ذكرنا من النصارى الشاميين فقد استعان الحجاج برجال من أهل بيت والى طرابلس يدلونهم على الطريق ، فساروا بهم فى محاذاة الساحل ، الى جانب من استعانوا بهم من نصارى الشام الذين ذكرناهم ، فساروا بهم فى محاذاة الساحل جاعلين جبال لبنان على يسارهم ، حتى اذا اجتازوا مدينة « جبيل » عسكروا على شاطئ نهر قرب مكان اسمه « ماوس » فتلبثوا به يوما فى انتظار القادمين وراءهم من اتباعهم الضعاف الخائرى القوى ومن لم تسعفهم صحتهم بمضاهاتهم فى سرعة سيرهم .



فلما كان اليوم الثالث نصبوا معسكرهم امام مدينة بيروت على شاطئ نهر يمر بها ، فهاداهم واليها بالمال ، وأمداهم بكميات وفيرة من المؤونة ، ليصملمهم على كف ايديهم عن التعرض للمحاصيل والأشجار ، فأقاموا هنا ليلتهم هذه مستجمين ، حتى اذا طلع اليوم التالى بلغوا مدينة صيدا حيث نصبوا خيامهم على طول شاطئ



النهر ليتوفر عندهم الماء ، ولم يقدم حاكم هذه المدينة لقوادنا أى ضيافة ولم يبد لهم ودا ، ولست أدري دافعه الى ذلك الموقف ، الا أن تكون شدة وثوقه بقوته واعتماده الكلى عليها حملاه على مضايقة الجيش ، رغم أنه لم يوفق فى خطته هذه ، ولما ضاقت صدور بعض رجالنا ذرعا بهجمات الأهلئ المتكررة عليهم ، ولم يعد فى قوس صبرهم منزع لاحتمالها كروا على الخصم كرة قتلوا فيها نفرا من رجاله ، وحملوا بقيتهم على الارتداد الى داخل المدينة ، وترتب على ذلك أن أمضى العسكر ليلتهم وهم فى هدوء لم يكدر خاطرهم أى مكسر من جانب العدو ، فلما جاء الصباح عزموا على البقاء حيث هم فترة وجيزة من الوقت حتى يستترد الناس بعض قواهم ، كما بعثوا رهطا من رجالهم المسلحين بالأسلحة الخفيفة للحصول على ما يلزمهم من الطعام من الضواحي المجاورة ، فأصابوا غنيمة وفيرة وكثرة من الأغنام والماشية ، وعادوا بذلك كله سالمين لا ينقصهم غير واحد منهم اسمه « والتر دى فيرا » ألح فى البعد عنهم طلبا لمزيد من الذهب ، فلم يقدر له الرجوع ولم يوقف له على خبر ، فاستولى الحزن الشديد على رفاقه إذ جهلوا مصيره .



كان الشطر الأول من طريقهم فى اليوم التالى يمر عبر اقليم جبسلى بعض الشئ ، الا أن الزحف انتهى بهم الى أرض أكثر انبساطا ، فمروا وعلى يمينهم مدينة أهل صيدا القديمة المعروفة باسم « ساريتا » التى شب فيها « إيليا » (١٩) رجل الرب ، ثم عبروا هذا النهر المتعرج حتى بلغوا مدينة صور عاصمة هذه المنطقة الشهيرة

والموطن القديم لكل من اجنور « وكادموس » ، وهنا نصبوا معسكرهم على مقربة من نبع الجنان المعروف ، وهو نبع غزير الماء يعد اعجوبة من اعاجيب الدنيا ، فامضوا ليلتهم هناك فى يسائنه الفسيحة التى نفيض بكل ما تشتهيه الأنفس من اللذيات ، ولما طلع الصباح تهيأوا ثانية للمسير بعد تغلبهم على ما صادفوه من صعاب الممر الضيق الواقع بين الجبال الشاهقة الارتفاع وبين البحر ، ثم نزلوا الى السهل القريب من مدينة عكا فنصبوا خيامهم على طول شاطئ نهر مجاور للمدينة التى سارع أهلوها وحاكمها لتقديم الهدايا اليهم ، وعقدوا سوقا على احسن ما تكون السوق ، وبالف الف فى اظهار صداقته نحو الزعماء وعقد معهم اتفاقا ووعدهم أنه مسلمهم مدينة عكا دون مقاومة ان هم نجحوا فى أخذ بيت المقدس وتمكنوا من الاقامة فى المملكة عشرين يوما بعد ذلك ، أو اذا استطاعوا هزيمة القوات المصرية .

ثم غادروا عكا سائرين فى طريق واقع بين جبل الكرمل والبحر ، جاعلين الجليل على يسارهم حتى بلغوا قيصرية التى هى ثانية مدن فلسطين العظمى المعروفة قديما ببرج ستراتون ، فمكروا فيها على نهر ينبع من الأدغال القريبة منها ، وهنا على بعد ميلين فقط من قيصرية احتفلوا يوم ٢٨ مايو ( ١٠٩٩ م ) بعيد الفصح .

ثم تابع الحجاج سيرهم الشاق فى اليوم الثالث تاركين على يمينهم مدينتى انطياتريس ويافا ، وعبروا سهلا فسيحا ، ثم اجتازوا « اللتيريا » حتى بلغوا « اللد » التى هى « ديوسبوليس » فأروا فيها القبر العظيم للشهيد جورج الذى يسود الاعتقاد أن بقاياه ثاوية هناك برحمة السيد ، وكان الامبراطور التقى جستنيان الخالد الذكر حاكم الرومان الأرثوذكسى قد أمر بدافع اخلاصه القوي بتشسييد كنيسة فى هذا الموضع تمجيدا لذكرى هذا القديس .

غير أنه قبل قليل من وصول الصليبيين قام العدو - وقد توقع قدومهم - بهدم هذه الكنيسة وتسويتها بالأرض مخافة أن يحيل الحجاج أعمدتها الخشبية الطويلة المستعملة في بنائها إلى عدد وآلات رمي لك المدينة .



وعلم قوادنا أنه توجد على مقربة من موضعهم هذا مدينة رائعة تدعى « الرملة » فبعثوا إليها كونت فلاندرز مع خمسمائة فارس ليعرفوا على وجه التأكيد موقف أهلها وما يقترحوه من الشروط ، فاقترب هؤلاء الكشاف من المدينة فلم يخف أحد لمقابلتهم ، فدخلوها من أبوابها المفتوحة على سعتها ، فإذا هي خاوية مهجورة تماما من سكانها الذين لم تكذ تجيئهم الأخبار بقرب الصليبيين منهم حتى أمضوا الليلة السابقة في مغادرتها هم ونساؤهم وأبنائهم ، وحملوا معهم كل أمتعتهم ، فأصبحت المدينة خاوية على عروشها ، فبادر الكونت ( دى فلاندرز ) فى لحظته هذه بإرسال رسول إلى العسكر حاملا إليهم هذا الخبر ، ومشيرا عليهم بالأسراع إلى المدينة ما وسعتهم السرعة ، ومن ثم فانه ما كاد الصليبيون يفرغون من صلواتهم المعتادة حتى زحفوا على الرملة وظلوا مقيمين بها ثلاثة أيام ، ينعمون بما فيها من غلال ونبيذ وزيت .

ثم جاءوا إلى رجل نورماندى المولد من أسقفية « روان » اسمه روبرت ورسموه أسقفا على الكنيسة الموجودة فى ذلك الموضع ، ومنحوه مدينتى اللد والرملة ومايتبعهما من النواحي ، وجعلوهما منحة لا تسترد أبدا ، وبذلك أهدوا مخلصين أولى ثمار جهودهم إلى الشهيد جورج العظيم .

فى هذه الأثناء ترددت الأخبار محذرة سكان بيت المقدس باقترابنا منها ، فادركوا ادراكا صادقا أن ليس لهذا الحشد الثقيف الذى قيل باقترابه منهم من هدف سوى الاستيلاء على مدينتهم ، فلم يدخروا وسعا ، ولا تراخى عزائمهم عن تحصينها ، ونافس بعضهم بعضا فى احضار وجمع كل ما استطاعوه مما يلزمهم من الطعام ومن شتى صنوف السلاح والخشب والحديد والصلب ، أو فى كلمة واحدة بكل ذى جدوى لن هم تحت الحصار .

وكان صاحب مصر قد نجح - فى خلال هذه السنة - فى استرداد سيادته على مدينة القدس بعد أن كانت فى أيدي الترك ، وبسط نفوذه عليها ، لذلك ما كاد يعلم بمغادرة جيشنا لأنطاكية حتى أمر القوم أن يعجلوا كل العجلة باصلاح جميع أبراج المدينة المقدسة وترميم ما يحتاج الى ترميم من أسوارها ، ثم عمل على كسب ولاء سكانها له ، فأمر بان تصرف لهم الأجور السخية من خزائنه الخاصة، وأن يسامحوا نهائيا فى ما عليهم من الضرائب والجمارك ، واذ رغب الأهالى فى الاستفادة من مثل هذه الامتيازات والعمل على ما فيه سلامتهم وخيرهم فقد كرسوا انفسهم لاطاعة الرغبة الخليفة ، فاستدعوا اليهم سكان المدن المجاورة لهم ، واعتنوا بتقوية وسائل الدفاع عن المدينة فحشدوا الكثيرين من الرجال الأقوياء المسلحين اكمل تسليح .

واجتمع الكل وهم يد واحدة فى ساحة المسجد الفسيح الأركان ليتدبروا ما يفعلون ازاء ما يتوقعون حدوثه ، وليمنعوا - ان أمكن - تقدمنا ، فقرروا الوثوب على جميع السكان النصارى وهدم كنيسة القيامة من أساسها وكذلك قبر السيد الموجود هناك حتى يكون ذلك

حائلاً فى المستقبل دون مجيء هذا السيل العرم من السحاج الذين يتقاطرون زرافات بعضها فى أثر بعض لزيارة هذه البقاع وللصلاة فيها ، غير أنهم لما أخذوا يتدبرون ما قرروه خافوا أن يزيد هذا العمل من كراهية الصليبيين لهم ، وقد يحركهم هذا على القيام بمحاولات أشد عنفا للقضاء على أهل بيت المقدس ، ومن ثم تغيرت هذه الضطط فعمدوا الى اغتصاب كل ما بيد سكانها النصارى من مال ومتاع ، وفرضوا عليهم دفع غرامة قدرها أربع عشرة ألف قطعة من الذهب تجبى من البطرک صاحب الولاية إذ ذاك فى مدينة القدس ، ويشاركه فى سدادها سكانها النصارى وأهل الأديرة الموجودة فى تلك الناحية .

على أن جميع ما كان يملكه النصارى الذين يعيشون فى بيت المقدس لم يكن كافياً لسداد هذا القدر من المال ، وعلى ذلك فقد أصبح من الضروري على البطرک المرقر أن يقوم برحلة الى قبرص للحصول على ما يفى بهذا المطلب الفادح .

كذلك احتاج البطرک الى المال لسداد بعض احتياجاته ولسد عوز المؤمنين ، وكان يطمح أن يستجدى من مؤمنى هذه الجزيرة المخلصين مسدقاتهم وزكاتهم فيرسسها الى أهل الرب المنهكين الجائعين ممن يسكنون القدس وأطرافها رجاء الابقاء على حياتهم ، لكن يبدو أن كل هذه الابتزازات لم تسد جشع القوم الذين استعملوا التحذيب والقهر فى اغتصاب كل ما بيد المؤمنين ، بل زادوا نفقوسهم جميعاً من البلد ، ولم يستثنوا من ذلك النفى سوى الشيوخ والمرضى والنساء والأطفال ، ولم يزل هؤلاء المطرودون هائمين على وجوههم فى القرى الصغيرة القريبة من المدينة حتى لحظة قدومنا ، وهم يتوقعون الموت بين ساعة وأخرى ، دون أن يجروؤا على دخول

القدس ، كما أنه لم يكن ثم موضع فى هذه الأماكن الخارجية يجدون فيه الأمن أو يمكنهم اللجوء اليه ، فقد كانوا محاطين انى ذهبوا بمضطهدينهم ، وكانت كل حركة من جانبهم موضع رغبة سكان القرى الذين كلفوهم بأحط الأعمال وأقساها (٢٠) .

كان يعيش بالمدينة الحبيبة الى الرب ابا ن ذلك الحين رجل تقى نذر حياته لله اسمه « جيرالد » وهو القيم على النزل المذكور آنفا الذى ينزله القادمون الفقراء اذا قدموا القدس لأداء الصلاة ، فيجربى عليهم من الرزق ما يلائم ظروف الزمان والمكان .

واعتقد الأعداء ان بحوزة هذا الرجل مالا يخفيه ، وتوجسوا خيفة منه أن يبذله فى الحاق الضرر بهم حين يصل جيشنا ، فلم يتأخروا عن ضربه والزج به فى السجن حيث لاقى فيه أفظع ضروب التعذيب ، حتى تفسخت مفاصل يديه وقدميه ، ولم تعد أطرافه قادرة على الحركة .

— ٢٤ —

أمضى الجيش ثلاثة أيام فى الرملة عين بعدما حراسا لحماية أمنع جزء بالمدينة من هجمات الخصوم ، فلما فرغ من ذلك تاهب لمتابعة زحفه الى غايته المنشودة ، حتى اذا كان فجر اليوم التالى وصل الجنود الى « نيكوبوليس » ، مسترشدين برجال من أهل الخبرة الملمين بالأقاليم أحسن الامام .

---

(٢٠) راجع الجزء الاول من هذه الترجمة العربية ، الكتاب ١ ، ف ١١ ، ص ٩٠ — ٩٢ .

ونيكوبوليس هي إحدى مدن فلسطين، وقد ورد في كتب الانجيليين انها هي قرية «عمواس» ، ويقول القديس لوقا الانجيلي انها على بعد ثلاثة مراحل من بيت المقدس (٢١) ، ويتكلم عنها «أسوزر مينوس» في الكتاب السادس من تاريخه التثليثي فيقول «بعد أن فتح الرومان يهوذا وخربوا اورشليم سميت عمواس بنيكوبوليس تمجيداً لذلك النصر» ، ويوجد أمام المدينة ( وعند مفترق الطريق المعروف بأن المسيح مشى فيه مع كليوبا بعد قيامه كما لو كان قاصدا قرية أخرى ) أقول انه يجري هنا نبع في مائه شفاء للناس ، اذا اغتسلوا فيه زالت عنهم أوجاعهم ، وتبرأ فيه الحيوانات الدنيا من كل ما تتعرض له من أمراض خاصة بها ، وتقول الرواية في تفسير هذا الاعتقاد ان المسيح ذاته تجلى في اثناء هذا السير لتلاميذه عند هذا النبع وغسل بنفسه أقدامهم في مياهه التي أصبحت منذ ذلك الحين براء لكل الأسقام .

هذه هي الحقائق التي أوردتها هذا المؤرخ ( سوزر مينوس )  
المشار اليه عن قرية عمواس .



أمضى الصليبيون تلك الليلة في هدوء متمتعين بالماء الغزير والطعام الشهى الوفير ، حتى اذا انتصف الليل أو كاد جاءتهم رسل من المؤمنين المقيمين ببית لحم يرجون من الدوق جود فروى رجاء حاراً أن يبعث اليهم بطائفة من رجاله ، ولم يكن الحاحهم عليه راجعاً فحسب لرغبتهم في أن يمد لهم يد العون ضد العدو الذي كان يسرع من كل البلاد ومن جميع قرى الناحية قاصدا بيت المقدس ، بل

وأيضا ليجدوا هم ذاتهم مكانا آمنا لأنفسهم ، واشتد الفزع بمؤمني بيت لحم مخافة أن يهاجم هؤلاء الكفار مدينتهم ، وإن يهدموا الكنيسة التي طالما تكرر انقاذ المسيحيين لها من الدمار الذي كان هؤلاء الأعداء يصبونه عليها ، وكان انقاذهم أياها بدفعهم مبالغ نقدية كبيرة لهم .

استمع الدوق جود فروى الى التماسات هؤلاء الاخوة المؤمنين بنفس حانية ، فقام باصطفاء مائة من أتباعه الفرسان الأشاوس المدججين بالسلاح الخفيف ، وأمرهم أن يسرعوا في التوجه للمحطة الى بيت لحم لمساعدة مسيحييها ، وانضم تانكريد الى هذه الحملة ، وألقيت اليه قيادة تلك الجماعة التي وصلت مع مطلع النهار الى طليتها المنشودة مسترشدة بهداية الرسل ، فاستقبلها الأهالي بالترحاب العظيم ، وساروا بهم الى الكنيسة ومن حولهم العامة ورجال الدين يزفونهم بالأهازيج ، وينشدون بين أيديهم الأناشيد الدينية ، ففاضت القلوب بالفرحة الغامرة وهم يطالعون موضع الميلاد المجيد والمذود الذي كان مهد المخلص ذات مرة ، ثم رفع الأهالي راية تانكريد فوق الكنيسة رمزا للنصر وسط هتافات الغبطة الحماسية ووسط ترتيلهم المزامير وترديدهم أناشيد الشكر الدينية .

في هذه الأثناء كانت قلوب الذين خلفوهم وراءهم تتحرق شوقا لتابعة الزحف ، وجافاهم النوم إذ عرفوا أنهم صاروا على مقربة من الأماكن الطاهرة ، وعز عليهم الرقاد لما انطوت عليه قلوبهم من حبا وتوقيرا أعاناهم على احتمال كثير من المشاق والأموال على مدى ثلاث سنوات سويا ، وراحوا يترقبون في شوق بزوغ الفجر ليروا نجاح سفرهم وما أسفر عنه حجهم الطويل من خاتمة سعيدة ، وخيل اليهم كأن ليل حراستهم قد طال فوق كل حد ، وأنه جاوز كل معقول في انتظار الغد ، وكان كل انتظار عبثا ثقيلًا



وخطروا على قلوبهم الخفاقة ، مصداقا للمثل القائل « ان كل عجلة  
للقلوب المشتاقة ليست مستغربة » ، وقول الآخر « انه كلما طال الوقت  
ازداد الشوق لهيبا » .

— ٢٥ —

عندما ذاع فى المعسكر أن رسلا من اهل بيت لحم جاءوا الى  
الدوق وانه بعث بقوات من الجيش لمساعدتهم هاج الناس غضبا  
وراح كل يحث الآخر على الثورة ، ولم ينتظروا احدا ياذن لهم  
بالرحيل ، أو يترقبوا لحظة أنسب من اللحظة التى يقدمها لهم طلوع  
الفجر ، وتذمروا من كل ابطاء فخرجوا تحت جناح الظلام البهيم غير  
مكثرين بمعارضة قوادهم لهم .

وما كادوا يمشون مسافة قصيرة وتتخضب السماء قليلا بلون  
مشرق حتى غادرهم رجل نبيل شجاع هو « جاستون دى بيزيه »  
على رأس ثلاثين من الفرسان المدججين بالسلاح الخفيف ، واتجه  
بهم سريعا ناحية بيت المقدس ، مؤملا أن يجد خارج أسوارها  
قطعانا من الماشية والأغنام فيستولى عليها ويعود بها الى الجيش ،  
وصبح ما أمله اذ وجد قرب المدينة بعض الماشية فى حراسة رعاة  
قلائل ماكادوا يبصرون رجالنا حتى فروا مذعورين الى المدينة .

وانطلق جاستون مسرعا الى المدينة بما استولى عليه من  
الماشية التى فر عنها رعاتها الذين صحا اهل البلد من سباتهم على  
صراخهم ، فبادروا الى حمل سلاحهم وهبوا انشط ما يكونون  
لمطاردة جاستون وهو فى طريق عودته الى المعسكر ، أملا منهم فى  
استرداد الغنيمه التى سلبها منهم عنوة ، فاستولى على الفارس  
المعلم الخوف من كثرة عدد مطارديه ، فتخلى سريعا عما نهب ،

وهرب مع أصحابه طلباً للسلامة ، حتى اذا بلغوا بقعة واقعة على أحد التلال توقفوا ينتظرون ما يسفر عنه الأمر ، حينما ظهر فجأة من أحد الأودية القريبة تانكريد مع فرسانه المائة وهم قافلون الى المعسكر من بيت لحم ، فاسرع جاستون اليه ، وقص عليه ما حاق به من سوء الحظ ونكد الطالع ، فضم القائدان قواتهما بعضا الى بعض وكر الجميع في أثر العدو الذي كان عائداً بقطعانه فهاجمه عسكرنا قبل أن يتيسر له الوصول الى المدينة ، وقتلوا الكثيرين من رجاله وفر الباقون ، وعاد القائدان الصليبيان الى المعسكر ظافرين يسوقان حرة ثانية الغنيمة المستردة .

ولما سئلوا من أين كان حصولهم على ما نهبوا قالوا انهم جاءوا بها من الحقول التي في ارياحس اورشليم ، فلما صافحت كلمة «اورشليم» سمع الحجاج اعترتهم نشوة روحية عارمة ، لم يستطيعوا معها أن يمسكوا دموعهم من أن تسيل أو يكتبوا آهاتهم ، فهاهى ذى القدس التي تحملوا من أجلها كثيراً من الأهوال على مرأى العين منهم ، واذا ذلك خروا سجداً على الأرض ممجدين الرب وحامدين من منح شعبه المؤمن نعمة خدمته الجلييلة المشكورة ، ومثنين على السيد الذي تفضل فاستمع الى دعوات شعبه ورآهم أهلاً لأن يتحقق أملهم في أن يبلغوا المدينة التي استبد الشوق بهم اليها .

وكان الحجاج – ومعظمهم مشاة حفاة – كلما دنوا من المدينة المقدسة واكتحلت عيونهم بمرآها على قرب عنهم أفصحت دموعهم وزفراتهم الصادرة من قلوب مخلصه عن فرحتهم الروحية ، وتزايدت حماسهم في الارتفاع نحو هدفهم ، وما لبثوا الا قليلا حتى كانوا واقفين أمام مدينة بيت المقدس فنصبوا خيامهم حولها حسب الترتيب الذى وضعه زعمائهم .

وهنا تمت نبوة أشعيا وصحت كلمة السيد إذ قال « ارفعوا  
عيونكم الى بيت المقدس ، وتأملوا قوة الرب ، وانظروا مخلصكم  
يأتى ليخلصكم من قيودكم (٢٢) ، وقوله : « انتبهوا انتبهوا واستيقظوا ،  
وانت يا اورشليم حررى نفسك من أغلال الرقبة .. أيتها الأسيرة  
يابنت صهيون » .



### هنا ينتهى الكتاب السابع

---

(٢٢) هذه هى الترجمة الحرفية لما أورده وليم فى الاصل ، فهو لم  
يتقيد تماما - وذلك على غير عادته - بنص ما جاء فى التوراة فى سفر أشعيا  
١٧/٥١ إذ قال : « انهضى انهضى يا اورشليم ، وقومى يا اورشليم التى  
شربت من يد الرب كأس غضبه قيل كأس » .

## الكتاب الثامن

### خاتمة رحلة الحج : الاستيلاء على القدس

#### الفصل الأول :

- ١ - وصف موقع المدينة المقدسة وذكر النواحي والأماكن الموجودة داخل حدودها .
- ٢ - استعراض الأسماء العديدة التي أطلقت على هذه المدينة ، وكيف جعلها داود عاصمة لملكته ، وكيف نقلها الامبراطور هادريان من سفح الجبل الى قمته ، وبعض ملاحظات أخرى عن موقعها .
- ٣ - بيان أى جزء من التلّين يقع فى نطاق السور ، وكذلك تحديد موقع كنيسة قيامة السيد وهيكله على المرتفعات ووصف شكل الكنيستين .
- ٤ - الخبر فى كيفية تشييد المدينة فى بقعة جرداء ليس بها ماء ،

ونذكر خبر سلوام أيضا ، وكيف أن الأهالي حين سماعهم  
بأقترابنا طموا الينابيع وأفسدوا الصهاريج .

٥ - تحديد موعد وصول الجيش الصليبي أمام المدينة وذكر عدد  
قواتنا وقدرات العدو وشرح كيفية ترتيب العسكر .

٦ - الصليبيون يهاجمون المدينة في اليوم الثالث بعد ترتيب أماكن  
العسكر ، ويستترشدون بأحد النصارى المخلصين في الذهاب  
الى الخبايا لقطع الأشجار التي يصنعون منها آلات  
الحصار .

٧ - إصابة الناس بالاغماء بسبب حاجتهم الى الماء وسقوطهم في  
يد العدو مرة أخرى أثناء سعيهم وراء الماء وغيره من  
ضرورات الحياة .

٨ - الأهالي يصنعون آلات ويستعدون للمقاومة ويرغمون  
المؤمنين الساكنين معهم في المدينة على القيام بأعمال كثيرة  
فيها جور كثير عليهم .

٩ - وصول أسطول من جنوه الى يافا وإرسال الأدلاء من الجيش  
لمصاحبة رجاله في ذهابهم الى موضع الحصار ، ولكن  
الحرس يتعرضون في طريقهم لكمين نصبه العدو لهم .

١٠ - القادمون بحرا يذهبون الى الجيش ويمدون يد العون الفعال  
في بناء الآلات ، كما تم عقد الصلح بين ريموند كوند تولىز  
وتانكريد .

١١ - إعلان الصيام وصعود كل طوائف الحجاج الى جبل الزيتون .

- ١٢ - الدوق والكونتان العظيمان يتحركون بعسكرهم أثناء الليل ،  
وينصبون الآلات حول المدينة .
- ١٣ - قصف المدينة وشبوب قتال عنيف بين الجانبين ولكن المعركة  
تتوقف لدخول الليل .
- ١٤ - المحاصرون والمدافعون على السواء يقضون الليل في حال  
من القلق البالغ .
- ١٥ - العودة للقتال في اليوم التالي ، واشتداد الهجوم على المدينة  
اشتدادا أفظع من سابقه ، ومصرع الساحرات .
- ١٦ - ظهور آية في السماء على جبل الزيتون ، وإن ذاك يعود من  
أرندوا منذ قليل مذهكين ولكنهم يتلهفون على القتال .
- ١٧ - كونت تولوز وقواته يهاجمون المدينة بعنف شديد من الناحية  
الجنوبية .
- ١٨ - الدوق وأصدقائه يدلون الجسر من فوق البرج الخشبي الى  
السور ويدخلون قواتهم ، وإن ذاك تستسلم المدينة وتفتح  
ابوابها ويدخل عسكرنا بيت المقدس .
- ١٩ - الدوق يمضى على جواده متجولا في المدينة هنا وهناك مع  
اتباعه ، ويأتى من أعمال التخريب ما هو فوق الوصف ، وأما  
كونت تولوز فيقتحم المدينة من ناحيتها الجنوبية ويدخل  
رجالها ، فيرث بعض المواطنين الى القلعة .
- ٢٠ - الأهالى يجتمعون بساحة المسجد فيتعقبهم تانكريد الى هناك  
ويتمخض الأمر عن مذبحة مروعة وبسفك دم كثير هناك .

٢١ - الهدوء يعود الى المدينة ، وتسكن الجلبة ، وتتحى الأسلحة  
جانبا للصلاة ، ثم يتجول الصليبيون فى القدس لزيارة  
الأماكن المقدسة وينقضى اليوم فى أداء شعائر وقورة .

٢٢ - أسقف بوى وغيره ممن توفاهم الرب اثناء هذا الحج يظهرون  
فى المدينة ويتجلون للكثيرين .

٢٣ - المؤمنون الساكنون بيت المقدس يقدمون الشكر الصادق  
لبطرس الناسك الذى حملوه من قبل رسالتهم وكرموا  
الاکرام الذى يستحقه عن حق .

٢٤ - تنظيف المدينة من جيف القتلى ، واستسلام الهاربين بالقلعة  
الى ريموند كرنى تولوز ، واعتبار هذا اليوم يوما خالدا  
ابدا .

\*\*\*

## من ايدينا الكتاب الثامن

### خاتمة رحلة الحج : الاستيلاء على بيت القدس

- ١ -

من الحقائق المعروفة تمام المعرفة أن اورشليم المدينة المقدسة  
الحيوية الى الرب تقع على تلال عالية ، وتقول الاخبار القديمة أنها  
كانت تابعة لقبيلة بنيامين .

ويقع الى الغرب منها أرض شمعون وأرض الفلسطينيين ،  
وكذلك البحر الأبيض المتوسط الذي تبعد أقرب نقطة منه عنها بأربعة  
وعشرين ميلا وذلك عن مدينة يافا القديمة .

وتوجد قرية عمواس بين بيت المقدس وبين البحر ، وهي التي  
سميت فيما بعد بنيكوبوليس ، حيث تجلى السيد - بعد قيامته -  
لاثنتين من تلاميذه .



كذلك تقع قلعة « مودين » وهى إحدى قلاع المكابيين الطاهرين  
الشديدة التحصين ، وأيضا القرية المباركة « نوب » التى أطاع فيها  
داود وخدمه - اذ جاءوا - الكاهن « اخيمالك » (١) فأكلوا الخبز  
المقدس ، كما يوجد هناك أيضا ، ديوسبوليس « وهى اللد » التى أبرا  
فيها بطرس الرجل المقعد الكسبيح (٢) الذى ظل طسريح الفرائس  
مضطجعا على السرير مفلوجا منذ أن كان فى الثامنة من عمره .

كذلك توجد يافا حيث أحيى بطرس من بين الموتى القلميدة  
المسماة « طابيتا » (٣) صاحبة الأعمال الخيرة والاحسان ، ورددها  
الى الحياة فى وجود القديسين والأرامل .

كذلك حدث فى يافا أن تلقى بطرس - وهو مقيم فى بيت سمعان  
الدباغ - رسول « كورنيليوس » كما هو وارد فى أعمال الرسل (٤) .

ويوجد فى شرقى المدينة ، وعلى بعد أربعة عشر ميلا ، مياه  
الأردن والصحراء المتاخمة له التى كانت معروفة قديما كل المعرفة  
لأبناء الأنبياء ، كما يوجد هناك الرادى الخشبي ، حيث يوجد  
الآن بحر الملح المعروف أيضا ببحيرة الأسفلت أو البحر الميت ، وكان

---

#### (١) صمويل الاول ٢٦ : ١ - ٦ .

(٢) الرجل الذى يشير اليه وليم الصورى فى المتن ولم يذكر اسمه  
ولا الترجمة الانجليزية هو « ليفياس » كما ورد فى أعمال الرسل ، ٩ : ٣ .  
(٣) جاء فى التوراة أن معنى « طابيتا » هو « الغزالة » ونضيف فى  
هذه الترجمة العربية ما جاء فى أعمال الرسل ، ٩ : ٣٦ من « أنها كانت  
ممتلئة أعمالا صالحة واحسانات كانت تعملها ، ولما ماتت استدعى بعضهم  
بطرس فصلى ثم أمرها - وهى عينة - بالقيام ففتحت عينيها وجلست .  
(٤) أعمال الرسل ٩ : ٣٦ وما بعدها .

كل هذا الاقليم - كما نقرأ في سفر التكوين (٥) - يروى مثل جنة الرب وذلك قبل أن يعصف الرب بسدوم فيدمرها .

وتقع على هذا الجانب من الأردن مدينة « أريحا » التي تغلب عليها « يوشع » خليفة موسى بالصلاة أكثر من تغلبه عليها بالحرب . وهنا رد السيد - فيما بعد أثناء مروره بها - النظر إلى الرجل الأعشى (٦) ، كما يوجد هنا أيضا ( جبل ) الجلجلة ، وهو المكان الذي انصرف إليه ايليا .

وتقع فيما وراء الأردن جلعاد وبيشان وعمون ، وموآب التي انتهت من بعد إلى الرُّبِّيَّين والجاديَّين ، وإلى نصف سبط منسى (٧) ، ويعرف كل هذا الاقليم باسم عام هو « بلاد العرب » .

يوجد إلى الجنوب من أورشليم القسم الذي به نصيب يهوذا ، وفيه بيت لحم ، وهو المكان الذي سلكه المخلص ، والموضع الذي سعد بمولد المسيح وكان مهده ، وتوجد هنا مدينة « تقوع » موطن النبيين حبقوق وهاموس ، والخليل الذي يعرف أيضا باسم كارياترب التي توجد بها المقابر الظاهرة للبطاركة المباركين .

وتقع إلى الشمال من بيت المقدس مدينة « جبعون » التي ذاعت شهرتها بسبب انتصار يوشع بن نون « والتي شهدت معجزة وقوف

---

(٥) سفر التكوين ، ١٣ : ١٠ .

(٦) الغريب أن وليم الصوري ، وهو من هو في حفظه للإنجيل - يشير إلى أن معجزة السيد المسيح كانت لرجل واحد أعشى ، على حين أن الوارد صراحة في إنجيل متى ٢٠ : ٣٠ - ٢٣ أنهما كانا اثنين « وكانا جالسين على الطريق » ، ومن شاء المزيد من خير هذه المعجزة فليرجع إلى متى .

(٧) انظر يوشع ، الاصحاح ٢٢ .

الشمس ساكنة له فى كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل .  
وهى أرض سبط افراييم التى يوجد فيها « شلواه » الذى كان ذات  
مرة حارسا لهيكل السيد ، « وسخار » ، وهى أرض المرأة السامرية  
التي تكلمت مع المسيح ، و « بيتل » عابد العجل الذهبى والشاهد  
على خطيئة جيرويام » (٨) .

كما يوجد هنا أيضا « سسبويه » المدفون بها كل من يوحنا  
المعدان وايليا و « عبديا » ، وقد سميت هذه الناحية فيما بعد  
« بالسامرة » نسبة الى تل « شمر » الذى بنيت عليه ، كما كانت  
ذات مرة عاصمة ملوك اسرائيل ، فعرف ذلك الاقليم منذ ذلك الحين  
باسم « السامرة » .

كذلك يوجد الى الشمال مدينة نابلس التى كانت تسمى قديما  
« بشكيم » نسبة الى مؤسسها ، وتقول كلمات سفر التكوين ان  
شمعون ولاوى ابني يعقوب قاما لدفع العار الذى جلبه « شكيم بن  
حمور » على اختهما « دينة » ، بفعلته الشهوانية الحمقاء ، فذبحا  
شكيم بن حمور وأولاده بالسيف ، وأضرما النار فى المدينة حتى  
صارت رمادا (٩) .

## - ٢ -

وتقع اورشليم كبرى مدة اليهودية فى بقعة عديمة المياه  
والينابيع والغابات والمراعى ، واذا أخذنا بما جاء فى التواريخ

---

(٨) انظر هذا الخبر فى الاصحاح العاشر من سفر يوشع .

(٩) سفر التكوين ٣٤ : ٢٥ .

القديمة وفى أخبار الشعوب الشرقية فإن هذه المدينة كانت تسمى فى البداية باسم « سالم » ، ثم صارت « ييوس » ، وبعد أن حكم داود سبع سنوات فى الخليل أخرج اليبوسيين من سالم وزاد فى حجم المدينة وجعلها قاعدة ملكية (١٠) ، وسماها أورشلیم ، ونطالع فى أخبار الأيام الأول أن داود رحل بعدئذ ومعه كل اسسرائيل الى أورشلیم أى « ييوس » حيث كان اليبوسيون هم سكانها ، وقال سكان ييوس لداود : « لا تدخل الى هنا » - ومع ذلك فقد استولى داود على قلعة صهيون التى هى مدينة داود ، وقال داود « أن أول من يضرب اليبوسيين يكون « رأسا وقائدا » ، ولذلك كان يواكب بن صرويه أول المتقدمين فصار رأسا ، ثم سكن داود الحصن الذى سموه مدينة داود ، وبنى المدينة حوله ، فامتدت من ميلو ، كما أن يواب جدد بقيتها .

ثم لما حكم سليمان بن داود هذه المدينة فيما بعد سُميت « بهيروسوليم » ، أى أورشلیم سليمان ، ويذكر المؤرخان الشهيران ايجسبوس ويوسيفوس أنه بسبب خطايا شعب يهوذا فإن « تيتوس بن فيسبانيان » أمير الرومان العظيم حاصر أورشلیم فى السنة الثانية والأربعين التالية لعذاب السيد ، واستولى عليها وهدمها من أساسها ، فصسدت كلمة المسيح انه « لن يبقى فيها حجر على حجر لم ينقض » (١١) .

ثم جددت أورشلیم بعد ذلك على يد « ايلوس هادريان » امبراطور الرومان ، وهو الرابع فى سلسلة الملوك بعد تيتوس ، فسُميت ان ذلك « ايليا » تمجيدا لاسمه حسبا نطالع ذلك فى أخبار مجمع نيقية

(١٠) الأيام الأول ، ١١ : ٤ - ٨ .  
(١١) متى ٢٤ : ٢

المسكونى ، حيث جاء « ويكون أساقفة ايليا مبجلين عند الجميع » (١٢) .

كانت المدينة تقوم أصلا عند منحدر التل ، وهى تواجه المشرق والمغرب على السواء وكانت تقع على منحدر كل من جبل صهيون و «موريا» ولم يكن على المرتفعات سوى الهيكل وقلعة «انتونيا» وقد نقل هادريان المدينة كلها الى قمة الجبل فصار مكان الام السيد وقيامته داخلين ضمن نطاق نفس الموقع حين أعيد بناؤها بعد أن كان هذان الموضعان خارج المدينة قبالا .

### \*\*\*

وبيت المقدس أصغر من المدن الكبرى وأن كانت أكبر من أى مدينة عادية ، وهى ذات شكل رباعى بعض الشيء وأن كان اميل الى الاستطالة ، إذ أن أحد أضلاعها أطول من بقية أضلاعها الأخرى، وتحدها من جوانبها الثلاثة وديان عميقة ، ويقع شسرقىها وادى « يهوشافاط » الذى يشير اليه النبی یوئيل (١٣) فى قوله « لأنه هو ذا فى تلك الأيام وفى ذلك الوقت عندما ارد سبى يهوذا وأورشليم أجمع كل الأمم وأنزلهم الى واد يهو شافاط وأحاكمهم هناك على شعبى وميراثى اسرائيل » .

ويوجد فى قاع هذا الوادى كنيسة رائعة أقيمت تمجيدا للنعزاء أم المسيح التى يسود الاعتقاد أنها مدفونة بها ولايزال قبرها المبارك مزارا للجموع المتدفقة الى ذلك المكان ، كما يششق هذا الوادى جدول « قدرون » الذى يفيض شتاء بمياه الأمطار المذهمة ويشير

---

Canon VII, first Council of Niceae. انظر (١٢)

(١٢) یوئيل ٢ : ١ - ٢ .

اليه القديس يوحنا الانجيلي حيث يقول « وخرج يسوع مع تلاميذه الى عبر وادي قدرون حيث كان بستان(١٤) » .

ويتصل بهذا الوادي من الناحية الجنوبية رافد آخر اسمه « هنوم » ، الذي صار - حين وزعت الأرض بين أبناء اسرائيل - حدا للأنصبة المخصصة لـ « بن » ، ويهوذا ، كما هو مكتوب في يوشع : « وصعد التخم في وادي ابن هنوم الى جانب اليبوسى من الجنوب هي اورشليم ، وصعد التخم الى رأس الجبل الذي هو قبالة وادي هنوم غربا » (١٥) .

ولا يزال يرى هنا الحقل الذي اشتراه اكبر التجار الملعونين يهوذا بالمال الذي قبضه ثمنا لتسليمه المخلص لليهود ، ويعرف هذا الحقل باسم « الخذمة » ثم جعلوه مدفنا للحجاج .

كما نقرأ أيضا عن هذا الوادي في « اخبار الأيام الثاني » فيما يتصل بأحاز ( بن داود ) ، وهو « أوقد في وادي هنوم وأحرق بنيه بالنار حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني اسرائيل » (١٦) .

ويحد بيت المقدس من الغرب جزء من نفس هذا الوادي الذي كانت فيه بركة قديمة زهبت بالشهرة في ازمان ملوك يهوذا ، ويمند الوادي من هنا الى البحيرة العليا المسماة عادة ببحيرة البطرك المجاورة للمقبرة العتيقة في جب الأسد .

---

(١٤) يوحنا ١٨ : ١ .

(١٥) يشوع ١٥ .

(١٦) الايام الثاني ٢٨ : ٣ .

ويقارب المدينة من الشمال طريق مستو لا يزال يرى به الموضع  
الذى رجم اليهود فيه استيفان أول الشهداء وهو الموضع الذى رجم  
فيه واستغفر لمضطهديه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة (١٧) .

~ ٢ ~

يقع بيت المقدس على جبلين بناء على ما يقوله داود « أساسه  
فى الجبال المقدسة » .

وتقع قمتا هذين الجبلين داخل نطاق الأسوار ويفصلهما عن  
بعضهما واد صغير يقسم المدينة الى قسمين ، ويسمى الجبل الواقع  
الى الغرب بجبل صهيون وقد أشير اليه فى قول القائل : « الرب أحب  
أبواب صهيون أكثر من جميع مساكن يعقوب » (١٨) .

أما الجبل الآخر الواقع الى الشرق ويعرف بجبل « المريا » ،  
وقد وردت الإشارة اليه فى أخبار الأيام الثانى (١٩) . حيث قيل :  
« وشرع سليمان فى بناء بيت الرب فى اورشليم فى جبل المريا حيث  
قراى لداود أبيه حيث هيا داود مكانا فى بيدر ارنان اليبوسى » .

ويوجد الى الغرب على نفس قمة الجبل كنيسة تسمى بكنيسة  
صهيون ، ويقوم على مسافة قصيرة منها برج داود ، وهو بناء شديد  
الضخامة ، سامق الأبراج والأسوار والتحصينات المتصلة به وبذلك  
يشرف على المدينة التى تجثم تحته ويكون هو قلعتها .

---

(١٧) المزمير ٨٧ : ١ .

(١٨) المزمير ٨٧ : ٢ .

(١٩) الايام الثانى ٣ : ١ .

كما يوجد على مقربة منها كنيسة القيامة الطاهرة الدائرية الشكل ، ولما كانت هذه الكنيسة تقع على منحدر التل الذى ذكرنا حالا أنه يشرف عليها من أعلى ويتأخمها فإنه يجعل داخلها حالكة الظلمة ، على أن سقفها مشيد من عروق الخشب الشديدة الارتفاع ، المصنوعة أبدع صنعة على شكل تاج ، وهى مبنية هكذا لتكون مفتوحة دائما الى السماء مما يتيح للداخل ما يحتاجه من الضوء ، ويقع تحت هذه الفتحة المتسعة قبر المخلص .

كان موضع آلام السيد المسمى « كلفارى » أو الجلجلة يقع قبل مجيء شعوبنا اللاتينية خارج حدود هذه الكنيسة ويقال أنه وجدت هنا خشبة الصليب الأصيل ، كما تذكر الأخبار أيضا أنهم لما أنزلوا جسد المخلص من على الصليب مسحوه هنا بالزيت وضمخوه بالعطور الزكية ، وأدرجوه فى درج لفائفه من الكتان كما جرب عادة اليهود فى الدفن ، ولم تكن هناك فى ذلك الوقت سوى كنيسة صغيرة جدا ، ولكن بعد أن تمكن الصليبيون من الاستيلاء على بيت المقدس بعون الرب وأحكموا قبضتهم عليها رأوا ما عليه هذا المبنى الأصيل من شدة الصفر فزادوا فيه ثم استخدموا اللافتة بناء جديدا من الحجر المصمت ، شاهق الارتفاع ، أحاط بالكنيسة القديمة ، ورتب ترقيا محكما ليضم فى داخله الأماكن المقدسة التى وصفناها .

ويطل هيكل السيد على المنحدرات الشرقية والغربية لجبل « مريا » وقد شيد فى المكان الذى اشترى فيه داود الملك حقلا من « أرونة » اليبوسى وذلك حسيما ورد فى سفر صمويل الثانى (٢٠) ، وفى أخبار الأيام الثانى ، وقد جاء هنا الأمر له ببناء مذبح للسيد

---

(٢٠) صمويل الثانى ٢٤ : ١٦ وما بعده .



فبناه وقدم عليه فيما بعد « بقرا محرقة وذبائح سلامة » ، وهناك نادى هو الرب بصوت سمع فى النار الآتية من السماء على مذبح القربان المحرق كما قام سليمان بعد موت أبيه ببناء الهيكل فى نفس المكان استجابة لأمر الرب (٢١) .

ونعرف من التواريخ القديمة كيف كانت هيئة هذا الهيكل وكيف سقط فى يد نابخذا نصر ملك بابل ثم أعيد بناؤه زمن كورش ملك فارس على يد زربابيل ويوسو الكاهن الأعظم ، كما نعرف من هذه التواريخ كيف دمر تيتوس أمير الرومان نفس هذا الهيكل والمدينة كلها فيما بعد .

ويكفى أن نشير هنا الى من خطط رسم هذا البناء وأن نصف شكله لأننا قلنا فى الكتاب الأول (٢٢) من هذا التأليف أن عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء هو باني هذا الهيكل ، ويؤكد هذا القول النقوش القديمة الموجودة على جدران البناء من الداخل والخارج على السواء .  
أما صفة البناء فكما يلى :

توجد ساحة مربعة متساوية الأضلاع ، يحوطها سور متوسط الارتفاع ، وتقع هذه الساحة على هضبة يقدر كل من طولها وعرضها مسافة رمية سهم من قوس ، ولها من الناحية الغربية بابان يؤديان الى داخلها ، ويعرف أحدهما بالباب الجميل ، ويقول الخبر الرارد فى أعمال الرسل أنه « كان رجل أعرج من بطن أمه يحملونه ... وكانوا يضعونه كل يوم عند باب الهيكل الذى يقال له الجميل يسأل صدقة من الذين يدخلون الهيكل » (٢٣) .

---

(٢١) الأيام الثانى ، ٢ : ١ .

(٢٢) راجع الجزء الأول من هذه الترجمة العربية ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٢٣) أعمال الرسل ٣ : ١ - ٨ .

أما الباب الآخر فقد نسينا اسمه •

كما يوجد باب واحد فى السور الشمالى ، وآخر فى الناحية الشرقية •

أما القصر الملكى المعروف الآن باسم هيكل سليمان ، فيقوم فى الناحية الجنوبية، كما توجد مآذن شاهقة الارتفاع يصعد إليها مؤذنو الاسلام فى ساعات معينة لدعوة الناس الى الصلاة ، وهذه المآذن تعلو كل باب من الأبواب المؤدية الى المدينة ، وكانت تقوم - فى كل ركن من أركان الساحة المربعة - التى أشرت إليها حالا - مآذن لايزال بعضها موجودا حتى اليوم ، أما غيرها فقد زال بسبب شتى المصائب التى نزلت بها •

ولم يكن مسموحا لأحد من الناس أن يعيش فى داخل هذه المواضع ، بل لم يكن أحد ما بقادر على الدخول الى هناك الا وهو حافى القدمين قد غسلهما منذ قليل ، وكان يقف على كل باب من الأبواب حرس مهمتهم مراعاة هذا الأمر مراعاة دقيقة •

وكان فى وسط تلك البقعة المجاورة ساحة أخرى ترتفع عن هذه بعض الشيء ، وصورتها أقرب ما تكون الى المربع المتساوى الأضلاع ، ويوجد الى الغرب والجنوب سلمان مدرجان يصعدان الى الساحة •

أما من الناحية الشرقية فثم مدخل واحد فقط ، ويوجد فى كل ركن من هذه الساحة مسجد صغير ، ولايزال بعض هذه المساجد قائما حتى اليوم ، أما ماسواها فقد هدمت لتفسح مكانا لأبنية مستحدثة حلت محلها •

وفى وسط هذه الساحة العليا يقوم المسجد ، وهو مثنى الشكل متساوى الاضلاع ، كما أن جدرانه الداخلية والخارجية على السواء مرخمة ومحللة بالفسيفساء ، أما السقف فدأثرى مكسو بالرخام الدقيق الصنعة ، وقد رصفت الساحتان العليا والسفلى ومدرجاتهما بالرخام الأبيض ، ومن ثم فإن الأمطار التى تسقط بغزارة فى الشتاء ، وما ينحدر من المسجد ذاته وكذلك المياه التى تتدفق من جهات أخرى نقية صافية فأنها كلها تنساب الى الصهاريج الكثيرة الواقعة داخل هذه الناحية التى وصفناها .

ويوجد فى وسط المسجد - وفى نطاق الصف الداخلى من الأعمدة - صخرة ليست شاهقة الارتفاع ولكنها تعلو كهفا ، وتقول الأخبار أن الملك جالس هناك حينما صرع الناس بأمر الرب قصاصا على جرم داود فى تعدادهم ، ولم يتوقف السيف حتى أمر الرب ثانية بالعفو عنهم ، ثم قام داود بعدئذ واشترى هذا الحقل بستمئة شاقل من الذهب كاملة غير منقوصة الوزن وببنى مذبحا هناك كما ذكرنا من قبل ، والحق أن هذا المكان ظل خمسة عشر عاما قبل مجيء اللاتين وبعدهم مجردا من كل ما يغطيه ، حتى رخمه أخيرا بالرخام الأبيض من استولوا عليه ، كما بنى أعلاه مذبح وهيكل لجوقة المرتلين ، وعين قسيس هناك لاداء الخدمات الدينية .

وتقع مدينة اورشليم المؤمنة بالله فى أرض يهوذا التى تعرف أيضا باسم فلسطين الأولى ، ويرجع اسم يهودية هذا الى الوقت الذى انفصل فيه الأسباط العشرة عن « ريفام بن سليمان ليتبعوا جيروبيم ابن نيبث ، ولم يبق مع ريهويوم سوى جماعتى بن ويهوذا ، ومنذ ذلك الحين سميت أرض هذين الشعبين بأرض يهوذا من اسم يهوذا كما نقرأ هذا فى الانجيل « أنهم عادوا الى أرض يهوذا » ومنذ ذلك الحين سمي « ريهويوم » وخلفاؤه بملوك يهوذا ، أما حكام القبائل العشر الأخرى فقد عرفوا باسم ملوك اسرائيل أو السامرة .



وتعرف فلسطين أيضا باسم «فلسطينا» ، وهو مشتق من أصحابها الفلسطينيين ، ويقال أن هناك ثلاث بقاع تعرف كل منها بفلسطين ، أولاها تنفرد باسم يهوذا وعاصمتها اورشليم ، وأما الثانية فمدينتها العظمى قيسارية البحرية ، وأما عاصمة الثالثة فهي بيسان أو سكيثوبوليس التي تطل عليها الآن كنيسة الناصرة ، وإذا خطينا جانبا الاسم الذي يمكن إطلاقه عليها فليس من شك في أن يهوذا « كانت تعتبر من أرض الميعاد وبلاد الشام ، وتستدل على ذلك من كلمات تلك الرسالة التي نقرأ فيها : « وفي سورية لاسيما في إقليم فلسطين التي هي جزء من سورية ، وفي الأرض التي تعطف الرب فتجسد فيها بشرا من لحم ودم فقد جسرت العادة إطلاق الحرية في المسميات » .

وتقع هذه المدينة في الحقيقة وسط أرض الميعاد بناء على ما يستفاد من وصف الحدود حيث قيل (٢٤) « من البرية ولبنان ، هذا إلى النهر الكبير : نهر الفرات جميع أرض الحيثيين » وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم » .

وتقع المدينة وسط بقاع جدياء خالية تماما من الماء ، ونظرا لخلوها من الجداول والينابيع والأنهار فكل اعتماد أهلها يكون على مياه الأمطار التي اعتادوا - إذا ما حل الشتاء - أن يجمعوها في الصهاريج الموجودة بكثرة في كل أنحاء المدينة (٢٥) ، ويدخرونها للاستعمال على مدار السنة ، ومن ثم فإن الدهشة تملكني مما يقرره سولينوس من اشتهار أرض يهوذا بمياهها إذ يقول في تاريخه « وتشتهر كورة يهوذا بمياهها وأن اختلفت طبيعة هذه المياه بعضها عن بعض » .

(٢٤) يشوع ١ : ٤ .

(٢٥) أخبار الأيام الثاني ٢٨ : ٢ - ٥ .

ولا يمكننى التعليق على هذا التباين الا بقولى : اما ان سولينوس  
جائنب الحق فى هذا الأمر فلم يقل الواقع ، واما ان عوامل  
التغيير قد اعترت فيما بعد سطح البسيطة ، ومن المعروف جيداً ان  
حزقيا ملك يهوذا وهو صديق الرب قد توقف عند الينابيع الموجودة  
خارج المدينة حينما سمع ان جيش سنخريب بن «شلما نصر» أصبح  
على الأبواب . ونقرأ فى هذا الصدد فى أخبار الأيام الثانى (٢٦) ولما  
رأى حزقيا ان سنخارب قد أتى وقصده محاربة اورشليم تشاور  
هو ورؤسائه وجبايرته على طم مياه العيون التى هى فى خارج  
المدينة ، فساعده ، فتجمع شعب كثير وطموا جميع الينابيع والنهر  
الجارى فى وسط الأرض قائلين لماذا يأتى ملوك آشور ويجدون  
مياها غزيرة . وأهم هذه الأنهار هو المسمى جيحون (٢٧) المشار  
اليه فى نفس الكتاب بقوله : « وحزقيا هذا سد مخرج مياه جيحون  
وأجراها تحت الأرض الى الجهة القريبة من مدينة داود » (٢٨) .

ويقع جيحون الى الجنوب وسط وادى هضوم بيت المقدس حيث  
تقوم الآن الكنيسة التى شيدت تمجيداً للشهيد المبارك «بروكوبيوس» ،  
ويقال ان سليمان مسح فى هذا المكان ليكون ملكاً وذلك طبقاً لما جاء  
فى سفر الملوك الأول فقال الملك لهم (٢٩) « خذوا معكم عبيد سيديكم  
واركبوا سليمان ابنى على البغلة التى لى وانزلوا به الى جيحون ،  
وليمسحه هناك صادوق الكاهن وثلاثان النبى ملكاً على اسرائيل .

---

(٢٦) الكلام هنا على لسان المؤلف وليم المصورى ، وتلمح فيه وفى  
السطور التالية مقدرة وليم على نقد ما يقرأ .  
(٢٧) أخبار الأيام الثانى ٣٢ : ٣ .  
(٢٨) الملوك الأول ١ : ٣٣ - ٣٤ .  
(٢٩) المقصود بهم هنا صادوق الكاهن وثلاثان النبى ونباياهن بن  
يهويا .

واضربوا بالبوق ، وقولوا « ليحيى الملك سليمان » \* على أنه يتضح أن هذه الحوادث وقعت قبل زمن ( المؤرخ ) سوليذوس ، لأن مطالعة كتابه المسمى « بولييستور » يوضح تمام الايضاح أن هذا الكاتب كان موجودا بعد عصر تيتوس أمير الرومان الذى خرب بيت المقدس ، وقبل زمن ايليوس هادريان الذى أعاد بناءها ، إذ تقرأ فى الفصل الأربعين من هذا المؤلف (٣٠) أن اورشليم كانت عاصمة يهوذا ولكنها خربت ، فحلت محلها أريحا لتكون هى العاصمة ، بيد أنه لم تعد لها الصدارة بعد أن غزاها أرتا أجزسييس .

وعلى بعد ميلين أو ثلاثة أميال فيما وراء المدينة توجد بعض الينابيع ، ولكنها قليلة العدد ، شحيحة المياه ، ومع ذلك فعلى بعد ميل واحد تقريبا إلى الجنوب من القدس حيث يلتقى الواديان اللذان أشرنا اليهما من قبل توجد بركة « سلوام » الشهيرة التى بعث إليها المسيح بالرجل الكفيف منذ مولده ليغتسل فيها ويرتد إليه بصبر (٣١) .

وسلوام هذه بركة صغيرة توجد فى القسم الأسفل من الوادى ، وليس مأوها بالمعذب ولا هو بالمداثم التدفق ، لأنه يخرج متقطعا ، ثم أنها تجرى يوما وتتوقف يوما آخر .



ما كاد الأهالى يعلمون باقتراب الجيش الصليبي حتى طموا منابع الآبار وأفسدوا مخازن المياه التى حول المدينة الى مسافة

Solinus : Polyhistor, XXXV.

(٣٠) نقلا عن الترجمة الانجليزية

(٣١) انظر يوحنا ٩ : ٧ .

خمس أو ست مراحل ، أملا منهم فى أن ينصرف الصليبيون عن حصار المدينة حين يجدون أنفسهم يعانون الظما الشديد ، وقد نجحت خطة الأماالى هذه فى تكبيد جيشنا عذابا ليس من بعده عذاب أثناء الحصار الذى أعقب ذلك الأمر ، حسبما نورد فى الفصول التالية ،

ومن ناحية أخرى فقد توفرت المياه الكثيرة لمن كانوا فى داخل المدينة بفضل ما كانوا قد خزّنوه من مياه الأمطار ، بالإضافة الى ما جلبوه اليها من الينابيع الموجودة خارجها ، والتي كانوا يجلبونها فى القنوات فتصب فى بحيرتين كبيرتين ملاصقتين تماما لجدران المعبد من الخارج ، وان كانتا داخل حدود المدينة ، ولا تزال احدهما تعرف حتى اليوم « بركة الضأن » لأنها كانت مخصصة لغسيل أغنام الأضاحى ، ويشير يوحنا الانجيلي الى أنه كان لهذه البحيرة خمسة أروقة ، ويقول انه كان ينزل اليها من وقت لآخر ملاك يحرك ماءها ، فمن نزل أولا بعد تحريك الماء برأ من أى مرض اعتراه ، ولقد شفى السيد هنا الرجل المفلوج وأمره أن يحمل سريره ويمشى (٣٢) .

- ٥ -

ولما كان اليوم السابع من يونيو من عام ١٠٩٩ لمولد المسيح عسكرت كتاب الجيش الصليبي أمام بيت المقدس ، ويقال ان عدد الحجاج كان يقرب من أربعين ألفا من كلا الجنسين ومن شتى الأعمار والطبقات ، وكان فيهم من المشاة عشرون ألف راجل ، ومن الفرسان ألف وخمسمائة الى جانب خشد لارعاء فيه من الرضى والعجزة .

---

(٣٢) راجع القصة كاملة فى يوحنا ٥ : ٢ - ١٢ .

وتقول الأخبار انه كان بداخل بيت المقدس أربعون ألفا من  
المحاريين الشجعان (٣٣) المزودين بأحسن السلاح ، الى جانب من  
انهال عليها من أهل القلاع الموجودة في منطقتها وما جاورها ،  
وكانوا أعدادا كبيرة جاءوها هربا من وجه الجيش ( الصليبي )  
وطلبا للسلامة ، فقد كانت تحوهم أيضا الرغبة في مد يد المساعدة  
للدفاع عن المدينة الملوكية لانقاذها من الخطر الذي يهددها ، كما  
جاءوا معهم بامدادات من الرجال المسلحين وبكميات وفيرة من  
الزاد .

فلما اقترب الصليبيون من المدينة حرص قوادهم على عقد  
اجتماع مع أهل الخبرة والدراية للاستفسار عن الجهة التي يمكنهم  
منها مهاجمة المدينة هجوما يكفل لهم النجاح ، واذا كانت الدروب  
العميقة المشار اليها من قبل تحول دون الاغارة عليها من الشرق  
أو من الجنوب ، فقد قرر القادة مباغطة البلد من الشمال ، فرتبوا  
الأمر على أن تمتد صفوف عسكرهم من الباب المعروف اليوم بباب  
القديس استيفان المواجه للناحية الشمالية حتى الباب الموجود أسفل  
برج داود القائم في الطرف الغربي من المدينة ، والذي يشارك البرج  
نفسه في التسمية باسم هذا الملك ذاته .

#### ورتب العسكر على الصورة التالية :

كان أولهم في الترتيب عسكر جود فروي دوق اللورين ، ثم يليه  
عسكر روبرت كونت فلاندرز ، ثم الثالث بقيادة روبرت كونت  
نورماندي ، فالرابع وهو مؤلف من قوات تانكريد وبعض الأشراف

---

(٣٣) كان هؤلاء بطبيعة الحال من المسلمين كما يستدل من سياق الكلام .



الذين وقفوا حول البرج القائم بالركن هناك ، والذي عرف فيما بعد  
ببرج تانكريد .

أما ( ريموند ) كونت تولوز ومن معه فقد أكملوا خط الحصار  
الممتد من البرج حتى البوابة الغربية ، غير أنه وجد بعدئذ أن موضعه  
هذا لن يساعده كثيرا على نجاح الهجوم على المدينة من تلك الناحية ،  
إن كان يسيطر على معسكره البرج الموجود فوقه ، والذي كان فى  
الوقت ذاته يحمى البوابة من أسفلها حماية قوية ، كذلك كانت  
مجاورته الشديدة للوادي الواقع بين معسكره وبين المدينة تقف سدا  
فى وجه تحركاته ، ومن ثم فقد نزل على مشورة رهط من الرجال  
الأنكياء الخبيرين بالموضع ، ونقل جزءا من جنده الى التل الذى يقوم  
عليه بيت المقدس ، وكانت هذه الناحية واقعة بين البلد وبين كنيسة  
صهيون التى هى على بعد رمية قوس من المدينة من ناحية الشمال ،  
كما خلف الكونت جزءا من معسكره فى موضعه الأصلي ، ويقال أنه  
فعل ذلك كله لمهدفين : أولهما أنه أراد أن يكون رجاله على مقربة  
من المدينة قربا ييسر لهم الهجوم عليها ، وثانيهما أنه أراد أيضا  
حماية كنيسة صهيون من أى أذى يريد العدو أنزاله بها .

وكان هذا هو المكان الذى يعتقد الناس أن المخلص تناول فيه  
عشاءه الأخير مع تلاميذه وغسل لهم أقدامهم فيه ، كما يقال أيضا أنه  
الموضع الذى نزل فيه الروح القدس على حوارييه على شكل لسان  
من اللهب فى يوم عيد العنصرة ، ويضاف الى ذلك ما تقولته الرواية  
القديمة من أنه المكان الذى ماقت فيه مريم الطاهرة ، كما أن به  
أيضا موضع قبر ستيبان أول الشهداء .

على هذه الصورة التى وصفناها كان ترتيب العسكر .

وهكذا كانت قوات الحصار تحوط بما يقرب من نصف المدينة ، ولم يبق خارج دائرة الحصار سوى القسم الممتد من البوابة الشمالية - المسماة عادة ببوابة القديس استيفان - الى البرج الواقع فى الركن والمشرف على وادى يهر شافاط ، وكذلك المنطقة الممتدة من البرج المقابل لزاوية المدينة فى الجنوب والكائن فوق منحدر نفس الوادى ، ثم يمتد من هناك الى البوابة الجنوبية المعروفة الآن باسم بوابة جبل صهيون .

فلما كان اليوم الخامس من مرابطة جيشنا أمام الأسوار نودى فيهم - صفارا وكيارا - بالاستعداد لغزو المدينة ، وأن يكونوا فى كامل سلاحهم ودروعهم ، فتم ذلك على اكمل وجه ، إذ قام الجميع قومة رجل واحد لانجاز هذه المهمة ، وشنوا على شتى النواحي المحاصرة من المدينة هجوما ضاريا نشيطا عجل بالقضاء على التحصينات الخارجية ، وأفزع العدو فزعا جعله على الارتداد على أعقابها لحماية الأسوار الداخلية ، والواقع أن الشك أخذ يساور الأهالى عما إذا كان ثم جدوى فى بذل المزيد من المقاومة .

والحق أنه لو كان قد توفر للصليبيين يومذاك سلالم التسلق ، أو كان لديهم الآلات التى يتمكنون بها من الاستيلاء على الحصون ، لاستطاعوا من غير شك أخذ المدينة فى ذلك اليوم حين هاجموها بهذه الحماسة ، لكنهم بذلوا من الجهد العظيم ما ذهب هباء منذ مطلع الفجر حتى الساعة السابعة تقريبا ، وإذ ذاك تبدد أملهم فى النجاح لعدم وجود الآلات معهم ، لذلك أرجأوا القيام بأى عمليات أخرى

حتى يتم صنع هذه الآلات التي سوف تمكنهم بمعونة الرب من معاودة الهجوم هجوما يضمن لهم نجاحا أكبر .

لذلك ركز الزعماء اهتمامهم على موضوع الحصص على المواد اللازمة لبناء آلات الحصار ، فراوا أن ليس في النواحي التي حولهم ما يحقق لهم غرضهم ، لكن شاء حسن طالعهم أن يكون في المعسكر اذ ذاك تصرانى من أهل الشام خرج مع بعض القادة وأرشدهم الى واد منعزل يبعد عن القدس ستة أميال أو سبعة ، وهو واد غنى بالأشجار الباسقة الكثيرة ، وان لم تكن كلها ملائمة تماما للوفاء بالغرض المنشود ، وان وجدوا بينها قدرا كافيا لتحقيق اربتهم فاستدعوا أعدادا كبيرة من الفعلة والنجارين ، فقطعوا الأشجار وحملوها على ظهور الجمال وعربات النقل ونقلوها الى المدينة ، ثم بحثوا في طلب الصنائع والمهرة الحاذقين في هذا النوع من العمل ، فاقبلوا جميعا عليه بنفوس متحمسة ، وقلوب لا يتطرق اليها الكلل ، ولا تكل عن المثابرة على استعمال القؤوس وغيرها من الأدوات المستعملة في عمليات الحفر حتى استطاعوا بما توفر بين أيديهم أن يبنوا ما شاءوا من الأبراج وآلات الرمي المعروفة بالمنجنيق وصنعوا كباش الهدم والمدكات لنقض الأسوار .

أما العمال الذين تطوعوا للعمل بلا أجر رغم نقص المادة بين أيديهم ، فقد كانت أجورهم من الهبات التي قدمها المخلصون ، والواقع أنه لم يكن عند أحد من الزعماء من المال ما يزيد عما لدى غيره وما يكفي لسداد أجور البنائين باستثناء كونت تولوز الذي كان أكثرهم ثراء ، فقام وحده من غير مساعدة من أي أحد آخر بدفع نفقات العمال التابعين له من جيبه وخالص ماله ، كما مد يد العون بالمال الى كثير من النبلاء الذين نضبت مواردهم .

بينما كان اكبر الزعماء مشغولين بهذه الأمور الهامة خرج غيرهم من وجوه القوم والبارزين فيهم ناشرين اللويثهم ، وساروا بالناس الى الأماكن التى كانت زاخرة بالغابات القصيرة الأشجار والأحراج ، فأخذوا منها أعواد الخيزران المستوية والفروع اللدنة ، وعادوا بها الى المعسكر على ظهور الجياد والحمير وكل مألديهم من دواب النقل ليعملوا منها شباكا لابد منها لاستكمال أعمال البنائين الهامة ، ودب النشاط فى كل ناحية ، وعمل الجميع فى حماسة لا تهن ، ولم يعد هناك واحد فى هذه المجموعة الكبيرة من الناس نراه عاطلا أو لاهيا ، بل اشتغل كل منهم بما يناسبه دون تفرقة بين فرد وآخر ، أو اعتبار لمكانة الشخص منهم فقد كل عمل مجد عملا شريفا ، وهكذا تعاون القوم : غنيهم وفقيرهم على السواء فى القيام بما بين أيديهم من الأعمال حتى لم يعد فيهم أحد الا وهو متحمس للعمل مقبل عليه اقبالا يستوى فيه الجميع ، لا يتأخر من كان منهم رفيع القدر عن مد يد المعونة لصغيرهم الذى كان ملتزما بما فرض عليه ، وشعر الكل ان جميع ما أنجزوه فى حجبهم لن يكون شيئا مذكورا ان لم يؤد بهم الى دخول المدينة ، فذلك ثمرة جهدهم والغاية التى تحمّلوا من أجلها كثيرا من الأهوال ، واعتبروا كل ما يكلّفون به شيئا تافها ان أدى الى ما يصبون اليه ، وفاء بالعهود التى قطعوها على انفسهم .

## - ٧ -

ثم بدأ الجيش يكابد الظما مكابدة فظيمة وذلك لوقوع بيت المقدس - كما قلنا - فى ارض مجدبة تماما خالية من الماء ، أما القنوات والينابيع والآبار العذبة فكانت بعيدة عنها ، وزاد الأمر مشقة ان لم يكد الأعداء يسمعون باقتراب الصليبيين حتى أفسدوا مصادر المياه هذه ، إذ راحوا يلقون فيها بالأوساخ ومختلف

الفضلات ليفقد المكان غير صالح لحصار طويل المدى ، وعمدوا الى بعض الصهاريج وخزانات مياه المطر فثقبوها فلم تعد تمسك ماء ، ومضوا الى البعض الآخر منها فأخفوها عن عيون الحجاج حتى لا يجدوا ما يروى لهم غلة أو يذل لهم صدى وهم فى حالة تبعث على اليأس .

ومع ذلك فطالما تردد أهل بيت لحم ومؤمنو مدينة الرسل «تقوع» على الجيش فيستترشد بهم الحجاج فى خروجهم الى العيون التى تبعد أربعة أو خمسة أميال من موضع الحصار ، فكانوا اذا بلغوها - وما يبلغونها الا بشق النفس - تدافعوا بالناكب ، وزاحم بعضهم بعضا عليها ، وحاول كل منهم أن يستأثر وحده دون صاحبه بالماء فيشسب العراك بينهم فيؤخرهم ذلك طويلا ، حتى اذا عادوا الى المعسكر عادوا بقريهم الجدية وفيها الماء المزوج بالعطين الذى قل أن تشفى القطرة منه ظما الظمآن ، ثم يبيعهونه جرعات صغيرة بأثمان باهظة .

ولم تكن بركة سلوام القريبة من المدينة والتى وصفناها حالا بقادرة على اسعاف العطاش المتضررين بما يكفيهم ، لأن مياهها - وان تكن كثيرة - لم تكن موصولة التدفق فى اوقات منتظمة ، كما ساعد الجوع وقبض يونيو على مضاعفة عذاب الحجاج ، فتزايدت شدة ظمئهم حدة حتى جفت حلوقهم ، وضائق صدورهم بسبب طبيعة عملهم والتراب المتصاعد ، لذلك أصيبوا يخرجون فى زمر متفرقة ويتشربون فى فجاج الأرض محتملين المشقة بحثا عن الماء ، وكان يحدث فى بعض الأحيان أن تظن هذه الجماعات الصغيرة انها عثرت على الماء الذى سعت اليه طويلا لكنها تصادف عند بلوغها اياه جموعا كثيفة تسعى الى الأخرى اليه أيضا ، ولذلك فكثيرا ما كانت تشب المنازعات بين بعضهم والبعض حين يعثرون على الينابيع ، واذا كان

كل فريق منهم يحاول صد الآخر عنها فكثيرا ما كان ينتهى الامر بهم الى قتال بعضهم البعض ، وكان المترجلون منهم اقدر - الى حد ما - على التخلص من عذابهم اذ يقتصدون فى استعمال الماء حين يعثرون عليه ، أما أصحاب الجياد الكثيرة فكان خطبهم جسيما ، اذ كان عليهم قيادة هذه الحيوانات الظمأى أربعة أو خمسة أميال حتى يصلوا الى الماء .

وكانت الحيوانات الشاردة التى عجز اصحابها عن امدادها بالماء تهيم وحدها على وجوها فى الحقول وتمضى خائفة القوى فى خطى قصيرة ، وكانت الجياد والبغال والحمير وقطعان الماشية والأغنام وقد امضت الظمأ القاتل تنفق حيث هى ، وترتب على ذلك أن فسد هواء المعسكر من جراء الروائح الكريهة المربوطة المتصاعدة من رمم هذه الحيوانات النافقة .

ولقد أصاب الناس خلال هذا الحصار - ما أصابهم وهم امام انطاكية - من ظمأ قاس لا يقل عن حاجتهم للطعام ، معا دفعهم الى التجوال فى غير حذر فيما يحيط بهم من النواحي يذرعونها بحثا عن الطعام ، وطلبوا للعلف اللازم للجياد ، واذ كان العدو عارفا تمام المعرفة بحاجة هذه الجموع الى العلف فكثيرا كان يباغتهم بالهجوم عليهم من نواحي المدينة التى خلت ممن يحرسها فيفتك بالكثيرين منهم ويسلبهم خيولهم ، اما الذين يقرون وقد اثقلتهم جراحهم فكانوا هم السعداء .

أخذ عدد رجائنا يتقلص يوما بعد يوم ، اذ لم يكن ينقضى يوم الا ويهلك الكثيرون بسبب شتى الحوادث التى يتعرض لها الانسان ، بالإضافة الى انقطاع أية امدادات أخرى تصلهم لتحل محل هؤلاء الهلكى وتؤدى ما كانوا يؤدونه من الأعمال .

أما قوات العدو فكانت فى تزايد مستمر وتكاثر موصول إذ كان حلفاؤهم يجدون طريقهم الى المدينة مفتوحا أمامهم من خلال النواحي التى لم يفرض عليها الحصار ، فيسرعون اليهم منتظمين الى قوات الأماهى لتدميرنا .

## .. ٨ ..

كان عسكرنا فى هذه الأثناء يبذلون فى العمل أقصى جهدهم ويصنعون الآلات وينسجون الشباك المجدولة ، ويشدون السلاالم بعضها الى بعض فى مهارة عظيمة ، كما كان المحصورون دائما على أتم أهبة لمقابلة المكيدة بالمكيدة ، ويحسنون الاستفادة من كل حيلة تساعد على المقاومة ، هذا الى ما كان متوفرا بالمدينة من العروق الخشبية المقطوعة من الأشجار الباسقة التى حملهم بعد نظرهم فى الدفاع عن القدس الى جلبها قبل وصول الصليبيين ، كما راحوا يعملون ما نعمله فصنعوا من هذه الكتل فيما وراء الأسوار آلات تطاول آلاتنا فى الارتفاع ، وإن تكن من مادة أفضل ، وبذلوا فى ذلك غاية البذل حتى لا تكون آلاتهم دون آلاتنا صنعة ولا مادة ، ولم يقصروا فى أن يقيموا على الأسوار والأبراج الكشافين الذين لا تغمض لهم عين عن مراقبة كل ما يجرى فى معسكرنا ، لاسيما فيما يتعلق بالفنون الخاصة بآلات الحرب ، فكانت لا تفوتهم شاردة ولا واردة وإن دقت الا وينقلونها فى الحال الى كبار رجالات القدس الذين يجاهدون فى مهارة فائقة فى محاكاة عمل الصليبيين ومقابلة كل جهودهم بنفس البراعة ، وكان هذا أمرا ميسورا نسبيا بسبب ما توفر لأهل بيت المقدس من العمال الذين هم أمهر من عمالنا ، كما كان عندهم من أدوات البناء ما يفوق أدواتنا دقة صنعة . هذا الى جانب أنهم كانوا ظاهرين علينا بفضل ما توفر عندهم من الحديد والنحاس

والحبال وغير ذلك من الأشياء اللازمة لهم ، كما أصدرنا مرسوما  
عاما يلزم جميع المواطنين بالمساعدة فى العمل وفرضوا كثيرا من  
الالتزامات المرهقة على المؤمنين القاطنين بالمدينة ، المتحملين عذاب  
الرق اذ يرغمونهم على ممارسة اعمال لم يالفوها ، ويغتصبون منهم  
الأموال الجمة بالعنف ويسوقونهم الى السجون مصفدين فى الأغلال ،  
حذرا من أن يؤدى تعاطفهم مع الصليبيين لأن يكشفوا لهم عن عورات  
البلد الخفية ، ولم يكن أحد من المؤمنين يجرؤ على اعتقال الأسوار  
أو حتى على الظهور علانية مالم يكن معه حمل يحمله ويجرى به  
كأنه الدابة ، كما أرغموهم على رفع الأحمال الثقيل ، وأجبروا كل  
من هو متقن لحرفة على القيام بها ، وكانوا يسرعون بتوقيع العقاب  
عليهم لأتفه التهم والوشايات التى يرمون بها ، ويلزمونهم بأن  
يستضيفوا فى بيوتهم من فروا الى القدس من اللاجئين من القلاع  
والقرى المجاورة ، ويحملونهم على امدادهم بكل ضروريات العيش ،  
وعلى الرغم من أن مواد معيشتهم لم تكن كافية لسد أدنى احتياجاتهم  
هم أنفسهم وحاجات أهل بيوتهم ومن يعولونهم الا أنهم فرضوا عليهم  
السمعاع للأغراب أن يشاطروهم القليل الذى يملكون ، مع أنهم هم  
ذاتهم كانوا فى ميسيس الحاجة الى هذا القليل هم وذوهم ،  
وكان أولو الأمر اذا احتاجوا لشيء ما فى عمل عام يادروا الى  
اقتحام بيوت المؤمنين فيأخذون غضبا من ملاكها كل ما هم فى حاجة  
اليه وكان المسيحيون أنى وجدوا وفى أى ساعة من ليل أو نهار  
عرضة للاستدعاء ، فإن حال أى حائل بينهم وبين الاستجابة فى  
الحال لما طلب منهم أمسكوهم فى الحال مسكا فاحشا اذ يجذبونهم  
من شعورهم ، أو يأخذونهم من لحاهم ويسحبونهم على وجوههم  
فى فظاظة تحمل حتى العدو على الرثاء لهم .



ويبدو انه لم يكن ثم حد ولا نهاية للأهوال والصعاب التي  
تطحنهم بثقلها ، ولأقوا من العذاب فوق ما يحتمل مما أسلمهم الى  
اليأس الذي ليس بعده يأس حتى تمنوا الموت في سبيل السيد على  
استمرارهم في الحياة على ظهر الأرض ، ولا مراء في أن وجودهم  
التعس لم يكن يزيد عن أن يكون كالعدم ، إذ لم يعودوا ينعمون ولو  
ببوم راحة أو هدوء تخمض لهم فيه عين .

فكان إذا حدث شيء كريه نسب حدوثه اليهم مما حملهم على  
إغلاق دورهم فأغلقوها على أنفسهم ، لا يجروون على مغادرتها والا  
ثارت حولهم الشكوك وتعرضوا للآهانات من كل واحد ، وما مرت  
لحظة الا واتهموا ظلما وبهتاناً .

#### - ٩ -

بينما كانت هذه الأمور تجرى على هذا المنوال والحصار  
مضروباً على القدس إذا برسول يفد مخبراً بوصول مراكب من جنوة  
الى ميناء يافا ، وقد بعث هؤلاء القادمون الجدد الى الزعماء  
الصلبيين يلتمسون منهم أن يزودوهم بعسكر من الجيش يحرسهم  
عساهم يمشون في حراستهم وقيادتهم سالمين الى القدس .

ويافا مدينة على ساحل البحر يتكلم عنها «سولينوس» في الفصل  
التاسع والثلاثين من كتابه « أخبار عالمية » فيقول : انها أقدم مدن  
العالم كلها ، إذ يرجع تأسيسها الى زمن ما قبل الطوفان ، ويمكن  
للإنسان أن يشاهد هناك صخرة لاتزال تحمل آثار السلاسل قيدت

بها « اندروميديا » التى تعرضت فى هذا الموضع ( حسبما جاء فى احدى القصص القديمة الصادقة ) لوحش بحرى ، كما ان « ماركوس سكاوروس » يشير الى حقيقة هى أنه فى اثناء ولايته لروما عرض عظام هذا الوحش مع اشياء أخرى عجيبة ، وقد وردت هذه الحقيقة فى الحوليات ، كما ذكرت مقاييس الوحش الحقيقية ، فاضلاعه تجاوزت الأربعين قدما طولا ، أما ارتفاعه فأعلى من فيلة الهند ، كما أن الواحدة من فقرات ظهره كانت أكثر من نصف قدم عرضا .

ويشير جيروم - فى وثيقة رثائه سنت بارولا - الى نفس الشيء فيقول هذه الكلمات : « لقد رأيت هى أيضا ميناء يافا الذى هرب اليه « جوناس » ، وهى نفس المدينة التى شاهدت « اندروميديا » مقيدة الى الصخرة كما تقول قصص الشعراء » .

ولقد استجاب الى هذا الالتماس (٣٤) كروت تولوز الذى كان له من الأموال مايفوق به بقية الزعماء ، فأرسل - بموافقة الجميع - الى هناك واحدا من النبلاء الذين فى معيته وهو « جيلدمار » اللقب « بكارينيل » على رأس جماعة تتألف من ثلاثين فارسا وخمسين من المشاة ، ولكن تبين للزعماء بعد رحيل تلك الجماعة أن هذه القوة ليست بكافية لأداء مهمة شاقة كهذه المهمة ، فالتمسوا من الكونت أن ينجدهم بقوات اضافية ، فاستجاب لهم ، وأرسل زيادة على ذلك خمسين فارسا آخرين يشدون أزر الطائفة الأولى ، وجعل عليهم رجلين قادرين بارزين ، هما « ريموند » بيليه ووليم «السابراتى» .

---

(٣٤) المقصود بهذا الالتماس ماطلبه بحارة الأسطول الجنوبي من ارسال طائفة من العسكر الصليبي لحمايتهم فى التقدم الى بيت المقدس .

كان جيلدمار - الذى سبق هذه الجماعة فى الخروج - قد دخل السهل المحيط بالك والرملة حين اعترضته جماعة من العدو تقدر بستمائة من الرجال الأشداء الذين سرعان ما وثبوا عليه وقتلوا بأربعة من فرسانه ، وبالعديد من مشاته ، وعلى الرغم من قلة المسيحيين الا أنهم قاوموا ، واسعفتهم المقاومة وراح كل منهم يشد من عزم أخيه على القتال ، حين شاء حسن الطالع أن يصل اليهم القائدان الآخران اللذان كانا وراءهم ، وذلك قبيل الفراغ من المعركة ، فرميا بنفسيهما فيها بمن معهما ، وانضم العسكر كلهم بعضها الى بعض وكرروا على العدو كرة مكنتهم بفضل المعونة الالهية من قتل مائتين من رجاله ، وأجبروا بقيتهم على الفرار ، أما المسيحيون فقد هلك منهم فى هذا الصراع اثنان من كبارهم ، هما جيلبرت دى تريف « وايكارد دى مونتميرل » فلما عرف الجيش خبر مصيرهما عمه أسى غير قليل . وبعد أن جادت العناية الالهية عليهم بهذا النصر تابعت الكتيبة مسيرها الى يافا التى هى غايتهم ، فوصلوها آمنين ، فتلقاهم البشارة الجنويون بالفرجة ، وعمتهم السعادة لفرط ما صار بينهم من ود ، وما كان بينهم من شيق الحديث ، ثم أقاموا بها فترة من الوقت فى انتظار أن يفرغ هؤلاء القادمون بحرا من انزال متاعهم واعداد أنفسهم للسير .

لكن ظهر الأسطول المصرى فجأة ذات ليلة امام المدينة على غير توقع من أحد ، وكان هذا الأسطول راسيا عند « عسقلان » يتحين الفرصة لايقاع الأذى بالصليبيين ، فما سمع الناس بهذا النبا حتى هبوا مسرعين الى الساحل ، وحاولوا فى بادئ الأمر حماية السفن مما يدبره العدو ، بيد أنهم سرعان ما أدركوا ضآلة قواتهم ضآلة لا تسعفهم بمقاومة مثل هذا العدد الكبير ، ومن ثم جردوا المراكب

من أشرعتها وحبالها وبقية تجهيزاتها وحملوا كل ذلك معهم ، ثم انسحبوا بما حملوا الى القلعة .

غير أن سفينة واحدة كانت غائبة فى جملة استكشافية ثم عادت موسوقة بالغنائم ، فلما رأت العدو قد ملك ميناء يافا تابعت اذ ذاك أبصارها وكانت الريح رخاء فمضت حتى بلغت اللاذقية سالمة .

كانت مدينة يافا فى هذه الآونة مقفرة تماما من سكانها الذين تضاعلت ثقتهم فى قدرة تحصيناتها فهجروها قبل وقت قصير من وصول المسيحيين ، فانصرف جنودنا لاحتلال القلعة دون سواها ، حتى اذا أصبح كل شيء على أهية الرحيل شخص الوافدون الجدد الى بيت المقدس بكل ما معهم من المتاع ، ومضوا تحت الحراسة المسلحة التى جاءتهم لتدلمهم على الطريق ، فلقبتهم الفيالق المسكرة امام القدس بالفرحة الغامرة ، لأن حضورهم جدد الأمل فى النفوس بالعون الكبير ، اذ كانوا اهل تجربة ومراس ، كما كانوا مهرة فى فن البناء كعادة البحارة دائما ، هذا الى جانب براعتهم فى قطع الأشجار ومسحها وتهيئة الكتل الخشبية المناسبة وصنع الآلات فى أقصر وقت ممكن ، يضاف الى هذا ما أحضروه معهم من أشياء متنوعة برهنت على جدواها فى الحملات الحربية ، وتيسر لهؤلاء الحجاج - بمساعدة أولئك الجنوية لهم - من انجاز ما كان صعبا مستحيلا قبل مجيء هؤلاء الجنوية .

— ١٠ —

داب الذين تخلفوا فى مكان الحصار على القيام ببناء الآلات ، وتم لهم اتمام جانب من عملهم هذا ، وكان الدوق وكونت فلاندرز وكونت نورماندى قد وكلوا الاشراف العام على العمل الى « جاستون

دى بيارن » وكان رجلا حازما عظيم القدر ، فالتمسوا منه أن يشدد الرقابة القمالة على العمال حتى لا يتراخوا فى العمل الموكول اليهم ادأؤه ، كما أن الزعماء طالما خرجوا بأنفسهم على رأس طوائف كبيرة من الناس لقطع الخشب الذى يعودون به الى المعسكر لاتمام عمليات البناء المختلفة ، وكان البعض منهم يقوم بقطع الفروع والشجيرات والأغصان وتكويمها ، ثم يجدلونها صفائر يكسسون بها الآلات من الخارج ، ويقوم غيرهم بسلخ جلود الحيوانات النظيفة منها والقذرة على السواء ، التى تكون قد نفقت ظلما أو ذبحت وراحوا يغطون أسطح الآلات بهذه الجلود لحمايتها من أن يذالها ضرر ان قذفها العدو بالنار من أعلى حتى يعطبها .

ولقد أدت حماسة الدوق والكونتين المذكورين الى بث النشاط العظيم فى المعسكر الموجودين على الجانب الشمالى من السور ، كما دبت نفس الحماسة فى القائمين على امتداد هذا الجزء من التحصينات من البرج الموجود فى الركن حتى البوابة الغربية الموجودة تحت برج داود ، كما أن قوات لورد تانكريد وغيره من السادة الآخرين الميثوثة معسكراتهم فى تلك الناحية قاموا بنفس العمل ، وأظهروا من النشاط ما لا يقل عما أظهره غيرهم .

وتابع عسكر كونت تولوز وجميع من معه عملهم فى الناحية الجنوبية فى حماسة لا يتطرق اليها الكل ولا يعترها الفتور ، بل أن حماسهم فى هذا المجال لم يكن لها مثل ، ذلك لأن الوسائل المادية المترفة لريموند ( كونت تولوز ) كانت أكبر مما توفر للزعماء الآخرين ، بالإضافة الى ما جاء له منذ قريب من امدادات جديدة من الرجال والعتاد ، فقد انضم الى معسكره كل الذين جاءوا على السفن ( الجنوبية ) وجلبوا معهم كثيرا من المعونات كالحبال

والقؤوس وغيرها من الأسوات الحديدية التي لا يمكن الاستثناء عنها لصنع الآلات الحربية ، وكان في هؤلاء الرجال عمال مهرة دربوا على صنعها وإقامتها ، وكانوا - كما قلنا - أهل خبرة ، قادرين على ابتداء كل جديد يؤدي إلى سرعة العمل ، كما أن الشريف ولهم « أمير ياكوس » قائد الجندية لم يدخر جهدا ولا وقتا في موضوع بناء الآلات .

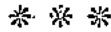
ظل الجيش بأكمله يبذل قصارى جهده على مدى أربعة أسابيع في أداء العمل الذي تم بعد مشقة كبيرة ، وإذا كان أخذ الزعماء في التشاور فيما بينهم فاتفقوا على يوم مدين للهجوم على المدينة .

على أنه في هذه الأثناء شب خلاف حاد بين كونت تولوز وأورد تانكريد ، كما دب الشقاق بين بعض النبلاء الآخرين لأسباب متعددة ، وحينذاك رأى الزعماء والأساقفة ورجال الدين ، بل وعامة الناس أن الضرورة تحتم - قبل كل شيء - إعادة الوفاق والود على أحسن ما يكون الوفاق والود ، فاتجهوا بقلوب صافية إلى العناية الإلهية يسألونها العون .

- ١١ -

لذلك نودى في الناس نداء عام بصوم يوم حدد لهم ، فلما جاء هذا اليوم المحدد خرج الأساقفة ورجال الدين حفاة في مسوحهم الكهنوتية يجللهم الوقار التام ، وساروا ومن خلفهم كل اتباعهم ، ويمموا وجوههم شطر جبل الزيتون ، رافعين في أيديهم الصليبان وأثار القديسين ، ووقف الموقر بطرس الناسك وأرتوف الرجل العالم صديق كونت نورماندى في الناس خطيبين ، واسعفتهم بلاغتهما ،

قطالبا الجميع بالتمسك بالصبر ، والتحلى بروح التسامح تجاه بعضهم البعض .



ويقع جبل الزيتون على مسافة ميل واحد من شرقي المدينة وراء وادى يهوشافاط ، الذى يتكلم عنه القديس لوقا فيقول انه على مسيرة مرحلة (٣٥) يوم من بيت المقدس ، وقد صعد من هذا الجبل مخلصنا الى السماء بعد اربعين يوما من قيامته ، وكان ذلك على مشهد من تلاميذه ، فلفته سحابة حجبته عن انظارهم .

ولما وصل المؤمنون الى هذا المكان توجهوا الى الله بقلوب خاشعة ونفوس منكسرة ، يرجون منه العون ، وقد تصاعدت زفاراتهم وانائهم من صميم اقتداتهم ، وتصافى الزعماء بعضهم مع بعض ، قلما فرغوا من ذلك كله نزلوا من الجبل ، ودخلوا ثمانية كنيسة جبل صهيون ، الواقعة كما قلنا قرب المدينة من الناحية الجنوبية على قمة التل .

واذ ذاك استبدت الدهشة بالاهالى من رؤية هذا الموكب وهو يدور حول المدينة ، ولم يدركوا مغزى هذا الدوران ، ثم اتخذوا اماكنهم على الأسوار والأبراج ، وشرعوا يقذفون السهام ويرمون بالمنجنيق صفوف الصليبيين المتراصة ، فأصيب بعض من رجالنا الذين لم يأخذوا حذرهم .

وعند الأعداء الى اظهار احتقارهم وازدراءهم للصليبيين اذ رفعوا الصليبان على الأسوار وراحوا ينالونها بكل قبيح وزادوا

---

(٣٥) ورد بها كلمة « سبت » في اعمال الاسل ١ : ١٢ - حدث بقول « جبل الزيتون بالقرب من اورشليم على سفر سبت » .

فبصقوا عليها ، ونالوها بالفاظ زرية ، كما راحوا يجدفون فى حق  
سيدنا عيسى المسيح وفكرة الخلاص •

اما المسيحيون فعلى الرغم من تسعر غضبهم عليهم الا أنهم  
استمروا فى الوفاء بما عاهدوا أنفسهم عليه حتى بلغوا الكنيسة  
وهى قبلتهم •

ولما فرغوا للمرة الثانية من صلاتهم اجمعوا على تحديد يوم  
يشنون فيه هجومهم على المدينة ، ثم عاد الجيش الى معسكرهم بعد أن  
فرغ الموكب من دورانه حول البلد ، وصدرت الأوامر انه اذا تبين  
لهم نقصان أى شئ لابد منه لاتمام نجاح مهمتهم فعليهم احضاره  
فى الحال حتى لا يترتب على ذلك أى تأخير فى الهجوم •

واقترب اليوم المحدد للهجوم على المدينة ، فلما كانت الليلة  
السابقة له نقل الدوق والكونت العظيمان معسكرهما لأنهما رأيا أن  
سور هذه الناحية التى يحاصرانها كان شديد الحصانة ، بسبب  
ما هو متوفر فيه من الآلات والأسلحة والمحاربين المهرة ، ولما كان  
الأعداء على حق فى توجسهم الخيفة من هذه الناحية فقد اهتموا  
بتحصينها تحصينا عرف منه القادة ( اللاتين ) الا أمل لهم فى انجاز  
الكثير فى غدهم •

ثم نظروا فأروا - عن حق - ما عليه الجانب الآخر من القدس  
الذى لم يحاصروه من ضعف فى الحراسة ، ومن ثم عمدوا فى ليلتهم  
هذه الى اعمال النظر وبذل الجهد الكبير فى نقل الاتهم الحربية  
- والبرج الذى شيده - قطعة قطعة قبل ضم بعضها الى بعض الى  
ذلك القسم من المدينة ، وهو القسم الواقع بين بوابة القديس استفان  
وبين البرج الموجود فى الركن الشمالى المطل على وادى يهوشافاط .



وانتقل المعسكر الى هناك ، وكان العمل الشاق الذى نهضوا به طوال الليل قد مكنتهم من نقل الآلات الحربية وتركيبها ووضعها فى الأماكن المناسبة قبل شروق الشمس ، كما نصبوا البرج المتحرك على التحصينات عند مكان كان السور فيه منخفضا بعض الشيء ، والوصول اليه سهلا ، وقد تم وضعه على هذه الصورة حتى يستطيع المدافعون الذين فى البرج القتال بالأيدي ، ومن هذا يستدل على أن المهمة التى أنجزوها لم تكن يسيرة ، لأنه كان قد تم نقل الآلات قبل بزوغ الشمس مسافة نصف ميل من الموضع السابق للمعسكر ، ثم ضموها الأجزاء بعضها الى بعض ، ووضعوا الآلات فى أماكنها الجديدة .

ولما بزغ الفجر أسرع الأهالى الى الأسوار لمشاهدة ما كان يفعل الصليبيون وراءها ، فراعهم انهم لم يروا أثرا للقسم من المعسكر الذى كان موجودا على مدى اليومين السالفين ولا لمعداته هناك ، لكنهم لما تفرسوا فى ناحية منطقة السور تكشف لهم أن معسكر الدوق قد انتقل من هذا الموضع ، ونصبت بدله المعدات الحربية .

وفى خلال هذه الليلة ذاتها ، تابع الزعماء الآخرون أيضا عملهم فى جهات أخرى من المدينة ، فنقلوا معسكراتهم على النسق الذى اتفقوا عليه ، واستمروا قائمين بالحراسة بعين لا يغمض جفنها ، ونصبوا آلاتهم ، وقام كونت تولوز فى الوقت ذاته الى البرج الذى اهتم بصناعته كل الاهتمام ، ونصبه على الاستحكامات الموجودة فيما بين كنيسة جبل صهيون وبين المدينة ، كما أن الزعماء الآخرين الذين يحتلون المكان الواقع حول البرج الموجود فى الزاوية والمعروف الآن ببرج تانكريد كانوا قد نقلوا - بمثل هذه العناية وذلك الجهد - برجا خشبيا يكاد يضاهى الأبراج الأخرى فى ارتفاعه وقوة بنيانه .

كان الشبه قويا بين الآلات الثلاث فى الشكل وفى دقة المصنعة ،  
فهى مربعة الصورة ، كما كان هناك سور مزدوج يحصى جانب كل  
واحدة من هذه الآلات القائمة فى مواجهة المدينة .

ثم عمدوا الى حيلة ماهرة مكنتهم من انزال البرج الخارجى  
بصورة معينة ليصبح معها جسرا يربط بالسور ، مما أمد الجنود  
بالموسيلة التى ساعدتهم على دخول المدينة ، ولم تدع هذه الحيلة  
القسم الذى به الآلة معرضا لشيء ما ، لأنه حين ارخاء الساتر  
الخارجى فان الطبقة الثانية التى تحته تتيج حماية كالحماية التى  
تتعم بها الجوانب الأخرى .

- ١٣ -

رتب الصليبيون أمرهم على أن يكون جيشهم واقفا بأجمعه  
وفى كامل عدته أمام المدينة عند طلوع النهار استعدادا للهجوم ،  
ولم يكن يشغل القلوب سوى شاغل واحد هو : أما أن يستردوا بيت  
المقدس لتتعم بحريتها المسيحية ، وأما أن يضحووا بأنفسهم من أجل  
المسيح ، ولم يكن فى هذا الجيش الكثيف مسن أو مريض أو غلام  
الا وقد تملكته الحماسة وعصفت به الלהفة واستبد به الشوق الى  
القتال ، حتى ان النساء لم تمنعهن أنوثتهن ولا ضعفهن الطبيعى  
من الاقدام بلا مبالاة على حمل السلاح لخوض المعركة بجان ثابت  
فوق طاقتهن ، وهكذا تقدم الصليبيون جميعهم صفوا واحدا للمعركة ،  
محاولين دفع الآلات المستحدثة البناء الى السور عسى أن تسهل  
عليهم مهاجمة من يشدون فى مقاومتهم فوق الحواجز والأبراج .

أما الأهالى فقد صمموا من ناحيتهم على صد عدوهم حتى  
أخسر رمق فيهم ، فراحوا يملطرونهم بوابل هتآن من النبال

والسهام ، ويرمونهم بالحجارة تقذف بها الأيدي أو الآلات بصورة مروعة ، لأنهم كانوا مجمعين العزم على أن يحولوا بين رجالنا وبين الاقتراب من السور ، غير أن الصليبيين الحجاج لم يكونوا يقلون عنهم نشاطا ، فاحتسوا بدروعهم ، ونشروا أمامهم ستائرهم المجدولة ، وراحوا يمطرونهم بسيل من السهام يطلقونها من أقواسهم ، واكتنفوهم بالقذائف وبالطلقات تنصب عليهم من الآلات ، كل ذلك والحجاج يحاولون الاقتراب من التحصينات ، وكانوا يبذلون غاية جهدهم لقل عزائم خصومهم ، فلم يكونوا يتيحون لهم لحظة واحدة يلتقطون فيها أنفاسهم ، وحاول بعض من فى داخل البرج المتحرك أن يدفعه الى الأمام بواسطة الأعمدة ، كما أن غيرهم من الواقفين عند الآلات شرعوا يقذفون الأسوار بالأحجار الضخمة ، أملأ منهم فى أن يدب فيها الضعف فتسقط من الرمى المستمر والقذائف الموصولة ، المتصل بعضها ببعض . وكان هناك قوم غير هؤلاء قد تسلحوا بأسلحة صغيرة يسمونها المتجنيق ، ترمى حجارة دون هذه حجما ، ويعملون فى غير تراخ عساهم يمنعون المدافعين الموجودين بالأبراج من إصابة مقاتلينا بأى ضرر .

على أن الصليبيين الذين كانوا يحاولون دفع الآلة الى الأمام لم ينجحوا النجاح الذى كانوا يطمعون فيه بسبب وجود خندق واسع عميق أمام المتاريس ، وقد وقف هذا الخندق عقبة كأداء عطلت تقدم الآلة الى الأمام ، كما أن الذين كانوا يحاولون عمل ثغرة فى الأسوار لم يحرزوا النتائج المرجوة ، وذلك لأن الأهالى الذين كانوا وراء الأسوار دلوا زكائب مملوءة بالقش ، وعلقوا كتل الخشب الضخمة والوسائد المحشوة بالحريز ، فأفسدت هذه الأشياء اللينة المدينة مفعول ضربات القذائف ، وقضت على جميع محاولات المهاجمين ، هذا بالإضافة الى أن ما نصبه العدو داخل المدينة من

الآلات كان أكثر عددا مما عندنا ، وكانت السهام والأحجار التي لا تكف آلاتهم عن رميها تفوق عمل الصليبيين \* .

على أنه كان كل من الجانبين يبذل أقصى جهده ، كما تدفعه كراهية حادة نحو الآخر لقتاله \* . لذلك استمرت المعركة من الصباح حتى المساء ، وكانت معركة حامية الوطيس موصولة بصورة تتجاوز كل ظن ، فكانت الرماح والقسي تنهال كصيب من السماء على كلا الجانبين ، وكانت قذائف الأحجار التي يرمى بها كل خصم خصمه يصطدم بعضها ببعض وهي مازالت في الجو ، ثم تسقط فتهلك المقاتلين وتصيبهم بشتى أنواع الهلاك \* .

وتساوى جميع مقاتلينا فيما لاقوه من عنت ، سواء منهم من كان مع الدوق ، أو كان مستظلا بعلم كونت تولوز ، أو غيرهما من القادة ، ذلك الهجوم كما قلنا كان يأتي في آن واحد من ثلاثة محاور ، ويتسم بنفس السسمة من العنف والضرارة ، كما أن العمل تزايد أمام الصليبيين زيادة كبرى ، لأنه كان يتحتم عليهم ردم الخندق بالانقاض والأحجار والتراب ، قبل أن يتمكنوا من شق طريق تتحرك عبره آلات القتال \* .

وكانت مهمة المدافعين في إعاقة القوات المحاصرة شاقة كل المشقة ، فقد استمروا في بذل الجهد الجبار لصد أنشطة المحاصرين العنيفة ، كما دفعهم اليأس إلى محاولة إشعال النار بآلات الصليبيين الحربية فشرعوا يقذفونها بالجمر المتقد ، ويرمون بها بالسهم الحملة بالكبريت المشتعل والقار والزيت ، وبكل ما يؤجج النيران ضراما ، وزيادة على ذلك فقد كانت آلات العدو الضخمة التي بنيت داخل المدينة تسدد قذائفها تسديدا محكما إلى آلات الصليبيين الموجودة في الخارج ، حتى أخذت هذه الآلات تضعف وكثرت في جوانبها

الثقوب ، فاشتد جزع المقاتلين المسيحيين الذين كانوا قد صعدوا الى  
أدوار البرج العليا لمهاجمة المدينة من هذا الارتفاع ، ولم تقدر لهم  
الحياة الا بطرح انفسهم من شاهق ، وأخيرا عمد الصليبيون الى  
صب المياه بكثرة من عل ، فقيض لهم النجاح فى تحليل جهود رماة  
النيران ، وبذلك أمكنهم اخماد لهيبها .

- ١٤ -

أدى دخول الليل لوضع خاتمة لهذا القتال الذى كان قد اضطرم  
اضطراما كبيرا وسط الخطر البالغ وان لم يحسم الأمر ، غير أن  
المقاتلين أصابوا خلال الحراسة الليلية - قسطا من الراحة الجثمانية ،  
وان كان القلق النفسى الذى لم ينقطع اطار النوم من عيونهم ولم  
يقلل من مشقتهم ، فقد كانت قلوبهم التى اترعت غما تضطرب بين  
صدورهم حرصا منهم على تحقيق غرضهم ، فانتظروا طلوع النهار  
حتى يعاود كل جانب منهم القتال ، وكانوا اثناء ذلك يتحرقون شوقا  
لخوض المعركة مرة أخرى ، لأن ايمانهم بالرب كان يحملهم على  
الثقة فى أنهم ملاقون حقا أطيب يؤتيهم بالنصر .

بيد أن ذلك لم يقلل من فزعهم من أن يتمكن العدو - بحيلة أو  
بأخرى - من أن يضرم النار خلصة فى الآلات ، ومن ثم فرضوا عليها  
الحراسة المستمرة ، وأمضوا ليلة لم تنق عيونهم فيها للكرى طعما .

وكان فزع المحصورين لا يقل عن فزع هؤلاء ، فقد كان أشد ما  
يقلق بالهم ويزعج خاطرهم أن يغتتم العدو فرصة سكون الليل فيدخل  
عليهم المدينة لاسيما بعدما رأوا هجمته الشرسة بالأمس عليهم ، وقد  
يكون سبيله فى ذلك اما باحداث ثغرة فى سورها أو بتسليق حصونها ،  
لذلك أمضوا الليل بأكمله وهم يبذلون أقصى العناية فى حراسة

منطقة التخصيصات ، وكان الوضع يتطلب منهم غاية الجِد لأن الأمر عندهم كان أمر حياة أو موت ، لذلك أقاموا في كل برج ضباطا للحراسة الليلية .

وكان كبارهم في هذه الأثناء ، ومن وكلت اليهم مسئولية حفظ المدينة لا يكفون عن السير في شوارعها ، يوصون الناس باليقظة التامة حفاظا على نسايتهم وأبنائهم وممتلكات أيديهم ، ورعاية للسلامة العامة ، كما أخذوا أنفسهم بالتدقيق في فحص الأبواب وضبط الطرق ، حتى لاتتاح للعدو فرصة يباغتهم فيها بحبائله .

هكذا كانت الكروب تضرب هذا الجانب بما تضرب به الجانب الآخر فلم ينق أحدهما طعاما للراحة لانشغال باله ، وكان الفرع العقلى الدائم الذى ران على قلوبهم قد وفر في أذهانهم من الاضطراب ما هو أشد هولاً في الواقع من معركة الأمس .

- ١٥ -

أوشك الليل على الانصرام ، وبدأت خيوط الضياء الأولى تعلن اقتراب النهار الذى كانوا يترقبونه بفارغ الصبر حين نودى في الناس مرة أخرى للقتال الذى كانوا يشفقونه اشتياقا كبيرا ويتحمسون له حماسة بالغة ، فيادر كل منهم في لحظته الى المهمة التى نيطت به البسارحة ، فوقف البعض عند آلات الرمي قاذفين الأسوار بالأحجار الضخمة الثقيلة الوزن ، ووقف البعض الآخر في أماكن تحت هذه بأذلين أقصى الجهد ومنتهى القوة في دفع آلة الحصار الى الأمام .

وكان هناك غير هؤلاء وهؤلاء من اتخذوا مكانهم في الطابق العلوى من نفس الآلة ينضحون العدو الموجود في الأبراج المواجهة

بوابل هتان عن اقواسهم وسهامهم وبما عندهم من الأسلحة ، وهكذا كان القصف مستمرا وفعالا حتى عجز المدافعون عن رفع أيديهم عما هي مشغولة به ، واضطروا الى البقاء حيث هم ، فلما تم ردم الخندق ونقب الأسوار الأمامية استمات بعض المحاصرين في دفع البرج ليصبح اقرب مايكون الى السور ، كما ان قوة اكبر من هذه القوة واصلت في هذه الأثناء رمى الحجارة والسهام لرد المهاجمين على أعقابهم ، حتى لا يكونوا عقبة في وجه من يقومون بدفع الآلة الى الأمام .

فلما رأى الأمايلى تزايد جهود الصليبيين استماتوا من جانبيهم في شجب كل خطة فيقابلونها بخطة مثلها ، وراحوا يردون القوة بالقوة ، وتابعوا نشاطهم في صد المحاصرين ومن يحاولون التقدم بالبرج ، فأخذوا في رميهم بالسهام والأحجار ، وأسفر نشاطهم العجيب عن نجاحهم في صد تقدمنا ، ولما كانوا يطعمون في القضاء المبرم على محاولتنا هذه فقد عمدوا الى قذف الآلات بالنار يصبونها عليها في جرار مشة وماشاكلها مما يتوفر بين أيديهم ، كما رموهم بالكبريت والقطران والزيت والدهون والشمع والخشب اليابس والحشائش الجافة وبكل ما يصلح أن يكون وقودا يذكى النار اشتعالا ، مما أسفر عن انزال الأضرار الفادحة المزعجة بكلا الجانبين المتقاتلين فهلك كثير من الفرسان والجند المشاة بسبب تلك الأموال والأحداث التى لم تكن في الحسبان اذ أصابت بعضهم القذائف من الآلات فتفتتوا ومزقوا تمزيقا ، وسقط بعضهم فجأة بسبب القسي والحرا ب ، فانهحشروا ما بين جواشئهم ودروعهم ، وربما مات بعضهم في لحظته من حجر رمته به يد أو من قذيفة قذفته بها آلة فصرعته ، وخرج بعضهم ليعيشوا أياما أو الى آخر عمرهم بأطراف مبتورة ، أو أصابهم الشلل فلم يعيدوا يستطيعون حراكا ، على أن هذه الأخطاء

كلها لم تكن قادرة على منع الرجال من الجانبين المتصارعين من الاستمرار فيما هم فيه ، أو قل عزمهم عن مواصلة القتال في اصرار متسهم بالعنف ، وما كان هناك من أحد ما بقادر على أن يقرر أى الفريقين كان أكثر حماسة من الآخر .

على أنه ليس من الحق أن نمسك عن الإشارة الى حادث بارز يقال انه حدث في هذا اليوم ، وذلك أنه كان عند الصليبيين آلة من بين آلاتهم التي كانت خارج الأسوار أحدثت هلاكاً مدمراً في صفوف المدافعين بسبب ما كانت ترميهم به من صخور ثقيلة رمياً جبّاراً ، فلما رأى المارقون أن ليس عندهم آلة تضاهي هذه الآلة في عنفها ، جاءوا بساحرتين عسى أن يبطل سحرهما فعل الآلة ابطلا لا تعود فيه للعمل . فارتقت المراتان السور ، وراحتا تمارسان سحرهما ، وإذا بحجر ضخم ينطلق من نفس الآلة فيصيبهما ويسحقهما ومعهما ثلاث بنات كن في خدمتهما ، فهوت جثثون جميعاً من السور ، فلما طالع الجيش الصليبي هذا المنظر ، تعالى تصفيقه وضج بالهتاف ، ولم يبق أحد في معسكرنا الا وقد غمرت الفرحة قلبه ، أما أهل بيت المقدس فقد امتلأت نفوسهم غماً بسبب هذه النكبة .

#### - ١٦ -

على الرغم من استمرار القتال حتى الساعة السابعة من ذلك اليوم الا أنه لم يسفر تماماً عن أى الجانبين سوف يحرز النصر . وبدأ اليأس يتسرب الى نفوس الصليبيين الذين أثقلتهم فداحة الجهد الذي بذلوه ، فتراجعوا في عملهم وراوا البرج يكاد أن يكون قد دمر تمام التدمير بسبب ما ناله من القذف المستمر ، كما تعالى الدخان من الآلات الأخرى من جراء ما رميت بها جاورها من الحطب المشتعل، فرأى الصليبيون أن خبر ما يفعلونه في هذه الظروف هو أن يسحبوا



هذه الآلات الى الوراء قليلا على نية مواصلة القتال في الغد ، وترتب  
على ذلك أن تشكك قومهم في نجاحهم فراحوا يتسللون لواءا .

أما العدو فكان الأمر عنده على العكس من ذلك ، إذ ضاعف من  
ضراوته وعربدته ، واندفع يقاتل بعنف أشد من العنف الذي اتسم  
به قتاله حتى الآن .

على أنه في وسط هذا اليأس الغامر المطلق جاءت النجدة  
السماوية للمؤمنين قاسعفتهم بما يرتجون ، إذ تراءى لهم على جبل  
الزيتون مجارب لم يره أحد أبدا بعدئذ في هذا الموضع ، وقد راح  
يلوح لهم بدرع يكاد يرقه يأخذ بالابصار ، ويشير به الى العسكر  
أن يعودوا المتابعة ما هم فيه من قتال .

وكان دوق جود فروى وأخوه استاس قد اخذا مكانهما في  
الطابق الأعلى من البرج المتحرك ليمسهما بدورهما في الهجوم  
وليتأكدا من صيانة آلة الحصار صيانة تامة ، فلما شاهد الدوق هذا  
الشبح العجيب صفقت جوانحه سرورا ، وشرع في لحظته ينادى على  
الناس وكبار القواد بصوت جهورى أن عودوا لما كنتم فيه ، فعاد  
الناس جميعهم برحمة الرب الى ساحة القتال وقد قرئت عزائمهم ،  
ودبت الحماسة فيهم من جديد ديبيا كان يخيّل معه للناظر اليهم أنهم  
يعاودون المعركة بقوة فتية جديدة ، حتى أن من كانوا قد انسحبوا  
منذ قليل مشخين بجراحهم ، ومن أعياهم الارهاق حتى كادوا أن يغمى  
عليهم ، عادوا الآن من تلقاء أنفسهم وتقدموا للهجوم بعزيمة جبارة  
وحماسة طاغية ، كما أن القادة والرجال البارزين الذين كانوا  
يعتبرون سند الجيش تقدموا وشقوا الطريق فكانوا مثالا احتذاء  
سواهم واقتدى بهم غيرهم ، كما زاد من شجاعة هؤلاء ما رأوه من  
تلطف النساء على أن يكون لهن نصيب في القتال ، ورحن يثرن

نفخوة المحاربين ويلقيين اليهم من القول ما يرد عليهم بأسهم ،  
ويدفعن عنهم الاغماء بما يجلبنه لهم من الماء وهم فى ساحة المعركة .  
ورفرفت الفرقة فى كل أرجاء المعسكر كما لو كانوا قد انتصروا ،  
فما انقضت ساعة من نهار حتى كان الخندق قد طم عن آخره ، وحتى  
كان السور الخارجى قد تصدع وأسندت آلة الحصار عنوة الى  
الأسوار .

ولقد أشرنا حالا الى أن الأهالى كانوا قد دلوا من الجدران  
كتلا ثقيلة بالغة الطول ليبطلوا مفعول ضربات الآلات ، غير أن  
مقاتلينا الموجودين فى برج الحصار نجحوا فى قطع الحبال التى  
تشدد اثنين من هذه الدواجز فسقطا الى الأرض فتلقاهما من كانوا  
تحتهما ، وإن لم يخل الأمر من خطر كبير ، فحملوا العارضتين فى  
الحال الى داخل الآلة ، واستعملتا فى دعم الجسر الذى جعلوه  
— كما سنشرح ذلك فيما بعد — يصل من البرج المتحرك الى السور ،  
لأن الخشب الذى كان الجسر مصنوعا منه كان أوهى من أن يتحمل  
ثقل من يجتازونه أن لم تدعمه هذه العوارض القوية التى وضعت  
أسفله .

— ١٧ —

بينما كان الهجوم يشن بهذا العنف القوى من جانب المدينة  
الشمالى كان كونت تولوز ومن معه يهاجمونها من الجنوب بنفس  
الضراوة ، وقد ظلوا ثلاثة أيام سويا يعملون بلا انقطاع فى ردم  
الخندق ، فلما أتموا ردمه الصقوا احدى آلات الحصار بالسور  
بالقوة ، وجعلوها فى وضيع يجعل كلا من المدافع الموجود داخل  
الأبراج والصليبى الموجود فى آلات الحصار قادرا على أن يطول  
الواحد منهما الآخر برمح فيصيبه ، وكانت الحماسة قد عمّت

المقاتلين انى كانوا ، ولم تقل عنها مشاربتهم فاستمروا فيما هم قائمون ، به رغم الصعاب المحيطة بهم ، وزاد نشاطهم عما يكون عليه فى العادة ، لأن خادما معيناً من خدم المسيح اتخذ مقامه على جبل الزيتون ، وكان وعدهم وعداً أكيداً أن القدس واقعة فى أيديهم فى يومهم هذا ، كما أن شارة (٣٦) الرحمة التى شاهدها هم أيضاً من فوق جبل الزيتون زادت من تأجج حماسهم وجعلتهم أكثر إيماناً بأنهم هم الغالبون ، فتقدم هذان الجيشان الصليبيان الى الامام فى خطى متساوية ، وخيل اليهم كما لو أن الأمر كان موجهاً بعناية محكمة من نفس القائد الأعظم الذى عزم على أن يعوض عبده لقاء اخلاصهم فيجازيهم المجازاة اللائقة ، والحق أن الوقت كان قد حان ليجنوا ثمار هذه الجهود الشاقة ، وإن يكافأوا على خدماتهم الحربية التى اخلصوا النية من أجلها .

- ١٨ -

استطاعت كتائب الدوق والكونتين التى كانت - كما قلنا - تهاجم المدينة من الناحية الشمالية أن تنجح بعون الرب فى تخطيط التحصينات الخارجية وردم الخندق ، ولم يعد العدو قادراً على مزيد من المقاومة لما ناله من الازهاق ، على حين أصبحت العساكر الصليبية قادرة على الاقتراب من السور دون أن تخشى خطراً ما ، لأنهم لم يجدوا هنا وهناك سوى خصوم اقتصررت جراتهم على محاولة مهاجمتهم من خلال المنافذ الصغيرة فى الأسوار .

وصدع المقاتلون الموجودون فى آلات الحصار لأمر الدوق ، فاشعلوا النار فى زكائب القش وفى الحشائيا المملوءة بالنطن .

(٢٦) يعنى بها شبح الفارس الذى تراءى لهم وهم فى لحظة قد غلبهم اليأس فيها انظر ما سبق ص ١٢٠ .

وهبت ريح الشمال فزادت اللهب ضراما وانعقدت سحائب من  
الدخان الكثيف ساقطتها الريح الى المدينة ، حتى ان الذين كانوا  
يحاولون الدفاع عن السور عجزوا عن فتح افواههم أو عيونهم  
فأنصرفوا عن الدفاع عن الحصون لما حدث فيهم من الاضطراب  
واختلط عليهم الأمر من جراء سحب الدخان الأسود ، فلما تبين الدوق  
ما هو حادث أمر القوم أن يجيئوا في الحال الى أعلى بالعوارض  
التي استخلصوها من العدو ، وأن يضعوها على صورة يكون أحد  
طرفيها مثبتا الى الآلة ، والطرف الآخر على السور ، ثم أمر بعدئذ  
بتدلية الجانب المتحرك من برج الحصار فكان منها جسر قوى زاد  
من قدرة احتماله ما وضع تحته من الكتل الثقيلة ، وهكذا فان الأداة  
التي جاء بها العدو لنفقه عادت عليه بالمضرة . فلما تم نصب البرج  
على هذه الصورة قام الدوق جود فروى الشريف البارز واستصحب  
أخاه أسستاس وتقدما الناس الى داخل مدينة القدس ، وراح  
( جود فروى ) يحرّض الباقين ويشجعهم على النسيج على منزله ،  
فتبعه في الحال الأخوان لودولف وجيسلبييرت من مواطني مدينة  
تورنای ، فاستحقا الذكر الخالد ، وأذ ذاك زحف جمع كثيف من  
الفرسان والمشاة ، حتى لم تعد الآلة ولا الجسر بقادرين على تحمل  
المزيد ، فلما رأى الأعداء ان السور أصبح في حوزة الصليبيين  
وشاهدوا راية الدوق تخفق من فوقه غادروا الحصون والأبراج  
قارين بأنفسهم الى الشوارع الضيقة .

لم يكد رجالنا يشاهدون استيلاء الدوق وأغلب القواد على  
الأبراج حتى بادروا الى ارتقاء الآلة ، وراحوا يتنافسون فيما بينهم  
في نصب ما معهم من سلالم الصعود الى الأسوار ، وكانت كثيرة  
في أيديهم ، ذلك لأنهم كانوا قد أطاعوا ما نودى به فيهم ، فقام كل  
اثنين من الفرسان باعداد سلم ليكون في خدمة الجميع ، واستطاعوا

بهذه السلاسل أن ينضموا الى الموجودين على السور دون انتظار  
الاذن لهم بذلك من الدوق .

وجاء فى أعقاب جود فروى فى الحال كونت فلاندرز ، ودوق  
نورماندى ، وتانكريد الباسل الذى لا تأتيه من أية ناحية الا وجدته  
اهلا لكل ثناء . كما صعد مع هؤلاء هيج الكبير كونت سنت بول ،  
ويلدوين دى بورج ، وجاستون دى بيارن ، وجاستون دى بزييه ،  
وجرارد دى روسيلون ، وتوماس دى لافير ، وكوثان البريتونى ،  
وكونت رينبولد الذى هو من مدينة أورنج ، ولودوفج دى مونكون ،  
وكوثون دى مونتاچ ، وابنه لامبرت ، وكثيرون غيرهم أعجز عن  
ذكر اسمائهم وحصرهم .

فلما اطمأن الدوق الى دخول جميع هؤلاء الفرسان سالمين  
لم يضاربوا بأذى أنفذ بعضهم فى صحبة حرس أشداء لفتح الباب  
للشمالى المعروف الآن باسم باب القديس استيفان ليبدخل منه من  
كانوا ينتظرون فى الخارج ، ففتح على مصراعيه بلا توان ،  
فتهافت الجيش بأجمعه فى الدخول من غير نظام .

وكان اليوم الجمعة ، وكانت الساعة التاسعة ولاح كأن قد تم  
بترتيب الهى أن تتحقق رغبة الذين حاربوا من أجل مجد المخلص ،  
وأن يكون تحقيقها فى نفس اليوم الذى لاقى فيه السيد العذاب  
بالمدينة من أجل خلاص العالم ، ونقرأ انه فى ذلك اليوم كان خلق  
أول انسان ، وأن الانسان الثانى أسلم للموت لخلاص الأول ، ومن  
ثم فقد كان من الخير أن يكتب النصر باسمه على أعدائه لمن كانوا  
من جسمه وتشبهوا به .

ضم الدوق ومن معه قواتهم بعضها الى بعض ، وانطلقوا هنا وهناك عليهم دروعهم ومعافرههم ، وراحوا يذرعون شوارع المدينة مشرعين سيوفهم فاتكين بكل من يصادفون من الأعداء لايراعون في ذلك عمرا ولا وضعا ، فكان في كل ناحية مذبحه مروعة ، وفي كل ركن أكرام من الرؤوس المقطوعة ، حتى استحال السير في كل الأماكن أو الانتقال من موضع الى آخر الا على جثث القتلى ، وكان الزعماء قد شسقوا طريقهم الى وسط المدينة سالكين طرقا مختلفة ، ومركبين من المذابح في اثناء تقدمهم مالا يمكن التحدث عنه ، ونهج نهجهم جمع من الناس الظامئين الى دماء العدو ، والذين لا قصد لهم سوى التدمير .

في هذه الأثناء لم يكن كونت تولوز والقواد الذين يحاربون معه في ناحية جبل صهيون يدرون شيئا قط عن خبر الاستيلاء على المدينة ، ولا يعلمون أن قد كتب لنا النصر ، غير أن هتافات الصليبيين العالية وهم يدخلون بيت المقدس ، وصرخات المارقين المخيفة وهم يلقون منيتهم ذبعا بثت الذعر في نفوس المدافعين عن هذا القسم من المدينة ، فتحيروا كأعظم ما تكون الحيرة بين الهتاف غير المألوف وبين الصراخ المعبر عن الشر ، وسرعان ما اكتشفوا ان قد فضت بيضة المدينة ، وأن كتائب الصليبيين قد اقتصمتها عنوة ، فلم يتوانوا حينذاك عن مغادرة الأبراج والتخلي عن الحصون ، وفروا على وجوههم في شتى النواحي لا ينشدون غير النجاة ولا يطلبون سواها ، واعتصم أغلبهم بالقلعة لأنها كانت أقرب المواقع إليهم .

وانزل العسكر الجسر لم يعارضهم في ذلك معارض ، ثم رغبوا سلالهم الى الأسوار ، ودخلوا المدينة دون أن يلقوا أدنى مقاومة

من جانب العدو ، وما كادوا يرون أنفسهم بها حتى فتحوا البوابة الجنوبية التي كانت اقرب الأبواب اليهم على مصاريعها وادخلوا بقية الناس ، فكان من الداخلين من هنا كونت تولوز الباسل الشجاع ومعه ايزورد كونت داي « وريموند بيليه » و « وليم دى سابران » أسقف البارة ورهط غير هؤلاء من النبلاء الذين هات التاريخ ان يحفظ لنا أسماءهم وعددهم ، ومشيت هذه الجموع وحدة واحدة ، مسلحة تمام التسليح . وانتشرت في كل ناحية من نواحي وسط المدينة وليس لها من هدف سوى بث الدمار المخيف ، ثم راحت تعترض طريق من لم تصبحهم نقمة الدوق ومن معه ، فهربوا الى نواح اخرى من المدينة ، ظانين انهم بذلك قد قروا من الموت ، لكن تصدت لهم هذه الجموع ، وهكذا فانهم بينما كانوا يحاولون تجنب Seylla اذا بهم يقعون في ما هو اشد خطرا منها ، الا وهو خطر Chardydis وشهدت ارجاء المدينة مذبة قطيعة الشناعة ، وكان الدم المسفوك مخيفا ، حتى ان المنتصرين أنفسهم ساورهم الاحساس بالخوف وشعروا بالتقزز .

- ٢٠ -

فر الجانب الأكبر من الناس الى فناء المسجد لوقوعه في موضع قاص من المدينة كان محصنا اشد التحصين بسور وابراج وابواب ، لكن فرارهم الى هناك لم يسعفهم بالخلاص ، اذ سرعان ما اقتفى تاكريد اثرهم على رأس معظم رجال الجيش الذين اقتحم بهم المسجد ، واعمل مذبة شرسة حمل بعدها معه - كما يقول الخبر - كميات كبيرة من الذهب والفضة والجواهر ، ومع ذلك فالاعتقاد السائد انه لما هدأت العاصفة فيما بعد قام فرد هذه الثروات دون ان تمسها يد .

أما القادة الآخرون فقد ترامى إلى علمهم - بعد فتكهم بكل من صنادقهم في شتى نواحي المدينة - أن الكثيرين قد فروا إلى أطراف المسجد الطاهر ، فأسمروا كما لو كانوا على اتفاق فيما بينهم وانطلقوا يتعقبونهم . ودخل المسجد جشداً من الفرسان والمشاة ، فذبحوا ذبوح الشاة كل من لجأ إلى هنا يبتغى الحماية ، وأعملوا القتل فيهم لم تأخذهم رحمة بأحد ما ، حتى فاض المكان كله بدماء الضحايا .

وكان ذلك قضاء عادلاً من الرب أمضاء في من دنسوا هيكل السيد بشعائيرهم الخرافية وحرموه على شعبه المؤمن ، فكان لابد لهم من أن يكفروا عن خطيئتهم بالموت ، وأن تطهر الأماكن المقدسة بدمهم المهرق .

كان من المستحيل أن يطالع المرء كثرة القتلى دون أن يستولى عليه الفزع ، فقد كانت الأشلاء البشرية في كل ناحية ، وغطت الأرض بدماء المذبوحين ، ولم تكن مطالعة الجثث - وقد فارقتها رؤوسها - ورؤية الأعضاء المبتورة المبعثرة في جميع الأرجاء هي وحدها التي أثارت الرعب في نفوس جميع من شاهدها ، بل كان هناك ما هو أبعث على الفزع إلا هو منظر المنتصرين أنفسهم وقد تخضبوا بالدماء فغطت منهم رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم ، فكان منظر مروعا بث الرعب في قلوب كل من قابلوهم ، ويقال إنه قتل في داخل ساحة المسجد وحدها عشرة آلاف من المارقين ، بالإضافة إلى أن القتلى الذين تناثرت جثثهم في كل شوارع المدينة وميادينها لم يكونوا أقل عدداً ممن ذكرناهم .

وانطلق بقية العسكر يجوسون خلال الديار بحثاً عن لزال حيا من التعمساء الذين قد يكونون مختفين في الأزقة والدروب الجانبية



قرارا من الموت ، فكانوا اذا عثروا عليهم سحبوهم على مشهد من  
الناس ونهبوهم ذبح الشياه \*

وجعل بعض العسكر من انفسهم عصابات انطلقت تسطو على  
البيوت ممسكين باصحابها ونسائهم واطفالهم ، واخذوا كل ما عندهم ،  
ثم راحوا يقتلون البعض بالسيف ، ويذفون بالبعض الآخر من الأمكنة  
العالية الى الأرض فقتلهم أعضاؤهم ويهلكون هلاكا مروعا ، ومضى  
مغتصب كل بيت يدعى أن البيت الذى اقتحمه انما هو ملك خاص  
له بكل ما احتواه ، وذلك لأن الحجاج كانوا قد اتفقوا قبل الاستيلاء  
على المدينة على أنها اذا وقعت فى أيديهم يكون كل ما يستولى عليه  
الواحد منهم ملكا خالصا له الى الأبد لا ينازعه فيه أحد ولا يعارضه  
فيه معارض ، ومن ثم فقد مضى الحجاج يفتشون المدينة تفتيشا دقيقا ،  
ويقتلون أهلها فى غير خوف ، ووصلوا فى ذلك الى أقصى الأماكن  
حتى مالا يكون منها على قارعة الطريق ، ومضوا يحطمون مساكن  
العدو ، ويعلق كل منتصر منهم على مدخل البيت الذى اغتصبه مجنة  
وسلاحه حتى لا يتوقف بالمكان من يمر به ، بل عليه أن يجاوزه فقد  
صار ملكا لغيره .

- ٢١ -

لما تم للقادة فتح المدينة كلها وفرغوا من الفتك بمخالفهم فى  
العقيدة ، ولما هدأت الجلبة بعض الشيء التقى هؤلاء القادة للتشاور  
فيما بينهم ، واذا كانوا راغبين فى توفير الحماية للمدينة فقد قرروا  
- قبل لقاء السلاح - أن يقيموا بكل برج حراسا ، ويرتبوا على  
كل باب من ابواب البلد رجالا مسئولين يوكل اليهم الحفاظ عليه ،  
وقرروا أن تظل هذه الحراسة قائمة حتى يتفق اجماع الزعماء على

اختيار واحد ينصبونه علانية حاكما على بيت المقدس ، ويكون قادرا على تحمل مسئوليتها وإدارة كل شئونها حسبما يرى الأمر ملائما •

والواقع انهم كانوا على حق فى التخوف من مكر العدو المصدق بهم ، فهداهم بعد نظرهم للحذر من غارات فجائية يشنها هذا الخصم عليهم •

ولما انتظمت أمور المدينة أخيرا على ما تهوى نفوسهم ، وضعوا السلاح جانبا وخرجوا مرتدين من الثياب جديدها ، ومضوا بأيد نظيفة ، وساروا حفاة فى خشسوع ومذلة يطوفون بالأماكن الطاهرة التى تنازل المخلص وكرسها للعبادة ، ومجدها يحضوره بالجسد ، وراحوا يقبلون هذه البقاع الموقرة قبسات ممزوجة بالزفرات والدموع ، وتبعث عليها الحوافط القلبية وساروا تجلهم السكينة ويغشاهم الوقار حتى صاروا أدنى ما يكونون الى كنيسة القيامة وهذا كان التقاء القادة برجال الدين وبالمخلصين من أهل القدس ، وكان النصارى - الذين عانوا أعواما طويلا مرارة الأسر من غير ذنب - أكثر الجميع اشتياقا لأظهار ما يكونون من شكرهم للقادى الذى ردهم الى الحرية ، فيممو وجوههم شطر الكنيسة وهم ينشدون الأناشيد الدينية ، ويرتلون الأغاني المقدسة ، ويحملون الصليبان وآثار القديسين •

وكان مما يسر العين ويثلج الصدر ما كان عليه الحجاج من حماسة دينية عميقة تجلت وهم يقتربون من الأماكن الطاهرة ، ومأمم عليه من غبطة القلب ونشوة الروح وهم يقبلون آثار زيارة السيد القصيرة للأرض ، وكنت لا ترى فى أى ناحية الا دموعا منهمرة ، ولا تسمع الا زفرات متصاعدة غير أنها لم تكن كالدموع ولا كالزفرات التى تصدر عن الحزن والجزع بل تبعثها التقوى والفرحة الروحية

الغامرة يقدمونها الى الله ، وتردد في الكنيسة وفي عامة أرجاء  
القدس صوت الشعب وهو يرفع مقبرته بالشكر للرب في صوت يذيل  
لسامعه انه لابد بالغ السماء ذاتها ، والحق أنهم كانوا كما جاء في  
قول القائل : « ان صوت الفرحة والخلال يكون تحت مظلة  
المستقيمين (٣٧) » .

وأخذت مظاهر الرحمة النابعة عن الاخلاص الصادق تسرى  
في جميع أنحاء المدينة ، وراح الكثيرون يبكون وهم يعترفون للسيد  
بما ارتكبوا من الآثام ، ويقطعون العهد على أنفسهم الا يعودوا ثانية  
الى اقتراف هذه الخطايا .

ومضى غيرهم - وقد بلغ الكرم منهم غايته - يخلعون كل ما  
ملكوا على الشيوخ والمرضى وذوى الحاجة ، ويعدون ذلك النعمة  
الكبرى ، ويرون الغنى كل الغنى فيما قدره الله لهم من أن تمتد بهم  
الحياة حتى يشاهدوا هذا اليوم .

وزحف غيرهم الى الأماكن الطاهرة على ركبهم وقد تصاعدت  
زفرائهم من قلوب فاضت بالعاطفة العميقة ، وانطلقوا يغسلون كل  
شيء بدموعهم ، ويوجهون قولهم لله : « ان انهارا من المياه تنهل  
من عيني » (\*) .

اذن ماذا أقول أكثر من هذا ؟

---

(٣٧) لم أجد هذا النص ولا ما يليه في المزامير ، ويظهر أن الطبعة  
الانجليزية أخطأت فذكرت المزمور المائة والسابع عشر ، آية ١٥ مع أن هذا  
المزمور اقتصر على ١٤ آية فقط وكذلك المزمور ١١٨ فآياته ٢٩ فقط ولذلك  
ترجمته محاولا أن تكون الترجمة العربية أقرب ما تكون للنص الانجليزي  
ولأسلوب التوراة .

(\*) انظر الحاشية السابقة .

انه لمن الصعب ان تعبر الكلمات عن مدى ما كان عليه هؤلاء  
القوم المؤمنون من صادق الاخلاص وطاهره وقد راح كل واحد منهم  
ينافس الآخر فى عمل البر والاحسان ، شاكرين العناية الالهية ما  
تفضلت باسبغاه عليهم مجازاة لهم على ما بذلوا من مجهودات  
كبيرة .

فأى امرئ سمها بلغ من غلظة القلب وصعوبة المراس -  
لا تصفق روحه فرحا بين جوانحه حين يؤذن له أن يشارك فى قطف  
ثمرة هذا الحج الغالية ، وحين يجزى الجزاء الأوفى على الجهاد  
الذى خاضه .

ولقد كانت هذه النعمة عند أصحاب الطبيعة الشفافة تعتبر  
مكافأة عن البذل القادم الذى وعد السيد أضفائه على قديسيه  
فى انه على قدر العطايا التى ينالونها فى هذه الحياة الدنيا يكون  
أملهم الأكيد فى ثواب الآخرة ، ذلك ان رحلة حجهم التى يقومون  
بها الآن فى هذه الدنيا الى بيت المقدس ليست سوى وعد أكيد بأنهم  
لابد وأن ينالوا نصيبا من الثواب فى الحياة الأخرى .

ثم قام الأساقفة والقسس بعد ذلك بالاحتفال بالقداس فى  
الكنائس ، وصلوا الله من أجل الناس ، وقدموا الشكر للرب على  
النعم التى حباهم بها .

- ٢٢ -

فى هذا اليوم ذاته تجلى فى المدينة المقدسة - بشهادة  
الكثيرين - أسقف أسقف بوى ، تلك الشخصية الفاضلة ، الخالدة  
الذكر التى ودعت الحياة فى انطاكية كما قلنا من قبل ، وقد شهد

الكثيرون على حقيقة تجليه، كما ان هناك فى الواقع نفرا غير قليل من الموقرين الثقات اكدوا تأكيدا جازما انهم رأوه بأعينهم حيث كان هو أول من اعتلى الأسوار ، وأخذ يحث الآخرين ويشد عزائمهم ليتبعوه ، وتعددت مرات تجليه فى هذا اليوم ذاته لكثير من الناس وهم فى طريقهم الى الأماكن الطاهرة ، كما شهد العديدون من زوار البقاع المقدسة كثيرين ممن ماتوا وجرى عليهم قضاء الرب الذى لا مفر منه ، أقول شاهدهم الكثيرون فى هذا الحج وأصبح جليا من هذه الحقيقة الثابتة أن من ودعوا هذه الحياة الفانية لينضموا بالرحمة الأبدية لم يحرموا من تحقيق الرغبة (٢٨) التى ملكت عليهم قلوبهم ، لكنهم نالوا غاية ما كانوا يسعون اليه سعيا خالصا ، وهذا يقدم لنا دليلا قاطعا عن القيامة (٢٩) بعد الموت .

وكما حدث للسيد من قيامه من بين الموتى كذلك نام مباركون كثيرون ثم قاموا بالجسد ، وتجلوا للكثيرين فى المدينة المقدسة ، لذلك كان من الملائم أن تتكرر المعجزة الأولى لشدة أذى المؤمنين وهم يطهرون موضع القيامة المقدس من خرافات الأمم ، يضاف الى ذلك انه من الخير ان يعتقد الناس بأن الذين رضوا منهم بقضاء الله فيهم قد قاموا ثانية بالروح .

ولقد تعدد ظهور هذه الآيات وكثير غيرها مما شابهها لشعب الرب بفضل الرحمة الإلهية وبدت كمعجزات أكثر منها عجائب ، لذلك فقد عم الناس فرح فى الروح والفكر انساهم ما كابدوه من الصعاب التى لا حصر لها ، وعدوا انفسهم سعداء ان اتيح لهم أن يشاهدوا هذا العطف الإلهي .

---

(٢٨) يعنى الحج الى بيت المقدس والاستيلاء عليه

(٢٩) يقصد المؤلف رؤية أشباح من ماتوا .

وعمت المدينة المقدسة فرحة روحية صعدت الى السيد ، فتمددت  
اقامة الشعائر الدينية كأنها استجابة من السيد ، وبدأ كأن كلمات  
النبي ( أشعيا ) قد تحققت حرفيا « افرحوا مع اورشليم وابتهجوا  
معه يا جميع محبيها » (٤٠) .

كان يعيش في بيت المقدس نصارى أتاحت لهم رؤية بطرس  
الناسك فيها منذ أربع أو خمس سنوات ، حين حمله البطريرك الموقر  
وكبار رجال الدين فيها والأهالي على السواء رسائل آملين أن تمرك  
أمراء ممالك الغرب فتعطفهم عليهم ، فلما رآه هؤلاء الناس مرة ثانية  
عرفوه ، فحذروا على ركبهم ساجدين أمامه اعترافا بجميله عليهم ،  
أن تذكروا أول يوم جاءهم فيه والصدقة التي ربطتهم به ، وشكروه  
شكرا صادرا من الأعماق ، فقد حملته شففته وحدها عليهم أن ينجز  
في صدق واخلاص ومن غير ملل المهمة التي كانوا قد أناطوها به  
وعهدوا بها اليه ، وكان شكرهم فوق كل شيء لله المتجلى على عبده  
لأنه قاد خطوات هذا الرجل في طريق أدركوا معه من الأعمال فوق  
ما يرجوه البشر ، أن الواقع أن السيد هو الذي وهب بطرس لسانا  
مؤثرا حمل الناس والممالك على أن يتحملوا المشاق الكبيرة بلا تافف  
ولا ضمير من أجل اسم المسيح .

والحق كل الحق أن كلام هذا الرجل بدأ وكأنه موصى به من  
السيد الذي قال : « هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي لا ترجع الى  
فارغة ، بل تعمل مأسررت به وتنجح فيما أرسلتها له » (٤١) . وترتب  
على هذا الأمر أن تنافس الناس - أفرادا وجماعات - فيما بينهم في  
إظهار شتى ضروب التعظيم له ، ونسبوا اليه وحده - بعد الرب -

(٤٠) أشعيا : ٦٦ : ١٠ .

(٤١) أشعيا : ٥٥ : ١١ .

خلاصهم من رقهم القاسى الذى تحملوه سنوات طويلا ، كما عزوا  
اليه الفضل فى عودة المدينة المقدسة الى حريتها الأولى •

وكان البطررك - كما قلنا حالا - قد أبحر الى قبرص ليحصل  
من المال على ما ينجد به المدينة ويخلصها ويسعد المواطنين ، وتركزت  
سفارته فى التماس الصدقات من المؤمنين فى تلك البلاد عساه  
يدفع بهذه الصدقات الجزية والضرائب الزائدة التى كانت قد فرضت  
على نصارى بيت المقدس فرضا جاوز قدرتهم على دفعها ، وساورهم  
الخوف ان عجزوا عن الوفاء بهذه الالتزامات ان يقوم مبتزوهم  
بهدم الكنائس أو الفتك بالناس كما فعلوا ذلك مرارا من قبل •

كان هذا الرجل الموقر جاهلا كل الجهل بما كان قد جرى فى  
المدينة ، كما أنه كان وجلا من العودة فتصادقه نفس تلك الأوضاع  
الظلمية ، بيد ان الرب كان قد أفاء على المدينة حالة من الهدوء  
الشمسامل غشى تلك الناحية ، وهو هدوء كان فوق كل ما كان  
متوقعا •

- ٢٤ -

حين فرغ الناس من صلواتهم وزياراتهم للأماكن الطاهرة التى  
قاموا بها فى صدق وإخلاص رأى الزعماء أن الضرورة تتطلب قبل  
كل شيء تنظيف المدينة ولاسيما نواحى الهيكل حتى لا يتفشى  
الطاعون بسبب الهواء الملوث بالنتن المتصاعد من جيف القتلى ،  
فقرروا أن يقوم بهذا العمل السكان الأسرى الذين شاعت الصدفة  
أن يتخطأهم منجل الموت ليلقوا فى السجون ، بيد أن عددهم لم يكن

كافيا لانجاز مهمة كبيرة كهذه المهمة ، ومن ثم قدم الزعماء اجرا  
يوميا لفقراء الجيش ( الصليبي ) لقاء مدهم يد المساعدة فى تنظيف  
المدينة من غير ابطاء .

ولما تم تنفيذ هذا الأمر عاد كل قائد الى الدار التى اتخذها  
مستقرا له ومقاما ، وكان قد تم اعداد هذه الدور لهم خلال تلك  
الفترة ، ورتبها لهم من كان بها من خدمها أحسن ترتيب .

وقد وجدت المدينة غاصة بشتى أنواع السلع والبضائع حتى  
توفر لكل فرد من الناس - من أصغرهم الى أكبرهم - كم هائل من  
كل شيء ، وعثروا فى الدور التى اغتصبوها على كميات ضخمة من  
الذهب والفضة سوى المجوهرات وغالى الثياب ، ووجدوا المخازن  
ملأى بالحبوب والنبذ والزيت ، وأصابوا مقادير وافرة من الماء  
الذى أدى نقصه عند الصليبيين الى تحملهم آلاما فظيعة اثناء  
الحصار ، ومن ثم فان الذين اتخذوا تلك الدور سكنا لهم أصبحوا  
قادرين على اسعاف اخوانهم المحتاجين عن طيب خاطر .

فلما كان اليومان الثانى والثالث لاحتلال القدس نصبت سوق  
عامة لبيع شتى أنواع المتجر من غير تطفيف ، ينال كل واحد ما يريده  
وما تصبو اليه نفسه ، حتى ان العامة حصلوا على جميع ما  
يشاءون فى كميات كبيرة وانقضت الأيام فى احتفالات رائعة ،  
نعم الحجاج فيها بقسط وافر من الراحة ونالوا كل ما كانت تهفر  
اليه نفوسهم من الطعام ، كما كانت النعم الكريمة الجمدة التى جادت  
بها السماء عليهم مثار دهشة لا انتهاء لها وكانت تذكره على  
الدوام بالخير الذى افاضه السيد عليهم الذى يحكى الغيث الهتان .

ورغبة من القوم فى ان يظل خبر هذا الحدث الجليل حيا  
على أفضل صورة فقد صدر قرار عام ، قوبل باستحسان الجميع



وتأييدهم ، يقضى باعتبار ذلك اليوم مقدسا يختلف عن غيره من الأيام ، وتقرر اعتباره يوم تمجيد وثناء للاسم المسيحى حيث يذكر بكل تعظيم ما تنبأ به الانبياء بشأن هذا الحدث ، كما تقرر أن يبتهلوا الى الرب على الدوام فى مثل هذا اليوم ابتهاالا يستمطرون فيه شأبيب الرحمة على أرواح من يرجع الى جهودهم المشكورة الناجحة الفضل فى رجوع مدينة الله الحبيبة سالمة الى حريتها الأولى فى ظل الايمان المسيحى .

وفى هذه الأثناء رأى الأعداء الذين لجأوا الى قلعة داود - فرارا من غضبية السيف - أن المدينة آلت تماما الى أيدي الصليبيين ، وأيقنوا أنه لم تعد لهم قدرة على تحمل الحصار ، واذ ذاك راحوا يفتشون عن كونت تولوز الذى كان مقيما فى الناحية التى بها البرج ، وحصلوا منه على وعد بأن يأتى لهم بالخروج من المدينة هم وذوهم ، وان يؤمن ذهابهم الى عسقلان ، كما أنه سمح لهم باستصحاب كل متاعهم الذى كانوا قد جاءوا به معهم الى داخل البرج ، وبذلك أسلموا القلعة للكونت على هذه الشروط .



أما الذين عهد اليهم بتطهير المدينة فقد بذلوا - فيما كلفوا به - همه وجهدا كبيرين ، فأحرقت بعض الجيف ، ودفن البعض الآخر حسبما يأتى الوقت ، وأنجزوا عملهم هذا كله فى أيام قلائل معدودات ، وعادت المدينة الى ماكانت عليه من النظافة ، وانطلق الناس زرافات وفى ثقة أكبر الى الأماكن الطاهرة ، وأصبح فى مقدورهم ان تتلاقى زمهرم الكبيرة فى شوارع المدينة وميادينها ، وان ينعموا بالتحدث بعضا الى بعض .

ولقد تم الاستيلاء على القدس حوالى الساعة التاسعة من نهار  
الجمعة الخامس عشر من يوليو عام ١٠٩٩ من ميلاد المسيح ، وذلك  
بعد ثلاث سنوات من السنة التى شرع فيها الشعب المؤمن فى تحمل  
مشقة هذا الحج العظيم ، وكان ذلك زمن « البابا ايربان الثانى »  
الجالس على كرسي الكنيسة الرومانية الطاهرة وفى عهد الامبراطور  
هنرى الرابع صاحب امبراطورية الرومان ، وفى زمن فيليب ملك  
فرنسا ، كما كان بيد الكسيوس صولجان الحكم على الاغريق ،  
وكانت يد السيد الرحيمة تقودهم وتوجههم جميعا •

له الشرف والمجد الى الابد •

هنا ينتهى الكتاب الثامن



## الكتاب التاسع

### جودفروى حامى القبر المقدس بيت المقدس وأنطاكية

#### فصول الكتاب التاسع :

١ - اجتماع الزعماء بعد ثمانية أيام من الاستيلاء على بيت المقدس لانتخاب واحد منهم ليقولى أمر المدينة والأقاليم المجاورة ، أما رجال الدين عامة فكانوا يحاولون منع هذا الأمر .

٢ - القادة لا يكثرثون بمعارضة رجال الدين ويختارون الدوق ( جود فروى ) ويمضون به الى بيت المقدس وسط أهالي الفرح والتراتيل الدينية .

٣ - حين تزول مقاليد الحكم الى الدوق ( جود فروى ) يعمد الى مطالبة ( ريموند ) كونت تولوز بتسليمه برج داود الذى كان

العدو قد سلمه اليه ، فيسبب النزاع بين القائدين ولكن  
جود فروى ينجح أخيراً فى تملك البرج حسب طلبه .

٤ - أسقف مطيرة الخبيث الغامض يحاول رفع أرنولف - الذى  
هو من جبلته - الى كرسي البطركية ولكنه يفشل فى محاولته  
هذه ثم العثور على صليب السيد .

٥ - القول عمن يكون الدوق جود فروى ، ومن أين جاء ، ومن هم  
أسلافه .

٦ - تنبؤات أمه بمستقبل أولادها .

٧ - ما تم على يد جود فروى من الانجازات الخالدة فى احدى  
المعارك .

٨ - العمل الذى لا مثيل له الذى قام به جود فروى وأدى الى  
انتصار الامبراطور هنرى على رودلف مفتصب عرش  
سكسونيا .

٩ - سخاء الدوق الطيب على كنائس بيت المقدس ، وكيف دفعه  
تواضعه لأن يرفض وضع التاج الملكى على رأسه .

١٠ - خليفة مصر يستدعى مختلف قواته الحربية ويزحف على  
بلاد الشام ضد الصليبيين .

١١ - بعد أن يفرغ الدوق من اتمام فرائضه الدينية فى بيت المقدس  
يقوم بجمع قواته فى الرملة التي كان القادة قد تجمعوا  
فيها .

١٢ - نشوب القتال وانتصارنا بعون الله واستحراتنا على غنائم  
لا يحصيها العد .

١٣ - انفصال الزعماء بعضهم عن بعض وعودة كونت ثرمندى ،  
وكونت فلاندرز الى وطنهما ورجوع كونت تولوز الى  
القسطنطينية ، واذ ذاك تصبح قيادة طبرية فى يد تانكريد .

١٤ - زهاب بوهيموند أمير أنطاكية وبلدوين كونت الرها الى بيت  
القدس للاحتفال بعيد ميلاد المسيح .

١٥ - دامبرت - رئيس أساقفة كنيسة بيزا - يصبح بطرك بيت  
القدس .

١٦ - نجاح مكائد الشريرين فى بث الشقاق الحاد الذى يصل الى  
حد الصراع بين الدوق والبطرك حول ملكية برج داود وربع  
المدينة .

١٧ - لماذا وضع ربع المدينة تحت ادارة فخامة البطرك وسلطانه .

١٨ - استمرار نفس الموضوع وبيان أى الأماكن الطاهرة تدخل فى  
نطاق جزء المدينة الذى تكثر الاشارة اليه .

١٩ - وصف أحوال المملكة فى ذلك الوقت وذكر حصار الدوق  
لمدينة أرسوف الساحلية ، ثم السبب فى رفعه ذلك الحصار  
عنها .

٢٠ - ذكر حادث يستحق التسجيل جرى لهذا الرجل العظيم  
( جود قروى ) اثناء ذلك الحصار .

٢١ - وقوع بوهيموند - أمير أنطاكية - في الأسر عند مدينة  
ملطية •

٢٢ - ذكر عمل رائع يستحق التخليد قام به الدوق في بلاد  
العرب •

٢٣ - موت الدوق جودفروى ودفنه •

\*\*\*

هنا يسدا

## الكتاب التاسع

### جودفروى حامى القبر المقدس والمالك غير المتوج لبيت المقدس وأنطاكية

- ١ -

عادت المدينة المقدسة الى الشعب المسيحى بفضل رعاية الرب  
الغامرة ، وسعدت بشيء من النظام ، ومرت على الناس سبعة أيام  
نعموا فيها أقصى غايات النعمة والسرور ، وأن مزاج فرحتهم  
الشاملة شيء من خشية الله ومن الفرح الروحية ، فلما وافى اليوم  
الثامن التأم عقد القادة للتشاور ، وكان غرضهم - بعد التوسل  
بالروح القدس - أن يختاروا واحدا من بينهم يلقون اليه بحكم البلد  
ويحملونه المسئولية الملوكية لتلك الولاية .

لكن بينما كانوا يبحثون هذا الأمر كان رجال الدين يجتمعون  
هم أيضا فيما بينهم وقد استولت عليهم روح الصلief ، وقدموا



مصالحهم الذاتية على مصالح عيسى المسيح ، وأرسلوا رسالة الى الزعماء الصليبيين قالوا لهم فيها ان عندهم مسائل خاصة معينة ، يريدون ان يتحدثوا فيها امام اولئك الذين يتشاورون الآن فيما بينهم ، فلما استجاب القادة لطلبهم قالوا لهم ، « لقد علم رجال الدين انكم قد اجتمعتم لاختيار احدكم لتنصبوه ملكا ، وما نشك في شرف هدفكم وصوابه ، فان قدر لهذا الامر ان يتم على الوجه الصحيح كان قرارا دقيقا جديرا بالتنفيذ ، غير ان الذى لا مشاحة فيه هو ان المسائل الروحية اسمى من المشاكل الزمنية واعظم منها خطورة ، مما يختص ان تكون لها الصدارة ، وفي رأينا انه يجب عليكم - قبل ان تفكروا في انتخاب احد لمنصب علماني - ان تختاروا رجلا قضى حياته في خدمة الملة ، ويرضى عنه الرب ، ويكون قادرا على رئاسة كنيسة وتبدير امورها بما يؤدى الى تقدمها وخيرها ، فان قبلتم ان تسير الامور على هذا السمت قبلناه نحن ايضا بكل الرضا ، وايدناكم عقلا ووجدانا ، اما ان ابيتم وأعرضتم فاننا سوف نشجب كل ما قررتموه ، لأنه يكون قد تم بدون موافقتنا ، ولا يعود لهذا الشخص الذى اخترتموه ذمة في عناق احد » .

وعلى الرغم من ان اقتراح رجال الدين هذا كان في ظاهره مقبولا وعظيما ، الا انه كان ينطوى في واقعه على كثير من سرء النية ، كما ستبين الخواتيم .

وكان اكبر المنزعمين لهذا الشقاق اسقف « كلابريا » من اقليم « مطيرة » وكان هو الصديق الحميم للمدعو « أرنولف » الذى ورد عنه الشيء الكثير في الصفحات السابقة ، وكان اسقف كلابريا هذا يرمى الى ان يسوق كرسي البطريركية لأرنولف الذى وان كان من رجال الدين الا انه مذموم السيرة مغموزها ، ثم انه فوق ذلك ابن احد القساوسة ، وكانت الألسن تلوك طول الرحلة سيرته بالسوء

وتتغامز عليه ، كما أن سفلة المهرجين في الجوف كانوا يجعلون منه أضحية أغانيهم الجنسية .

هذا هو الرجل الذي كان أسقف كلابريا يحاول أن يرفعه إلى منصب بطركية القدس ، مخالفا جميع القوانين الكنسية المقدسة مخالفة صريحة وعلى كره من الرجال الشرفاء ، كما أن ذلك الأسقف ذاته كان رجلاً ساقط الهممة ، دنىء النفس ، فلا عجب أن تمكن في سهولة ويسر من الوصول إلى اتفاق مع أرنولف ، فقديمًا جاء في الأمثال « إن الطبيعة تحمل الطيور على الوقوع على أشكالها ، وشبيه الشيء منجذب إليه » .

لقد أخذ هذا الرجل نفسه يساوم على كنيسة بيت لحم ، إذ عقد صفقة مع أرنولف ، اتفقا بمقتضاها على أنه إذا ارتقى الأخير كرسي البطركية بفضل سعي الأسقف فعلى أرنولف ألا يقف أبداً في وجهه في أن تؤول الكنيسة (١) المذكورة ليكون أسقفها . غير أن الموت وضع خاتمة لكل مشاريعه ، كما سنرى خبر ذلك في الصفحات التالية .

### \*\*\*

لقد هوى الدين القيم وكل معاني الشرف إلى الحضيض عند رجال الدين ، فاستشرى الفساد في كل ناحية ، وسار في مسيرات محرمة منذ أن غادر دنيانا النائب الرسولي ، الطاهر الذيل والسير « اديمار أسقف بوى » ، ثم قام مكانه في حمل مسئولية هذه الملة وليم أسقف أورنج ، الذي كان رجلاً ورعاً يخشى الله حق خشيته ، فآدى الأمانة على أحسن ما يكون الأداء ، لكنه مالمات أن مات هو الآخر بعد قليل ، وكان موته بالمعرة . فصدق ( بعد هذين الرجلين ) قول القائل (٢) « كما الشعب هكذا الكاهن » .

---

(١) أي كنيسة بيت لحم .

(٢) هوشع ٤ : ٩ .

ولم يبق بعدهما سوى أسقف البارة وقليلين من أمثالهم ،  
ممن قاضت قلوبهم بخشية الرب ، ونظرت عيونهم صوب الطريق  
القويم يسلكونه .

## - ٢ -

لم يكثرث الأمراء باعتراضات رجال الدين التي أشرنا إليها في  
الفصل السابق ، وعدوها سفسطة غير ذات موضوع ، وعلى الرغم  
من عزمهم على تنفيذ مشروعاتهم إلا أنه لم يفتهم أخذ اقتراح رجال  
الدين بعين الاعتبار ، وتقول بعض الأخبار أنه من أجل أن تجرى  
الانتخابات بما يرضى الرب ، وحتى تلقى ميزات المرشحين لهذا  
الشرف ما تستحق من العناية ، فقد استدعى الزعماء اليهم في السر  
أشخاصا من أهل المتنافسين وأتباعهم ، وأخذوا على كل منهم العهد  
بالصدق فيما يقول ، وألا يحيد أحدهم عن ذكر الحقائق المتعلقة  
بمولاه وبخلقه ، وقد سلك الزعماء هذا السبيل حتى تتوفر لدى  
الناخبين المعلومات الكاملة الدقيقة عن قدر كل مرشح .

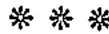
ولما سئل هؤلاء الناس أخيرا أسئلة استفسارية من جانب  
الناخبين التزموا بأيمانهم التي أقسموها ، ألا وهي بيان عيوب  
سادتهم وقضائهم ، غير مخفين من هذه أو تلك شيئا ، على أن يبقى  
ما صرحوا به سرا مكتوما ، وتوقعوا أن تؤدي هذه الطريقة إلى  
حدود حكم بعيد عن الهوى ، يفصح عن طبيعة كل مرشح  
وشخصيته .

ولما سئل بعض أتباع جود فروى - فيمن سئلوا - عما يعرفونه  
من فعال مولاهم النوبق ، قالوا أن أشد ما ضايقهم منه هو أنه دخل  
ذات مرة إحدى الكنائس ، فلم يستطيعوا حمله على مغادرتها رغم  
الفراغ من الصلاة ، إذ استمر يسأل القسوس وغيرهم من أهل المعرفة

عن مغزى كل صورة وكل أيقونة ، حتى استبد الضجر بأصحابه الذين  
كان هواهم يخالف هواه ، وترتب على طول انتظاسهم ان ظلت  
الأطعمة على النار زمنا أطول مما كان مقدرا لنضجها حتى أصبحت  
غير ذات مذاق .

ولما سمع الناصيون هذه الشكاية منهم فى حقه تعجبوا وقالوا  
« سعيد والله ذلك الرجل الذى له كل هذه الصفات الحميدة ، والذى  
تكون نقيصته فضيلة يتفاخر بها الآخرون » .

ويعد أن استعرض الناصيون كل جوانب المسألة استعراضا  
دقيقا انعقد اجماعهم على اختيار الدوق جود فروى ، فتم انتخابه  
ثم ساروا به فى موكب مهيب الى قبر المسيح ، تزفه أغاني المنشدين  
والمرتلين .



ومع ذلك فقد قيل ان معظم الناصيين كانوا قد اتفقوا على اختيار  
ريموند كونت تولوز ، لولا أنهم عرفوا عزمه على الرجوع الى وطنه  
فى الحال ان لم ينول أمر المملكة .

واذا كانوا فى حنين شديد الى ديارهم الحبيبة فقد تذرعوا بشتى  
الذرائع حتى وان كانت ترفضها ضمائرهم ، والتي تزعم أن الكونت  
غير أهل لهذا المنصب ، ومع ذلك فان ريموند أصم أذنيه عن نداء  
أرض آبائه وأجداده ، وأخلص النية فى متابعة المسيح فلم يعد الى  
وطنه وخالف ظن الجميع اذ استمر فى الحج الذى ارتضاه ولم  
ينصرف عنه ، واتبع بمحض اختياره طريق الفقر حتى النهاية لأنه  
كان يؤمن بقول القائل(٣) : « ولكن الذى يصير الى المنتهى فهذا

---

(٣) متى ٢٤ : ١٢ .

يخلص » ، كما آمن بقول الآخر (٤) ( ان قال يسوع ) « ليس أحد يضع يده على المخراث وينظر الى الوراء يصلح للملكوت الله » .

- ٣ -

فى الوقت الذى تقلد فيه الدوق مقاليد السلطة العليا فى المملكة برضاء الجميع ، كان كونت صنجيل لايزال مستحوذا على قلعة المدينة وأعنى بها برج داود ، الذى سلمه العدو اليه فى البداية كما قلنا . وكان البرج بناء تحت من الحجر الصلد ، ويقع فى الناحية الغربية فى أعلى بقعة من المدينة التى يمكن رؤيتها كلها من هذا الارتفاع الشامق وهى جاشمة تخته .

ولما رأى الدوق ( جود فروى ) فراغ يده من هذا الحصن القوى الذى هو آخر معاقل البلد أحسن بنقص سيادته ، لذلك اغتتم اجتماع القادة وطلب من الكونت أمامهم أن يسلمه البرج ، فرد عليه ريموند أنه لما كان العدو قد سلمه اليه هو وحده دون سواء ، فإنه راغب فى بقاءه بيده حتى يقلع بحرا الى وطنه يوم عيد الفصح ، ان أن بقاء القلعة فى يده يضيف أهمية كبرى على مركزه طوال مدة مكثه برجاله فى المملكة ، فكان جواب الدوق أنه سوف يتخلى عن الحكم كله وينفض يده منه ان لم يرد ( الكونت ) البرج اليه ، كما صرح أنه سيكون من العار عليه - وقد نودى به حاكما أعلى - أن يظل حصن المدينة تحت سلطان غيره ، فيعتبر هذا الغير ان ذاك ندا له أو اسمى منه مكانة .

وانضم الى جانب الدوق ( جود فروى ) حينئذ كل من كونت فلاندرز ، وكونت نورماندى ، بل ان أصحاب كونت صنجيل أيديوا

معارضيه ، وجاء أن يؤدى موقفهم هذا لايجاد مبرر لولاهم ريموند يحمل على مغادرة البلاد ، وكانت النتيجة هى اجماع الكل على بقاء الحصن تحت اشراف اسقف البارة ، ليكون قواما عليه حتى يتم البت قيمن يؤول اليه شرعاً . على أنه يقال ان الاسقف اسلم الحصن للدوق قبل أن يصل القوم الى القول الفصل فيه ، وحدث فيما بعد أنه لما قام نفر يلومون الاسقف على ما فعل بحق الكونت ( ريموند ) والحصن ، بادر الاسقف فأعلن على رؤوس الاشهاد أنه لم يفعل ما فعل الا مرغماً .

حينذاك احترم الكونت غضبا وثارت ثائرتة ، لأنه أحس بحرمانه من البرج بطريقة أذرت به ، وزيادة على ذلك فقد أدرك عدم اتسام موقف الزعماء الآخرين نحوه بالود الذى هو أهل له ، وآرام يتناسون أفضاله الجمّة التى طالما أغدقها عليهم خلال الحج ، فغادرهم الى الأردن ، وبعد أن سبّح فى مائه أخذ يعد العدة للعودة الى بلده نزولا على هوى رفاقه ورغباتهم .

## .. ٤ -

أما أسقف « مطيرة » الخبيث المحتال فقد دأب طوال هذه الفترة على اغراء الجهال بالتناول على الزعماء الطاهري الذيل ، حتى لقد دفعه الحسد الذى يملأ جوانحه الى الزعم بأن القادة دبّروا عدم تنصيب راع للكنيسة ليتمكنوا من بسط سيطرتهم الكاملة عليها ، طالما لا يوجد لها رئيس يدير شئونها ، ومن ثم قام هذا الاسقف فاخترار ارنولف المذكور - رغم معارضة سواه - ووضعه على رأس البطركية ، وعاونه فى هذا المسعى رجال ممن كانوا على شاكلته فى التفكير .

ولقد اعتمد فى هذه الخطوة على تأييد ( روبرت ) كونت نرماندى صديق ارنولف الحميم ورفيقه فى الرحلة ، كما اعتمد

على أصوات أوشاب الناس ورعاعهم الذين ساندوه في مسعاه  
استجابة للمشورة الفاسدة ، بيد أنه لم يقدر لأحد هذين الرجلين  
أن يتمتع طويلا بثمره هذا التدبير الكريه ، إذ سرعان ما اضطـر  
أرنولف رغم أنفـه للتخلى عن هذا المركز الذى اندفع فى طيش  
للحصول عليه ، وكذلك كان الحال مع مؤيده البذئ الذى شجعه  
على سلوك هذا المسلك المعيب ، فلقى هو الآخر جزاءه .

\*\*\*

حدث فى هذا الوقت ذاته أن اكتشف فى ركن قاص من أركان  
كنيسة القبر المقدس جزء من صليب المسيح ، كان قد أخفاه هنا  
منذ زمن بعيد المؤمنون الذين كانوا يعيشون تحت عصف « الأمم »  
ولم يطلع على هذا السر غير نفر قليل .

ويرجع الفضل فى كشف هذا الكنز الثمين الموجود فى علبة  
فضية الى ايمان رجل سورى كان قد عرف مخبأه ، فحملة القوم وهم  
يرتلون الأناشيد والأغاني الدينية ، وساروا به أولا الى قبر السيد  
ثم الى الهيكل ، ومضى خلفهم رجال الدين والشعب جنبا الى جذب ،  
وسرى بين الصليبيين شعور عام هو أن الله العلى جاد عليهم بهذه  
المنحة عزاء لهم عما تحملوه من الأهمال ، وما صادفوه من المشاق -

- ٥ -

كان الدوق جود قروى الذى يتردد اسمه كثيرا فى ثنايا هذا  
التاريخ قد استقر - برحمة الرب - رئيسا أعلى للمملكة ، كما قضى  
على جميع المنازعات ان كان قد حدث منها شيء وأخذت المملكة فى  
أيامه تزداد قوة ويأسس حتى ثبتت دعائمها ورسخت أركانها ، لكن  
لم تتجاوز حكومته عاما واحدا ، لأن آثام الناس لم تساعد - رغم

الدعاء الكثير له - على أن تطول أيام هذا الأمير العظيم ، فلم يقو  
عود السيطرة المسيحية الغض ، وانتزعه الموت من بين الرجال حتى  
لا يتبدل قلبه فيمتلئ بالكبرياء لأنه مكتوب في اشعيا : « باد الصديق ،  
وليس احد يضع ذلك في قلبه ورجال الاحسان يضمنون ، وليس من  
يفطن بأنه من وجد الشر يضم الصديق » (٥) .



نشأ جود فروى أول ما نشأ في مملكة الفرنجة إذ ولد في اقليم  
« ريمز » بمدينة « بولونيا » المطلة على القنال الانجليزي ، وهو  
سليل آباء كرام المحدث . أتقياء . فقد قام أبوه « استاس » الكبير  
أحد كونتات هذه الولاية البارزين النابهين بكثير من الأعمال الجليلة ،  
ولا يزال اسمه كرجل تقى يخاف الله محل توقير ، ولا يذكره كبار  
رجال النواحي المجاورة الا ويثنون عليه الثناء العاطر .

وأما أمه « ايدا » فكريمة الأصل ، قد ذهبت هي الأخرى بين  
نساء الغرب الشريقات بحسن الاحدثة لخلقها الرفيع ومكانتها  
السامية ، وهي أخت « جود فروى » ( الكبير ) المجلد دوق النوربن  
الملقب « بستروما » ولما لم يكن لهذا الدوق أولاد من صلبه فقد تبني  
ابن أخته وسميه وأوصى له بكل ما يملك ، ومن ثم خلف جود فروى  
خاله على الدوقية عند موته .

وكان لجود فروى الصغير ثلاثة أشقاء : اهلهم سمو خلقهم ،  
وشجاعتهم الفائقة لأن يكونوا عن جدارة اخوة لمولى عظيم مثله ،

---

(٥) اشعيا ٥٧ : ١ .



هم : بلدوين كوندت الرها الذى خلف فيما بعد ( أخاه ) جود فروى  
فى حكم بيت المقدس ، وأما ثانيهما ، فاستاس « كوندت بولونيا » الذى  
سمى بأسم أبيه ، وورث أملاكه ، كما آل اليه حكم المقاطعة بعد  
موته ، ثم هناك « ماتيلدا » ابنة استاس ، وهى التى تزوجت من  
« ستيفن » ملك الانجليز العظيم المجل .

ولما مات بلدوين دون ولد يرثه فقد استدعى رجال الشرق  
البارزون « استاس » ليخلفه فى المملكة ، لكنه كان عازفا عن الذهاب  
الى هناك ، مخافة الا يتم استخلافه على العرش من غير حرب .

أما الأخ الثالث لجود فروى فهو « وليم » ، وكان رجلا ذا  
شرف صاعد ، لا تنقصه الشجاعة ولا الخلق السوى اللذان كانا  
يميزان أباه وأخويه ، وقد صحب الأخوان اللذان ذكرناهما مولاهما  
وشقيقهما فى حملته ، على حين بقى ثالثهما « وليم » فى البلاد لم  
يبرحها .

كان جود فروى العظيم أكبر اخوته ، وله الصدارة عليهم  
والنقدمة فيهم لما تميز به من نيل الطبع وعمق الايمان ، كما بزهم  
برحمته وتقواه وعدله ، وكان يغلب عليه الجد . ويمتاز بصدق الكلمة  
والبعد تماما عن كل شر ، مع ازدياء لأبهة الدنيا ، وكانت هذه  
صفة نادرة فى تلك الأيام ، وهى أشد ندرة فى الرجل الذى يتخذ  
الحرب حرفة له ، ثم انه كان ملازما للصلاة ، دؤوبا على صالح  
الأعمال ، معروفا بسخاء كفه ، وإن كان مفضالا لين الجانب رحيمًا ،  
مالكا لنفسه عند الغضب فقد كان محمودا عند الله ، مرضيا عليه  
منه .

وكان طويل القامة من غير اسراف كبير ، ولكنه اذا ما قيس  
بالرجل العادى كان أطول منه « ولم يكن هناك أحد يماثله فى شدة

بأسه ، فهو عبد الساعدين ، عريض المنكبين ، تسر طلعتة الناظرين ،  
وكان شعر لحيته ورأسه اشقر بعض الشيء ، وقد أجمع الكل على  
أنه معدوم النظير فى استعمال السلاح وفى ممارسته أفانين الحرب .

## - ٦ -

كانت أم هؤلاء الأمراء العظام امرأة متمسكة بالدين فى حياتها ،  
عاملة على ما فيه مرضاة الله ، وبينما كان هؤلاء الأمراء لا يزالون  
فى سنواتهم الأولى رأت أمهم - وقد فاضت نفسها بروحانية طاهرة -  
أحداث أيامهم القادمة ، والوضع المقدر لهم حين يشيرون عن الطوق  
وتتقدم بهم الأعوام ، وكان ما رآته يشبه أن يكون وحيا أوحى به  
إليها ، ففى ذات مرة من المرات كان صغارها يلعبون جميعا حولها  
ويتدافعون كعادة أمثالهم من الأطفال ، ويزاحم الواحد منهم الآخر ،  
ثم يفر كل منهم إلى حجر أمه معتصما بها ، حين دخل عليهم أبوهم  
الموقر كونت استاس ، فاستخفوا منه تحت طيات عباةتها ، وكل  
منهم يدفع أخاه دفعا هينا بيديه وقدميه ، فلاحظ الكونت عباة الأم  
تهتز عليها فسألها ما سر هذه الهزات القوية فردت عليه كما يقولون  
بقولها : « انهم ثلاثة أمراء عظام ، سيكون أولهم دوقا ، وثانيهم ملكا  
وثالثهم كونتا » ، فكان ما قالته أشبه بنبوءة علوية تمت كما قالت ،  
وأكدت الأحداث فيما بعد صدق ما تنبأت به ، فقد خلف الابن الأول  
خاله فى الدوقية ، ثم اختاره الزعماء بالاجماع قيما بعد حاكما للملكة  
بيت المقدس ، وأما من يليه مباشرة وهو بلدوين فقد ولى عرش الملكة  
من بعده ، على حين أن الأخ الثالث استاس « خلف أباه بعد موته  
كوريث لكل الولاية لا يشاركه فيها أحد ، كما قالت أمهم .

واننى أتجاوز عامدا قصة البجعة التى تزعم الأسطورة أن

هؤلاء الأخوة جاءوا منها ، اذ على الرغم من أن كثيرا من الكتاب يقصونها كحقيقة مؤكدة ، الا انه لا أساس لها من الصحة عندى •

فلتجاوز هذه القصص ، ولتعد الى تاريخ الدوق ، الذى نبدا فى سرده ، فتذكر الأخبار انه من بين الأعاجيب التى فعلها - كعادته - اعجوبة تستحق الإشارة ، حتى لدرى انه ينبغي ادراجها فى مؤلفى الحالى هذا •

## - ٧ -

هناك معركة من معارك هذا الدوق العظيم للخالدة ، لها الصدارة بين غيرها ، وتستحق أن نرويها هنا ، وهى اضطرابه - رغم ارادته - للدخول فى مبارزة كان لابد أن يخسر فيها ذبوع صيته كمالوف عادات البلاد لو أنه اعتذر عنها ، ذلك أن قد آذاه وهو فى البلاط الامبراطورى - نبيل من وجوه النبلاء هناك ، وإن قيل انه من ذوى قرباء ، وكان الأمر يتعلق بأمالك شاسعة وولاية فسيحة الأرجاء ، فتحدد يوم معين للمحاكمة للفصل فيما رعى به ، فلما وافت الساعة المحددة حضر الى البلاط الامبراطورى كل من المدعى والمدعى عليه ، وعرض موضوع النزاع فتقدم الشريف المشار اليه بدعواه ، فدافع الدوق عن نفسه كاحسن ما يكون الدفاع ، ولكن قوانين البلاد كانت تحتم المباراة الشخصية بين طرفى الخصومة ، فبذل سراة الامبراطورية جهودهم لمنع هذين الرجلين العظيمين من القيام امام الناس بعمل ليس من اللائق أن يراه النظارة ، اذ كان من الضروري أن تتممض المباراة عن تلويث شرف أحدهما وسمعته من غير فائدة ، لكن راحت جهودهم فى هذا الموضوع هباء ، حين صدر القرار الامبراطورى بالتنفيذ ، وتحلق النبلاء حول الاثنين كما

هى العادة ، وتزاحمت العامة حين دخل المتنازعان الساحة المخصصة للمبارزة الفردية لمعرفة ما تسفر عنه هذه المبارزة •

وبينما كان هذان العظيمان الميجلان يتصارعان فى شجاعة بكل ما أوتيا من قوة اذا بدرع الخصم يصب سيف الدوق ويتهشم السيف حتى لا يبقى منه فى يده من عند مقبضه سوى قطعة لاتكاد تبلغ نصف قدم ، فلما رأى النبلاء الشهود أن موقف الدوق قد أوى على الخطر الذى ما بعده خطر نادوا بوقف المبارزة قليلا ، وذهبوا الى الامبراطور يلتمسون منه أن يأذن لهم باقتراح يكون حلا وسطا بين النبيلين العظمين ، وبينما كانوا منهمكين فى عرض آرائهم اذا بالدوق يعلن رفضه للبأت لما قد يستفيدة من جهود وسطاء السلام بينه وبين منافسه ، واذا به يعود الى الحلقة وكله اصرار تام على معاودة المبارزة •

كان سيف الخصم لايزال سليما ، وقد صارت له اليد العليا . فراح يضاعف من الشد على الدوق ويأبى أن يتيح له لحظة يلتقط فيها أنفاسه ، ومع ذلك فقد استطاع جود فروى فى النهاية أن يسترد براعته المعهودة التى كان الناس يعرفونها فيه ، واندفع الى الأمام غاضبا أشد الغضب ، ومقبض سيفه المكسور فى يده ، وضرب خصمه ضربة تكرار أصابت صدغه الأيسر فجندلقه على الأرض وهو بين الحياة والموت ، حتى ظنه الجميع قد فارق الحياة تماما •

ثم طوح جودى فروى جانبا بحطام سيفه من يده وأمسك بحسام خصمه المسجى على الأرض واستدعى اليه السادة الذين كانوا يتدثرون اليه منذ قليل عن حل وسط بينهما ، والتمس منهم أن يضعوا شروط الصلح ، وأن ينصرفوا للعمل على إنقاذ هذا الرجل العظيم من تلك الميته الشائنة اذ حاقت به الهزيمة ، فتملكهم الاعجاب بشجاعة

الدوق الفاتحة ، وأذملتهم رحمته التى لاتقاس بها رحمة ، وراحوا يرتبون أمر الصلح ، وهكذا انتهت المبارزة الى نهاية شريفة ، خرج منها الدوق منصورا ، واستحق فى نظر الجميع ثناء لا يبلى .

## - ٨ -

وهناك عمل آخر لا يقل عن هذا العمل روعة ، وسوف يبقى خالدا ابد الدهر فى أذهان الناس ، ونراه نحن جديرا بالاثبات فى هذا الكتاب ، ذلك ان السكسون - وهم أشد الشعوب الألمانية غلظة - انفوا ان يظلوا يرسفون فى قيد الامبراطورية الرومانية ، ولما كانوا يؤثرون التنقل أحرارا دون قيد انى شاءوا فقد تخلصوا من كل الأغلال التى كان يفرضها النظام عليهم ، وتمردوا على الامبراطور هنرى ، راوغلوا فى قمردهم المتعمد فنصبوا على انفسهم ملكا معارضا للامبراطور ، وكان هذا الملك احد كونتاتهم وكبيرا من كبارهم يدعى « رودلف » .

اغضبت هذه الاهانة الامبراطور وأثارت خفيظته فدعى اليه كل أمراء المملكة ، حتى اذا صاروا فى حضرته استعرض أمامهم الاهانات التى لم تعد خافية عن أحد ، وطالبهم بالانتقام ، فغضبوا حمية لجد الامبراطورية ، وساءهم مسلك السكسون الهمجى ، ولم يتوان أى واحد منهم عن عرض خدماته ، ووعدوه بامدادات عسكرية .

ولما لم يكن من المستطاع غض الطرف عن اساءة كهذه الاساءة فقد اعلنوا أنه ما من شيء غير الموت يلقاه السكسون يكفرون به عما أجتروه من جرم فى حق الامبراطورية ، وأنه لايمكن محو هذه الجريمة الكبرى الا بالسيف يغسل عارها .

وجاء اليوم الذى حدده الامبراطور لاجتماع امراء المملكة ،  
فالتقوا فى الموضع الذى ضربه لهم وهم يقودن الآلاف المؤلفة من  
العسكر ومن الامراء الدينيين والعلمانيين على السواء ، وقد جاعوا  
بهم من كل ارجاء الامبراطورية ، وكلهم مجمع العزم على مهاجمة  
بلاد السكسون ، والثأر لهذه الجريمة النكراء والفعلة الشنعاء .

### • واقترب يوم القتال •

### • واصطف عساكر الجانبين استعدادا للمعركة •

وحينذاك استدعى الامبراطور اليه كبار قادته ، واستفسر منهم  
عمن يسلمه علمه الامبراطورى ويكون مطمئنا اليه ، ويجعله القائد  
العام لهذا الجيش العرمرم ، فردوا عليه فى الحال وباجماع تام منهم  
على أن ذلك الشخص هو « جود فروى » دوق اللورين ، لأنه أقدر  
الجميع واكفأهم لتحمل المسؤولية ، فلما عرف الامبراطور أنه المختار  
من بين الآلاف المؤلفة ، وأنه فى نظر الجميع الرجل الذى لا يبره  
غيره فقد أسلمه راية الذسر ، فلم يبطره ماجرى ولكنه قبل هذا  
الشرف على كره منه .

وبينما كان جيشا الجانبين فى هذا اليوم يتقاتلان فى براعة ،  
ويشد كل منهما على الآخر بالسيف شدا عنيفا ، اذا بالدوق الذى كان  
على رأس قوات الامبراطور ويحمل نسره يتحرك ويروح مواجها  
الصفوف التى كان يقودها « رودلف » الملك المقتصب ، فالتجهت كل  
القوات التى تحت قيادة الامبراطور الى حيث اتجه ، فعمت الفوضى  
كتائب الملك ( رودلف ) واضطربت صفوفها حين جاءها جود فروى  
الذى رآه الامبراطور ( هنرى ) ذاته وبعض كبار رجالاته بأعينهم  
وقد ضرب قلب رودلف بالراية التى يحملها ضربة طرحته أرضا

فسقط جثة هامة لاحتراك بها ، وأذ ذاك رفع جود فروى الراية  
الامبراطورية ثانية ، وقد لطخت كلها بدم الملك .

فلما شاهد السكسون هلاك ملكهم نكسوا على أعقابهم  
واستسلموا للامبراطور ( هنرى ) ففرضت عليهم التعويضات التى  
تتكافأ وطبيعة جرمهم ، فأعطوه الرهائن ، وأسلموه أسلحتهم ، تأكيداً  
على عدم عودتهم مرة أخرى لمثل هذه المحاولة ، وهكذا عادوا من  
جديد يستظلون بعطفه .

لقد دوننا هذه الأحداث لنسدل كم كانت هيبة هذا الرجل  
العظيم (٦) - الذى نتحدث عنه - عزيمة بين أقوى أمراء الدنيا ،  
ولايستطيع أحد أن يشك فى أنه انفرد بالمعظمة دون بقية الرجال ،  
وقد شهد له بذلك الأمراء المشهورون الذين قيل فيهم أن ليس لهم من  
ند أو خريب ، وقد أثبت صدق هذا الرأى فيهم ما برهن عليه حكمهم  
عليه وما كان من فعالة النابهة التى جاءت بالدليل البين على أن  
تقديرهم كان فى موضعه .

ولقد قام هذا الرجل الجليل ( جود فروى ) بعد ذلك بكثير  
من الأعمال الباهرة التى تستحوذ على الاعجاب والتى لاتزال حتى  
اليوم تروى كقصص يستحب سماعه ، ومن هذه الأعمال انه لما عزم  
على المضى الى الحج تنازل عن رضا وطيب خاطر لكنيسة المسيح  
عن قلعة « بويون » المشهورة المنسوب هو اليها ، والتى تشتهر  
بأراضيها وموقعها وتحصيناتها ، وبما تنتجها أقاليمها الفسيحة  
الواسعة من شتى الخيرات .

---

(٦) يقصد بذلك الدوق جودفروى .

لكن لما كنا قد أخذنا انفسنا بالاعتصار على ذكر أعماله التي قام بها وهو بيننا ، فهيا بنا نعود الى ما كنا فيه •

## - ٩ -

كان جود قروى رجلا مخلصا ، يفيض قلبه بالرعاية الكريمة لكل من ينتمى لبית الرب الشريف ، ذلك انه يعد انقضاء بضعة ايام ، على اختياره رئيسا للمملكة شرع في تقديم أولى ثمار مسؤوليته الى الرب ، فاقام رجالا من الكهنوت في كنيسة القبر المقدس وفي الهيكل ، وأغدق عليهم من فيض جوده الحسنات الوافرة التي عرفت بالمرتبات الكنسية ، كما قام في الوقت ذاته بتوفير المسكن الملائم لهم في تلك الرحاب الحبيبة الى الرب ، وحافظ على القاعدة والتعاليم التي تتبعها الكنائس العظمى الثرية التي أنشأها الأمراء الاتقياء فيما وراء الجبال ، وكان المرجو منه أن تزداد انعاماته عليها لو لم يعاجله الموت فيحول دون ما يرتجى •

ولما شرع هذا الرجل حبيب الله في الخروج للحج أخذ في معيته رهبانا من احسن الأديرة تنظيمًا ، ورجالا اتقياء عرفوا بطهارة الذيل ، فكانوا طوال الحج لا يكفون ليلا ولا نهارا عن أداء الخدمات الدينية للدوق في ساعاتها المقررة ، ووفق طقوس الكنيسة ، فلما آلت اليه السلطة الملوكية أقامهم - حسب طلبهم - في وادي « يهوشافاط » وجازاهم على خدماتهم باقطاعهم الأراضي الشاسعة •

ان الأمر يطول بنا جدا ان نحنا نعدد المنح التي أغدقها في سخاء كريم على كنائس الرب ، ومع ذلك فان استعراض مضمون الامتيازات التي منحت للكنائس يبين مدى كثرتها وقيمة تلك العطايا التي أقطعها ذلك الرجل المتفاني في خدمة الرب للأماكن المقدسة سعيا وراء خلاص روحه ، كما حمله تواضعه - حين ولى السلطة -



على رفض ما جرت به عادة الملوك من أن يتوج بتاج من الذهب في المدينة الطاهرة التي توج فيها مخلص الجنس البشري بتاج من الشوك لبسه راضيا من أجل خلاصنا ، ومن أجل هذا فان طائفة من الناس لم يقدروا خدمات جود فروى حق قدرها ، يترددون في ادراجه في عداد الملوك ، ومرجع ذلك أنهم يضعون الأعمال الجسدية في مرتبة اسمنى من مرتبة الأعمال التي تؤديها النفس المؤمنة بالرب ، أما نحن فنعده ملكا - كان من أحسن الملوك قاطبة وكان هاديا وقدوة لغيرهم ، والحق أنه لا ينبغي لأحد ما أن يظن أن هذا الأمير المؤمن ازدري هدية تكريس الكنيسة وقربانها المقدس ، لكنه كان يحتقر زهو الدنيا وباطلها الذي يتعرض له كل مخلوق ، فأملى عليه تواضعه أن يرفض التاج الذي مآله الفناء ، طمعا منه في أن يحصل فيما بعد على تاج لا زوال له أبدا .

#### - ١٠ -

كانت المدينة قد سقطت منذ أمد قريب ولم يبرحها بعض القادة الذين استولوا عليها لخدمة الرب حين سرت شائعة مالبث أن تأكد صدقها ، تلك هي أن خليفة (٧) مصر ( الفاطمي ) - أقوى الحكام بين الشعوب الشرقية - قد استدعى العسكر من كل البلاد الخاضعة لسلطانه ، وجمع منهم جيشا واحدا كثيفا ، ذلك لأنه كان غاضبا أشد الغضب أن يجيء شعب همجي من أقصى مناطق العالم فيغزو مملكته ، ويستولى عنوة على إحدى الولايات الخاضعة له ، فاستدعى اليه أمير جيوشه الأفضل المعروف كذلك باسم أمير الجيوش (٨)

(٧) في الأصل « أمير »

(٨) في الأصل « EMIRIUS » ولكن الأفضل معروف في المصادر

الاسلامية باسم « أمير الجيوش » .

وكلفه بحشد جيش يضم كل زهرة شباب مصر وعسكر الامبراطورية  
أيضا ويحلف بهم على بلاد الشام ليقتضى القضاء المبرم على الشعب  
المتطفل ، ويمحوه من على وجه البسيطة ، حتى يتلاشى اسمه من  
الوجود .

وكان الأفضل أرمنى الأصل ، مسيحى الوالدين ، لكن  
أضلته الثروة الفاحشة فأنكر خالقه ، وتخلّى عن إيمانه الذى يؤدى  
وحده الى الطريق المستقيم ، وكان هذا الرجل قد استرد من قبل  
لمولاه مدينة القدس من ايدى الترك ، ثم جاء الصليبيون فى نفس  
العام ليحاصروها يفضل الله ويردوها الى الايمان ، لذلك لم ينقض  
احد عشر شهرا على فرحة الأفضل بامتلاكها حتى جاء العسكر  
الصليبي فحررها من وثاق الرق الذى لا يليق بها ، وهكذا فانه لم  
يتمتع بثمار انتصاره الا لفترة وجيزة جدا ، مرت كأنها اللحمة  
الخاطفة ، ولما كان الفضل يرجع الى جهوده فى استعادة مولاه  
( الخليفة ) للمدينة فقد سره أن يقوم بالمهمة التى نيطت به .

كان ( الأفضل ) يطمع أن يحرز النصر فى يسر على أولئك  
الذين كسفوا شمس مجده ، ومن ثم مضى الى بلاد الشام على رأس  
كل القوات التى استطاعت مصر أن تمده بها ، تفيض نفسه سخطا  
ويملؤه الكبرياء الطاغى ، مجمعا العزم على تدمير الصليبيين تدميرا  
تاميا فلا يبقى لهم ذكر فى الوجود ، لكن الرب الذى جاء وصفه (١)  
بان «فعلة مرهب نحو بنى آدم» قضى بشيء غير الذى أراداه الأفضل  
الذى سار بهذا الجيش الجرار والحشد الرائع من الفرسان وتقدم  
فى بلاد الشام حتى خيم أمام عسقلان ، وانضمت الى حملته قوات

---

(٩) الزامير ٦٦ : ٥ .

لغفيرة جاءته من كل بلاد العرب ودمشقي ، ولم يكن بين الترك  
والمصريين مودة ، حسدا من كل منهما للآخر على رأسه الحربى ،  
وسعى كل منهما سعيا حثيثا لك رقعة مملكته على حساب خصمه ،  
غير أن فزعهما من الصليبيين فى هذه اللحظة أنسى كلا منهما  
ما يضرر للآخر من الكراهية ، وقرب هوة الخلاف بينهما ، فانضمت  
قواتهما بعضهما الى بعض لتنفيذ مخطط يستهدف الاطاحة بالصليبيين  
الذى قدموا حديثا الى البلاد ، ورأى كل جانب من الجانبين ان  
احتمال غطرسه خصمه - حتى ولو ضاق به ذرعا - أهون عليه  
من أن يكابد سيوف المتبربرين الخشنة القطة .

واذ وضع الجانبان هذا الهدف أمام نظرهم فقد تجمعت لديهم  
قوات لا عد لها من المصريين والعرب والترك ، وضربت مخيماتهما  
فى السهول الواقعة أمام عسقلان التى قرروا أن يجعلوها نقطة  
زحفهم على بيت المقدس ، لأنه كان يخيل اليهم أنه ليس من المعقول  
أن يجرؤ جيشنا على المخاطرة بمواجهة مثل هذا الحشد الكبير فى  
ساحة القتال .

- ١١ -

حين بلغت هذه الأخبار الصليبيين تجمعوا على بكرة أبيهم :  
قادة وأساقفة ورجال دين وعامة ، وكان ايمانهم سلاحهم ، وخروا  
سجدا على وجوههم أمام القبر الطاهر ، داعين الله بين الأنات  
والدموع ، ومتوجهين اليه بقلوب خاشعة ، يسألونه أن يكلامهم  
برحمته وينقذهم من الخطر الموشك على الالمام بهم ، وأنه اذا كان قد  
قدر لهم النصر حتى الآن وشاء أن يظهر موضع عبادته قهيبات أن  
يرضى له أن يلوث حفاظا على اسمه المجيد .

وأمسكوا أنفاسهم خاشعين منصرفين لسماع الترائيل والأناشيد الدينية ، ثم أسرعوا حفاة الى الهيكل ، وانطلقت قلوبهم مرة أخرى تصلى للرب قائلة : « اشفق يارب على شعبك ولا تسلم ميراثك للعار (١٠) » .

ولما فرغوا من صلاتهم على مآلوف العادة ، وباركهم الأسقف قام الدوق ( جودفروى ) فاختار رجالا ألباء أهل خبرة لحراسة المدينة وإدارتها ، أما هو فقد مضى ومعه كونت فلاندرز الى سهول الرملة ، وبقي غيرهما من الزعماء ببيت المقدس .

كان « أستلس » الفاضل - أخو الدوق - فى صحبة تانكريد بنابلس التى شخص اليها انصياعا لأمر الدوق ( جود فروى ) ، واستجابة لدعوة تلقاها من أهلها ، يقولون له فيها انهم مسلموه المدينة من غير مقاومة ، فطال لبثهما بها ، ولم يكن هذا المكث الطويل راجعا فحسب الى ما كان بها من الثروات الضخمة ، بل وأيضا لوضع حامية تكفى لحراستها ، ولذلك فقد كانا يجهلان ماذا جرى بالقدس ، لكن ما كادت تصلهما دعوة الدوق بالرجوع حتى خفا للعودة فى لحظتهما ، وانضما الى بقية الزعماء .

ولما أصبح الدوق وكونت فلاندرز فى الرملة ، جاءتهما الأخبار الصحيحة تؤكد أن الأفضل قد عسكر أمام عسقلان بقواته ، فبادر الدوق فى الحال بإرسال رسول من قبله لدعوة القادة الآخرين الذين كانوا باقين ببيت المقدس فى انتظار الخبر اليقين .

تضمنت رسالة الدوق ( جود فروى ) خبر تدفق العدو بأعداد كبيرة ، وأنه نصب خيامه على مقربة منهم ، فلم يتوان ( ريموند ) كونت تولوز ولا الزعماء الآخرون المخلصون لله - بعد سؤالهم الرب للمعونة - فى جمع العسكر الذين كانوا اذ ذاك حولهم ، ودخلوا بهم فى أرض الفلاسطينيين ، ميممين الموقع المعروف الآن باسم « ابلين » اذ علموا بوجود الدوق به ، واصطحبوا معهم قوة مؤلفة من ألف ومائتى فارس ، وما يقرب من تسعة آلاف جندى من المشاة ، وظل جيشنا مقيما فى « ابلين » مدة يوم ، حتى اذا قاربت الساعة الحادية عشرة نظروا فرأوا على البعد فى السهل قوة كبيرة ، فظنوها عسكر العدو ، فارسلوا امامهم مائتى فارس مدججين بالسلاح الخفيف للتأكد من عدد هذه القوات وما هيتهما ، أما هم ذاتهم فقد أعدوا انفسهم فى الوقت ذاته للقتال .

ولما صارت كثية الاستطلاع اقرب ما تكون الى هذا الحشد تبينت فيه أعدادا ضخمة من الماشية والخيول والجمال ، وقد قام على حراستها طائفة من الفرسان على جيادهم ، وكانوا لها شبه رعاة ، فتقدمت كتائبنا حتى اذا صارت قاب قوسين أو أدنى منهم فر الرعاة والفرسان القائمون بالحراسة ، وولوا الأدبار ، تاركين قطعانهم واسراب مواشيهم من غير حراسة ، فاستولى عليها الصليبيون بلا قتال .

ومع ذلك فقد سقط فى الأسر من العدو جماعة ، عرفنا منهم كل ما تجدنا معرفته ، من وضع العدو وخططه ، وصرخوا أن أميرهم الكافر نصب معسكره فى بقعة دائية كل الدنو ، لا تبعد عن هنا أكثر من سبعة أميال ، وأنه مجمع العزم على الزحف بعد يومين لاستئصال شافة الجيش الصليبي .

حينذاك أيقن القادة أن المعركة لابد ناشبة عن قريب ، فرتبوا صفوفهم وجعلوها تسع فرق : ثلاثا منها فى الطليعة ، ومثلها فى القلب ، والثلاث الباقيات فى الساقة ، فلو هاجمهم العدو من أية ناحية تصدت له ثلاث فرق .

لكن لم يمكن الحصول على بيان قاطع بحقيقة عدد العدو ، لأن عسكره كان من الكثرة بالصورة التى يعجز عنها الحصر ، هذا بالإضافة الى الامدادات التى كانت ترد اليه كل يوم .

كانت الغنيمة التى استولى عليها الصليبيون من غير قتال (١١) غنيمة فوق التصور كما قلنا ، فقضوا الليلة فى هذا الموضع فى فرحة غامرة ، غير أن هذا لم يصرفهم - وهم الألباء الخيريون بالحرب - عن أن يقيموا حول المعسكر عددا كافيا من الحراس الذين لم تغفل لهم عين عن حراسته .

فلما كان اليوم التالى نادى المنادى فى الصليبيين بالذهاب للقتال ، فذهبوا صفوفهم وتقدموا كأنهم البنيان الرصوص لحرب العدو . تاركين الخاتمة الى الله يدبرها كيف شاء ، إذ النصر من عنده لأنه هو وحده القادر أن يمكن فئة قليلة من التغلب على فئة كبيرة فى غير عسر .

ولقد رأى المصريون ومن انضم اليهم من بلاد الشام من عزم الصليبيين الجاد ومن وضعهم القوى ما زعزع ثقتهم فى بأسهم ، فصاروا الآن أكثر تعقلا عن ذى قبل ، وأخذ أهلهم فى أن تكون لهم الغلبة - اعتمادا على كثافة عددهم - يتضائل شيئا فشيئا ، إذ كان ظنهم أن كل قوام الجيش الزاحف ضدهم من الجند المشاة .

---

(١١) انظر ما سبق من ١٦٤ ، س ١٣ - ١٩ .

حقيقة أن عدونا كان صغيرا ، ولكن الذى حدث هو أن قطعان الماشية والدواب التى غنمناها سارت خلفنا من تلقاء ذاتها فكانت تقف إذ يقف الجيش ، وتعاود السير مباشرة إذ يعاود العسكر الزحف رغم عدم وجود راع لها يرشدها ، وترتب على هذا أن اعتقد العدو أن عدونا لانهاية له ، وأن بأسنا لايمثله بأس ، فلانوا بأنيال الفرار رغم عدم مطاردة أحد لهم ، لكن أملهم فى السلامة - حتى فى هربهم هذا - كان املا واهيا .

بيد أنه عرض فى ذلك العام عارض سوء لايدرى أحد كنهه ، اختفى معه أسقف « مطيرة » موقد المنازعات ومثير الشقاق اختفاه غامضا ، ولم يعد له يد فى تصريف أمور الدنيا ، ولم ير بعد ذلك قط أبدا ، وكان الدوق قد بعث به لاستدعاء من تخلف ببית المقدس من الزعماء ، ويقال أنه وقع فى اثناء عودته فى يد العدو فقتله أو سجنه سجنًا لم يخرج منه أبدا .

ولما منح الله النصر للجيش الصليبي انطلق حجاجه الى معسكر العدو فعمثوا على كميات ضخمة من شتى أنواع المؤنة ، فاتخمتهم وفرتها حتى انهم تعالوا عن اكل الكعك وعسل النحل ، وحق لأفقرهم أن يقول : « اتخمتنى الرفرة حتى جعلتنى بائسا » .

وكان فرار العدو متيما النصر للصليبيين من غير جهد يبذلونه أو مشقة يكابدونها ، ومن ثم عاد الناس والقادة الى القدس شاكرين انعم الله عليهم ، مثقلين بالأسلاب والغنائم التى فاضت بها أيديهم ، وهكذا عادوا يسحبون أنيال الغبطة ، وتستبد بهم الفرحة ، وراحوا فى انتصارهم يوزعون ما غنموا من الثروات ذات اليمين وذات الشمال .

حين انتهت هذه المعركة قرر القائدان (١٢) الحبيبان الى الله والمخلصان فى خدمته العودة الى بلديهما فقد كللت بالنجاح رحلة الحج التى شاركها فيها ، ومن ثم خرجا مبحرين الى القسطنطينية التى تلقاهم امبراطورها بالترحاب ، ووصلهما بعملاياه الكريمة ، ثم سافرا منها فبلغ كل منهما آمنه سالما فى روحه ، معافا فى بدنه .



عاد كونت نرمندى الى بلده ليجد الأمور قد تبدلت تماما عما كانت عليه حين خرج للحج ، وأنها بعيدة كل البعد عما يحب لها أن تكون عليه ، فقد حدث وهو يحارب من أجل المسيح أن مات أخوه الأكبر وليم الملقب بروفوس ملك الانجليز دون وريث ، مما يقضى معه أن يؤول حكم المملكة - نقاذا لولاية العهد - الى الكونت .

غير أن أخاه الأصغر هنرى أقنع أمراء المملكة أن روبرت قد أصبح ملكا على بيت المقدس ، ولم تعد لديه نية العودة ، ونجح بهذه الخديعة فى تبوء العرش بدلا منه .

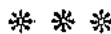
لكن ما كاد الكونت يعود حتى طالب فى الحال بحقه فى المملكة، بيد أن أخاه هنرى رفض طلبه هذا رفضا باتا وأبى إباء لا رجوع فيه أن يتخلى عنها ، فجمع الكونت العسكر ، وجيز أسطولا وهاجم انجلترا بالعسكر المنجج بالسلاح ، فحشد أخوه كل قوة المملكة وتقدم لمحاربته ، وكان القتال على وشك الوقوع بين الاثنين لولا وساطة الوسطاء بينهما ، فتم الوصول الى حل وسط عرض للطرفين ، يدفع بمقتضاه الملك لأخيه الأكبر ( كونت نرمندى ) مبلغا سنويا على أنه ضريبة ، فهدأت ثائرة الدوق بهذا الاتفاق ، وكر راجعا الى بلده ،

---

(١٢) هما كونت نرمندى وكونت فلاندرز .



لكنه مالبث ان طالب اخاه بقلاع معينة فى نرمندى كان هنرى قد استولى عليها قبل اعتلائه العرش ، فلما رفض الملك التخلّى له عنها حاصرها روبرت وأخذها عنوة ، فلم يكد هنرى الملك يسمع هذا الخبر حتى عبر البحر الى نرمنديا على رأس قوات كبيرة ، ونازل اخاه ، وأسره وألقى به فى السجن ، فظل رهينة طول أيامه الباقية حتى وافاه أجله ومهر به ، فخلفه أخوه الملك فى كل ممتلكاته (١٢) .



أما ( ريموند ) كونت صنجيل فقد عاد الى اللانقوية ببلاذ الشام حيث كان قد خلف بها زوجته على عزم الرجوع اليها بعد قليل ، ثم شد رحاله ثانية فى حاششية كريمة الى القسطنطينية ، فاستقبله امبراطورها العظيم استقبالا رائعا ، وعامله أحسن معاملة ، ثم رده سالما الى سورية محملا بالهدايا الرائعة ، فرجع الكونت الى زوجته وأهل بيته بعد غيبة طالّت عامين ، كما سنقص خير ذلك .

أما الدوق فقد استبقى معه الذبيل المبجل تانكريد وكونت « جارنييه دى جراى » ورهطا معيننا من النبلاء ، وراح يدير دفة أمور المملكة التى خصه الله لها بحكمة وهمة ، فأسبغ كرمه المعتاد على تانكريد ، إذ خلع عليه مدينة طبرية الواقعة على بصيرة « جيتيسارت » ، وجعلها ورأئية فيه الى الأبد ، ومعها كل ولاية الجليل ، كما منحه فى الوقت ذاته حيفا الساحلية المسماة « بورفيريون » بكل ملحقاتها .

ولقد أدار تانكريد شؤون هذه الولاية بهدوء رضى الرب عنه ، حتى أن أهل تلك البلاد لا يذكرونه الى يومنا هذا الا بكل احترام .

---

(١٢) اشارت الترجمة الانجليزية الى أن وفاة روبرت كورتهيون هذا كانت فى سنة ١١٣٤ بقلعة كارديف فى ويلز ، وقد أحوالت هذه الترجمة القارئ ان شاء المزيد من التوسع فى اخباره الى :  
David Robert Curthose, PP. 120 — 129.

كما عنى عناية فائقة بتشبيد الكنائس فى نواحي تلك الأسقفية ،  
 لاسيما فى الناصرة وطبرية وعلى جبل تابور ، وحبس عليها الحبوب  
 الواسعة ، وزودها أيضا بالتجهيزات والتهاويل الدينية ، لكن جزءا  
 كبيرا من هذه النخ تولى الأمراء الذين خلفوا تانكريد توزيعه تارة  
 بالحيلة وتارة أخرى بالخدعة . ومع ذلك فإن ما بقى منها ساعد  
 الكنائس على الصبر على نفسها لسد احتياجاتها ، ولم يفتها  
 الترحم على روح من سخا على كنائس الرب هذا السخاء الدينى  
 العظيم ، وغمرها بالحب العميق .

ولما كان تانكريد مخلصا حتى فى الأمور الصغيرة فقد كانت نعم  
 الرب عليه كثيرة بصورة أشعرته بما يحسه رب الأسرة من الغبطة ،  
 وجازاه على كل شىء بذله مائة ضعف ، فكوفئ بعد سنتين على  
 خدماته بأن استدعى الى اماره أنطاكية ، فأعقد عطاياه الكثيرة  
 على كنيستها التى أخذ مجدها وشهرتها فى التزايد منذ عهد الرسل ،  
 مضافا الى ذلك توسيعه رقعة الامارة بما ضمه اليها من المدن  
 والحصون التى استولى عليها ، حتى انبسطت طولاً وعرضا ، كما  
 سنورد ذلك فى الصفحات التالية .

— ١٤ —

بينما كانت الأمور تسير قدما على هذه الصورة فى المملكة  
 قرر الدوق بوهموند امير أنطاكية وأخوه بلدوين كونت الرها الذهاب  
 الى بيت المقدس ، فقد جاءتهما الأخبار الجمة بما ائتمت به العناية  
 الالهية على اخوانهما ورفاقهما فى هذا الحج الأعظم من النجاح  
 فى الاستيلاء على المدينة المقدسة مما كان أنجازا مسعيا لهدف  
 رحلتهم ، فحركهما هذا الخبر لتحديد يوم يرحلان فيه تحت رعاية  
 الرب الى المدينة الطاهرة ، وذلك حين يفرغان من اتمام كل الاجراءات

الضرورية لهذه الرحلة التي كان غرضها منها أن يكمل جهودهما بالوفاء بما عاهداهما الله عليه حتى يؤدي حضورهما الأخوي إلى بث الطمأنينة في نفس النوق وتأكيد وغيرهما من الزعماء ، إذ كان قد تخلف عنهم النيبسلان العظيمان بوهيموند في أنطاكية لرعاية الامارة ، وبلدوين في الزها لحفظ البلد من غارات العدو .

وكان الأمر قد تقرر منذ البداية ومنذ الاستيلاء على أنطاكية على أن الصالح العام يقتضي من هذين الزعيمين ألا يترك أحدهما أرضه التي منحها له السماء ، وأن واجبهما يحتم عليهما أن يبذلا ما في وسعهما من الاهتمام بالدفاع عنها ، فلم يكن من المستبعد أن يعاود العدو القتال بقوات جديدة وفي عنف أكبر مما كان عليه من قبل ، وحينذاك لا يجدى الصليبيين ما انجزوه نفعا .

وعلى الرغم من انشغال كل من هذين الحاكمين أشد الانشغال بأمور مملكتيه ، إلا أنهما عزمًا عزمًا أكيدا على الحج ، ومن ثم شرعا في السفر في اليوم المحدد ، فاستصحب بوهيموند معه رهطا كبيرا من أصحاب الخيل ومن المشاة ، كما سار على الأقدام كثيرون ممن كان الشوق ينازع نفوسهم للقيام بنفس الحج ، ووصل بوهيموند إلى مدينة « فالينيسا » البحرية الواقعة عند سفح حصن المرقب حيث ضرب مخيمه وأن كان ذلك على كره شديد من الأمالي ، وهنا انضم إليه بلدوين الذي كان على مقربة منه فالتحدا قواتهما وتابعا الرحلة التي قاما بها .



وحدث في هذا الوقت بالذات أن أرسلت في لاذقية الشام طائفة من حجاج إيطاليا ، من بينهم دامبرت رئيس أساقفة البيازنة ، وكان رجلا عاقلا متعلما ، رحيما القلب ، ميالا لكل عمل شريف ، كما كان

فى هؤلاء الحجاج ايضا أسقف (١٤) « أريانو » فى « أبوليا » وقد انضم هؤلاء الناس الى معسكر القائدين اللذين أشرنا اليهما ، فزادت بذلك القوات زيادة ضخمة ، ويقال ان عدد هذا الحشد من الرجال والنساء ، ممن عندهم ظهر ومن سار راجلا كان يقرب من خمسة وعشرين ألف نسمة .

تابع الحجاج سيرهم مصاعبين للساحل مارين بمدن العدو ، مما جعلهم لا يبلغون هدفهم الا بشق النفس ومكابدة المناعب الجمة بسبب نقص الطعام عندهم ، فقد نفذ كل ما كانوا يحملونه منه فى صرهم ، ولم تتح لهم قط فرصة للشراء ، كما لم يجدوا شيئا يبتاعونه ، يضاف الى ذلك ما قاساه الكثيرون من العذاب الشديد بسبب زمهرير البرد القارس وهطول المطر الغزير ، لأنهم كانوا فى شهر ديسمبر ، والوقت شتاء ، وقد انفرد أهل طرابلس وقيصرية وحدهم طول هذه الرحلة الطويلة بتمكين هؤلاء المسافرين فى عبورهم البلاد من شراء الطعام . وعلى الرغم من ندرته عند الحجاج ومقاساتهم أهوال الجوع الا أنهم تابعوا مسيرتهم غير عابئين بما يكرثهم من عدم وجود دواب النقل لحمل متاعهم .

لكن رعاية الله أبت الا ان تحرسهم ، فبلغوا القدس حيث رحب بهم الدوق ( جود فروى ) ورجال الدين والأهالى أصدق ترحيب ، ثم زاروا الأماكن المقدسة بقلوب واجفة . ونفوس ملؤها الخشوع ، وشاهدوا بأعينهم صدق ما كانت تأتيهم به الأخبار مما كانوا لا يعرفونه

---

(١٤) جاء فى حاشية ٣٥ ، ص ٤٠١ ، ج ١ من الترجمة الانجليزية ما يرجح القول بان أسقف « أريانو » كان مع بوهيموند منذ سنة ١٠٩٦ ، وتبنى الترجمة هذا الترجع على ما جاء فى كل من  
A.B. Yewdale : Bohemond, I, Prince of Antioch, P. 38, & H.  
Hagenmeyer, ed., Fulcher Carantenstis Herosolymitana. P. 327.

الا سماعا ، فلما صاروا بمدينة بيت لحم الطاهرة احتفلوا بمولد المسيح ، وهنا راوحوا يحملون بدھشة فى المنود والكهف العجيب الذى اقامت فيه الأم الحنون التى جاءت بمفتاح الخلاص ، فلفت السيد فى الأقمشة البسيطة ، وراحت تهدد من بكائه على صدورھا .

\*\*\*

- ١٥ -

على أنه قبل هذا الأمر بخمسة أشهر تقريبا خلى كرسى كنيسة بيت المقدس من صاحبه ، ومن ثم صارت الحاجة ماسة الى سواه يدبر امورها ، لذلك اجتمع من كان وقتئذ بهذه المدينة من الأمراء ليوفروا لكنيسة الرب من يشغل هذا المكان ، وطالت بينهم المداورات العقلانية حتى انتهت الى اجماعهم على تنصيب « دامبرت » الموقر فى كرسى البطركية فتم انتخابه ، فشجب اختياره ما كان من انتخاب ارنولف الذى ذكرناه ، وعد انتخابه باطلا ، وأنه يجب التجاوز عنه لأنه تم فى عجلة وغير تبصر .

وما كاد رجل الرب « دامبرت » ينصب فى كرسى البطركية حتى سلم بيده كلا من الدوق جود فروى والأمير بوهيموند تقليديهما بما فى يدهما ، فتسلماه فى خشسوع ، فلما الأول فمنحه مقاليد المملكة ، وأما الثانى فقد وكل اليه أمر الامارة ، فكان ذلك توقيرا منهما باعتبار البطرک نائب السيد على الأرض .

وما كادوا يفرغون من مراسيم هذا الحفل حتى رصدت للبطرك المجل الأموال المناسبة للصرف على أسقفية الموقرة ، ولم يقف الأمر عند حد منحه الأملاك التى كانت تابعة من قبل للبطرك اليونانى منذ أيام البيزنطيين زمن « الأمم » ، بل أضيفت اليها أملاك جديدة .

وبعد أن تمت هذه الأمور على الوجه الأكمل استأذن بوهيموند ويلدوين من الدوق فى عودة كل منهما الى بلده ، وفضلا الى نهر الأردن ، ففضلا سائرين على طول شاطئه عبر الوادئ الشهير ، ومضيا الى « بيسان سكيثوبوليس » حتى انتهيا أخيرا الى طبرية ، فترودا - ومن معهما - بما يحتاجونه من الطعام اللازم للرحلة التى تابعوها من جديد على طول بحر الجليل الى فينيقية اللبنانية ، جاعلين « بانياس » التى هى قيصرية فيليبي على يمينهما ، ثم دخلا اقليم ايتوريا وجاءا الى الموضع المسمى هليوبوليس والمعروف أيضا باسم « بعبك » وهنا عادا مرة ثانية الى ساحل البحر حتى أوصلتهما رعاية الله الى انطاكية سالمين بمن معهم فى أنفسهم وأبدانهم .

- ١٦ -

فى هذه الأثناء نجمت مشكلة فى القدس بين البطرک والدوق ، وزاد من حدتها تدخل فئة معينة من مثيرى القتل الذين يستوقد الحسد ضلوعهم لمن يعيشون فى هدوء ، ويفرحون غاية الفرح فى بذرهم بنور الشقاق بينهم ، ذلك أن البطرک طالب أن يعيد الدوق إليه مدينة الرب المقدسة بقلعتها وكذلك مدينة يافا بملحقاتها ، وطال النقاش واحتد بينهما بعض الوقت ، حتى اذا كان يوم (١٥) الاحتفال بدخول السيد المسيح الى الهيكل وتنزيه مريم المباركة وقف الدوق وهو الرجل المتواضع الأريحي التقى وتنازل أمام رجال الدين وكافة الناس عن ربع مدينة يافا لكنيسة القيامة المباركة .

ثم لما كان يوم عيد الفصح التالى المبارك قام الدوق فى حضرة رجال الدين وبين الناس الذين احتشدوا للاحتفال بهذا اليوم ، وأسلم البطرک مدينة بيت المقدس وبرج داود وكل ما يلىق به ، والحق

---

(١٥) وذلك يوم ٢ فبراير سنة ١١٠٠م .

الشرط التالي بالعطية الا وهو ان يتمتع هو ذاته (١٦) بالمدينة المشار اليها ، ويكون له الحق فى استعمال ضواحيها حتى يأذن الرب له باخذ مدينة أو اثنتين أخريين ، وبذلك يزيد فى رقعة المملكة ، كما اشترط انه اذا مات دون وريث شرعى فان جميع الأملاك المشار اليها تنتقل من غير معارضة أو مشاحنة الى سلطة البطرک المعظم دامبرت •

ولقد ادرجنا كل هذه التفاصيل فى كتابنا الحالى هذا على الرغم من أنها واردة فى كتابات (١٧) الآخرين ، كما أن هنالك اشخاصا من شتى المراتب بذلوا جهدا فى تدوينها فدونت ، ومع ذلك فاننا نتساءل فى دهشة عن الدوافع التى حملت البطرک على اشارة هذه المشكلة ضد الدوق اذ اننا لم نقرأ أبدا ، ولا حدثتنا الأخبار الموثوق بها أن عهد القادة ( الصليبيون ) المنتصرون بالمملكة للدوق على مثل هذه الشروط التى تجعله يحس بالتزامه بمنح وعود حولية أو عهود دائمية لأى شخص ، أيا كان هذا الشخص •

ولا يظنن أحد بنا الغفلة أو الجهل التام حين ندقق النظر أكثر من أى شخص آخر للموقف على حقيقة هذه الأمور ، فما غرضنا الا تسجيل واقع هذا الخبر ، وهو غاية كانت فى ذهننا منذ زمن بعيد •

---

(١٦) أى الدوق جودفروى •

(١٧) يتفق المترجم مع ما ورد فى الترجمة الانجليزية من ان هذا دليل بين على أن وليم المصورى رجع فى تدوين أخباره الى بعض مؤلفات معاصريه •

مما لا مرأ فيه أنه منذ دخول اللاتين بيت المقدس - بل وقبل ذلك بسنوات طويلة - كان ربيع المدينة معتبرا ملكا للبترك ، ويمكن أن نوجز كيف تم ذلك الأمر مع الإشارة الى أصل هذا التملك وسببه ، ولقد توصلنا الى حقائق هذا الموضوع بعد استقراء عميق لهذه المسألة وكثرة السؤال بشأنها .

تقول الأخبار القديمة ان هذه المدينة لم تنعم قط بالسلام الدائم ولو لأمد قصير حتى يومنا هذا منذ وقوعها فى أيدي المارقين ، بل سارت الأمور فيها على النقيض ، فقد اجتاحتها الحروب المتكررة ، وتعددت مرات حصارها بسبب طمع الأمراء المجاورين فى الاستحواذ عليها لأنفسهم ، مما تمخض عن هدم أسوارها ، فتحولت أبراجها الى أطلال خلال أيام الحصار ونكباته ، وأصبح البلد عرضة لمكائد الأعداء من كل ناحية .

وكانت مملكة المصريين فى هذا الوقت قد برزت غيرها من ممالك الشرق والغرب قاطبة ، ليس فى كثرة سكانها وثروتها فحسب ، بل وفى السيطرة الدنيوية أيضا ، ولما كان خليفة مصر يريد مد رقعة حدود امبراطوريته ، وبسط سلطان سيادته على القريب والبعيد ، فقد أنفذ جيوشه فاحتلت كل بلاد الشام قسرا وتوغلت حتى بلغت مدينة اللاذقية المجاورة لأنطاكية ، والتي تعتبر حدودا لوسط الشام ، ثم عين نوابا يتولون حكم جميع مدنها البحرية والبرية على السواء ، وفرض عليها الجزية ، وألزمها بالارتباط به برباط التبعية ، وزاد على ذلك بأن أرغم كل مدينة أن تعيد ترميم أسوارها ، وأن تشيد حولها أبراجا منيعة ، وترتب على هذا المرسوم العام قيام عامله على بيت المقدس بالزام سكانها بهذه الأوامر الشاملة واعادة السور والأبراج الى ما كانت عليه من قبل .



وتعمدوا - عن سوء نية فى اثناء توزيع هذا العمل - الزام  
النصارى التسبب المقيمى ببيت المقدس باعادة تعمير ربع تلك  
العمائر ، وكان هؤلاء المؤمنون قد طحنتم السخرة وكابسوا ماهر  
اشد منها قسوة ، فقد اجهدتهم الضرائب ، واثقلتهم الاتاوت ،  
والزموهم القيام بالأعمال المزرية حتى لم يعد كل ماتملكه هذه  
الجماعات كافيا لتمكينها من اعادة برج أو اثنين من هذه الأبراج .

وحين رأى النصارى أن عدوهم يتلمس كل فرصة لمضايقتهم  
مضايقة لا يملكون لدفعها حولا ولا قوة فقد يمموا وجوههم شطر  
الوالى ، واستعطفوه فى مذلة وانكسار سائلينه أن يكلفهم بمهمة  
تناسب وطاقتهم ، لعجزهم التام عن انجاز ماكلفوا به ، فلم يرحمهم  
الوالى ولم تعطفه عليهم بموعهم بل أمرهم أن يغربوا عن وجهه ،  
ويبلغ فى تهديدهم قائلا لهم « ان شجب قرار الأمير (١٨) الأعظم فيه  
تدنيس ، فعليكم أما أن تنجزوا العمل الذى وكل اليكم ، أو أن  
تستسلموا للسيف كمنذنين فى حق صاحب الجلالة » .

وإذ تدخل الكثيرين من الوسطاء وكثرة ما قدمه النصارى  
من الهدايا الى حصولهم على تأجيل تنفيذ حكم الوالى الى حين  
التمكن من ارسال مبعوثين الى الامبراطور بالقسطنطينية يسألونه  
أن يتصدق عليهم بما يستطيعون به اكمال ماكلفوا به .

- ١٨ -

فأوفدوا فى الحال الى الامبراطور الرسل الذين ما ان صاروا  
بين يديه حتى مضوا يشرحون له فى تفصيل وضع المسيحيين  
المحزن ، وماهم فيه من البلاء المقيم والحزن الموجع ، فحركوا بكلامهم

(١٨) يقصد بذلك الخليفة الفاطمى .

أشجان سامعيهم ، وفصلوا لهم مافيه النصرارى من نكد عظيم ، وما يتعرضون له من الضرب المهين والبصق والتقييد والزج فى الحبس بسبب اسم المسيح ، وأفاضوا فى مايكابده هؤلاء التمساء على الدوام من ضياع مايملكون بسبب المصادرات الواقعة عليهم ، ناهيك بأنهم عرضة للصلاب وشتى أنواع التعذيب ، وأسهبوا فى ذكر ما يتذرع به خصومهم من الحجج للقضاء على هذا الشعب التعتيس .

كان الجالس على عرش امبراطورية القسطنطينية وحساحب الصولجان يومذاك هو « قسطنطين » مونو ماخوس (١٩) وكان رجلا عاقلا سوريا ، يدير دفة شئون امبراطوريته بنشاط جم ، وسرعان ما استجاب للتماسات اتباع المسيح المحزنة ، ووعدهم بالمال الذى يستطيعون به انجاز ما كلفوا به ، وكان الامبراطور صادرا فيما فعل عن احساسه بالعطف الشديد الصادق على ما هم فيه من الكرب والهموم التى لا انقطاع لها ، غير أنه اشترط عليهم أنه غير قابض عنهم المال ان هم استطاعوا الحصول من والى الناحية (٢٠) على وعد بالا يسمح لغير النصرارى بالسكن داخل نطاق السور الذى اقترحوا أن يقيموه من هذه المنحة الامبراطورية ، كما كتب هو من توه الى اهل جزيرة قبرص طالبا اليهم أن يعينوا هؤلاء النصرارى - اذا ما حصلوا على هذا الامتياز فى بيت المقدس - بمبلغ كاف للصرف على

---

(١٩) حكم قسطنطين مونوماخوس الامبراطورية البيزنطية مايقرب من ثلاثة عشر عاما ( ١٠٤٢ - ١٠٥٥ ) ، وتجمع المصادر التى كتبت عنه على دم عهده ، كما أن الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية بلغ ذروته فى اخريات أيامه ، ونرجح أن وليم الصورى اخطأ حين جعل الامبراطور هو مونوماخوس ، والاغلب أنه يقصد الامبراطور قسطنطين دوكاس العاشر ، يؤكد هذا ما جاء فى صفحة ١٧٨ ، من النص على سنة ١٠٦٢ .  
(٢٠) المقصود بها القسم الخاص فى القدس .

العمل المشار اليه ، على أن يخصم من الضرائب والأموال الواجب عليهم دفعها للخزانة .

فلما حصل الرسل على هذا الوعد من الامبراطور عادوا من حيث جاءوا ، وأخبروا البطررك الجليل وشعب الله بتفصيل ما فعلوه ، فقوبل ما فعلوا بالغبطة ، وبذلت الجهود الصادقة المتحمسة لتحقيق الشرط الذى طلبه الامبراطور ، وفى الحال أوفد النصارى الرسل الى مولاهم الكبير وصاحب الأمر قيهيم : خليفة مصر ، وصحبت العناية الالهية هؤلاء المبعوثين فقد نجحوا فى سفارتهم ، وحصلوا على مرسوم مهوور بامضاء الخليفة وخاتمه .

عاد القصاص الى بلدهم بعد أن نجحوا فى أداء مهمتهم ، واستطاع النصارى بعون الرب أن يتموا من السور الجزء الذى فرض عليهم بناؤه ، وكان ذلك فى سنة ١٠٦٣ من مولد المسيح وقبل تحرير المدينة المقدسة بست وثلاثين سنة وفى زمن الخليفة المصرى ( الفاطمى ) المستنصر ( ١٠٣٥ - ١٠٩٤ ) .

كان المسلمون والمسيحيون حتى ذلك الحين يعيشون جنباً الى جنب على السواء لا تمييز لواحد منهم على الآخر ولا تفرقة بينهم ، لكن نجم عن هذا القرار اضطراب المسلمين للفرز الى نواح أخرى من بيت المقدس غير التى كانوا بها ، تاركين الربع المذكور للمؤمنين ( النصارى ) غير منازلهم فيه، وترتب على هذا التغيير تحسن أوضاع خدام المسيح المادية ، غير أن ما كان قد فرض عليهم من العيش مع القوم الضالين ، أدى فى كثير من الأحيان الى حدوث منازعات بين الجانبين عملت على زيادة متاعبهم وزيادة فادحة ، فلما استطاعوا أخيراً الانفراد بسكنهم من غير إزعاج ، سارت حياتهم رخية مطمئنة ، فما من نزاع شب بينهم الا رجعوا فيه الى الكنيسة ليفصل فيه البطررك الذى كان قوله وحده هو الفاصل .

لم يعد لهذا الحي من المدينة مئذنة ، - وفي الخلف الذى وصفناه - من قاض أو رئيس سوى البطريرك ، ومن ثم فقد تمسكت الكنيسة بهذا الجزء كملك خاص بها لا ينازعها فيه منازع .

أما صفة هذا الحي فكانت كما يلى :

كان يتألف هذه الخارجى من السور الذى يمتد من الباب الغربى - أو باب داود - مارا بالبرج الكائن فى الزاوية والمسمى ببرج تانكريد حتى يصل الى الباب الشمالى المسمى بباب اسطفان اول الشهداء .

أما حده الداخلى فهو الشارع العام الذى يمتد من باب اسطفان حتى يصل الى الموضع الذى يجلس فيه الصيارفة الى موائدهم ، ثم يرتد الى وراء ثانية الى الباب الغربى .

ويقع داخل هذين الحدين طريق الآلام وكنيسة القيامة ، والبيمارستان ، كما يوجد أيضا ديران أحدهما للرهبان وثانيهما للنسوة الطاهرات ، ويعرفان بديرى اللاتين .

كما يقع سكن البطريرك ودير حماة القبر المقدس وملحقاته داخل هذه النواحي .

... ١٩ ...

فى هذه الأثناء كان معظم الزعماء الذين شاركوا فى الحملة قد عادوا الى أوطانهم ، لم يتخلف عنهم سوى الدوق الذى عهد اليه بحفظ المملكة ، وغير تانكريد الذى استبقاه جود فروى الى جانبه لمشاركه فى حمل المسئولية لما رآه فيه من رجاحة عقله ونشاطه ونجاحه ، وكانت مصادر الصليبيين المالية وقوتهم الحربية ضئيلة

جدا حينذاك ، فلما جمع كل عسكرهم لما بلغوا بعد طول الكد اكثر من ثلاثمائة فارس ولم يجاوز مشاتهم الالفين .

ثم ان المدن التي كنا قد استولينا عليها كانت قليلة العدد ، هذا الى جانب وجودها وسط محيط العدو بصورة لم يكن الصليبيون يقادرون معها على الذهاب من احدى هذه المدن الى الأخرى اذا اقتضت الضرورة ذلك والا كانوا عرضة لخطر جسيم ، كما أن معظم الاقليم المحيط بأملالكهم كان يسكنه الشرقيين المارقون الذين كانوا أشد الناس وحشية في عداوتهم لقومنا ، وكانوا أخطر الجميع علينا لقربهم الكبير منا ، إذ ليس هناك بلاء أشد بلاء بالمرء أو أقفل في خطبه من عدو يكون له بالمرصاد على الأبواب ، ولم يكن ثم مسيحي يسير في الطريق العام دون أن يأخذ حذره الشديد والا لقي الهلاك على أيدي الشرقيين ، أو وقع في أيد تسلمه للأعداء فيسترقونه .

يضاف الى ذلك أنهم كانوا يرفضون زرع الحقول عسى أن تفتك المجاعة بقومنا ، بل أنهم كانوا يؤثرون أن يكابدوا هم أنفسهم الجوع حتى لا يصل القوت الى المسيحيين الذين يعدونهم أعداء لهم .

لم يكن الخطر قاصرا على الطرق العامة فحسب ، بل كان رابضا أيضا داخل أسوار المدينة وفي البيوت ذاتها ، فما كان ثم مكان ما يستطيع المرء الاطمئنان فيه على نفسه ، ويرجع ذلك الى قلة عدد السكان وبعثرتهم في كل ناحية ، كما أن ما كانت عليه الأسوار من هدم جعل كل موضع مكشوبا أمام العدو ، فكان اللصوص يشنون هجماتهم خلسة تحت جنح الظلام ، ويهاجمون المدن المهجورة التي فر عنها أصحابها القلائل وبعدوا عنها ، ويغيرون على الناس في عقر دورهم ، مما ترتب عليه أن تخلى بعضهم في السر عما بيدهم من الدور التي كانت في حوزتهم ، كما تركها معظمهم جهرا ، وشرعوا في العودة من حيث جاءوا مخافة أن يهاجم العدو من

يسهرّون على حمايتهم فلا يوجد إذ ذاك من يقيهم شر مذبحه توشك  
أن تلم بهم ، وقد أدى هذا الوضع الى اصدار قرار باجراء احصاء  
سنوى لرعاية مصالح أولئك الذين ظلوا مقيمين حيث هم وسط هذه  
البلايا متمسكين باملاكهم لمدة عام ويوم بعده ، ولقد صسدر هذا  
القانون - كما قلنا - فى مواجهة أولئك الذين جبنوا فتخلوا عما  
بأيديهم من الاملاك حتى لا يكونوا قادرين على العودة بعد مرور  
عام وتجديد دعواهم .

وعلى الرغم من أن الملكة كانت فى صراع مع الفقر الا أن  
جود فروى - حبيب الله الخائف منه - لم يال جهدا فى مد رقعة  
الملكة ، مستعينا بالعناية الالهية ، فجمع العسكر وأهل الناحية  
جميعا وخرج بهم محاصرا احدى المدن الساحلية القريبة من يافا  
والتي كانت تدعى من قبل « انتيباتريس » أما الآن فتعرف باسم  
« أرسوف » ، وكان يتولى الدفاع عنها وقتئذ رجال شجعان مهرة  
فى استعمال السلاح ، قد توفرت الميرة بين أيديهم ، ولديهم كل ما هو  
لازم لمعاشهم ، على حين كان الدوق يقاسى فى الخارج الحاجة الملحة  
لاسيما وأنه لم يكن عنده سفن يستطيع أن يمنع بها من فى المدينة  
من المحصورين من الخروج منها أو الدخول اليها ، ومن ثم فقد  
اضطر تحت هذه الحاجة لرفع الحصار عنها عسى أن تواتيه رحمة  
الله فى المستقبل بفرصة أحسن تمكنه من انجاز غايته ، غير أن موته  
المبكر حال بينه وبين تنفيذ قصده ، فلم يقسن له أبدا تحقيق رغبته .

- ٢٠ -

لقد رأينا أنه من الخير أن ندرج فى هذا التاريخ حادثا يستحق  
الاشارة جرى فى اثناء هذا الحصار بالذات ، ذلك أن رهطا من  
صغار الزعماء المقيمين فى نواحي الاقليم المحيط بجبال السامرة

حيث تقع مدينة نابلس - جاءوا اليها حاملين هداياهم من الخبز والنبيد والتين والزبيب ، ويبدو لى أن الدافع لقدمهم كان لكشف احدنا اكثر من تقديمهم الهدايا للدوق الذى طلبوا المثل بين يديه حال بلوغهم المعسكر الصليبي ، فلما صاروا بحضرته قدموا اليه ما جاءوا به من الهدايا ، واذ كان الدوق رجلا شديد التواضع ، فابدا نبذا تماما زينة الدنيا وابتهتها فقد استقبلهم وهو مفترش الأرض على غرارة محشوة بالمتين حيث كان فى انتظار رجوع رجاله الذين كان قد ارسلهم سعيًا وراء الكلا ، فلما رآه الشيوخ القادمون عليه على هذه الصورة ألجمت الدهشة السنتهم ، وراحوا يتهامسون فيما بينهم : « كيف لأمير جليل القدر كهذا الأمير ، وسيد عظيم كهذا السيد قادم من الغرب ، وقد هن الشرق كله واستولى على مملكة شديد البأس بيد قوية - كيف له أن يجلس هذه الجلسة الزرية ؟ ولماذا لا يحيط نفسه بالطنافس والحريز ، ويقيم حوله جيشا من الحرس المدجج بالسلاح ليظهر للقادمين عليه بمظهر الباطش ؟ » ولما رآهم يتهامسون بذلك فيما بينهم سألهم عم يتسارون ، فلما وقف على ما يتهامسون به قال لهم : « ان الأرض تكفى لتكون مقعدا مؤقتا للأدنى الفانى طالما انها ستكون مضجعة الأبدى بعد موته » ، ففاضت نفوسهم اعجابا برده ، واكبروا فيه تواضعه ورجاحة عقله ، وانصرف الذين جاءوا لسير غوره وهم يقولون : « ما أجدر هذا الرجل بامتلاك كل الدنيا ، وانه لحرى - وهذه صيفته - أن يكون له الحكم على الشعوب والممالك » .



وكان سكان النواحي المجاورة ينظرون الى هؤلاء الناس الصجاج بعين الاعجاب ، وان كانوا فى الوقت ذاته يخشون بأسهم ويخافون ان يغلّبواهم على أمرهم ، وازداد هذا الخوف والاعجاب

حينما علموا بهذه الحقائق التى تلقوها من أفواه خاصة أصدقائهم ،  
وقد وثقوا فى كل ما حدثوهم به \* ومن ثم شرق هذا الخبر المدهش  
وغرب حتى وصل الى أقصى ربوع المشرق \*

## - ٢١ -

فى أثناء هذه الأحداث الجارية بمملكة بيت المقدس كان يحكم  
مدينة ملطية الواقعة بالجزيرة فيما وراء الفرات رجل أرمنى اسمه  
« جبريل » ، دفعه خوفه من هجوم الفرس ( الدانشمندان ) عليه  
ويقينه بعدم قدرته على مقاومتهم الى ارسال رسل من قبله الى  
بوهيموند أمير أنطاكية يلتبس منه القدوم عليه فى الحال ليسلمه  
على الفور المدينة تحت شروط خاصة محددة ، فما كان بوهيموند  
الشجاع يتسلم الرسالة حتى هب فى لحظته مستجيبا هذه الدعوة ،  
وخرج باتباعه الذين جرت عادته أن يخرج بهم ، وعبر الفرات وترغل  
فى أرض الجزيرة ، وبينما هو موشك على بلوغ غايته اذا بوال  
تركى قوى اسمه « دانشمند » يباغت رجال بوهيموند وكانت قد  
بلغته أخبار زحفهم من قبل ، فترصدهم فى بعض الطريق ودهمهم  
فجأة من حيث لا يدرون ، فأما الذين أمسكهم فقد عرضهم على  
السيف ، وأما الذين لم يستطيعوا الصمود أمام هذا الجيش فقد  
لاذوا بأذيال الفرار \*

وشاء قدر الأمير بوهيموند وسوء طالعه أن يقع بسبب خطاياه  
فى يد عدوه فكبله بالسلاسل (٢١) ، فكان ذلك نصرا لدانشمند ملا

---

(٢١) فى الترجمة الانجليزية ( ج ٢ ص ٤١١ ، حاشية رقم ٥٠ ) إشارة  
الى أن هذا الأسر وقع حوالى ١٥ أغسطس سنة ١١٠٠ ، وأن أسرى بوهيموند  
حملوه الى « نكسار » التى هى قيصرية الجديدة عند الرومان \*



عطفه كبرياء ، فمضى قدما يسعى لحاصرة « ملطية » اعتمادا منه على كثرة جنده الذين يقودهم ، وقد طمع في الاستيلاء عليها في لحظته .

غير أن الفارين كانوا قد نجحوا في الوصول الى الرها ، واناضوا لكونتها في تفصيل أمر النكبة التي حاقت بهم وبالأمير (بوهيموند) ، فلما سمع ذلك الحاكم الشجاع قصتهم تحرك قلبه شفقة على الأمير إذ هو أخوه ، وتأثر تأثرا عميقا من هذه النكبة الفادحة ، واشتد جزعه من عواقبها ، فأسرع باسستدعاء قواته الحربية ، وتزود بكل ما هو ضروري للزحف الذي تعجله ما وسعته العجلة .

والمعروف أن مدينة ملطية تقع على مسيرة ثلاثة أيام من الرها ، لكن الكونت طواها في سرعة كبيرة حتى إذا قاربها ترامى خبر اقترابه الى سمع دانشمند فرقع الحصار عنها ، وارتد بأسسيه بوهيموند والقيد في يديه الى أقصى ناحية من المملكة ليتحاشى الاشتباك في القتال .

فلما علم الكونت ( بلدوين ) بفزع دانشمند من مجيئه فزعا حمله على رفع الحصار ( عن ملطية ) مضى يتعقبه ثلاثة أيام سويا ، أدرك بعدما الأجدوى من هذه المطاردة فعاد أدراجه الى ملطية ، حيث رحب به حاكمها « جبريل » ترحيبا لا يليق الا بالملك ، وبألف في تعظيمه ، ثم سلمه المدينة على نفس الشروط التي كان قد قدمها لبوهيموند ، فلما تم ذلك كله عاد الكونت الى امارته .

- ٢٢ -

في هذه الأثناء كان الدوق ( جود فروي ) العظيم ومن أقاموا معه بالقدس لحماية المملكة بعد رحيل القادة الآخرين يقومون بعملهم

وهم يقاسون فظاظة المترية ، وكانوا قد بلغوا من الفقر مبلغا تعجز  
الكلمات عن شرحه .

وقد جد أمر لم يكن بالحسبان ، ذلك هو مجيء الكشافة الثقاة  
بخبر تأكد صدقه ، يشير الى وجود قبائل عربية فى بعض البلاد  
العربية عبر الاردن وفى أرض العمونيين ليس لديها وسائل دفاع  
قوية عن نفسها ، وأنه لو هاجمها أحد أو باغتها بالهجوم لغنم منها  
الشيء الكثير ، فأغرى بعض القوم جود فروى على مباغتها ، ومن  
ثم راح يجمع سرا ما استطاعت المملكة الشهابية أن تمدده به من  
الفرسان والمشاة ، فلما تم حشدهم فى صعيد واحد عبر بهم الأردن  
مقتحما أرض العدو . وكللت الغارة بالنجاح .

وبينما كان جود فروى عائدا وقد فاضت يداه بما غنم من  
الماشية والدواب والأسرى ، اذا بشريف عربى بارز من الأبطال  
المشهورين فى عشيرته بولعه بالحرب قد بعث إليه رسلا من قبله  
يرجو مهادنته ، فلم يبخل عليه بما تمنى ، ثم مالئ هذا الشريف أن  
قدم وفى ركب جماعة من أهل الجاه من العرب لزيارة الدوق ، إذ  
كانت الأخبار الكثيرة قد جاءت محسنة إياه بقوة هؤلاء الناس  
الوافدين من الغرب وذئوع شهرتهم ، وأنهم اجتازوا هذه المسافات  
البعيدة وتحملوا المشاق الجمة حتى تمكنوا فى النهاية من قهر  
الشرق بأجمعه والاستيلاء عليه ، كما ترامى الى سمعه فوق ذلك  
خبر شجاعة الدوق التى لا تماثلها شجاعة ، وعلم بعزمه الماضى  
الذى لا يلين ، فملا الشوق قلبه تطلعا لرؤيته .

فلما وقف الشيخ العربى بحضرة الدوق جود فروى وحياء  
التحية اللائقة به توسل إليه أن يتفضل فينبج بسيفه جملا ضحما جاء  
به إليه لهذا الغرض ، لأنه يريد أن يكون قادرا على أن يشهد عند

الآخرين بما عليه الدوق من قوة يكون قد رآها رأى العين ، فقبل جود فروى سؤال الشريف اكراما لقدمه عليه من بلاد نائية ارويته ، وتناول سيفه دون أن يشحذه وضرب به البعير ضربة قطعت عنقه دون أن يكلفه ذلك جهدا وكأنه كان يحطم شيئا هاشا ، فتملكت الدهشة العربى من هذه القوة الخارقة ، وان كان قد خامره ما جعله ينسب سرا هذا العمل الى حدة مضاء السيف ، ومن ثم استأذنه أن يتكلم اليه فى صراحة وسأله عما اذا كان يستطيع القيام بهذا العمل ذاته ولكن بسيف غير سيفه ، فارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتى الدوق الذى التمس من العربى أن يناوله سيفه هو ، فلما صار فى يده أمر أن يأتوه بمثل لهذا الجمل ، فلما جئء له به رفع السيف وأهوى به مرة واحدة أطاحت عنق الحيوان .

فأظهر الشيخ العربى لأول مرة دهشته وتملكه الاعجاب حتى ألجم لسانه ، وأدرك أن فعل الضربة الثانية لم يكن من حدة السلاح ومضائه ، ولكن بسبب قوة الدوق نفسه ، وصدق لديه كل ما سمعه عن بأس جود فروى ، وبأس فقدم اليه هداياه من الذهب والفضة وما جاء به له من الخيل ، وكسب ود الدوق ، حتى اذا عاد الى بلده كان لسانا يذيع على الجميع ما كان من خبر الدوق ويعلم لكل من يلقاه ما رآه بعينى رأسه من شدة بأسه .

وعاد الدوق الى بيت المقدس بأسراه وغنائمه .

- ٢٢ -

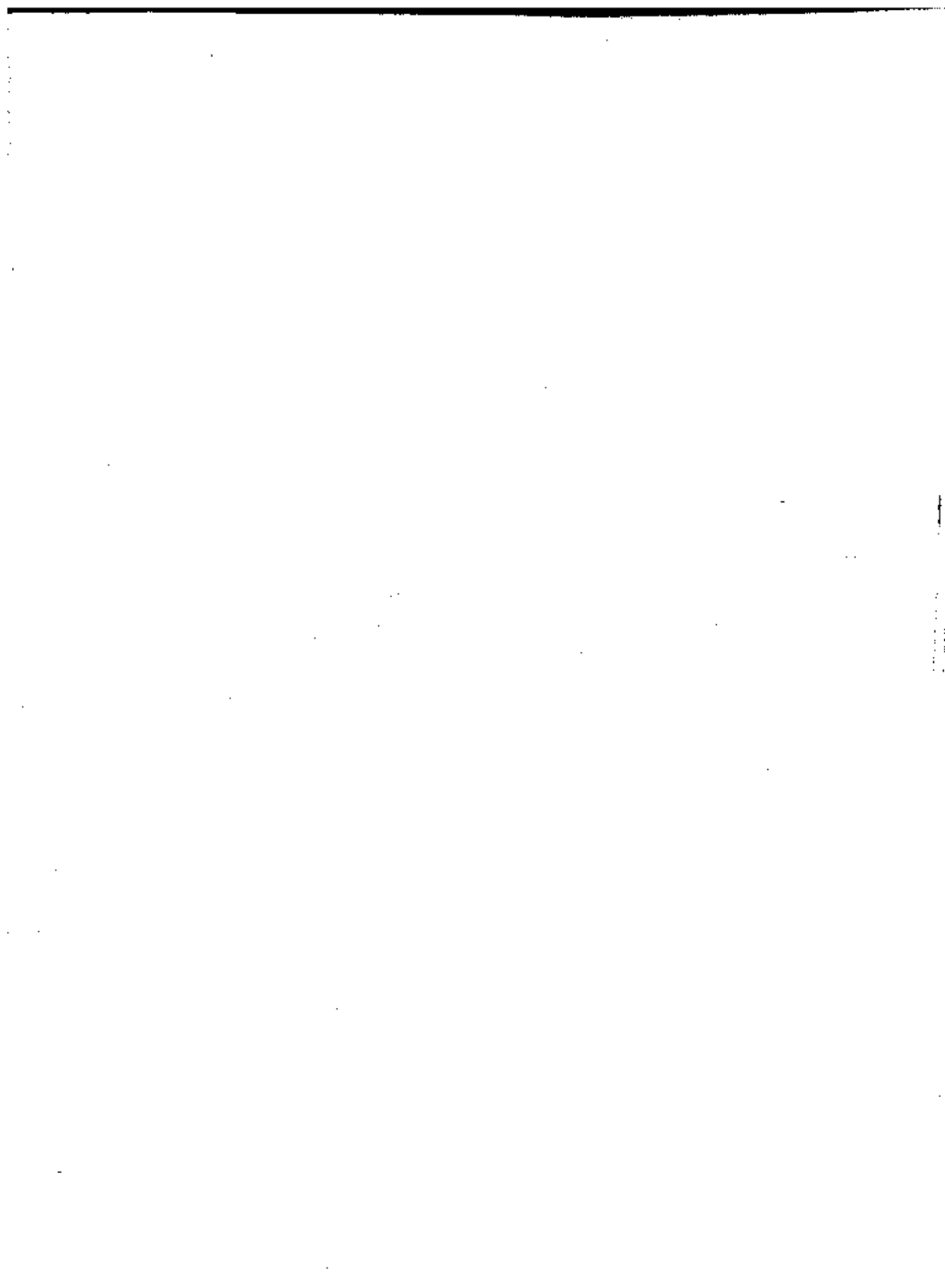
وفى شهر يوليو هذا أصيب جود فروى الشجاع حاكم مملكة بيت المقدس بمرض استعصى برؤء منه ، واستشترى به الداء الخبيث وتزايد ، حتى لم يعد يجدى معه أى دواء ، وان لم يكف من حوله عن التماس الدواء فى كل مكان قريب أو بعيد .

وأخيرا قدر لتابع المسيح هذا ، الصادق التوبة أن يذهب بعد تناول القربان المقدس فى الطريق الذى لابد أن يذهب فيه كل مخلوق ، حيث يجازيه الرب مائة ضعف عن كل ما قدمت يداه ، وتخلد روحه الخلود الأبدى مع المرضى عنهم .

وكانت وفاته فى اليوم الثامن عشر من شهر يوليو فى عام ١١٠٠ من مولد المسيح ، ودفن فى كنيسة القبر المقدس حيث صلب السيد وعذب ، وقد خصصت ناحية معينة أيضا لخلفائه مازالت باقية حتى اليوم .

\*\*\*

هنا ينتهى الكتاب التاسع



## الكتاب العاشر

### الملك بلدوين الأول وازدياد رقعة المملكة

#### فصول الكتاب العاشر :

- ١ - بلدوين كونت الرها يتولى المملكة عند موت أخيه جودفروى .
- ٢ - صفات لورد بلدوين الجثمانية والخلقية .
- ٣ - كونت جـارنـييه يسـتولى على البرج عند موت الدوق جودفروى ، ويبعث الرسل سرا لاستدعاء بلدوين .
- ٤ - رسالة دامبييرت الى أمير أنطاكية .
- ٥ - بلدوين يسرع فى سيره الى القدس فيجد العدو قد نصب له كميناً قرب نهر الكلب .
- ٦ - استئصال شافة العدو ووصول بلدوين الى بيت المقدس بعد رحلة هائلة .

- ٧ - البطرك دامبيرت يتخوف من وصول بلدوين فيغادر قصر  
البطركية ويعتصم بكنيسة جبل صهيون .
- ٨ - الكونت يقود حملة ضد عسقلان ويعبر الأردن ويهاجم بلاد  
العدو بالقوة ثم يعود أخيرا الى بيت المقدس .
- ٩ - الوثاق بين البطرك والكونت ، ثم اعتلاء الكونت بلدوين  
العرش .
- ١٠ - الأنطاكيون يستعدون تانكريد الذى لا ينسى مطلقا الاهانة  
التي الحقها به بلدوين وينفصل عنه .
- ١١ - الملك يعبر نهر الأردن ويستحوذ على غنائم كثيرة من أرض  
العدو . ووصف عمل من أروع الأعمال قام بها الملك .
- ١٢ - أمراء الغرب يخرجون ثانية للحج ويبلغون القسطنطينية  
بقوات ضخمة .
- ١٣ - الامبراطور الكسيريوس ينهج النهج المعتاد فيجعل الترك  
يتصبون الكماثن للحجاج مما يؤدى الى هلاك الجانب الأكبر  
منهم ، أما الباقيون فيبلغون القدس فى صحبة كونت تولوز .
- ١٤ - الملك ( بلدوين ) يحاصر أرسوف ويستولى عليها قسرا .
- ١٥ - الملك ( بلدوين ) يحاصر أيضا مدينة قيسسرية الساحلية  
ويستولى عليها .
- ١٦ - هلاك كثير من الأهالى فى أحد مساجد المدينة ، وتعيين رئيس  
أساقفة للمدينة المخلوبة .
- ١٧ - الملك ( بلدوين ) يصل الى الرملة فى انتظار العدو الذى ذاع  
خبر اقترابه ثم يشتبك واياه فى قتال يخرج منه منصورا .

١٨ - الملك ( بلدوين ) يمضى بعدئذ الى يافا فتطمئن نفوس الأهالى الذين استبد بهم الفرع حتى كاد ان يهلكهم .

١٩ - الواقدون الجدد يستولون على مدينة طرطوس ويسلمونها الى كونت قباون ، ثم يتابعون السفر بعد ذلك الى بيت المقدس فيقابلهم الملك فى بيروت .

٢٠ - المصيريون يهاجمون بلاد الصليبيين بقوات كبيرة فيزحف الملك ( بلدوين ) لصددهم ويقاثلهم فتدور الدائرة عليه اذ لم يأخذ حذره .

٢١ - فى اثناء هروب الملك من ساحة القتال يرتد الى قلعة الرملة وتكتب له الحياة بفضل شفقة شيخ عربى عليه ، اما غيره فيلاقون مصرعهم فى ذلك المكان .

٢٢ - الملك ( بلدوين ) يسلك فى اثناء هربه طريقا متعرجة فيصل أولا الى أرسوف ثم الى يافا ، وتذهب جميع قوات المملكة الى نجده وتتشب معركة تنتهى بانتصار الصليبيين .

٢٣ - فى هذه الأثناء يبسط تانكريد حمايته على مدينتى أقامية واللاذقية الرائعتين .

٢٤ - زواج بلدوين دى بورج كونت الرها من ابنة الدوق جبريل .

٢٥ - يوهيموند يتخلص من أسر العدو له ويعود الى انطاكية ، فيلجا البطارك دامبرت اليه فيحسن لقاءه .

٢٦ - تعيين شخص اسمه ابريمار - بعد اخراج دامبييرت - بطركا لكنيسة القدس من غير أهلية شرعية . قتل الملك ( بلدوين ) فى حصاره لعكا واصابته بجروح شديدة الخطورة اثناء عودته .



٢٧ - كونت تولوز يشيد حصنا امام مدينة طرابلس ويسميه بقل  
الحجاج .

٢٨ - الملك يحاصر عكا للمرة الثانية ويستولى عليها قسرا  
بمساعدة الجنوية له .

٢٩ - قيام تانكريد وبلدوين وغيرهما بمحاصرة مدينة « حران »  
بالجزيرة ، واضطرار الأهالى لتسليم البلد بسبب اشتداد  
وطأة الجوع عليهم .

٣٠ - ضياع المدينة من يد الصليبيين اثناء تنازعهم فيما بينهم عمن  
يكون له الحكم فيها ، وصول النجدة الى المحصورين ونشوب  
معركة هناك فى الأحياء القريبة وهلاك الصليبيين من جراء  
الخطر الداهم المحيى بهم .

\*\*\*

## هنا يبدأ الكتاب العاشر

### الملك بلدوين الأول وازدياد رقعة المملكة

- ١ -

كان المعظم جود فروى - الخالد الذكر بفضل المسيح - أول حاكم لاتينى لمملكة بيت المقدس ، فلما رحل عن هذه الدنيا ليحيى فى العالم الآخر حياة خيرا من حياته فى عالمنا هنا ، ظل العرش شاغرا ثلاثة أشهر حتى بعث القوم فى استدعاء أخيه وشقيقه من أمه وأبيه بلدوين كونت الرها ليخلفه فى تدبير شئون المملكة التى آلت اليه بالوراثة ، وربما كان الداعى لهذه الدعوة هو احترام رغبات الدوق الأخيرة ، أو ربما كان ذلك استجابة لاجماع الزعماء الذين كان عددهم قد تضاعف تضاعفا كبيرا جدا .

وكان بلدوين فى شبابه قد أتم بكثير من العلوم الانسانية ، ويقال انه لبس مسوح رجل الدين فصار واحدا منهم فكان يجرى

عليه نظرا لكرم أرومته راتب يعرف بالمعاش الكهنوتي ، مما حبس من الأوقاف على كنائس « ريمز » و « كمبراي » و « ليج » ، على أنه لم يلبث - بسبب لا نعرفه - أن انصرف عن تلك الوظيفة الكنسية وتعلق بالأمور الحربية ، وانخرط في سلك الجندية ، ثم تزوج بعد حين من سيدة فاضلة من انجلترا رفيعة القدر ، كريمة الأصل اسمها « جود هيلد » صاحبها معه حين صاحب أخويه جود فروى وأستاس الفاضلين ، صاحبي الذكر الذي لا يبلى في أول حملة خرجت للحج ، فصادفت النجاح والتوفيق من شتى الوجوه .

على أن « جود هيلد » ماتت كما قلنا في هدوء في مدينة مرعش ودفنت هناك بعد أن أنهكها المرض العضال ، وذلك قبل أن يبلغ جيش المؤمنين انطاكية .

ثم أن دوق الرها بعث بعد حين في استدعاء بلدوين وتبناه ، فلما مات الدوق خلفه بلدوين على الدوقية بكل ملحقاتها كما فصلنا ذلك من قبل . ثم تزوج بلدوين بعد ذلك من ابنة أمير أرمنى شريف على المكانة رفيع القدر اسمه « توروس » ، كان يملك هو وأخوه قسطنطين القلاع المنيع في إقليم جبال طوروس ، ويأتمر بأمرهما كثير من الأبطال المفاوير ، وينزلهما الشعب الأرمنى منزلة الملوك بفضل ما في حوزتهما من الثروة الكبيرة ، وما تحت أيديهما من العسكر الكثيف ، ولسنا نرى هنا حاجة لاعادة القول عن أصل بلدوين ونسبه العظيم ، ولا أين ولد ، فقد ذكرنا من قبل ما فيه الكفاية في معرض كلامنا عن أعمال الكونت والدوق اللذين كانا شريكين في نبالة الأصل وكرم العزق .

كان بلدوين - كما قالوا - رجلاً عملاقاً فارح الطول ، واضخم جثة من أخيه بصورة ظاهرة حتى ليصح أن يقال فيه ما قيل في شاول (١) « كان أطول من كل الشعب من كتفيه فما فوق » ، وكان ذا بشرة ناصعة البياض ، أما شعر رأسه ولحيته فمسل على اللون ، وله أنف اقنى ، وشفته العليا بارزة بعض الشيء ، أما فكه الأسفل فمتراجع قليلاً بصورة لا يمكن أن تشبوه بطلعته ، وكان وقور السميت ، متحفظاً في لباسه ، مقتصداً في كلامه ، يلبس على الدوام عباء تتدلى على كتفيه ، أن تحدث فهو رزين في حديثه ، كما أنه محمود في عاداته ، وفيه من الوقار ما يحمل من لا يعرفونه تمام المعرفة على الظن بأنه من رجال الدين أكثر من أن يكون علمانياً ، ومع ذلك فلا شك أنه كان كفيّره من ذرية آدم ، ووريثاً للخطيئة الأولى إذ يقال أنه لم يكن يستطيع كبح شهوات البدن ، وانحدر فانغمس في الملذات الجسدية دون أن يعف عن شيء منها وإن لم ينكب أحداً أو يصبه بمضرة فادحة ، والحق أنه لم يكن ثم من يدرى بعباداته المفاجرة سوى نفر قليل من خاصته ، مما يعتبر شيئاً نادراً في مثل هذه الأمور ، وإذا كان أنصاره يحاولون - كما هو الحال آناء جميع الخطاة - تبرير ما فعله إلا أنه يمكن اعتبار بعض ما فعله قضاء قضى به عليه الرب ، وهذا ما يراه عامة الناس كما سنذكر ذلك في

ولم يكن بلدوين بالرجل البدين ولا بالفاحل المعروف بل كان وسطاً بين هذا وذلك ، إلى جانب درايته باستعمال السلاح ، وبراعته في ركوب الخيل ، وما تميز به النشاط الجسم ، كما أنه كان مستعداً على الدوام للقيام بما يطلب إليه القيام به من أعمال المملكة .

وربما لم يكن ثمت ضرورة لامتناع اقدامه ويسالته وخبرته  
 بفن الحرب وغير ذلك من شتى الخصائص الرائعة التى تفرد بها ،  
 فقد ورث هو واخوته هذه السجايا كلها ابا عن جد ، وزيادة على  
 ذلك فانه كان شديد المحاكاة للدوق حتى ليرى ان اى انحراف - عن  
 السمات الذى اختطه أخوه - خطيئة ، لكنه كان قد نضح وده المصادق  
 لشخص متوعر الخلق ، دنىء الطبع اسمه « أرنولف » الذى كان  
 رئيس شمامسة بيت المقدس ، وكان بلدوين يمثل لكل ما يشير به  
 عليه هذا الرجل أمثالا عيب عليه ، فما أرنولف هذا الا الرجل  
 الذى قلت عنه من قبل انه اغتصب لنفسه كرسى البطركية فثاله قسرا  
 رغم ما اشتهر عنه من ميله للشر : فكرا وعملا .

## - ٢ -

حين ودع الدوق « جودفروى » الحياة ، وأصبح رهين قبره .  
 قام - كما قلنا - الذين عهد اليهم بتنفيذ رغباته التى تضمنتها وصيته  
 الأخيرة ، فصرفوا النظر عن مشيئة الراحل ، وآثروا مصالحهم  
 الذاتية فقدموها على ما قضى به مولاهم ، اذ لم يسلموا برج داود  
 للبطرك « دامبيرت » ولم يضعوا المدينة تحت سسلطانه حسب  
 بنود الاتفاق الذى أمضاه معهم الدوق الخالد الذكر يوم عيد الفصح  
 المبارك المنصرم فى كنيسة القيامة بحضرة رجال الدين والشعب .

والقد تزعم هذه الطائفة المثيرة للفتن رجل اسمه كونت « جارنبيه  
 دى جراى » ، وهو محارب صنديد ، ومقاتل كفى وتربطه صلة  
 القربا بكل من الدوق ( جود فروى ) والكونت ( بلدوين ) ، لذلك

ما كاد الدوق يلفظ أنفاسه حتى استولى الكونت ( جارنييه ) على برج داود وحصنه أعظم تحصين ، ثم بعث في السر رسلا من قبله - دون علم أحد - الى كونت بلدوين يأمره بالحضور اليه على جناح السرعة ومن غير إبطاء ، وكان البطررك ( دامبيرت ) قد ألح مرارا على ( جارنييه ) تنفيذ رغبات الدوق الأخيرة برد ما للكنيسة من الحقوق ، لكن جارنييه دأب على اختلاق الأعذار والتراخي في الرد بكل وسيلة سعيا لكسب الوقت وانتظارا لمجيء الكونت ( بلدوين ) الذي بعث ( جارنييه ) في استدعائه ، ليجد عنه حضوره جميع ما يخصه سليما غير منقوص ، وقد فعل ( كونت جرائ ) ما فعله أملا منه في استجلاب المزيد من عطف بلدوين عليه نظير ما أظهر من الاخلاص له ، لكنه وهم فيما أمل إذ حدث ما خيب ظنه ، فلم تنقض غير خمسة أيام فقط من ذلك حتى مات جارنييه ، فاعتبر الناس قاطبة موته آية ، ونسبوا الى فضائل البطررك ما لقيه خصم الكنيسة ومضطهدها من الموت الفجائي .

على أن هلاك جارنييه لم يؤد الى تحسين وضع الكنيسة ، إذ لم يكثر الذين كانوا يسيطرون على القلعة بما جرى ، فظلوا مقيمين بها لا يبرحونها حتى يجيء ( بلدوين ) كونت الرها .

ولما كان البطررك يعلم تمام العلم بما جرى من استدعاء الكونت ، وكان يخشى مجيئه كل الخشية ، فإنه لم يأل جهدا في اصطناع شتى الوسائل للحيلولة دون حضوره ، فأرسل الى بوهيموند أمير أنطاكية رسالة فصل له فيها الأمر بالاجمع ، ولقد رأينا أن الحكمة تقتضينا أن ندرج صورة من هذه الوثيقة في تاريخنا الحالي هذا لتكون بينة قاطعة بشأن هذه المسألة .

يقول البطريرك في هذه الوثيقة « انك لتعلم يابنى العزيز انك اخترتني مدبرا وبطريركا رغم عزوفى عن ذلك وبغير معرفة منى بما جرى ، وان كانت نفسى تفيض بالخير والتطلعات الطاهرة تجاه هذه الكنيسة التى هى أم الكنائس قاطبة ومليكة الأمم ، وكان اختيارك اياى برضاء من رجال الدين والقادة والشعب أجمعين ، وأعليت قدرى بترجه من الرب - وان كنت لا أستحق ذلك - وبوائى أشرف مقام ، غير اننى كنت فى هذه الذروة العالية هدفا لآلف نكاية ونكاية ، ولايدرى أحد ما سوائى أنا وحدى وسوى المسيح الذى لا تخفى عنه خافية ما لاقيت من المشاكل الجمة والمظالم ، وما قاسيت من الأخطار الكبيرة .

« ولقد كان مستحيلا على « جود فروى » فى حياته ان يضل أو ينحرف من تلقاء نفسه ، وانما كان خاضعا فى ذلك لمطامع أوغاد حملوه على ان ياخذ من الكنيسة ما كان ينبغى ان يكون ملكا خالصا لها ، وان يفتصب بعض الأملاك التى كان يديرها البطريرك بنفسه حتى فى ظل الحكم التركى .

« كذلك مرت الكنيسة المقدسة بمحنة يعجز اللسان عن شرحها ، ووصمت بعار يقصر الوصف عنه ، كل ذلك فى الوقت الذى كان الواجب فيه يقضى بأن تحظى بتمجيد أجل وتمعظيم أكبر ، ثم قدرت رحمة الله أخيرا أن يعود الدوق الى رشده ، وأن ينبذ ظهريا ذلك القصد الدنس فقام فى يوم الاحتفال بذكرى تنزيه العذراء مريم المباركة ، فاقطع كنيسة القبر المبارك ربع مدينة يافا ، حتى اذا كان يوم الاحتفال بعيد الفصح أيقظت الرحمة الالهية ضميره فصحى من غفوته ، وكره أن يظل سادرا فى غلوائه ، ورفض أن يستسلم لأبهة الدنيا فأعاد من تلقاء ذاته الى الكنيسة كل حق شرعى لها ، فأصبح

بذلك رجل القبر المقدس ورجلنا ، ونذر نفسه لله ، وتعهد أن يخلص في  
المحاربة في سبيله وفي سبيلنا ، فأعاد الى سلطاننا من غير معارضة  
برج داود ، وجميع مدينة القدس وملحقاتها ، وكذلك ممتلكاته هو ذاته  
الخاصة الموجودة في يافا .

« واذ كانت موارده المالية غير كافية فقد اثبت في الاتفاقيات  
- برضاء منا - شرطا يخوله الاحتفاظ بكل هذه الممتلكات ، حتى  
يأذن الله بزيادة دخله ، ويمن عليه بفتح بابيلون(٢) وغيرها من  
المدن ، واتفق على انه ان مات بلا ولد من صلبه يرثه عادت كل  
هذه الاملاك الى الكنيسة دون أى معارضة .

« ومع انه وعد بكل هذه الأشياء في يوم عيد الفصح الطاهر  
امام القبر المقدس وعلى رموس الأشهاد من رجال الدين والناس  
قاطبة ، الا انه عاد - وهو مسجى على فراش مرضه الأخير - فأكدها  
في حضور العديد من الشهود الثقات .

غير انه بعد وفاة جود فروى ظهر كونت جارييه فجعل من  
نفسه عدوا للكنيسة ، اذ حصن برج داود رغم معارضتنا ، ولم  
يعبأ بالقسم الذى أقسمه ، ولا بالاتفاق الصادق الذى أبرمه من قبل ،  
وبعث رسله لاستدعاء الكونت بلدوين ، يخبره على لسانهم انه منتزع  
من كنيسة الرب املاكها عنوة ، ومستيق اياها في يده قسرا حتى  
يحضر الكونت نفسه ، ولكن قضاء الله أبى الا ان يأخذ بناصية  
الكونت ( جارييه ) فلفظ روحه بعد أربعة أيام من موت الدوق  
( جود فروى ) ، فما ارتدع لهذا الحادث بعض رعاى الطبقة الدنيا ،  
اذ استولوا على البرج والمدينة بأكملها ، ومازالوا مستعوزين على

---

(٢) يقصد بذلك القاهرة .



ذلك كله حتى الآن فى انتظار قدوم الكونت بلدوين ليتم على يديه سقوط الكنيسة ودمار المسيحية ذاتها .

« ولكننى مسلم نفسى - أيها الابن العزيز - الى رحمة الرب والى حنانك ، واذ كانت شتى المصائب والافتراءات التى دبرتها مكائد الأوغاد ، ونماها افكهم الكبير قد أحدقت بى فقد فوضت أمري اليك أنت وحدك بعد الله ، ووضعت أملى فى عطفك الراسخ المتين ، وانى لأبث اليك بكلمات باكية وقلب جازع خبر البلايا التى أقاسيها أو على الأصح تقاسيه الكنيسة . »

« ومن ثم فانه اذا كان عندك عطف صادق على ، واذا أردت ألا تكون دون سمعة أبيك البهية ، وهو الوالد الذى أنقذ البابا المقدس جريجورى من مدينة رومة حين قام أوغاد الناس - بما جبلوا عليه من قسوة جائرة سوف تظل مقرونة بهم الى الأبد - فزجوا به فى السجن ، اقول اذا كان عندك العطف ولم تكن دون أبيك همة فاطرح جانبا كل عذر ، وأقبل فى الحال الى عاهدا بمملكته وأمالك الى رهن من الحاربيين الموثوق بهم ، ويادر مشكورا بالحضور لمساعدة الكنيسة الطاهرة فى محنة صراعاتها المؤلمة ، لأنك تعلم جيدا أنك قد عاهدتني أن تكون لى عوننا ومشيرا ، كما أنك بذلت نفسك عن طواعية وطيب خاطر لتخضع للكنيسة المقدسة ولى معا . »

« وعليك أن تكتب كتابا الى بلدوين تنهائنها باتا عن ارتكاب مالا نرضى عنه ، وتأمره ألا يأتى الى بيت المقدس لتخريب الكنيسة المقدسة أو لاغتصاب ممتلكاتها بأى شكل من الأشكال ، فقد شاركه هو الآخر أيضا فى اختياري بطركا لكنيسة بيت المقدس وراعي لها . »

« وعليك أن تبين له أنه لا يتفق والحجا أن يكون قد تحمل كثيرا من المشاق والأخطار من أجل تحرير الكنيسة ثم نصل هذه

الكنيسة ذاتها الى قدر كبير من التدنى والمهانة فتضطرب رغم انقها  
لخدمة أولئك الذين كان ينبغي لها أن تكون صاحبة السيادة فيهم ،  
وأن يكون لها ما للام من حق الأمر والنهى فيهم ، أما اذا اصبر  
( بلديون ) على مقاومة العدل ، ورفض الرضوخ للعقل ، وأبى الا  
أن يحضر فأننى ادعوك بحق يمين الطاعة الذى قطعتة على نفسك  
للقدس بطرس أن تمنع حضوره بكل وسيلة تستطيعها ، حتى ولو  
استلزم الأمر العنف أن كان ثم ضرورة للعنف » .

، ودعنى أعرف يا ولدى العزيز - عن طريق نفس الرسول  
الذى يحمل كتابى هذا اليك - ماذا أنت عازم أن تعمله بالنسبة لهذه  
الأمور التى أوصيتك بها ، وأن تبعث لى المساعدة على جناح  
السرعة » .

- ٥ -

ونحن (٣) واثقون أن هذا الكتاب لم يقدر له أبدا أن يصل الى  
يد الأمير بوهيموند ، إذ كان قد وقع فى أسر العدو قبل قليل من موت  
طبيب الذكر الدوق جود فروى ، أو بعد قليل جدا من مغادرة روحه  
لجسده وصعودها الى بارئها .

لكن حدث فى هذا الوقت أن ورد على بلديون كونت الرها من  
الخبر السار ما أثلج صدره وشرح خاطره ، إذ استسلمت له ملطية  
عاصمة الميديين الرائعة ، وتم له اخضاع من حوله من الخصوم ،  
وهكذا استطاع - برحمة من الله - أن ينجح فى توفير شىء من  
السلام لنفسه ولشعبه ، وبينما هو فى ذلك اذا بواقف يفد عليه فجأة  
من بيت المقدس وعلى جناح السرعة يحمل اليه خبر وفاة الدوق  
( جود فروى ) ، ويفضى اليه أيضا بأن اصدقاءه واتباع الراحل

---

(٣) بعد أن انتهى وليم من ايراد نص الكتاب يعود فيعلق على ماجرى .

يلحون عليه أن يشد رحاله اليهم ما وسعته السرعة ليعتلى العرش مكانه ، فيبادر في الحال الى جمع حرس مؤلف من مائتى فارس وثمانمائة جندي مشاة ، وبدأ رحلته الى القدس فى اليوم الثانى من أكتوبر ، فأثار دهشة الجميع خروجه فى مثل هذه القلة من الاتباع وقيامه برحلة طويلة كهذه الرحلة تفرض عليه المرور ببلاد العدو ، كما عهد برعاية امارته الى رجل عظيم القدر راجح العقل من نوى قرياه هو بلدوين دى بورج الذى قدر له أن يخلفه فيما بعد ليس فى الرها فحسب ، بل وفى المملكة ايضا .

ولما بلغ بلدوين ( أخو جود فروى ) أنطاكية بمث بزوجته والوصيفات من أهل بيته بكل ما عندهم من ثقل الأثاث وجزء كبير من متاعهم الى ناحية البحر ، كما أمر بأعداد سفينة لتبحر الكونتيسة عليها فى امان الى يافا التى كانت المدينة الساحلية الوحيدة التى آلت اليها حتى ذلك الوقت ، أما غيرها من المدن فكانت لاتزال فى قبضة المارقين ، ويظهر أن دافعه الى ترتيب الأمر على هذه الصورة هو ما رآه - وهو موشك على اجتياز أرض العدو - من وجوب تحقيقه جهد ما أمكنه مما معه ليكون أحسن استعدادا لمواجهة أى صعاب أو هجمات قد تعترضه على غير توقع منه .



ثم سار هو من أنطاكية الى لاذقية الشام ، فلما بلغها مضى مصقبا الساحل مارا بجبله وبانياس ومرقليو وطرطوس وعرقه ، حتى أقضى به السير الى طرابلس فحضر مبعركه خارجها ، حيث وأفاه هنا واليها مرحبا به ، وبألف فى الاحتفاء به ووصله بالهدايا الجمّة ، وعلم ( بلدوين ) من هذا الوالى ذاته أن « دقاكا » صاحب دمشق قد نصب له الكمان على طول الطريق .

ثم تابع بلديون زحفه من طرابلس مارا بجبيل حتى بلغ نهر الكلب ، حيث يوجد هنا ممر شديد الخطر يقع بين بحر عاصف وجبل شاهق الارتفاع مما يجعل المرور فى هذا الطريق يكاد أن يكون مستحيلا . ويبلغ طول هذا الممر أربعة فراسخ ، أما عرضه فذراعان ، وكان السير فى هذا الشعب الضيق أمرا محفوفا بالخطر ويكاد أن يكون مستحيلا ، ناهيك بما كان من استعانة أهالى تلك الناحية ببعض الأتراك الذين استقدموهم من أقاليم نائية ، وتعاونوا على عرقلة سير كونت بلديون .

حين بلغ الكونت هذا الموضع قدم أمامه نفرا من رجاله ليكونوا ربيثة تستطلع له الطريق ، فتبين لهم أن بعض المدافعين كانوا قد اجتازوا النهر ونزلوا الى السهل ، فلما عرفوا ذلك خشوا أن يكون العدو قد ترك أعدادا كبيرة خلفهم ترصد خطاهم وتترصد لهم . ومن ثم بعثوا واحدا من بينهم يخبر الكونت بما آلت إليه الأمور ، فبادر بلديون فى لحظته بتنظيم رجاله للحرب ، زاحفا بهم على العسر ، فوجده متهيئا للقتال ، فاغار عليهم غارة شعواء بددت شملهم من أول صدمة ، ولقى الكثيرون منهم فيها حتفهم وفر الباقون ، ثم أمر بعدئذ عسكره أن ينزلوا متاعهم ، وأن ينصبوا خيامهم فى هذا الموضع الذى قضوا فيه ليلة ليلاء لم يغمض لهم فيها جفن لما يحيق بهم من الخطر الجسيم من جراء وقوع معسكرهم فى شعب ضيق محصور بين الجبال والبحر مما أتاح لعدوهم أن يظل طول الليل يضايقهم برجاله الذين كانوا قد جاءوا بحرا من بيروت وجبيل ، ودأبوا على رميهم بوابل هتان من الذبال التى أنزلت الأضرار الفادحة بأولئك الصليبيين الذين كانت خيامهم فى الخلاه على أطراف المعسكر ، ومما زاد كربهم شدة أنهم - رغم قربهم من أحد الأنهار - كانوا عاجزين فى تلك الليلة عن سقى جيادهم ، مما جعل هذه الحيوانات العجماء

تكايد الأمرين من الظلم الذى زادت الحرارة البالغة من وطأته ،  
لاسيما وقد أمضى طول السفر .

- ٦ -

لم تكد طلائع الضياء تلوح بالأفق صباح اليوم التالى حتى أمر  
الكونت - بعد التشاور مع رجاله - بأعداد متاعهم للزحف ، وأرسل  
أمامه جميع الحجاج الضعاف ومن لا يرتجى منهم نفع فى القتال  
وسار هو خلفهم بمن معه من المحاربين الذين هم أقدر على  
تحمل وطأة أى هجوم قد يشنه العدو على المؤخرة أو على أحد  
الجناحين ، وقد هداه بعد نظره الى اتباع هذه الخطة حتى يضل  
العدو ، ولم يكن ذلك لعدم ثقته فى جماعته بل ليغرى الخصم على  
مطاردته فى ارتداده فيعينه ذلك على مواجهته فى السهل فتتيسر له  
حرية مقاتلته ، لأنه كان يخاف كل الخوف أن يحصر فى الشعاب  
الضيقة .

وبينما كان جيشه يجاهد فى الارتداد راح أعداؤه يضاعفون  
من مطاردتهم إياه ، اعتقادا منهم بأن بلدوين لم ينسحب برهطه الا  
خوفا منهم ، ومن ثم اندفعوا من الشعاب الضيقة ، وأخذوا فى  
ملاحقة الصليبيين بشدة فى النواحي المكشوفة ، وأذ ذاك تشم من  
كانوا على ظهر السفن رائحة الغنيمية ، فتواثبوا الى الشاطئ طمعا  
منهم فى كسب المعركة من غير جهد ولا مشقة ، واندفعوا كأنما قد  
دارت الدائرة على عدوهم .

فلما رآهم الكونت قد غادروا المرتفعات وصاروا فى السهل  
الفسيح مشمرين عن ساعد الجد فى مطاردته أمر رجاله بالارتداد  
لقتالهم فهبوا بأعلامهم وسار بهم مهاجما من لازلوا ملحين فى

افتقاء أثره الحاحا شرسا ، ونسج عسكره على منواله ، فاندفعوا متحمسين فى القتال مشرعين سيوفهم البراقة ، يجرعون الخصم كأس الردى قبل أن ينجح فى الارتداد الى الجبال جريا على مألوف عادته ، فعجز رجال العدو عن الصمود لهذه الهجمة يصلون بنارها ، وتملكتهم الدهشة من بأس مطارديهم وجرائتهم حتى أنهم لم يحاولوا القيام بأى محاولة للدفاع عن أنفسهم ، وايقنوا أن الفرار هو أملهم الوحيد ، وأنه طريقة الذى لا طريق سواه لسلامتهم .

أما الذين كانوا قد غادروا السفن فلم يجرعوا على العودة الى البحر ، وأما من فروا الى الجبال فقد هاموا على وجوههم حيارى لا يدرون أين يذهبون ، فاعترضستهم المنحدرات الخطرة وترصدهم الموت بشتى ألوانه وهم عنه غافلون .

بعد أن استأصل الصليبيون المنتصرون شافة الخصم على هذه الصورة هادوا آمنين فى سربهم الى الموضع الذى خلفوا فيه متاعهم ومؤنتهم ، واستراحوا هناك تلك الليلة شاكرين لله الذى أذل القوى ونصر الضعيف ، فلما طلع الغد عاودوا زحفهم حتى اذا بلغوا مكانا اسمه « جونى » وقفوا يوزعون الأسلاب والغنائم والأسرى حسب العادة الحربية ، وأعطوا أنفسهم وجيادهم حقها من العناية الواجبة .

فلما كان صباح اليوم التالى خرج بلدوين فى نفر من خيالاته أصحاب السلاح الخفيف ، رغبة منه فى الحفاظ على بقية أتباعه ، وتقدم بهم فى جراءة الى البقعة التى جرت بها وقعة الأسس ، هادفا من وراء ذلك لأن يتأكد بنفسه تمام التأكد عما اذا كان أعداؤه مازالوا مسيطرين على الشعاب ، أم أن المرأ أصبح غيسورا أمام من يزيد اجتيازه ، فلما رآه خاليا عن الحراسة وليس من صعوبة تعترض

سألكه أمر باستدعاء جميع أتباعه الذين توافدوا إليه سراعا اثر سماعهم هذا الخبر البهيج وعبروا كلهم بقيادة مولاهم هذا المكان الذى سبب لهم فى الواقع كثيرا من الخوف والرعب ، ثم تابعوا بعد ذلك زحفهم الى مدينة بيروت وعسكروا امامها ، ثم ساروا على طول شاطئ البحر فمروا بصيدا وصور وعكا ، حتى بلغوا أخيرا مدينة حيفا .



على أن الكونت كان يترجس خيفة من تانكريد لما كان قد الحق به ظلما من أهانة فى طرسوس من أعمال « قيليقية » ، لذلك نهى رجاله عن دخول تلك المدينة ، مخافة أن يتذكر تانكريد الأرىحى ما ناله من الأذى على يد بلدوين فيعمد الى رد الأذى بمثله .

غير أن تانكريد كان بعيدا عن المدينة فخفف أهلها للترحيب بالكونت ، وبالغوا فى تحيته وأظهار ما تضمنه جوائنهم من حب ومودة أخوية له ، كما أبدوا استعدادهم لعقد سوق لبيع البضائع لاسيما ما يلزم رجاله من الطعام بأثمان معقولة .

ثم تابع الجيش زحفه من حيفا الى قيسرية فإرسوف مؤثرا الطريق الساحلى حتى بلغ يافا ، فاحتفى ببلدوين جميع من بها من أهلها ومن رجال الدين احتفاء كبيرا ، ثم سار بمن معه شطر مدينة بيت المقدس حيث خرج للقائه جميع رجال الدين والشعب من لاتين وغيرهم من الأمم الأخرى وسودوه عليهم عن رضى وطيب خاطر ، فلما تم له ذلك سار من يافا بمن معه وطافوا بالكونت شوارع المدينة فرحين به وهم ينشدون التراتيل والأغاني الدينية ، ثم نادوا به سيديا وملكا عليهم .

حينذاك أدرك « أرنولف » المذكور آنفا ربيب الشيطان البكر وابن الهاوية أنه نال ما يستحقه لقاء أعماله الشريرة ، وهوى من كرسى يعقوب الذى اغتصبه بوقاحته الملعونة ، وأخذ يثير القلائل ويعكر صفو سلام دامبيرت الذى كان قد تم اختياره برضى الجميع رئيسا للكنيسة يدير أمورها ، ذلك أنه ماكاد يموت الدوق حتى راح « أرنولف » يرمى البطرک العظيم عند بلدوين بشتى الاتهامات ، كما حرك بعض رجال الدين ضد دامبيرت ، وذلك كله بسبب امتلاء نفسه بالشر وميلها لبذر بذور الشقاق بين الناس ، ولما كان شديد الغنى واسع النفوذ ، الى جانب أنه كان كبير مطارفة بيت المقدس ، فقد أخذت الأموال الكثيرة تتدفق عليه من هيكل الرب ومن موضع الصليب ، ونجح بفضل ثرائه الفاحش ومكره البالغ فى أن يبت الشمر الكثير بين رجال الدين ، وأكثر منه فى صفوف المدنيين .

ولما كان البطرک المعظم ( دامبيرت ) عارفا تمام المعرفة بسوء طوية هذا الرجل « أرنولف » الذى كان شوكة تقض جانبه ، ويعرف أيضا سرعة تصديق الكذبت له فقد توجس خيفة من حضور هذا الأخير فغادر المقر البطرکی ، وفزع الى كنيسة جبل صهيون ، فلما باعد كل البعد ما بينه وبين شتى المنازعات انصرف كمواطن عادى الى القراءة والصلاة يمضى فيهما وقته ، مما ترتب عليه تغيبه عن مشاركة الامالى احتفالاتهم الترحيبية التى اقاموها لاستقبال بلدوين .



ظل الكونت مقيما بضعة أيام في القدس ليستجم وتستجم جياده ، لكنه لما كان رجلا يحب العمل ويكره الضمول فإنه لم يكد يرى أمور المملكة تستقر على صورة مرضية وملائمة للوقت حتى أعد حملة مؤلفة ممن كانوا قد صحبوه ومن القوات التي وجدها بالمملكة ، وظهر بهؤلاء وهؤلاء فجأة أمام عسقلان على غير انتظار من أحد ، فاحجم الأماشي عن الخروج اليه خوفا منه ، فأدرك أنه لن ينجى الكثير من هذه الحملة ، ومن ثم سار عبر أقليم واسع يقع بين الجبال والبحر ، ومر بكثير من الأماكن التي وجد دورها يبابا قفرا لمغادرة أصحابها لها وفرارهم إلى المخاض التي تحت الأرض بنسائهم وأولادهم ومواشيهم وقطعانهم .

وكان قطاع الطرق واللصوص قد ازعجوا هذا القطر ، كما بات الطريق الواصل بين الرملة والقدس شديد الخطورة لكثرة ما أنزلوه بالدروب والمسالك من الأهوال بسبب هجماتهم المتكررة ، كما أنهم طالما أعملوا سيوفهم البتارة في المسافرين يقاتلونهم فيأخذونهم غدرا ، فلما سمع الكونت بهذا القتال أمر بمطاردتهم في عنف لا يعرف الهوادة ، ويتكديس مختلف أنواع المواد القابلة للاشتعال أمام مداخل الكهوف التي اختبأوا بها واضرام النار فيها ، مستهدفا من وراء تلك العملية ارغام الفارين المختفين في المخاض على الإستسلام والا ماتوا اختناقا من ذلك الدخان الكثيف ، وترتب على هذه الخطة ان لم يعد المخفقون داخل المغارات قادرين على تحمل حرارة اللهب ولا الجمر المتقد ولا الدخان المنتشر في كل ركن وناحية ، فاستسلموا بلا قيد ولا شرط للكونت الذي لم تأخذه شفقة ولا رحمة بهم ، فأمر بقطع رؤوس مائة منهم في لحظته فقطعت ، وكان ذلك عقابا عاجلا يكافي جرهم ، وأخذ من مخازنهم من الطعام ما يحتاجه رجاله .

ومن العلف ما يلزم دوابه ، ثم تابع سسييره بعدئذ فى أرض ابناء سمعان ، فأنتهى به الزحف الى أرض جبلية ، فجاس خلال منطقة « الخليل » المعروفة أيضا باسم « كاريآثارى » والمشهورة أيضا بأنه قد دفن فيها إبراهيم واسحق ويعقوب ، ثم مشى عبر بساتين كروم « انجادى » الى الوادى الشهير الذى يوجد به البحر الملح .

ومر العسكر « بسيجور » التى وان كانت متناهية فى الصغر الا أنها كانت قادرة على انقاذ « لوط » حين هرب من « سدوم » ، ودخلوا الى أرض « مؤاب » وعبروا كل سورية الوسطى ينتظرون الفرصة المواتية لانزال المضرة بجنس الترك الغادر ولتحسين أوضاعهم هم أنفسهم . ومع ذلك فانهم لم يستطيعوا طول هذه المدة أن ينجزوا شيئا سوى أنهم أعالوا أنفسهم وجيادهم ودوابهم التى تحمل أثقالهم مما خلفه أعداؤهم سكان الناحية الذين كانوا قد فروا على وجوههم كعادتهم حين علموا باقتراب الصليبيين قبل أن يدركوهم ، وانطلقوا مسرعين الى الغابات الموجودة بالجبال الوحشة ، لذلك فإنه لما أخذ الصليبيون فى اجتياز هذا الاقليم وجدوا دياره خالية تماما ، والحقول جرداء من كل زرع . واذ أدرك الكونت أخيرا أنه لن ينال شيئا لاسيما وقد دنى موعد الاحتفال بعيد الميلاد فقد كر راجعا من حيث جاء ، ودخل القدس ثانية فى الحادى والعشرين من شهر ديسمبر ، فوافق دخوله يوم عيد القديس توما الحورائى .

## - ٩ -

وفى سنة ١١٠١ من مولد المسيح نجحت مساعى وسطاء الخير الحميدة فى اصلاح ذات البين بين البطررك المبجل وكونت بلدوين .

وفى يوم عيد الميلاد المبارك توج بلدوين ملكا ودهن بالزيت فى كنيسة بيت لحم على يد البطررك « دامبيرت » المشار اليه ، ووضع

على رأسه التاج المرصع بالجواهر ، وذلك بحضور رجال الدين  
والشعب ورجال الكنيسة وأمراء المملكة .

## - ١٠ -

كان اعتقال بلدوين العرش على هذه الصورة ، ولكن تانكريد  
- ذو الأثر المجيد والذاكر أبداً للمسيح - كان يطوى صدره  
على ماصيبه عليه بلدوين من ظلم أيام وجوده فى طرطوس بقليلية ،  
وإن كان من خلق تانكريد التدين العميق والعمل على راحة ضميره  
فقد كره أن يربط نفسه بيمين الولاء لحاكم لا يحسن نحوه بالحب  
الصادق ، فرد على الملك مدينة طبرية ، كما تنازل فى الوقت ذاته  
عن مدينة حيفا التى كان جود فروى الخالد الذكر قد أقطعه إياها عن  
طبيب خاطر لقاء خدماته الجليلة ، فلما فرغ من ذلك استأذنه فى  
الرحيل ، فرحل والجميع كارهون أشد الكره لرحيله عنهم ،  
وشخص إلى أرض أنطاكية استجابة لتكرر استدعاء وجوها له ،  
ليحمل على عاتقه مسئولية الامارة ويشرف على أمورها حتى يعود  
الأمير بوهيموند أن أذن الله بخلاصه من أسرته ، فإن لم يقدر له  
الرجوع آل حكمها بحق الوراثة إلى تانكريد الذى لم يكذب يبلغ أنطاكية  
حتى يادر أهلها وكبار رجالاتها إلى تسليمه إدارة المدينة كاملة ،  
وأطلقوا يده يفعل فيها ما يشاء .

## \*\*\*

أما الملك ( بلدوين ) فقد أقطع طبرية - حسين ردها إليه  
تانكريد - إلى رجل رفيع المكانة ، باسل فى الحرب هو « هيج دى  
سنت أومير » وجعلها وراثية فى عقبه ، وظلت المملكة تنعم بالسلام  
مدة أربعة أشهر .

جمع الملك سرا في خلال هذه الأيام ذاتها طائفة كبيرة من الجند ، واجتاز بهم الأردن ودخل أرض العرب ، وكان جمعه إياهم نزولا على إشارة أشار بها عليه رهط معين من الرجال كانت مهمتهم أن يتقصوا أخبار النواحي المجاورة ، وأن يتجسسوا على نقاط ضعف العدو ، وأوغل ( الكونت ) بمن جمعهم حتى أدى به التوغل أخيرا إلى الصحراء التي اعتاد هؤلاء الناس العيش فيها ، وجاء إلى موضع دلته عليه عيونه ، ففاجأهم بالآغارة عليهم متسرعلا بظلام الليل ، وكان عدم توقع المارقين للهجوم عليهم دافعا إياهم للتراخي في الحراسة إذ كانوا قد انكفأوا إلى خيامهم طلبا للنوم ، فأمسك ( بلدوين ) بعضا من رجالهم وسبى جميع نساءهم ، واسترق أطفالهم ، واستحوذ على كل ما ملكته أيديهم ، وحمل معه قدرا كبيرا من الغنائم ، من بينها عدد ضخم من الجمال والحمير ، غير أن الناس لما رأوا من مسافة بعيدة اقترابنا منهم ، اعتلى كثير من الرجال خيولهم الصافئات السريعة العدو ، وفروا إلى أقصى بقاع الصحراء إيثارا للسلامة ، تاركين نساءهم وأولادهم وخيامهم وكل ما يملكونه تحت رحمة عدوهم .

ثم تابع الصليبيون السير في طريق العودة ، دافعين أمامهم ما غنموه من القطعان ، ساحبين وراءهم الأسرى ، وحدث أن كان بين السبى امرأة عظيمة القدر هي زوجة أحد كبار شيوخهم الأقوياء وقد أسرت في الكارثة العامة ، ثم جاءها المخاض في أثناء السير ووضعت مولودها بعد حقاسة آلام الولادة التي تصحب الوضع ، فلما أفضوا بخبرها إلى الملك أمر في الحال أن ينزلوها من فوق البعير الذي كانت تركبه ، وأن يعدوا لها فراشا مما غنموا ، وزودوها بالطعام وبرأويقين من الجلد مملوءتين بالماء ، ثم خصص لها وصيفة

— كما أرادت — تقوم بخدمتها وتلبية حاجتها ، وناقضتين تعيش على لينهما ، ثم يثرها ( الكونت ) فى عباته التى كانت عليه وخلفها حيث هى ، وتابع هو زحفه مع جيشه .

وفى هذا اليوم بالذات — أو لعله فى اليوم التالى — ظهر الشيخ العربى الكبير ، يتبعه رهط ضخمة من رجال عشيرته ، يقص عن قرب — كما لوف عادة قومه — أثر الجيش الصليبي ، وكان الأسى قد بلغ منه غايته ، وغمه أشد الغم سبى زوجته الشريفة وأم أولاده وهى على وشك الوضع ، ولم يكن يعتبر كل ما خسره شيئا مذكورا اذا ما قيس بفقد اياها ، وظل يمشى ويمشى حتى وصل اليها فجأة فرآها مسجاة على الأرض ، فلما وقع بصره عليها أخذ العجب كل العجب من تلك الروح الانسانية العظيمة التى حاطها بها الملك ، وشرع يشيد بذكر اللاتين مثنيا على رحمة بلدوين العظيمة الثناء المستطاب .  
واقسم ليكون منذ هذه اللحظة الى آخر عمره وفيما له ما وسعه الوفاء ، وكان هذا عهدا أوفى به فى لحظة حرجة أشد الحرج .

فى الوقت الذى كانت تجرى ابانه هذه الأحداث فى الشرق سمع أمراء الغرب بالأمور الجليلة الرائعة التى أجراها الله على أيدي عباد الذين ذهبوا للحج ، وكيف أنه قاد جيشه الى أرض الميعاد عبر بلاد مترامية الأطراف ، وكيف نصرهم على الأهوال الجمة البالغة ، وهيا لهؤلاء الحجاج أن يشاهدوا بأعينهم كيف أذل لهم الأمم وفتح عليهم البلاد ، فاغتبطت نفوس الذين ظفروا وراءهم فرحا بنصر اخوانهم ، وان تقطعت قلوبهم حسرة لأنهم لم يشاركوهم فى حملاتهم التى تكللت بالنصر والغلبة ، ومن ثم اجتمع بعضهم الى بعض ، واتفقوا على أن يشرعوا فى الخروج بحملة جديدة .

\*\*\*

كان أعظم هؤلاء الحجاج مكانة ذلك الرجل المبجل « وليم كونت بواتو (٤) دوق اكوييتية ، ومعه الرجل الذائع الصيت « هيج » العظيم كونت فير مانتوا أخو فيليب ملك الفرنجة ، والذي كان قد صاحب الحملة الأولى ، ولكن اضطرتة العسرة بعد الاستيلاء على أنطاكية للرجوع الى موطن آبائه . كما كان من بين هؤلاء أيضا « ستيفن » كونت « شارترز وبلوا » (٥) وهو اللبيب القطن ، ولكنه كان قد جالب على نفسه العار المقيم وأزرى بشرفه حين كانت أنطاكية موشكة على السقوط ، فتخلّى عن رفاقه وهجرهم خوفا من المعركة التي على الأبواب ، فتلخ هروبه المشين اسمه بعار أبدي ، ثم عن له أن يكفر عن زلته السالفة ، ويمحو ذكرى هذا الاثم الذي علق بالأذهان ، فجمع رهطا كريما من أتباعه واستعد للحج .

كذلك تاهب للقيام بنفس الرحلة « ستيفن البرجندي » الشريف المحتد الكريم الأرومة ، كما تأججت نفس هذه الرغبة في صدور كثيرين غير هؤلاء من النبلاء المعروفين بثرائهم وطهارة حياتهم وكرم أصولهم ، وبراعتهم في حمل السلاح ، فاستعدوا للسفر ، فلما كان اليوم المضروب للرحلة وقد خرج من القادة العظماء من

---

(٤) المعروف عن كونت بواتو هذا انه كان الى جانب ذلك رجلا نبيلًا يقرض الشعر .

(٥) أشارت الترجمة الانجليزية ( ج ٢ ص ٤٣١ حاشية رقم ٢٧ ) الى أن ستيفن كونت شارتر كان يواجه عاصفة شديدة من الاستهجان لمسلكه في ترك الصليبيين ، بل ان زوجته طالما لامته لوما غنيقا على هذا المسلك وبينت له كم تكابد من الألم من كل النواحي ، وراحت تثير حميته حتى لان واستجاب وقاد هذه الحملة التي يشير اليها وليم الصوري في المتن ، وقد أوردت الترجمة الانجليزية هذا التعليق بناء على ما ذكره المؤرخ الترمندى « أوردريك فيتال » .

يجاوزون هؤلاء مكانة ازمع هؤلاء النبلاء مشاركتهم بالعسكر الذين معهم .

ومن ثم اعدوا كل ما يحتاجون اليه في سفرهم ، واستندعوا اخوانهم وخرجوا للصح في الساعة واليوم اللذين اتفقوا عليهما ، سالكين نفس طريق الحملة الاولى ، وان لم يماثلوهم في حماستهم ، وتلقاهم في القسطنطينية الامبراطور « الكسيوس كومنين » لقاء طيبا ، وراوا في بلاطه كونت تولوز الذي جاء في الحملة الاولى بأعمال برهنت على كفاءته العظيمة كقائد ، وكان الكونت كما قلنا قد خلف زوجته ومعظم أهل بيته في اللاذقية ، أما هو فقد مضى الى الامبراطور ملتصقا بمعونته ليتمكن من العودة الى الشام وليفتح مدينة أو أكثر من مدنها ، لأنه كان منذ خروجه للصح قد أجمع العزم على أن يقضى هنا ما تبقى من عمره ، والا تكون له رجعة قط الى وطنه .

وصفقت الفرقة في صسدور هؤلاء الرجال اذ قابلوا رجالا حكيما ونشيطا كهذا الرجل ، ثم جاءوا الى الامبراطور يستأذنه في الرحيل ، فسسخى عليهم بالهدايا الغالية ، وخرجوا مجتازين اليسفور ومسترشدين بالكونت ريموند سان جيل ، ووصلوا بمن معهم من العسكر الى نيقية في اقليم « بيثينيا » سالكين نفس الطريق الذي سلكه من سبقوهم .

### - ١٣ -

لقد عامل الامبراطور الحجاج - كما قلنا - اطييب معاملة حينما كانوا عنده ، لكنه نهج نهج الاغريق المألوف ، فأكل الحسد قلبه من نجاح الصليبيين ، وعزم على انزال المضرة بهم ، ومن ثم والى

بعث الرسل الى الترك يحثهم للعمل على ما فيه القضاء على الحجاج ،  
ودأب على مكاتبتهم واخبارهم شفاها ب واسطة رسله بقرب وصول  
الحجاج ، وينبئهم مقدما الى أن سلامة أنفسهم تحتم عليهم الا يدعوا  
هذا الحشد الكبير يمر بسلام ، وهكذا كان كالعقرب التى ان ووجهت  
لم تلدغ ، ولكن السم كل السم فى حماتها التى يذبغى استئصالها ،  
ولذلك فقد فشى خبر وصول هذه الحملة بواسطة الكسيوس  
ومبعوثيه ، واستطاع الترك أن يجمعوا الجنود والمرتزة من كافة  
أنحاء المشرق متوسلين لتحقيق ذلك بالرجاء والمال .

ثم شاعت الظروف - ان عمدا أو صدفة - أن يتفرق الصليبيون  
بعضهم عن بعض ، وسارت كل طائفة منهم فى طريق غير الطريق  
الذى سلكته الأخرى ، ذلك لأنهم كانوا أشبه بذرات الرمل لا ترابط  
بينها ، هذا بالإضافة الى أنه كان ينقصهم التنظيم الحربى الذى  
التزمه الجيش الأول ، ومن ثم سرت روح قوية من الكراهية نحوهم ،  
فحق عليهم أن يقهوا فى يد العدو الذى أفنى منهم بالسيف أكثر من  
خمسين ألف نسمة ما بين ذكر وأنثى .

أما الذين قيضت لهم العناية الالهية النجاة من قبضة العدو فقد  
فقدوا كل متاعهم وجهازهم ، وهاموا على وجوههم يلتمسون النجاة  
عراة حفاة صفر الأبدى من كل شىء ، حتى انتهى بهم الفرار أخيرا  
الى قيليقية التى بلغوها بطريق الصدفة وليس عن خطة رسمها  
لأنفسهم ، فلما صاروا فى طرسوس عاصمة تلك الولاية فقدوا هيج  
العظيم فقد وافاه الموت الذى لامناص له منه ، فدفنوه فى احتفال  
كبير فى كنيسة معلم « الأمم » العظيم الذى مات فى مهبط رأسه .

وبعد أن استجم الحجاج بضعة أيام تاعمين يشبهى الماكل  
تابعوا سيرهم حتى بلغوا اماراة أنطاكية التى كان تصريف شئونها  
بيد تانكريد ، فاستقبلهم كعادته استقبالا حارا ، وخص كوندت بواتو



بأعظم جانب من الرعاية ، لأنه كان أسمى الجميع مكانة ، كما أنه انفرد عن كل من معه بما ابتلى به فى تلك الحملة المنكوبة بفقد كل ما كان يملكه .

وإذ كان الشوق يلح على الحجاج لرؤية الأماكن الطاهرة - فقد أغنوا السير الى بيت المقدس - التى نازعتهم نفوسهم اليها لهفة وحنينا ، فركب البحر متهم من أعوزتهم الجياد ، وأما غيرهم ممن لم يزل عندهم ظهر يركبونه فقد شقوا طريقهم برا ، والتقى هؤلاء هؤلاء فى انطرسوس : تلك المدينة الساحلية التى تعرف عادة باسم « طرطوس » ، فأغاروا عليها استجابة لنصيحة ريموند كونت تـ: بلون لاسيما وقد بدا لهم أن ليس من اليسير استيلاؤهم عليها ، فأعانهم الله إذ مكثهم من امتلاكها عنوة فى أيام قلائل معدودات ، وراح أهلها ما بين هالك بحد السيف وأسير فرض عليه الرق الأبدى ، فلما فرغوا من ذلك كله أسلموا المدينة الى الكونت ، ثم تقاسموا الغنائم فيما بينهم وفق ما يقضى به قانون الحرب حتى إذا انتهوا من ذلك تايعوا السير نحو هدفهم ، على حين بقى الكونت فى المدينة لحمايتها ، فتخلف على غير رغبة من البقية الذين كانوا يلحون عليه أن يسير معهم .

#### - ١٤ -

بينما كان جيش الحجاج - وقد طالعه سوء الطالع - يجهد نفسه فى شق طريقه عبر بقاع آسيا الصغرى كما وصفنا من قبل كان ملك بيت المقدس - الذى يكره البقاء بلا عمل يشغله ويعد ذلك مضیعة للوقت - أقول كان منصرفا لبذل شتى الوسائل لمد حدود المملكة الضيقة . وحدث أن وصل الى ميناء يافا - مع مستهل

الربيع (٦) - أسطول الجنوية ، فتبارى الملك والأهالى فى الاحتفاء بهم ، ولما كان عيد الفصح على وشك الحلول فقد سحبوا سفنهم الى اليايسة ، ومضوا مصعبين الى بيت المقدس للاحتفال بالعيد الذى ما كاد الملك يفرغ من احيائه على مألوف السنة حتى بعث من ندنه رجالا عقلاء محملين بالهدايا المغرية الى قادة الأسطول وكبار وجوه العسكر ، وعهد اليهم بمفاوضتهم ليعلموا منهم علم اليقين عما اذا كان فى نيتهم الرجوع ، أم أنهم مستعدون - اذا عوضوا تعويضاً سخياً - على بذل انفسهم فترة من الوقت لخدمة الله بمد حدود المملكة » .

فلما تشاور الجنوية فيما بينهم أجابوا أنهم اذا تهيأت لهم الإقامة فى المملكة وفق شروط كريمة فسيكون هدفهم - وكان هذا فى الواقع منذ البداية - الانصراف ربحاً من الزمن لخدمة الرب بتوسيع رقعة المملكة .

ومن ثم عقدت اتفاقية قبلها الطرفان مقسمين على الوفاء بها ، مفادها أنهم طالما يريدون البقاء فى المملكة بأسطولهم فلهم الثلث من كل مدينة أو قلعة أو موضع من المواضع الحصينة ممّا فى يد العدو ، ومما يكونون هم قد ساعدوا فى الاستيلاء عليه ، لا يعارضهم فى ذلك معارض .

كذلك يحصلون على ثلث الأسرى الأعداء من غير مشاققة ، ويكون لهم ثلث أموال العدو يقسمونها بين رفاقهم . أما الثلثان الباقيان من كل شئ فيكونان من نصيب الملك . وزيادة على ذلك فقد نص الاتفاق على أن يخصص حسب المعاهدة للجنوية شارع معين فى كل مدينة تنتزع من يد الخصم .

---

(٦) وكان ذلك فى منتصف ابريل ١١٠١ .

حينذاك اذتعشت الآمال فى صدر الملك ، فقام اعتمادا على المعونة  
الالهية وجمع كثيرا من الفرسان والمشاة من المدن الخاضعة له ،  
وفرض الحصار برا وبحرا على مدينة « أرسوف » الساحلية  
المعروفة أيضا باسم « انتيباتريس » نسبة الى « انتيباتر » والد  
« هيرود » .

وتقع أرسوف وسط مناطق شديدة الخصب ، الى جانب ماتجود  
به عليها الغابات والمراعى ، وكان الدوق « جود فروى » العاطر  
الذكر قد عاث فسادا فى أرجاء هذه المدينة فى السنة الغابرة ، لكنه  
عجز عن حصارها بحرا لقلة ما لديه من السفن ، فلما أدرك استحالة  
النجاح عاد الى قواعده ، دون أن يحقق غرضه .



نشر بلدوين فى الحال قواته حول المكان على شكل دائرة  
أحاطت به من كل ناحية ، ثم أمر بتشييد برج متحرك من الكتل  
الخشبية الضخمة ، فلما فرغوا منه أسنده القلعة الى الأسوار بعناية  
فائقة ، لكن قوة السلم لم تكن كافية لاحتمال ثقل تلك العدد الكبير  
من الناس الذين اعتلوه ، فهوى الى الأرض حطاما ، وأصيب فى  
هذا الحادث حوالى مائة من رجالنا كانت أصاباتهم خطيرة .

كلذك وقعت طائفة من رجالنا فى يد العدو ، فصلبهم أمام أعين  
رفاقهم ورفعهم على الشنانق ، فأسخط هذا المشهد قلوب الصليبيين  
واتزعها بالغيط الشديد واستورى غضبهم ، فكروا على الخصم كرة  
ضاربة ، وضيقوا عليه الخناق ، وحاصروه هو وأهل المدينة حصارا  
بليغا حتى بدأ العدو وأهل البلد وكأنما قد فقدوا كل قدرة عندهم  
فى الدفاع حتى من أنفسهم .

وأسند الصليبيون سلالهم الى الأسوار ، وكانوا على أهية  
الاستيلاء على الأبراج والحصون حين قام أهل البلد - وقد يشوا

من كل شيء حتى من الحياة ذاتها - وبعثوا من جهتهم وسطاء الى الملك ، حصلوا منه على اذن يخول لهم - ان هم اسلموه البلد - ان يخرجوا بنسائهم وأولادهم ، على أن يخلفوا وراءهم كل أمتهم ، وأن ذاك تكون لهم السلامة والعافية ، ويزودون بعهده أمان حتى يبلغوا عسقلان ، ولما تم الاستيلاء على القلعة أقام بها الجيش حامية لحراستها ولم يترث في الزحف على قيسارية لمحاصرتها .

- ١٥ -

وتقع قيسارية على ساحل البحر ، وكانت تعرف في العصور السالفة ببرج « ستراتون » ، وتقول كتب التاريخ القديمة ان هيرود الكبير زاد في رقعته ، وجعلها بالباني الضخمة ، وسماها « بقيصرية » تشرفا بالامبراطور أوجستوس (قيصر) ، ثم جاء الامبراطور الروماني فأمر بأن تكون عاصمة فلسطين الثانية ، وتمتاز المدينة بخصائص عظيمة ، منها كثرة القنوات التي تشقها ، وبساتينها المروية أحسن رى ، كما أن لها ميناء ، ونقرأ فيما نقرأ أن هيرود هذا لم يقصر في بذل المال الكثير والجهد الضخم ليبنى ثغرا هناك يكون مرسى آمنا للسفن ، لكنه لم يفلح فيما حاوله .

\*\*\*

ثم زحف الملك بجيشه من هناك وتبعه الأسطول ، مبقيا مسافة لا يتجاوزها من في البحر ومن على اليابسة ، فلما بلغوا غايتهم حاصروا المدينة ونصبوا آلات الرمي في أماكن استراتيجية ، وحملوا على المكان حملة صدق ، فاستولى الذعر على قلوب الأهالي من جراء المناوشات الجمة التي جرت حول الأبواب ، كما أن الصخور التي راحت الآلات تقذفها بلا انقطاع أوهنت من مقاومة

الأسوار والأبراج ، وهدمت البيوت حتى لم يستطع المحصورون أن يصيبوا دقيقة واحدة من الراحة .

وقد فرغ الصليبيون في هذه الأثناء من تجهيز آلة ذات ارتفاع عجيب يجعلها فوق جميع الأبراج ، وقد ساعدتهم هذه الآلة على مهاجمة المدينة من غير عناء يلقونه أو ضيق ينزل بهم ، واستمر هذا القتال موصولا مدة قاربت خمسة عشر يوما بين الأهالي وبين جيشنا الذي هاجمهم بكل ما فى طاقته من قوة ، ولكنهم قاوموه مقاومة لم تكن أقل من مقاومتهم إياه ، واستمر القتل فى الجانبين دون انقطاع ، فادرك الصليبيون بعده أن أهل البلد ليسوا أهلا لهذه الجهود الشاقة لاعتيادهم الفراغ واستنامتهم الى الاسترخاء ازمة طويلة لان معها عودهم ، وتراخت عزائمهم ، كما أنه لم يكن لهم تمرس بفنون الحرب ، ولوحظ عليهم - يوما بعد يوم - ضعف بأسهم عن الصمود بسبب ضجرهم من وطأة القتال ، ومن ثم نبذ رجالنا كل تراخ ، وراحوا يشجعون بعضهم بعضا ، ورفضوا أن ينتظروا حتى يتم نصب الآلة التى يصنعونها ، وتكاتفوا فشدوا هجمة أودعوها غضبا لم يعهد من قبل ، فلما شاهد هذا المنظر المحصورون الموجودون داخل أسوارهم استبد بهم الجزع ويئسوا من كل شيء حتى من الحياة ذاتها ، فلم يعودوا يحاولون حماية أسوارهم ، أو يهتمون فتىلا بوسائل دفاعهم ، فلما لاحظ الصليبيون هذه الحالة استندوا سلالهم الى الأسوار ، وبادروا الى اعتقال المحصورين ، وسرعان ما استولوا على الأبراج والقلع ، وأدت جهود الآخرين الحماسية الى رفع المزاليج من الأبواب وفتحوها على مصاريعها ، فانهارت المدينة ودخلها الملك بجنوده عنوة .

حينذاك أخذ الجند المدجج بالسلاح يعيشون فى أرجاء المدينة لا يعرض لهم أحد بردع أو دفع ، واقتحموا الدور التى لم تجد

الأمالى نفعا فيما ظنوه من أنهم واجدون الحماية داخلها ، ففتك  
العسكر بكبار رجال الأسر ، ونهبوا شتى الأدوات المنزلية ، وامتدت  
أيديهم فسلبت كل ما رغبوا فيه حتى المساكن ذاتها ، وحكموا السيف  
فى الأهل والمشم ، واستولوا على الحجرات الخاصة ، ولستأ فى  
حاجة للحديث عن مصير من قضى القدر بوضعهم فى طريق قواتنا  
فى الأماكن التى راحوا يختفون فيها فى الشوارع الجانبية ، فكان  
نصيبهم الموت الذى لم يستطيعوا دفعه .

أما الذين قدرت لهم النجاة فقد قتلوا أنفسهم بأيديهم ، إذ  
ابتلعوا القطع الذهبية والجواهر الغالية ، مما حرك جشع الصليبيين  
الى درجة أنهم راحوا ييقرون بطلون هؤلاء بحثا عما يكونون قد  
خبأوه من المال فى أمعائهم .

## - ١٦ -

وكان يوجد فى موضع مرتفع بأحد أقسام المدينة بيعة كبيرة ،  
تقول الأخبار أنها شيدت على أنقاض معبد كان بديع الصنع ، بناء  
هيرود تعظيما لأوجستوس قيصر ، ففر إليها السكان مؤملين أن  
يجدوا السلامة والأمان بين جدرانها ، إذ هى موضع عبادة ، لكن  
الصليبيين شقوا طريقهم قسرا الى هذه البيعة ، وفتكوا فتكا ذريعا  
بالبائسين بها ، فسكوا دماءهم التى صارت بحرا أخذت تخوضه  
أقدام الخربين ، وكان منظر الجثث الجمعة المبعثرة هنا وهناك منظرا  
يبعث الفزع فى النفوس .

وكان مما عثروا عليه فى هذه البيعة ذاتها وعاء ذو لون  
أخضر براق على شكل مزهرية ، عرفه الجنوية أنه مصنوع من  
الزمرد فأخذوه عوضا عن مال كثير كان لهم ، فحصلوا بذلك على

تحفة رائعة يحلون بها كنيسهم ، ولا زالوا حتى اليوم يعرضون هذه  
الزهريّة كأعجوبة على كل رفيع المقام ، سامى المكانة يمر بمدينةنتهم ،  
مؤكدّين له أنّها مصنوعة من الزمرد الخالص كما يدل على ذلك  
لونها •

والواقع أنّهم قتلوا كل شباب المدينة أنى ثقّفهم ، ولم يستثنوا  
من القتل سوى صغار الصبية والبناات ، وهنا تم ما جاء فى كلام  
الانبياء (٧) : وسلم للسبى عزه ، وجلاله ليد العدو ، •

ولما آن للسيف أن يستكن فى غمده ، وتم هلاك الأهل ، جمع  
القوم شتى الغنائم فى صعيد واحد ، ونحوا الثلث جانبا جاعليه  
للجنوية حسبا تم الاتفاق عليه ، وأما الثلثان المتبقيان فكانا من  
نصيب الملك ورجاله •

ولما كان القليل مما بيد قومنا قد نفذ أثناء الطريق فقد أملقوا  
غاية الاملاق ، واقتفروا أشد الفقر ، أما اليوم ، وقد أصابوا الكثير  
من الأسلاب والغنائم فقد اترفوا غاية الاتراف بسبب كثرة ما نهبوه •

ثم جلس الملك فى مجلس الحكم وجرى أمامه بكل من والى  
المدينة الذى يلقبونه فى لغتهم بالأمير ، وبالقاضى الذى يناط اليه  
أمور العدالة ، فمن الملك عليهما بالحياة طمعا فيما يصيبه من فدية  
ضخمة يفتديان بها ، لكنه أمر بتكبيلهما بالسلاسل وفرض حراسة  
شديدة عليهما •

وبينما كان الملك مشغولا بما هو فيه جدت أمور استدعته للخروج ،  
فاضطروا لاختيار رجل اسمه بلدوين - كذا قد جاء مع حملة

جودفروى - ليكون رئيسا لأساقفة المدينة ( قيسارية ) فبادر الملك « ج  
رهمط آخرين الى الرملة بعد أن ترك نفرا من الجند لحراسة البلاد .

## - ١٧ -

وتقع مدينة الرملة فى سهل قريب من البلد التى هى  
« ديوسبوليس » ، ولم أتمكن من معرفة ماذا كانت تسمى هذه المدينة  
قديمًا ، ولكن الرأى الشائع هو أن المكان حديث النشأة ولم يكن  
موجودا فى العصور الأولى ، وتقول الأخبار القديمة أنها أسست  
على يد الأمراء العرب الذين جاءوا بعد ( النبى ) (١) محمد (صلعم)  
وكانت عند أول قدوم الجيش الصليبي الى بلاد الشام مدينة أهلة  
بالمسكان ، يكتنفها سور وأبراج ، وقد توافد الناس اليها فى جموع  
زاحرة فاستقروا بها ، ولكن لم يكن لها وسائل دفاع خارجية أو  
خندق ، فلما انصب عساكر الصليبيين الى تلك الناحية غادرها  
سكانها وفروا عنها الى عسقلان التى كانت تفوقها تحصينا .

وهكذا وجد الصليبيون المدينة قد هجرها أهلها كما قلنا ،  
فكان من الصعب احتلالها كلها مادام سكانها بهذه القوة الشديدة ،  
ومن ثم اكتفوا بإقامة حصن ذى أسوار ، وبحفر خندق فى جانب  
منها .

وراجت فى ذلك الوقت شائعة لم تكن بعيدة عن الواقع ، تلك  
هى أن خليفة مصر كان قد أرسل واحدا من كبار قواد جيشه على

---

(٨) استعمل ولیم كلمة آثرنا احلال ما بین الاقواس مكانها .



رأس مجموعة من العسكر الى ناحية عسقلان ، أمرا إياه كمادته  
— أن يتقدم من غير ابطاء لقتال هذا الشعب (٩) الفقير المتسول الذى  
اجترأ فدخل أملاكه وعكر صفو هدوئها ، وكان على هذا القائد أحد  
أمرين : اما أن يستأصل هؤلاء القوم استئصالا تاما ويقضى عليهم  
القضاء المبرم بحد السيف ، واما أن يعود بهم الى مصر مصنفين  
فى الاغلال ، ويقال انه كان فى جيشه أحد عشر ألفا من الفرسان ،  
وعشرون ألفا من العسكر المشاة .

كانت هذه الشائعة هى التى أجبرت الملك ( بلدوين ) على  
مغادرة قيسرية على جناح السرعة مخافة أن يعتمد هذا الجيش على  
كثرة عدده ، فيحاول غزو مملكة بيت المقدس ، مما لا بد أن يؤول الى  
أسوأ الأخطار على صالحها .

وأقام بلدوين فى الرملة ردحا من الوقت قارب الشهر عاد بعده  
الى يافا ، إذ لم يبد أثر للعدو ، فلما كان الشهر الثالث لم تستطع  
القوات المصرية أن تتراخى أكثر من هذا فى تنفيذ أمر مولاها ،  
والواقع انهم خافوا أن يكون ( الخليفة ) قد غضب لابطائهم هذا  
الابطاء الطويل فى تنفيذ الأمر الذى خرجوا لتنفيذه ، فتشجعوا  
واستعدوا بقواتهم ، وعبأوا صفوفهم للمقاتلة ، وأغاروا غارة خاطفة  
على أرضنا مهاجمين لها .

فلما علم الملك بلدوين بما فعلوا أمر باستدعاء قواته ، وكانت  
بالغة القلة ، لأن صغر مساحة ما تحت يده من البلاد وقف عقبة فى  
طريق تكوين جيش كبير العدد ، لكن ذلك لم يمنعه من أن يحشد حول  
اللد والرملة أكبر جند أمكنه جمعهم ، فبلغوا مائتين وستين فارسا  
وتسعمائة من العسكر المشاة .

---

(٩) يعنى بذلك الشعب الصليبي الوافد من أوروبا .

ولما اتضح أن العدو أخذ في الاقتراب أمر الملك بتقسيم قواته إلى ست فرق خرج بها لمقابلة الأعداء، وجعل أمامهم راهبا ثقيا حاملا في يده يوقار صليب المسيح ، ولما أتم الصليبيون ترتيب صفوفهم على هذه الصورة نظروا إلى صفوف المارقين ورفعوا وجوههم إلى السماء يرجونها العون ليحرزوا النصر ، ثم اندفعوا في هجمة نكراء لم تربهم كثرة خصومهم ، ورأحوا يقاتلونهم بشدة معملين فيهم سيوفهم ، احساسا منهم بأنهم يقاتلون من أجل الحياة ذاتها .

وقاومهم المصريون بكل ما لديهم من طاقة بأنلين الجهد كي ينتهى هجوم خصومهم بالفشل ، لأنهم كانوا على يقين تام من أنهم إن لم يعودوا منتصرين حاق الخطر بتسائهم وأولادهم وما ملكت أيديهم مما تركوه بمصر .

وحدث أن التحمت مقدمة جيش الأعداء بفريق من جنودنا ، وإذ كانت هذه المقدمة أكثر عددا منا فإنها سرعان ما بثت الفوضى في صفوفنا فأجبرتنا على الفرار ، ثم راحت تتعقبننا تعقبا شديدا ، وأوشكت على القضاء على رجالنا واستئصال شأفتنا .

أما بقية كتائبنا فقد قاومت أشد المقاومة كما استبد بها الغضب الجارف ، فضسيفت الخناق على العدو وأعملت فيه مذبحة فظيعة يعجز اللسان عن وصفها ، أما الملك العظيم الشأن فقد أخذ يشجع بالكلمة تارة وبالفعل تارة أخرى هذه الكتيبة مرة وتلك الكتيبة مرة أخرى ، فإذا رأى أحداها قد ضاق عليها الخناق وإنها موشكة على الانسحاب أمدها بما تحتاجه ممن معه فاسترد بأسها .

وانقضى وقت طويل لم تتضح فيه نتيجة المعركة ، ثم واثت

السماء الصليبيين النصر التام فدارت الدائرة على العدو وهلك قائدهم إذ اخترطه السيف غمات وقد استبسل استبسالاً رائعاً .

وتمزقت صفوف العدو ، واندهرت كتائب من كتائبه حتى آخر رجل إلا من فر منهم الى النواحي القاصية ، فلما رأى الملك ذلك نهى أن تمتد يد أحد من رجاله الى الغنائم والا كان الموت تصيبه ، ثم زاد قائمهم باقتفاء العدو في هروبه ، وألا يضعوا السيف ، وحذرهم أن تأخذهم رحمة أو شفقة باحد منهم ، بل يقتلونهاهم أنى ثقفهم ، وضرب لهم المثل بنفسه إذ راح يطارد بعض فلول فرسانهم ومسانتهم الخفاف حتى بلغ عسقلان على بعد ثمانية أميال ، ولم يوقفه عن الذبح المروع الا دخول الليل ، وإذ ذاك نفخ الملك في البوق مستدعياً رجاله ، فعادوا الى ساحة المعركة حيث أخذ يوزع الغنائم عليهم تبعاً لقانون الحرب ، وقضى ليلته هذه في الساحة منصوباً .

وتقول الرواية أن قرابة خمسة آلاف من رجال العدو ذبحوا ذبح الشياه في ذلك الموضع ، ولما أحصى رجالنا كان المفقودون منهم سبعين فارساً ، وأكثر منهم من الجند المشاة ، على أن الخسارة الحقيقية لم تعرف .

- ١٨ -

أما القوات المصرية التي كانت قد أبادت الصليبيين في معركة الهمس فقد أرغلت في مطاردة الهاربين حتى بلغت مدينة يافا ، ووقفت أمامها معلنة الى الأهالى في صوت جهورى أن قد هلك الملك وكذلك الجيش الصليبي في ساحة القتال ، وتأكيذاً على صدق ما قالوا فقد أبرزوا لهم ما يعرفونه من أسلحة اخوانهم واتباعهم ، وكانت الملكة هي الأخرى في المدينة فلما شاهدت مع الأهالى ذلك كله لم يخامرها شك في صدق ما سمعته وسمعوه ، فانخرطوا جميعاً في البكاء .

وبعد أن تشاوروا مع كبارهم وأهل الخبرة وبعد النظر انتهوا الى أنه لا مناص لهم من سلوك طريق واحد : ألا وهو إرسال كتاب الى تانكريد أمير أنطاكية يستصرخونه أن يهب سريعا لنجدة الملكة فى محنتها بعد أن لم يعد لها كبير يدبر أمورها ، وأخبروه أنه أصبح الآن - بعد الله - أمل الشعب المؤمن .

فى هذه الأثناء كان الملك قد أمضى الليلة فى ساحة القتال ، لكن ما كاد النهار ينبج حتى أيقظ قواته المنتصرة وهبوا قاصدين يافا ، وبينما هم فى طريقهم اذا بهم يقابلون المارقين الذين بثت قصتهم الكيدية الخوف والفرع فى قلوب أهل يافا ، فلما طالعت هذه القوات الصليبيين ظنتها فى بادئ الأمر اخوانهم اعتقادا منهم بهلاك جيشنا عن آخره فى يومه الغابر ، ومن ثم تقدموا وكلهم ثقة وقد أوشكوا على الانضمام الى قواتنا ، وحينذاك صاح الملك فى أتباعه مشجعا أيأهم على مهاجمتهم ، جاعلا من نفسه القدوة لهم ، فتبعه نفر من فرسانه بأسرع مايمكن ، واستبسلوا فى قتالهم حفاظا على حياتهم ، وهجموا على خصوم ملتهم ، وكان قتال اليأس فى الأحياء المجاورة استعملت فيه السيوف ، وأحيط بالعدو احاطة سدت عليه مسالك النجاة ، فهلك الكثيرون من رجاله ، أما البقية الذين أفرعهم الخوف من الموت فقد ولوا الأدبار ، فشكر الصليبيون الرب ثم تابعوا زحفهم نحو يافا ونفوسهم تفيض بالفرحة ، وامتلات أيديهم بغنائم العدو وأسلابه .

فى هذه الأثناء كانت قلوب أهل يافا قد استبد بها الجزع الكبير من أخبار الكارثة ، فلما طالعوا الجيش العائد كانوا كمن استيقظ من سبات عميق ، فهبوا الى الأبواب يفتحونها لهم ، وعيونهم مغرورة بدموع الفرح ، واندفعوا نحوهم مرحبين بهم ، وأفضوا اليهم بالنبا الأليم الذى سمعوه ، ومدى الحزن العميق الذى استولى

عليهم ، ثم دخل الجميع المدينة ، وأمضوا يومهم فى احتفال ومسرة ،  
وراح كل منهم يقص على صاحبه خبر الرحمة العجيبة التى منحهم  
إياها السيد .

ولما علم الملك أن الملكة ومستشاريها قد دفعهم خوف اليائسين  
للكاتبة تانكريد بعث إليه فى لحظته رسولا على جناح السرعة محملا  
بالكتب التى تعلن إليه ما أحرزه من النجاح الباهر ، وكان الأمير  
الجليل ( تانكريد ) شديد الحزن لما سمعه من خير النكبة التى ألمت  
بالمملكة وهو على وشك الخروج ، لكن نبا انتصار الملك أثلج صدره  
فراح يشكر الخالق شكرا جزيلا .

- ١٩ -

فى هذه الأثناء وصل إلى أنطاكية النبلاء الذين كانوا قد فقدوا  
جزءا كبيرا من عسكريهم فى أراضي آسيا الصغرى من جراء النكبة  
التى ألمت بهم والتي أشرنا إليها من قبل ، ولما أخذوا فى السير  
سلبوا من العدو مدينة « طرطوس » وأسلموها إلى كونت تولوز ، ثم  
أغذوا الزحف إلى القدس ، وإن خاف الملك أن يعوقهم عائق عند نهر  
الكلب فقد نهض بقواته لمقابلتهم ، فاستولى بأدى ذى بدء على الممر ،  
ولم يكن العمل الذى قام به من أجلهم بسيطا لما يفتوى عليه الاستيلاء  
على أربع مدن عظيمة معادية مزدهمة بالسكان من صعوبة بالغة ،  
وهذه المدن هى عكا وصور وصيدا وبيروت ، وكان لابد له من المرور  
بها قبل وصوله إلى غايته .

فلما تغلب الملك وأصحابه على مصاعب الممر وجد هناك الرجال  
الفضلاء المذكورين من قبل ، وهم وليم كونت بواتو ، ودوق أكويتين ،  
وستيفن كونت بلوا ، وستيفن كونت برجندى ، وجود قروى كونت

فندوم ، وهيج اللوزينيئى أخو ريموند كوند تولوز ، وكثيرون  
غيرهم من علية القوم الذين كانوا جميعا فى غبطة لأمرين ، أما أولهما  
فلأنهم وجدوا البحر - الذى ظلوا يخشونه - غير نى موضوع ، وأما  
ثانيهما فلوجود الملك هناك ، حيث هب للقائهم فتعانقوا وراحوا  
يتبادلون فيما بينهم التهاني الصادقة وقبلات السلام ، وأثلج  
صدورهم ما جرى بينهم من الأحاديث العذبة ، حتى كان يخيل لرائيهم  
أن قد طمست من أذهانهم كل صور المشاق التى قاسوها والخسائر  
التي تكبدوها ، والحق أنهم ظهروا وكأنهم لم يصادفوا طوال طريقهم  
أى ضرر ، وحباهم الملك بكل ضروب الرحمة التى تملئها شرائع  
الانسانية والمحبة ، ثم قفل بهم الى بيت المقدس .

ولما كان يوم عيد الفصح قد حل فقد أمضوا هذا اليوم بالمدينة  
المقدسة واحترفوا فيها به ، ثم انطلقوا الى يافا قاصدين الرجوع  
الى ديارهم ، ولما كان كوند بواقي قد نضبت موارده تماما ونفذ كل  
ما معه فإنه استقل احدى السفن وأبحر بها ، فكانت رحلة موفقة  
أبلغته وطنه ، أما ستيفن كوند بلوا وسميه كوند برجندى اللذان  
أبحرا أيضا عن ذلك الميناء فقد صادفا مشقة بالغة فى البحر استمرت  
بضعة أيام ، وأرغمتها الرياح المعاكسة على العودة الى يافا .

- ٢٠ -

كان جميع أولئك الحجاج الذين تكلمنا عنهم لايزالون مقيمين  
فى الشرق حين انضم أهل عسقلان بعساكرهم الى المصريين الذين  
نجوا من المعركة التى وصفناها من قبل ، وراحوا يهاجمون معا  
أملكتنا فى ناحية البلد ، وسورونا ، والرملة ، ويقال أن مقاتليهم كانوا  
يناهزون العشرين ألفا ، فلما وصل هذا النبا الى الملك نسى حذره  
المعتاد ولم يتريث حتى تتجمع باقى القوات القادمة من المدن المجاورة ،

كما أنه لم يستدع النبلاء الذين كانوا معه في المدينة ، ولكنه اعتمد على قوته الذاتية وحدها ، وركب جواده ، واندفع متهورا عجلا غير مستصحب معه الا ما يقرب من مائتي فارس ، ولقد أحس وجوه المدينة أن العار لابد لاحقهم ان ظلوا - في هذا الظرف الطارئ الذي هم فيه - مقيمين بلا حركة دون أن يشاطروا اخوانهم مايقومون به ، ومن ثم حصلوا على الجياد من أصدقائهم وأقاربهم ، وتبعوا مولاهم الملك .

على أن بلدوين ( الملك ) سبق الآخرين وخرج مسرعا دون أن يأخذ للأمر أهميته ، لكنه حين أبصر كتائب العدو تعجب من كثرتها وبدأ يأسى ويندم على تعجله في الخروج ، وأدرك في لحظته صحة المثل القائل « في العجلة الندامة » ودقة انطباقه عليه ، وندم أشد الندم لاندفاعه الطائش ، ولكنه كان قد أصبح أدنى مايكون الى خصمه وبصورة لا تسمح له بالارتداد خوف العار أو خشية الموت .

غير أن الألباء من أهل الخبرة الطويلة في استعمال السلاح ممن كانوا في صفوف العدو لاحظوا أن القوات الصليبية كانت تتقدم على غير عاداتها وتسير بلا مراعاة للأصول الحربية ، فلم يكن فيها ما جرت العادة به من وجود المشاة والخيالة ، فبث هذا المنظر في قلوب الأعداء أملا كبيرا في النصر ، ومن ثم تجرؤوا قرتبوا كتائبهم للقتال ، وشنوا هجوما عاما على قوات الملك ، وكان الهجوم هذه المرة أشد عنفا مما كانت تجرى به عاداتهم ، لأنهم رأوا أن الصليبيين من ناحيتهم قد تراخوا في ترتيبهم الحربي المعتاد ، فاستولى الفزع الأكبر على عسكرها من ضخامة أعداد العدو وهجمتهم العاتية ، فلم تطق قواتنا احتمال وطأة المعركة وتهاافتت على الفرار بعد أن فقدت رجالا كثيرين .

لكن الذين سقطوا فى هذه المعركة سقطوا بعد أن احرزوا انتصارا مخضيا بالدم على عدوهم ، لأنهم حاربوا بشجاعة حتى الرمح الأخير ، وبعد أن ذبحوا من ذبحوا فى معركة تشابكوا فيها بالأيدي ، والواقع أنهم اقتحموا صفوف العدو وفرقوا شمله ، وكانوا على وشك استئصال شأفته حين استعاد خصومهم شجاعتهم الضائعة ، وضموا شتات عسكرهم حين تدبروا قلة جمعنا وكثرة جندهم ، فراح بعضهم يهتف بالبعض مشجعا إياه ، وعاد القتال مرة ثانية بهجمة ضارية أشد الضراوة ألزمت الصليبيين الفرار فهربوا الى بلدة الرملة مؤملين أن يجدوا بها الأمن والسلامة .

أما ستيفن ( كونت شارترز ) وسميه ستيفن ( كونت برجندى ) فقد سقطا فى هذا الاشتباك مع غيرهم من النبلاء الذين لاتعى الذاكرة أسمائهم ، ولا ندرى عددهم ، ونحسب أن مما نهنا عليه أن تكون خاتمة ستيفن كونت شارترز على هذه الصورة التى لقيها ، وهو الشخصية البارزة بين قومه لنسبه الكريم ومآثره الباهرة الجليلة ، ومن الواضح أن الرب عامله برحمته الواسعة ، فمن عليه بهذه الخاتمة الكريمة وعاد الى سلوكه الذى شأنه ذات مرة ولطخ بالعار اسمه حين هرب من المعسكر أمام أنطاكية ، ومادام قد استعاد طيب الأحذوثة عنه بهذه الخاتمة الباهرة فلا مجال أبدا لأن تظل خطيئته السالفة عالقة به ، واننا لنؤمن ايمانا حقا أن أولئك الذين سقطوا من المؤمنين وهم يحاربون الى جانب حملة الصليب من أجل تمجيد اسم المسيح حريون بأن نمحوا من سجلهم كل ما كانوا يعيرون به من نقيصة الاخلال بالواجب ، وأنهم لأهل أن تجب كل خطاياهم ، وتغفر كل ذنوبهم أيا كانت هذه الخطايا وتلك الذنوب .



حينما رأى الملك أنه قد أحيط به من كل جانب من قبل عسكر العدو انسحب هو ونفر معه الى القلعة تجنباً لخطر الموت الماثل امامهم ولم يكن لهم من مكان يلجأون اليه سوى تلك القلعة ، ومع ذلك فإنه لم يكن مطمئناً تمام الاطمئنان الى قوة دفاع المكان ، ولذلك ظل يقطن طول ليلته برمضه الجزع على حياته والخوف على سلامته ، لكن حدث أن ذلك الشيخ العربي النبيل - الذى أحسن الملك قبل قليل الى زوجته كما أشرنا (١٠) - غادر معسكر العدو تحت جنح الليل البهيم دون أن يصحبه أحد ووقف أمام القلعة ، وقد امتلأت نفسه بذكرى الرعاية الكريمة التى كان الملك قد أحاط بها زوجته ، وكره الشيخ أن يجحد الجميل فدنا من الحراس الواقفين على الأسوار وقال لهم بصوت أشبه بالهمس : « أن عندى رسالة يجب أن أبلغها للملك فى سرية تامة ، فامضوا بى الى حضرته فى الحال ، لأن الموضوع على جانب كبير من الأهمية » .

وحمل الحراس ما سمعوه الى الملك الذى أصغى لما يقولون ، ثم أمر باحضار الأمير امامه ، فلما دخل كشف عن ذاته ، وأنه ذاك الملك الفضل العظيم الذى أسبغه على امرأته من قبل ، وبين له أن للملك جميلاً فى عنقه لا ينقضى الا بخدمة تشابهه ، ثم كشف له عن خطط العدو ، وألح عليه بوجوب مفادرة القلعة فى الحال ، لأن المارقين قد استعدوا لحاصرة المكان عند اطلالة الفجر الأولى ، ورتبوا قتل جميع الأسرى الذين يأخذونهم ، ثم راح يفرى الملك بمصاحبته فى التو واللحظة ، وقطع على نفسه العهد أن يصحبه بنفسه بعون الله من غير عائق يعوقه الى موضع آمن لأنه يعرف هذا

---

(١٠) راجع ما سبق من ٢١١ - ٢١٢ من هذا الجزء من الترجمة العربية .

الاقليم خير معرفة ، فرضسح بلدوين بعد لاي وقبل أن يفر مع هذا الشيخ ، مستصحباً معه عددا قليلا جدا من أتباعه ، مخافة أن تثير كثرتهم شكوك العدو ، وتسلبوا في صحبة هذا الشيخ الذي مضى بهم الى ناحية جبليّة ، فتأكد عند الملك أن ذلك طاعته الصادقة وإخلاصه العظيم ، وراح يتحدث بها كلما سئدت له الفرصة ، ثم تركه الشيخ وعاد الى جيش العدو .



أما المارقون فقد شجعهم النصر القريب الذي أحرزوه ، ومن ثم أحاطوا بالقلعة من كل جانب وكروا كرة ضارية على من اعتصم بها من الآبقين ، واستولوا على الموضع قسرا ، وفعلوا بالأسرى ما أرادوا ففتكوا ببعضهم ، وكبلوا البعض الآخر بالقيود ، فأرضين عليهم رقاً لا فكاك لهم منه أبداً .

ولم يكن في تاريخ حوليات المملكة حتى هذه اللحظة مجزرة كهذه المجزرة المروعة ، هلك فيها رجال نبلاء شجعان كهؤلاء الرجال ، فتضعضعت روح المملكة المعنوية ، وفارقت الجميع شجاعاتهم ، وتفطرت قلوب العقلاء منهم ، وسقطوا في هوة عميقة عن اليأس حتى كادوا أن يغادروا المملكة لولا أن تداركتهم رحمة أنصبت عليهم من قوقهم .

لايستطيع أحد في الواقع أن ينكر قلة عدد أناسنا ، كما لم يقدر لمن جاءوا من الأقطار الواقعة فيما وراء البحر أن يصلوا كلهم سالمين الى الشرق خوفا من مدن العدو الساحلية الكثيرة المتناثرة على يمينهم ويسارهم ، فلقد ذكرنا أنه لم يكن في أيدي الصليبيين من جميع المدن الساحلية — بدءا من لاذقية الشام وانتهاء بالمدن الواقعة على حدود مصر — سوى مدينتين فقط هما يافا وقيسرية وقد تملكهما منذ أمد قريب ، مما ترتب عليه أنه ما كان الحجاج

يفرغون من أداء حجهم حتى كروا على أعقابهم الى بلادهم ، بعد أن شاهدوا ما عليه أحوال الملكة من ضعف ويأس ، وكان رجوعهم دفعا لما قد يحق بهم من نكبات كالتى حاقت بغيرهم .

## - ٢٢ -

لقد رويننا حالا كيف فر الملك ( بلدوين الأول ) الى القتل وقد فقد أصحابه ، ويرجع الفضل فى خلاصه مما هو فيه الى جواده السريع واسترشاده بالشسريف العربى ، بعد أن ظل طول ليلته مستخفيا فى الأماكن الموحشة ، وكان ذهنه فى أثناء ذلك نهبا للفرع الطاغى ، فلما تبلى الصبح انطلق برفقة اثنين لقيهما بمحض الصدفة ، وسلك دروبا متعرجة وسط اقليم يغشاه العدو من كل ناحية ، فأوصله المسير سالما فى النهاية الى مدينة « أرسوف » ، ففرح ساكنوها المؤمنون ببقائه ، وبعد أن أكل حتى شبع ، وشرب حتى ارتوى ، عاد جم النشاط ، لأنه كاد أن يغمى عليه من شدة الجوع والظما المهلك قبل وصوله الى هذا المكان ، والحق أنه كان يخيل للمرء أن العناية الالهية هى التى هيات له الظروف الخاصة التى أحاطت بقدمه ، لأن الجانب الأكبر من عسكر العدو كان قد رحل قبل مجيئه بساعة واحدة ، بعد أن ظل العدو يوما بأكمله يغير على البوابة ، ولو قدر لهم أن يصادفوا الملك وهو قريب من المدينة لكان من العسير عليه أن يفلت من أيديهم .

وحدث فى الوقت ذاته أن ترامت الى الخارج أخبار شتى حول مصير الملك ، ذلك أن النفر القليل الذين فروا من المعركة وهربوا الى بيت المقدس أعلنوا أن الملك كان من بين القتلى .

ولم يكد أسقف اللد يسمع بما جرى على الصليبيين - الذين أسروا فى قلعة الرملة - من قتل وأسر حتى غادر كنيسته هربا الى يافا ، ولما سئل عما وراءه من خبر الملك صرح أنه لا يعلم عنه شيئا

وإن أكد سوء مصير كل من لجأوا الى القلعة ، وإن الأمر الذى لا مشاحة فيه هو أنه شاهدتهم بميتى رأسه وهم يذبحون ، ولم يتردد فى الاعتراف بأنه هرب سرا طلبا لسلامة روحه .

كان الحزن عاما ، فما كنت ترى ناحية من البلد جاءها الخبر الا وقد عمها الأسى ، وتعالى البكاء فيها ، وران الياس على النفوس ، فما من أحد الا وقد فقد الأمل فى الحياة ، وتمنى لو أسرع الموت اليه حتى لا يرى نكبة قومه ، ويشهد خراب المملكة ، لكن فى هذه الأزمة الطاحنة وقد استسلمت المملكة للحزن والنحيب ، اذا بالملك ( بلدوين ) يخرج من أرسوف كأنه نجمة الفجر تتلألأ بين دياجير الظلام ، ويستقل إحدى السفن السريعة التى تمضى به الى يافا فيدخلها ، فتقابلت يافا بحضوره بالغبطة ، ومحا ظهوره الذى جاء على غير انتظار كل الظلال القائمة ، وأطلع نهارا مشرقا ، وبدأت جميع الشرور التى اكتنفت طريق الصليبيين قد تلاشت ، وسرعان ما طبق الخبر السعيد الثانى كافة أرجاء المملكة فازدهر الأمل فى نفوس كانت قد طارت شعاعا حين سماعها الخبر الكاذب الأول .

وفى هذه الأثناء كان « هيج دى سنث أومير » صاحب طبرية الذى أسرع لانقاذ الملك استجابة لدعاء الناس قد وصل الى أرسوف ومعه ثمانون فارسا ، فما كاد بلدوين يعلم بذلك حتى هب لساعته الى لقائه ، مستصحباً معه كل العسكر الذين أمكنه العثور عليهم فى يافا ، واذا كان العدو يعربد فى كل ناحية لا يخشى أحدا ، فقد خاف الملك منه أن ينصب الكمان « لهيج » وصحبه ، أو يعيقهم جهرا .

ولما التقى القائدان ( الصليبيان ) عانق كل منهما الآخر وقلبه يزغرد بالسعادة ، وضم كلاهما عسكره الى عسكر رفيقه وعادوا الى يافا حيث استقبلهم أهلها بمظاهر الفرح ، وسرعان ما انفذ

• الملك الرسل يلتمسون النجدة من سكان المناطق الجبلية الذين بأدروا فجمعوا من وصل الى ارسوف من العسكر فى مدى أيام قلائل ، ولكنهم اضطروا لسواك طريق ملتو ، لأن العدو كان مسيطرا تمام السيطرة على المناطق الداخلية ، غير أنهم صادفوا فى خروجهم من ارسوف « أشد الصعاب بل وأفدح الأخطار التى تهدد حياتهم ، إذ قابلهم العدو فى الطريق ، ولكنهم استطاعوا بعون الله أن يصلوا فى النهاية الى يافا ، وكان عدد الذين بلغوها زهاء تسعين ، وفيهم فرسان من رتب مختلفة •

ترتب على وصول هذه الامدادات أن انبعث الأمل من جديد فى قواد الملك ، لأنه كان يتلهف على الانتقام من العدو والثار منه جزاء لما أنزله به من المصائب ، لذلك رتب فصائل خيالته ورفاقه من المشاة للقتال ، وخرج يريد محاربة الخصم غير عابىء بما تحت يد هذا الخصم من جند كثير ، ذلك لأن اعتماده كان على معونة الرب •

كان عسكر العدو قريبا منه كل القرب ، لا يفصلهم عنه سوى ثلاثة أميال فقط ، وكانوا قد انهمكوا بنسج اكسية من الحديد وصنع السلاسل وشتى أنواع الآلات الحربية من المواد التى انتقوها لهذا العمل ، ودبروا - وكان ذلك يبدو يسيرا - أن يدمروا المدينة المعادية لهم ويلقوا القبض على الملك وجميع من بها ويأخذوهم كأخط العبيد ، لكن بينما كانوا متصرفين الى ما هم فيه من العمل اذا بالملك يطلع عليهم بجيشه ، فادركوا خطأ ظنهم فى هزيمة خصمهم اذ رأوه يأخذ المبادرة بيده ويتحدهم للقتال ، فهبوا سراعا الى سلاحهم يحملونه ، وتاهبوا لمنازلتهم بعد أن كانوا يظنون أن قد تلاشى أمرهم ، ولكن الصليبيين كانوا قد أجمعوا العزم على رد الصاع صاعين ، وأن يضاعفوا لهم العذاب الذى أنزلوه بهم • فكروا عليهم كرة مسعورة كأنهم اللبوة الغاضبة قد انتزع منها اشبالها ، وملاهم هذا الهجوم

حماسة أسبغتها عليهم العناية الالهية فحاربوا بكل طاقاتهم من أجل نسايتهم وأولادهم وأرض أسلافهم وذودا عن حريقتهم ، فشسستوا بسيوفهم شمل العدو ، وقتلوا طائفة كبيرة من رجاله وحملوا بقيتهم على التماس الحياة فى الفرار بصورة مزرية ، غير أن الصليبيين رأوا أن ليس من العقل - لقلة عددهم - أن يستمروا فى مظاربتهم الى مسافات طويلة فانصرفوا عن ذلك ومالوا على معسكر خصومهم فجمعوا أعدادا كبيرة من الحمير والجمال والخيم فكان ذلك كله غنيمة باردة لهم ، هذا الى جانب ما حملوه من شتى صنوف الطعام ومواد المعيشة ، وهكذا عاد الملك منصورا الى يافا ، فتعالى هتاف الناس فرحا به ، وأقامت الملكة ما يقرب من سبعة أشهر فى هدوء لا يعكر صفاءه معكر .

## - ٢٢ -

بينما كانت هذه الأحداث المختلفة تجرى فى الملكة قام تانكريد العظيم بجمع فرسانه ومشائته وأحدقوا بمدينة أفامية الرائعة عاصمة اقليم سورية الوسطى ، واستمروا يحاصرونها فترة من الوقت حصارا بذلوا فيه كل ما أمكنهم من جهد شأن السيادة العظام ، وتوسل تانكريد بكل وسيلة جرت بها العادة فى تدمير القلاع ، فلم يترك مكيدة تؤدى الى الاضرار بالحاشرين ضررا يلينا الا وعمد اليها ، حتى كتب له النصر أخيرا فاستولى على المدينة برحمة من الله ، وبفضل حماسته التى لا يتطرق اليها الكل ، وبمجهوداته العظيمة ، وقد أدى هذا الاستيلاء الى اتساع حدود امارته اتساعا كبيرا .

ويقول الخبر انه تابع زحفه فى نفس اليوم الى اللانقية التى كانت فى يد الاغريق فاستولى عليها هى الأخرى أيضا وضمها الى

سلطانه ، وقد تم له ذلك وفق الشروط الأولى التى أبرمها مع أهل  
اللانقية ، وهى شروط نصت على أن يسلموه بلدهم من غير معارضة  
فى نفس اليوم الذى يتمكن فيه من فتح أفامية .

ويقال ان مؤسس هاتين المدينتين الشهيرتين هو « أنتيوكس بن  
سلوقس » الذى سماهما باسمى ابنتيه « أفاما » « ولازكيا » . وإذا  
كانت هناك لانقية أخرى معدودة بين مدن آسيا الصغرى السبعة فأننا  
نتكلم الآن عن مدينة لانقية الشام التى يشير إليها القديس يوحنا فى  
سفر الرؤيا (١١) ان يقول : « والذى تراه كتب فى كتاب وأرسل الى  
السبع الكنائس ( التى فى آسيا ) الى افسس والى سميرنا ، والى  
برخامس . والى ثياتيرا ، والى ساردس ، والى فيلادلفيا والى  
لادوكية » .

أما اللانقية الأخرى فقد جعلها الامبراطور « سافيروس »  
مستعمرة حسبا جاء فى تاريخ « أولبيان » الذى يتكلم عنها فى  
موجزه فى فصل جعل عنوانه « احصائيات » فيقول « توجد أيضا  
مستعمرة اللانقية فى سورية وهى التى منحها الامبراطور  
« سافيروس » الحقوق الايطالية مكافاة لها على ما أدته من الخدمات  
أثناء الحرب الأهلية » .

وهكذا استطاع تانكريد - بمعونة الرب - أن ينجز فى حملة  
واحدة عملا كان انجازه يتطلب أياما طويلة ، وكسب فى مرة واحدة  
مدينتين تتبع كلا منهما مناطق شاسعة ، ذات قرى حصينة ، وحقول  
واسعة ، والحق أن تانكريد كان رجلا يحب الله ، وكان مشهورا

---

(١١) رؤيا يوحنا ١ : ١١ .

بأيمانه ، مذكورا بأعماله البطولية ومحبويا من الناس بسبب خدماته  
الجلى ، ولا جدال فى أن التوفيق كان حليفه فى كل أمر نهض به .

- ٢٤ -

فى هذه الآونة كان بلدوين كونت الرها - صاحب الخصال  
الكريمة والذى خلف الملك فى كونتية الرها - أقول كان بلدوين هذا  
يدير دفة الأمور - فى الناحية التى كانت من نصيبه - إدارة بذل فيها  
بالغ النشاط ولازمه التوفيق العظيم ، مما حمل من حوله من الأعداء  
على خشية جانبه والخوف من سطوته ، ولما كان أعزب لا ولد له ، فقد  
تزوج « مورفيا » ابنة جبريل دوق ملطية الذى أشرنا إليه من قبل ،  
فكان مهرها قدرا كبيرا من المال كان بلدوين فى ميسيس الحاجة إليه .

وكان جبريل أرمنى الملاك واللغة والعادات ، ولكنه يونانى  
المذهب ، وكان الهدوء مستتباً فى أملاك بلدوين ، والسلام يرفرف  
عليها بجناحيه حين قدم لزيارته قريب له من نبلاء قومنا من اقليم  
« جانتينية » واسمه « جوسلين دى كورتنائى » ، وإن كان فقيرا لا يملك  
أرضا ولا مالا فقد أقطعه بلدوين اقطعا شاسعا حتى لا تدفقه الحاجة  
لأن يحس بالغربة فيستجدى الناس ما يمسك عليه حياته .

كان الاقطاع الذى منحه ( كونت الرها ) له يتضمن كل ذلك  
القسم من أملاك بلدوين الخاصة المجاورة لنهر الفرات العظيم ،  
ويضم مدينتى « كوريتيام » و « تولوبا » ، كما يشمل قلاع قل باشر  
وعينتاب وراوندال وغير ذلك من القلاع المنيعة التحصين .  
أما الكونت فقد احتفظ لنفسه بالاقليم الواقع فيما وراء الفرات لأنه  
أقرب ما يكون الى أرض العدو ، كذلك استبقى مدينة واحدة فقط من  
المدن الداخلية اسمها « سميساط » .

\*\*\*



كان جوسلين رجلا أوتي القدر الكبير من المعرفة والحكمة ، شديد التبحر والتدقيق في كل ما يقدم عليه ، فأظهر الحزم البالغ في تصريف شؤنه الخاصة وتدبير أموره ، وكان معيلا لأسرته ، محسنا تجاه أهل بيته ، يسخر في غير اسراف إذا دعت الظروف الى السخاء ، فان لم يكن الأمر كذلك أمسك بيده في اقتصاد ، كما كان شديد الحرص على ما يملك ، وسطا في مأكله ، لا يحفل كثيرا بملبسه ولا بزينة نفسه . ولقد بذل ( جوسلين دي كورتناى ) هذا جهدا صادقا في الحفاظ على ذلك القسم من المقاطعة التي تفضل الكونت الكبير فاقطعه اياما ، حتى صارت تحت يده أشياء كثيرة بوفرة زائدة .

- ٢٥ -

عاد في هذه الأثناء الى أنطاكية بوهميوند أميرها العظيم ، الحميد الصفات ، وكانت عودته اليها بعد أربع سنين قضاهما أسيرا في يد العدو ، ثم لاحظته العناية الالهية فاطلق سراحه بعد ان اقتدى نفسه (١٢) .

ولقى بوهميوند لقاء كله غبطة وفرح من جانب البطريرك ورجال الدين ومن الناس قاطبة ، ذلك لأن اماره ( أنطاكية ) والمملكة كانتا تتطلعان في شوق منذ امد طويل لعودته هذه ، وكان شكره عظيما لقريبه تانكريد حين علم بمدى اخلاصه وبعد نظره في ادارة شئون الامارة التي عهد القوم اليه برعايتها اثناء غياب صاحبها ، وكذلك

(١٢) لقد دفع الغدية عنه كل من كوخ فاسيل الارمنسى ، وبلدوين دي بورج ، وهرنارد أسقف أنطاكية ، ولم يشارك فيها ابن اخته تانكريد ،  
R.B. Yewdale،  
انظر حسبما أشارت الترجمة الانجليزية ،

٤٥١/٢ .

لما عرقه ( بوهيموند ) عن الصورة التي اُدار بها ( تانكريد ) املكه  
في أنطاكية اذ مد حدودها باستيلائه على مدينتين من أعظم  
المدن (١٣) .

وأراد بوهيموند اظهار تقديره لما اداء تانكريد من الخدمات  
ومجازاته عليها احسن الجزاء ، فأقطعه - وورثته - الجزء الأكبر  
من ذلك الاقليم يتوارثونه خلفا عن سلف الى الأبد ، ثم لم يلبث  
الأمير بوهيموند أن عهد اليه بالامارة ، كما سنرى ذلك في  
الصفحات التالية (١٤) .



في خلال هذا الوقت دأب « أرنولف » شماس بيت المقدس  
الأكبر الذي تعددت الاشارة اليه - كالعهد به - على بذر الشقاق  
والبغضاء بين الملك وبين البطريرك « دامبيرت » سعيا منه في اثاره  
النزاع بينهما ، وترتب على ذلك أن أطلت من جديد العدواة القديمة  
التي كانت بينهما (\*) وكانت الظواهر توحى بأنها قد ولت وخمدت .

ونجحت محاولات هذا الفاجر ( أرنولف ) في اثاره غضب  
رجال الدين ضد رجل الرب البطريرك الداعي للسلام ، فتزايد عداؤهم  
نحوه الى حد لم يعد « دامبيرت » قادرا على تحمل ما يتعرض له من  
المضايقة المستمرة ، فغادر كنيسته كما غادر معها في الوقت ذاته  
مدينة القدس ، وخرج فقيرا معدما ، ليس معه من مشير أو مساعد .  
وفر الى الأمير بوهيموند الذي رحب به ترحيبا كريما ، كما تحركت

---

(١٣) أما هاتان المدينتان فهما أفامية واللاذقية .

(١٤) انظر فيما بعد صفحة ٢٥٤ .

(\*) أي بين الملك بلدوين والبطريرك دامبرت .

نفسه عطقا عليه وشفقة به وتذكر أنه كان المسئول الأول عن اعتلاء  
« دامبيرت » كرسى البطركية فى بيت المقدس .

ثم أجرى عليه بوهيموند مرتبا دينيا ضخما حتى لا تضطرب  
الظروف رجل الرب هذا الى العيش عنده تحت ظروف قسيء له  
كرجل له مكانته الجليلة ، فعهد اليه - بعد موافقة « برنارد » بطرك  
أنطاكية - بكنيسة القديس جورج الموجودة أدنى المدينة بكل أراضيتها  
وبخلها الكبير ، وهكذا ظل « دامبيرت » مقيما هناك عند بوهيموند  
حتى مضى الأخير الى « أبوليا » كما سنقص خبر ذلك حالا .

## - ٢٦ -

أما الملك ( بلدوين ) فقد انقاد الى أرنولف الخبيث انقيادا  
ضالا انحرف به عن الخوف من الرب ، فارتكب آثاما جمة فى أعقاب  
نفى « دامبيرت » اذ نصب فى الكرسى البطركى قسيسا فدما ، سقيم  
الفهم وإن كان شديد التقدين اسمه « أبريمار » كان قد جاء مع  
الحملة الأولى ، وعاش حياة مستقيمة لا عوج فيها ولا التواء ، حبيته  
الى قلوب الجميع .

لكنه كان بالنسبة الى ما صار اليه رجلا زمن الفطنة شديد  
الغباء ، وقد بلغ من بلادة الفهم حدا اعتقد معه أنه قادر على وقوف  
الجميع الى جانبه ان اغتصب العرش البطركى فى الوقت الذى لازال  
فيه صاحبه الشرعى على قيد الحياة .



كذلك حدث فى نفس السنة - وهى سنة ١١٠٣ - من مولد  
المسيح ، وعند اقتراب الربيع - أن استدعى الملك جميع قوات المملكة

وخرج بهم محاصرا لعكا ، بعد أن شارك في الاحتفال المقام بالقدس  
بذكرى قيامه السيد .

وتقع مدينة عكا على الساحل في ولاية فينيقية ، وهي إحدى  
المراكز الدينية التابعة لأسقفية « صور » العظيمة ، وقد ساعدها  
وجود مينائها داخل الأسوار وخارجها على أن تكون مرفأ آمينا  
ومرسى هادئا للسفن ، كما أن وجودها بين الجبال والبحر جعلها  
ذات موقع فريد ، هذا الى جانب الثروة الكبيرة التي وفرتها لها  
أراضيها الشاسعة وحقولها الخصبة .

ويجری بالمدينة نهر عين البقر أو نهر بيلوس .

وتقول الأخبار التي وصلت إلينا أن تأسيسها كان على يد  
الشقيقين بطليموس و « عكر » وأنهما حصناها بأسوار من الحجر  
الصلد ، وقسماهما قسمين يسمى كل واحد منهما باسم واحد من  
الأخوين ، وهي لاتزال حتى اليوم معروفة باسمي « بطلمية »  
و « عكا » شأنها في ذلك شأن معظم مدن الشام إذ جرت القاعدة على  
أن يكون لكل منها اسمان ، وقد يزيدان فيكونان ثلاثة أسماء .

ولقد جاء الملك ( بلدوين ) الى هنا مع عسكره ، وأراد  
تطويقها وسد مسالكها لئلا تعز له وتستسلم فعجز عما أراد بسبب  
عدم وجود أسطول عنده ، وإن ذلك اجتث ما حولها من بساتين  
الفاكهة ، وفتك بطائفة من أهلها ، وساق أمامه ما سلبه من قطعان  
الماشية والأغنام التي كانت ترعى خارجها ، فلما فرغ من ذلك كله  
رفع الحصار عنها وأقلب راجعا الى بلده .

ولقد عزم أن يكون رجوعه من طريق قيصرية ، غير أنه لما وصل  
الى مكان اسمه « بترانكيسا » قرب صور القديمة بين « كفر ناعوم »  
و « دورا » المعروفة اليوم باسم المجاز ، أقول لما وصل الى هنا

شاءت الصدفة أن تطلع عليه طائفة من قطاع الطرق والشطار كانوا مختفين في إحدى الغابات ، فهاجمهم الملك هجوما عنيفا حتى أهلك منهم نفرا غير قليل وفر منه بقيتهم ، غير أن أحدهم قذف - وهو يجرى - خنجرا شاء سوء الطالع أن يصيب الملك في ظهره ، وينفذ من ضلوعه قرب قلبه ، وكادت الرمية أن تصيبه في مقتل لولا عناية الطبيب واستعمالهم المشارط والكي بالنار مما رد عليه أخيرا بعض صحته ، ولكنه ظل على الدوام يشكو الألم يعاوده من هذا الجرح في أوقات معينة .

## - ٢٧ -

في هذه الأثناء قام ريموند كونت تولوز الطبيب الذكر والرجل العظيم المبجل والصادق في تقواه بغزو المدينة المعروفة باسم طرطوس ، كما أظهر بالغ الجد وجم النشاط في مد رقعة أملاكه فيما حولها .

ولما كان حريصا كل الحرص على اتخاذ كل السبل المؤدية الى استئصال شافة خصوم المسيحيين من تلك البلاد فقد شيد حصنا على تل مواجه لمدينة طرابلس ، وأن بعد عنها قرابة ميلين .

ولما كان الحجاج هم الذين شيدوا هذه البناية فقد سماها الكونت اسما يعيد الى الأذهان ذلك الحدث ، ليعرف دائما باسم تل الحجاج ، ولا يزال هذا الاسم باقيا حتى اليوم .

وقد أسفر موقع قلعة تل الحجاج الطبيعي ومهارة بنائها الى جعلها مكانا حصينا ، فكان ريموند يشن في كل يوم تقريرا هجمات يقض بها مضاجع سكان طرابلس ، وترتب على هذه المضايقات المستمرة أن اضطر أهالي الناحية - بل وسكان المدينة ذاتها - الى دفع جزية سنوية له مع اظهارهم الطاعة له والامتثال

لأمره فى كل الأحوال كما لو كان هو وحده مالك المدينة لا ينازعه  
فى حكومتها منازع •

وفى هذا الموضع أنجبت له زوجته - وكانت امرأة تقيّة ورعة -  
ولدا أطلق عليه الاسم العائلى القديم « الفونس » ، وهو الذى خلف  
أباه قيما بعد وعرف بكونت تولوز •

## - ٢٨ -

ولما كان شهر مايو من عام ١١٠٤ من مولد المسيح حشد بلدوين  
كل قوى شعبه من أدناهم قدرا الى أرفعهم مكانة ، وأسرع لحصار  
مدينة عكا للمرة الثانية ، واغتتم فرصة ميمونة الطالع اذ كان قد  
وصل الى بلاد الشام - فى هذه اللحظة بالذات - أسطول جنوى  
مؤلف من سبعين مركبا مدببة (١٥) يسمونها بالشوانى ، فما كان الملك  
يعلم بوصولها حتى بعث رسالة الى قادة الأسطول يدعهم فيها  
بلهجة ودية للمحاربة من أجل المسيح قبل أوبتهم الى ديارهم ، ولقت  
نظرهم الى المثل الطيب الذى ضربه من قبل سابقوهم من بنى جلدتهم  
الذين كانت حماستهم للعمل خير مساعد للمملكة فى الاستيلاء على  
مدينة قيسرية ، وبذلك جنى مواطنو جنوة بهذا العمل المجد الخالد  
بجانب مكسبهم الدنيوى •

وتم الوصول الى اتفاق مع هؤلاء الناس بفضل الجهد الكبير  
الذى بذله الوسطاء الأذكىاء الدبلوماسيون الذين آلوا على أنفسهم  
الا أن تنجح هذه المفاوضات التى نصت على أن يكون للجنوية على  
الدوام ثلث العائد وثلث الضرائب والمكوس التى تجبى فى ميناء

---

(١٥) راجع السفن الاسلامية على حروف المعجم للدكتور درويش  
النخيلى ، ص ٨٤ •

عكا مما يفرض على الواردات التي يحملها القادمون إليها بحرا ،  
هذا بالإضافة الى منحهم كنيسة لهم بالمدينة ، وتكون لهم السيطرة  
الشرعية التامة على شارع واحد من شوارعها ، ويقوم الجنوية ازاء  
ذلك بالمساعدة الجدية فى الاستيلاء على المدينة المذكورة .

وبدت هذه الشروط مقبولة لدى الملك وكبار رجاله ، فأقسم  
الطرفان الايمان تأكيدا لهذا الاتفاق ، وصدر الأمر بكتابتها لتبقى  
على الدوام وثيقة محفوظة .



ولما جاء اليوم المحدد حاصر الجنوية عكا من ناحية البحر ،  
كما ضرب الملك عليها الحصار بعسكره الذى أحاط بها حتى استحال  
الخروج منها أو الدخول إليها ، وابتلى أهلها بما لا يحصى من  
الأمراض التى تصاحب الحصار .

ولما كانت رغبة الملك فى تحطيم العدو قائمه وضع حول المدينة  
آلات تفننت عبقرية الخبراء الخصبه فى استنباطها ، كما أقاموا  
أبراجا راحت ترمى المدينة بالأحجار الثقيلة التى أدى استمرار  
تساقطها الى زلزلة الحصون ، بل وإلى هدم بعض المباني الموجودة  
داخل المدينة ذاتها .

وأصاب الأهالى أرهاق شديد من جراء القتال المستمر يراوهم  
به الأسطول القائم بحراسة الشواطئ ، ويفاديهم به جيش الملك  
الرابض على اليابسة ، كما تضاعف عدد الأهالى بسبب الأموال التى  
أهلكت الكثير من المدافعين ، حتى وجد العدو نفسه فى موقف يجعل  
استمراره فى الصمود فى وجه محاصريه أمرا شاقا ، ومن ثم لم  
يعد ثم مناص أمامهم من الاستسلام ، فاستسلمت المدينة للملك بعد

عشرين يوماً سوياً بذل فيها المحاربون الصليبيون كل جهدهم في مهاجمة المارقين الذين أظهروا نفس الجهد في المقاومة .

وكانت شروط التسليم التي فرضت على الأهالي هي السماح لمن يريدون ترك المدينة بالخروج والذهاب حيثما شاءوا ، مع ضمان سلامة أرواحهم ومن معهم من حريمهم وصغارهم وما ملكت أيديهم من المتاع ، أما غيرهم الذين يؤثرون البقاء في دورهم ولا يحبون ترك أرضهم التي درجوا عليها فقد حق لهم العيش بظروف ملائمة ، لقاء دفعهم مبلغاً معيناً إلى الملك كل سنة .

لم تكن المدينة تصبح في حوزة الملك حتى يخصص أملاكاً ومساكن للجنوية لقاء الخدمات التي أداها كل واحد منهم ، وهكذا توفر - ولأول مرة - وجود مدخل آمن للذين يصلون عن طريق البحر ، كما توفر لهم مرسى أمين ، وتحرر الساحل - إلى حد ما - من هجمات العدو .

- ٢٩ -

في هذه السنة ذاتها قام بوهيموند واستصحب معه جميع من لهم الصدارة في إمارته ، كما استصحب تانكريد وبلدوين كونت الرها وقريبه جوسلين ، وانضم بعضهم إلى بعض ، وانعقد أجمعهم على عبور الفرات ومحاصرة مدينة « حران » القريبة من الرها التي كان المارقون قد احتلوها ، ونشط كل أمير حسب هذا الاتفاق المبرم بينهم وراح يجمع عسكر بلاده ، وفعل مثله من جاوره من حلفائه ، حتى إذا كان اليوم المحدد للزحف عبروا نهر الفرات وبلغوا الرها .

وساهم في هذه الحملة المشثومة ثلاثة من رجال الكنييسة الموقرين ممن يهتدى الناس بهديهم ، هم « برنارد » بطرك أنطاكية



« ودامبيرت » بطرك القدس اللاجئ الشريد الذى كان يعيش اذ ذاك  
فى انطاكية ، وأخيرا « بندكت » رئيس أساقفة الرها •

ولما كان هؤلاء القادة كلهم قد اجمعوا العزم على تنفيذ  
مشروعهم فقد اجتمعوا فى المدينة المشار اليها ، وتقدموا على رأس  
فيالقهم نحو مكانهم المقصود •



ونعرف من التواريخ القديمة أن « حران » هى الناحية التى  
قاد « تارح » اليها « ابراهيم ابنه ، ولوط بن هارات حفيده » حينما  
تركوا « أور » مدينة الكلدانيين ومضوا ليعيشوا فى أرض كنعان  
كما هو وارد فى سفر التكوين (١٦) ، وهناك مات « تارح » ، كما تلقى  
ابراهيم أمر ربه ليرك أرضه وعشيرته ويتبع ما وعد به الرب •

وهذا هو نفس المكان الذى أرغم فيه البارثيون الطاساغية  
الرومانى « كراسوس » ، على أن « يشرب » الذهب الذى كان شرها  
فى جمعه كل الشراهة •

وحالما بلغ القادة مدينة حران حاصروها من قرب كبير حسبما  
اتفقوا عليه منذ البداية ، غير أنهم كانوا فى مسيس الحاجة للاغارة  
على الناحية المجاورة لقلة ما فى المدينة من المثونة بل لانعدامها ،  
وكان من الضروري اتخاذ بعض الوسائل لمنع المحصورين من مغادرة  
المدينة أو الدخول اليها •

---

(١٦) التكوين ، ١١ : ٢٨ ، ١٢ : ٢ •

وتتلخص حاجتهم الى الطعام فيما يلى : ذلك ان بلدوين كان قد اخذ نفسه اخذا شديدا قبل ذلك بزمان طويل بالتفتيش عن طريقة ما تؤدى بمواطنى البلد الى هذه القرية ، حتى اذا اشتدت عليهم وطاة الجوع لم يجدوا مناصا من تسليم المدينة ، ورأى الطريقة المثلى لانجاز الخطة فيما يلى : أنه نظر فرأى ان كلا من الرها وحران تبعد عن الأخرى مايقرب من أربعة عشر ميلا ، وبينهما نهر تستخدم مياهه التى تجرى فى القنوات فى رى السهل المجاور وتجعله شديد الخصوبة يغل غلة وفيرة ، ورأى ان العرف جرى منذ زمن بعيد على ان يكون كل ما تنتجه الأراضى الواقعة على هذا الجانب من النهر وفقا على أهالى الرها لا ينازعهم فيه منازع ، أما ما يزرع فى الحقول الواقعة وراء النهر فكان لسكان حران .

وعرف بلدوين انعدام ورود أية مواد غذائية الى الأعداء من الخارج ، مما يفرض عليهم الاعتماد فى كل طعامهم على ما تخرجه هذه الأرض المشتركة بين البلدين ، لذلك أثر أن يتحمل هو نفسه الضيق والا يسمح للأعداء بالعيش على هذه الحقول المشتركة ، وهم الذين لا يستطيعون الحصول على احتياجاتهم الغذائية من أى مكان آخر ، لذلك ظل امدا طويلا يراوهم ويغاديهم بالمغارات المتكررة حتى تمكن من منعهم من زراعة أرضهم ، وكان يأمل بل ويعتقد انه سيكون قادرا على الحصول على المؤونة الوفيرة لشعبه من الاقليم الواقع وراء الفرات ، وكذلك من الناحية القائمة بين الرها وبين ذلك النهر ، كما كان يعتقد انه اذا حرم الأهالى من المؤونة التى ألفوا الحصول عليها من المزارع المشتركة أهلكتهم الحاجة والموتيرة ، وظل بلدوين - طوال بضع سنوات - يحرمهم من زراعة هذه الحقول مما ترتب عليه أن وجد المحصورون أنفسهم كما قلنا فى أشد حالات السوء بسبب حاجتهم للطعام ، ولما كان الأهالى يتوقعون منذ زمن

بعيد قدوم الصليبيين عليهم فأنهم بعثوا بالكتب وأنفذوا الرسل الى  
أمراء المشرق يسألونهم المبادرة الى اسعافهم على جناح السرعة ،  
والا فلا مناص لهم من الاستسلام ، غير أن وطأة المجاعة راحت  
تشدد عليهم يوما بعد يوم ، كما خبا رجاؤهم في نجدة تأتيهم من  
ناحية الأمراء الذين استنجدوا بهم ، ولذلك راحوا يتشاورون فيما  
بينهم عما يفعلون ، فقر رأيهم على أن يسلموا المدينة ( للصليبيين )  
فذلك أجدى عليهم من أن يموتوا جوعا وراء أسوارها •

### - ٣٠ -

حينما اتفق الأهالي على اتخاذ هذا القرار خرجوا وسلموا  
المدينة لحاصريهم دون قيد أو شرط • غير أنه شب في هذه اللحظة  
الحرجة شقاق منكود بين القادة ( الصليبيين ) بسبب غيرة بعضهم  
من بعض ، ذلك أن الأمير بوهيموند وكونت بولدوين نازح كل منهما  
الآخر : أيهما يتسلم المدينة ، وأيهما تتقدم رأيته الناس عند دخولهم  
أيها ، وترتب على هذا الشقاق أن تأخر دخولهم ، وتأجل تسلمهم  
أيها الى الغد ليتاح لهم الوقت الكافي للتفكير العميق في هذه  
المسألة التافهة • وهكذا أثبتت لهم التجربة صحة المثل القائل « ان  
التواني يجر في أذياله الخطر » وكذلك المثل الآخر « اذا هبت رياحك  
فاغتنمها فان الهلاك في التأخير » ، ذلك أنه حدث قبل انبثاق فجر  
اليوم التالي أن وصل حشد ضخم من الأعداء الأتراك ، وكان حشدا  
كثيفا وقويا ، فما كاد الصليبيون يرونه حتى ساورهم الشك في  
قدرتهم بل يئسوا من انقاذ أنفسهم •

وجاءت النجدات حاملة معها كميات وفيرة من المؤونة ، كما دل  
( أهل البلد ) حسن تبصرهم على خطة حكيمة هي تقسيم كتائبهم  
الى فريقين ، يشترك واحد منهما مع الصليبيين دون اعتبار لما ينجم

عن هذا الاشتباك من نصر أو هلاك ، أما الفريق الآخر فيقوم بتزويد  
المدينة بالثؤنة .

وتم تنفيذ هذه الخطة على الوجه الأكمل ، إذ ما كادت تلوح  
فى الأفق طلائع النهار حتى رتب العدو عسكره للقتال ، وأعد صفوفه  
كما لو كانت المعركة ستتشب فى لحظتهم هذه ، وأوقفوا الذين عهد  
اليهم بحفظ المتاع بعيدين عن غيرهم بعض الشيء .

ورغم ما كان يبدو من تأهب الكفار للقتال إلا أن أملهم فى  
النصر أو حتى الصمود طويلا كان أملا واهيا ، ومن ثم كان هدفهم  
الوحيد هو شغل الصليبيين بالقتال حتى يتم نقل الثؤنة الى المدينة  
المحصرة ، فلما شاهد قوادنا العدو يستعد هذا الاستعداد قاموا  
هم بدورهم فصقوا صفوفهم تأهبا للحرب ، وانطلق البطركان بين  
الجند يشدان من عزائمهم ، فلم يؤت مجهودهما ثمرته لأن رحمة  
الرب باينتهم ، إذ ما كاد الجانبان يصطدم الواحد منهما بالآخر  
حتى صارت اليد العليا للعدو فقد ولاه الصليبيون اكتافهم وفروا  
على أشنع صورة من الفرار ، وتركوا وراءهم معسكرهم بكل ما  
اشتمل عليه ، ولم يعد يشغل بالهم سوى النجاة بأنفسهم ، لكن لم تقدر  
لهم النجاة ، فقد نحى الكفار عنهم أقواسهم التى اعتادوا الحرب  
بها وقاتلوا بسيوفهم ، واشتبكوا بالأيدى فدارت الدائرة على  
المسيحيين حتى فنوا عن بكرة أبيهم ، ووقع فى الأسر كونت الرها  
وقريية جوسلين فحملهم العدو الى ناحية قاصية جدا من بلاده .

أما يوهيموند وتانكريد والبطركان فقد فروا من المعركة ،  
وان كانت رحاما لاتزال دائرة ، وسلكوا دروبا ملتوية أوصلتهم الى  
الرها سالمين .

أما رئيس أساقفة الرها - ولم تكن له خبرة بالقتال - فقد  
أسر مع من أسر من الجند فزاد عدد الأسرى ، لكن شاءت الصدفة  
له أن يقع في يد مسيحي ما كاد يعرف شخصيته حتى تعطف عليه  
وساعده على الهروب سالماً ، رغم أنه كان بذلك العمل يعرض نفسه  
للهلاك ، وقد تمكن هذا الأسقف - بعد بضعة أيام وبرعاية الله -  
أن يصل إلى الرها فكانت الفرحة به عظيمة .



كان أمير انطاكية لا يزال في الرها عندما بلغه خبر وقوع  
الكونت في الأسر جزاء خطاياه ، فرأى الأمير - ووافق الرهاويون -  
على ما رأى - أن يعهد بالرها والمنطقة كلها إلى رعاية تانكريد مع  
الاشتراط عليه برد حكومتها - من غير معارضة - إلى الكونت حال  
إطلاق سراحه ، وأن يقوم بوهيموند بالحفاظ على أرض جوسلين .

ولم يحدث أبداً أن قرأنا قبل هذا الحادث أو بعده عن معركة  
بلغت من الشؤم ما بلغت هذه المعركة التي أسفرت عن مصرع رجال  
أبطال كهؤلاء الرجال ، ولا سمعنا عن مثل هذا الفرار المشين الذي  
لحق بجيشنا .



**هنا ينتهي الكتاب العاشر**

## الكتاب الحادى عشر

### خاتمة عهد بلدوين الأول وفتوحات أخرى بالقدس وأنطاكية

#### فصول الكتاب الحادى عشر :

- ١ - بوهيموند - امير أنطاكية - يعهد ببعض شئون امارته الى تانكريد ويسرع الى فرنسا ويتزوج من ابنة ملك الفرنجة اما دالمبيرت - بطرك بيت المقدس - فيذهب الى رومة . بلدوين الملك يهجر زوجته الشرعية دون مبرر شرعى .
- ٢ - وفاة ريموند كونت تولوز وتولى وليم جوردان ابن أخيه مكانه ، رضوان أحد الولاة الأتراك الأقوياء يغزو أقاليمنا فيها جمعه تانكريد ويرغمه على الفرار فى غير انتظام .
- ٣ - اغارة المصريين على المملكة بجيش ضخم واشتباك الملك معهم فى القتال وقتله الكثيرين منهم وأسره غيرهم وارغامه الباقين على الفرار .

٤ - وفاة البطرك دامبيرت فى مسينا بصقلية وهو فى رحلة العودة ومعه كتاب بابوى ، واذ ذاك يسرع ابريمار - مغتصب مقعده - الى رومة ويوفد البابا رئيس اساقفة آرايس المدعو جبيلين الى القدس كنائب له ثم يتم بعدئذ تنصيبه بطركا .

٥ - النبيل هيج دى سنت أومير - صاحب طبرية - يشيد قلعة فى الجبل المطل على المدينة ويسميتها بقلعة تورون ، على انه لا يلبث ان يصاب بجروح مميتة وهو يحارب الدماشقة ثم يختفى وان كان منتصرا . أما العسقلانيون فيحاولون عمل كائن لرجالنا ولكنهم يقعون فيها .

٦ - بوهيموند يعود من فرنسا الى ابوليا على رأس قوة كبيرة ويدخل بلاد اليونان للنهب ، ولكن يوافيه أجله وهو يتأهب للعودة الى سورية ويخلف وراءه ولدا له اسمه بوهيموند ( الذى يعرف بالثانى ) .

٧ - مجيء جيوش تركية قوية من الشرق فى محاولة منها للاستيلاء على كونتية الرها ، لكن تانكريد يستبسل فى دفعهم ويمدده الملك بالنجدة .

٨ - بلدوين كونت الرها وجوسلين يعودان من أسر العدو لهما ويشنان الحرب ضد تانكريد .

٩ - برترام - بن كونت تولوز - يصل الى الشام مع أسطول الجنوبية راجيا أن يخلف أباه ، ولكن وليم جوردان يابى عليه ذلك ثم يصل الخبر بسقوط جبيل .

١٠ - الملك بولديوين يسرع الى مدينة طرابلس ويستمر فرض الحصار العنيف عليها حتى تستسلم .

١١ - ذهاب بلدوين كونت الرها الى ملطية لزيارة جبريل حمية ونجاحه في مشروعه الكبير .

١٢ - رفع مكانة كنيسة بيت لحم الى مرتبة الكاتدرائية بفضل جهود الملك الكبيرة .

١٣ - فرض الحصار على بيروت برا وبحرا والاستيلاء عليها في الشهر الثاني من الحصار .

١٤ - وصول أسطول من الدانيماركيين والنرويجيين الى بلاد الشام فيستطيع الملك بمساعدتهم اياه محاصرة صيدا والاستيلاء عليها . ذكر خبر نجات الملك من القتل باعجوبة .

١٥ - وفاة جبلين بطرك بيت المقدس وتولى الخسيس الكافر أرناؤف مكانه .

١٦ - أحد الجيوش التركية القادمة من الشرق يهاجم مدينة أنطاكية بقوات ضخمة لكن تانكريد يتصدى لهم بشدة ويساعده في ذلك برترام كونت طرابلس .

١٧ - فرض الحصار على صور لكن الأهالي يبالغون في تحصينها مما يؤدي الى فشل محاصريها .

١٨ - موت تانكريد وتركه الامارة لروجر بن ريشارد .

١٩ - مودود - أحد الأمراء الأتراك الأقوياء - يهاجم المملكة فينهض اليه الملك بلدوين بقوة ضخمة وتنشب معركة تدور فيها الدائرة على الملك ، واذ ذاك يجتاح مودود الناحية كلها اجتياحا لا قبل لأحد باحتماله .



- ٢٠ - العسقلانيون يغيرون على بيت المقدس لكن تنتهي غاراتهم بتعطيم قواتهم فيعودون الى بلدهم .
- ٢١ - ( ادليد ) كونتييسة صقلية ترسو في ميناء عكا وتصبح زوجة الملك .
- ٢٢ - المجاعة الفظيعة تجتاح ارض الرها ، وكنت بلدوين يلقى القبض على قريبه جوسلين ويرغمه قسرا على مغادرة البلاد بأجمعها .
- ٢٣ - حدوث زلزال كبير يهز اركان انطاكية ويقوم برسق - الوالى التركى الشديد البأس - بالعيث فسادا فيها .
- ٢٤ - العسقلانيون يحاصرون يافا ولكن اقتراب الملك بيت الفزع فى قلوبهم فيعودون من حيث جاءوا دون أن يحققوا هدفهم .
- ٢٥ - برسق يعيث فسادا مرة ثانية فى ارض انطاكية فيقوم لصدده الأمير روجر بحلفائه ويشنت شمل عسكره ويرغمه على الفرار .
- ٢٦ - اتهام ارنولف البطررك بكثير من الأعمال المستنكرة وذهابه الى رومة . قيام الملك ( بلدوين الأول ) ببناء قلعة فى سوريا الجنوبية وراء نهر الأردن ويسمىها بحصن مونريال .
- ٢٧ - نظرا لقلّة السكان فى المدينة المقدسة فان الملك ( بلدوين ) يجلب المسيحيين السوريين من الاراضى العربية ( الى القدس ) ويمنحهم دورا يقيمون فيها ويعتبرهم سكان المدينة .
- ٢٨ - الملك يطلب من البابا - نزولا على اقتراح رجال الدين - أن يجعل جميع المدن التى فتحها خاضعة لكنيسة بيت المقدس وارسال صور من هذا الكتاب حول هذا الموضوع .

\*\*\*

هنا يبدأ

## الكتاب الحادى عشر

### خاتمة عهد بلدوين الأول وضم فتوحات جديدة للقدس وأنطاكية

- ١ -

حينما انصرم الصيف أبحر بوهموند الى أبوليا مستصحبا معه « دامبيرت » بطرك بيت المقدس ، ولما كان السوق ممتلئا بالديون الباهظة فقد طمع أن يحصل أثناء وجوده فى البلاد الواقعة وراء البحر على قدر من المال يكفى لسداد ديونه ثم يكر راجعا بامدادات من الفرسان ، وعهد بإدارة دفة شئون أمارته فى أثناء غيابه وتصريف أمورها العامة الى قريبه الحبيب تانكريد ، واضعا فى يده كل ماله من السلطان .

ولما وصل الى وطنه « أبوليا » لم يطل مكثه به سوى فترة وجيزة عبر بعدها جبال الألب فى صحبة نفر كرام من أتباعه الأوفياء

حتى جاء الى بلاط فيليب ملك الفرنجة العظيم ، الذى كان من بين انعاماته الجمة عليه اثنتان من بناته ، احدهما ابنته الشرعية « كونسنتانس » التى تزوجها الأمير بوهيموند ، وأما الثانية « قسيسيليا » التى بعث بها بوهيموند من أبوليا الى تانكريد ابن أخته لتكون زوجة له ، وكانت هذه هى ابنة كونتييسة « أنجو » التى هجرت زوجها من أجل فيليب ، فأنجبت له هذه الابنة ، بينما كانت زوجته ( الشرعية ) لاتزال على قيد الحياة .

وبعد أن أنجز بوهيموند شؤنه مع الملك فيليب ورتب أموره فى الأراضى الأخرى فيما وراء الجبل عاد الى « أبوليا » ومعه رهط كبير من الفرسان والمشاة الذين أرادوا الحج بحرا .



أما « دامبيرت » فقد مضى الى كنيسة رومة حيث كشف عن كل ما كادته من الأهوال ، وما صادفه من المتاعب ، كما فصل فى الوقت ذاته نجاح المكيدة التى دبرها « أنولف » وأسقط القناع عن هدف الملك الكريه فى محاولته الحط من قدر كنيسة الرب ، واستطاعت قصة البطرك أن تستقطب شفقة الجميع عليه ، وأكسبته عطف الكل ، كذلك بين أن الملك لم يكتف بما أشررت اليه من ارتكابه الجريمة البشعة فى حق « دامبيرت » ، وهى جريمة تشجيعها تعاليم الكنيسة بل أنه زاد الطين بلة حين أبعد زوجته الشرعية التى اقترن بها فى الرها وقت أن كان كونتها ، فكان بهذا العمل مسستويها بحقوق الزوجية ، متجاهلا مراسيم الشرع حين أرغما - وهى لم تقترف جرما ولم تقارف اثما - بأن تترهب فى دير القديسة « حنة » جدة المسيح لأمه مريم البتول ، البراة من كل نقيصة ، وكان هذا الدير واقعا فى الناحية الشرقية من بيت القدس قرب باب « يهوشافاط » وتتاخمه البحيرة التى كانت تعرف فى الأزمنة القديمة ببركة الضان ،

ولا يزال هناك حتى اليوم كهف ظاهر للعيان تقول الأخبار القديمة أن  
يواقيم وحنة عاشا به ، كما ولدت به العذراء المبراة من كل دنس ،  
وتقيم في هذا الدير ثلاث أو أربع نسوة فقيرات ، يمارسن الحياة  
الدينية ، فزاد الملك من أملاكهن ووسع من أوقافهن حتى يضم زوجته  
اليهن .

وتتعدد الروايات وتتفرع حول سبب انفصال بلديون عن امراته ،  
فيقول بعضها أن الملك أبعداها ليتزوج من أخرى أكثر منها مالا وأرفع  
مكانة ، فاستطاع بذلك اصلاح حاله وإنقاذ نفسه من الفقر الذي  
أناخ عليه ، والذي كان يرزح هو تحته لأنه كان يسعى للحصول على  
المال من غيرها تحت اسم « المهر » .

ويقول آخرون أن الملكة لم تكن متصاونة ، بل كانت متهاونة  
في مراعاة روابط الزوجية فأثارت بذلك غضب رجلها عليها ، ويبدو  
أنها رحبت بادئ ذي بدء بردها إلى رحاب الدين ، وعاشت في  
عهدا الأول من ممارستها الرهبنة في ذلك الدير حياة شريفة في  
كل مظاهرها ، ولكنها تلمست أخيرا القرصة المواتية للتقرب من  
الملك ، وأنها حصلت - بتعلات زائفة - على الأذن لها بزيارة بعض  
ذوى قرباها ممن يعيشون في القسطنطينية بحجة رغبتها في الحصول  
على مال تبذله لتتخذ مجتمعها الذي تعيش فيه من فقره ، فغادرت  
الملكة بهذه الحجة ، غير أنها لم تلبث أن تخلت عن حياتها الدينية ،  
وأسلمت نفسها لحياة قذرة داعرة ، ولم تلق بالا إلى سمعتها ولا إلى  
مكانتها كملكة سابقة ، فمارست الزنى مع كل من صادفتها .

- ٢ -

ولما كان اليوم الأخير من شهر فبراير من السنة التالية عام  
١١٠٥ من مولد سيدنا ، مات ريموند كونت تولوز الخالد الذكر ،

وقد وافاه أجله أثناء وجوده بالقلعة التي شيدها أمام طرابلس ،  
وسماها بقلعة جبل الحجاج ، وكان الكونت رجلا متدينا يخشى  
الرب ، صادق الايمان بالمسيح ، أهلا للثناء من كل ناحية ، كما أن  
بطولاته وحياته تستحق كتابا خاصا .

وقد خلفه ابن أخيه وليم جوربدان الذي تابع حصار طرابلس  
بنفس حماسة عمه ، وكرس نفسه للعمل بعزيمة جبارة حتى جاء  
كونت « برترام » ، لكن مالبت الاثنان أن تنازعا الأمر بينهما فترأخى  
« وليم جوربدان » عن جهوده بعض الشيء كما سنذكر حالا .

إننا نعتقد أنه ينبغي أن تكون مثابرة الموقر ريموند (كونت تولوز)  
على العمل وشجاعته موضع إعجاب وثناء ، ليس من الجيل الحاضر  
فحسب ، بل ومن الأجيال القادمة أيضا ، ذلك أنه منذ أن نهض بالحج  
من أجل المسيح ظل في طريقه هذا حتى آخر يوم من أيام حياته ،  
متمسكا بالصبر والعزم ، ولقد كان في وطنه رجلا بارزا شديدا  
السطوة ، يملك مقاطعات شاسعة المساحة ورثها عن أسلافه ، ولم  
يكن ثم شيء يرغب فيه إلا ووجد الكثير منه متوقفا بين يديه ، لكنه  
آثر - رغم ذلك كله - أن يهجر بلاده ويخلف أهله طاعة للرب ،  
مفضلا ذلك على أن يعيش منعما بين قومه تحت مظلة الخطاة ، ولما  
تم استرداد بيت المقدس شعر القادة الآخرون الذين ساهموا في حملة  
الحج هذه أنهم أنجزوا ما كانوا يرغبون فيه ، ومن ثم عادوا إلى  
بلادهم ، لم يشذ عنهم سواه فإنه منذ أن حمل الصليب كان يخشى  
أن يخليه جانبا ، حتى حين ألح عليه خاصة أصحابه ورجال من أهل  
بيته - أن يرجع إلى الديار التي طال شوقها إليه وتطلعت إلى  
عودته ، لاسيما وقد أوفى بيمينه التي أقسمها ، ويعهده الذي قضاها  
على نفسه ألا أنه آثر أن يقدم روحه قربانا للمسيح بدلا من أن يعود  
ليعب من ملذات الدنيا ، وكان في ذلك العمل مقتنيا خطى مولاته

الذى قالوا له « أنزل من على الصليب ، ففضل - حتى بعد انتهاء  
آلامه - أن ينزل على أيدي الأغراب من أن يفشل فى العمل الذى قام  
به لافتدائنا »



وفى نفس هذه السنة أيضا قام صاحب حلب القوي الأمير  
رضوان بجمع الامدادات من البلاد المجاورة له ، اما بالاتفاق معهم أو  
يبذل المال لهم ، ودخل أرض انطاكية بجيش كالدنيا كثرة ، فبث  
الذعر فى الاقليم كله بغاراته المتعددة ، وكثرة ما أضرم من الحرائق  
التي كانت تأتي على كل شيء ، فلما علم تانكريد بذلك استدعى  
اليه فرسانه ومشاته وزحف بهم على الناحية التي انتفتحت الأخبار  
كلها على وجود جيش رضوان بها ، وخرج تانكريد من انطاكية وسار  
بجيشه الى « ارتاح » وتأكد له صدق ما وافته به الأخبار ، اذ وجد  
جموعا كثيرة قد تجمعت هناك ، فتوجه أول ما توجه الى السماء  
يرجوها العون الذى جاءه جزاء حسناته ، ثم كركرة صدق على العدو  
الذى قاوم بعض الوقت فى بداية الأمر ، لكن مالبتت صفوفه أن  
تصدعت ، وانفرط عقد عسكره ، فلابوا بأذيال الفرار ، ووقع  
الكثيرون منهم فى الأسر - وقتل منهم مالا يكاد يحصيه العد ، هذا  
الى جانب رايات رضوان التي أخذها تانكريد واحتفظ بها ، وكان  
أول الفارين الأمير رضوان نفسه ، وقد فعل ذلك حرصا منه على  
حياته .

ولقد أثلج هذا النصر قلوب رجالنا كثيرا ، وانشجرت له  
صدورهم ، فقد اعتبروه تعويضا لهم عن خسائرتهم المتكررة فى  
معارك مشابهة لهذه المعركة ، كما أنهم غنموا كثيرا من أحسن جيا  
العدو بعد سقوط أصحابها عنها .

وحدث في السنة ذاتها أن جاء إلى خليفة مصر نفر من كبار رجال دولته وقالوا له : « أن هذا الرمح من الحجاج الذين هاجموا أخيراً مملكتك بالقوة وكانوا غير عابئين بالحياة ، قد نجحوا في الثبات في وجه قوادك الذين أرسلتهم ضدهم ، وكان انتصارهم قى هذا الهجوم بسبب اعتمادهم على الأعداد الكثيرة من جيوشهم الأولى التي جاءت إلى المشرق ، أما الآن فقد عاد معظم هؤلاء إلى أوطانهم مما تضاعف معه عدد البقية الباقية منهم تضاعفاً كبيراً ، كما انقطع عن هؤلاء ترادف الإمدادات عليهم من الحجاج ، وأدت الهجمات المتعددة عليهم إلى انهالكهم غاية الانهالك ، ومن ثم فالرأي عندنا أن الفرصة حواتية لنا - أن انتم يامولانا ، باختيار قائد من كبار رجالكم تبعثونه لتخليص البلاد التي هي الآن في قبضة ذلك الشعب المنكود » .

وافقت هذه الكلمات هي في نفس الخليفة واستصوبها ، فأمر بجمع عسكر كثير ، وتهيئة أسطول ضخم وجعل على كل جيش من الجيوش قواداً مختارين ، وأرسلهم إلى بلاد الشام ، فبث وصولهم إلى عسقلان الفزع في كل الاقليم .

ما كانت أخبار هذه الحملة تصل إلى سميع الملك بلدوين حتى بادر بالزحف إلى يافا على رأس جيش المملكة بأجمعه ، وزاد على ذلك بأن أصدر مرسوماً واجب النفاذ يأمر فيه قوات كل مدينة بالتجمع في يافا دون تلكؤ ، فاستجابوا له سراعاً ، كما جاء من غيرهم « أبريمار » بطرك بيت المقدس ، حاملاً معه خشية الصليب الشافى الواهب الحياة :

زاد عدد قواتنا بوصول هذه الامدادات حتى صار عندنا  
خمسمائة فارس و ألفا جندي من المشاة ، كما قيل ان العدو كان في  
قوة قاربت خمسة عشر الف مقاتل الى جانب المحاربين الذين  
بالسفن .

ما كاد جيش العدو البرى يخرج من عسقلان حتى صدرت  
الاورامر الى الأسطول بالابحار الى يافا ، فزحف العسكر البرى الى  
« أسدود » حيث انقسموا هناك الى قسمين ، تقدم أحدهما نحو الرملة  
يتحدى الملك أن يخرج للقتال ، على حين مضى القسم الثانى الى  
يافا ، وبينما كان الملك مشغولا بالقسم الأول كان القسم الثانى يتقدم  
لمهاجمة يافا بعد أن استدعى لمساعدته القوات التى كانت قد جاءت  
بحرا ، ومن ثم فقد دخل القسم الأول منطقة الرملة يتقدمه النفع  
في الأبواق وقرع الطبول ، وقد عمدوا الى هذا الأمر لغرض معين  
هو أن يتقدم الجيش الآخر الذى يسير على الساحل فيصل سالما  
الى يافا فى الوقت الذى يكون فيه الأول يغرى الملك وقواته على  
مهاجمته ، ولكن فشلت هذه الخطة لأنه حين اقترب الملك على رأس  
عسكره طارت قلوب المارقين شعاعا وانحل عزمهم ، واستسلموا  
للخوف ، مما حملهم على استدعاء الفريق الآخر لمساعدتهم ، لكن  
لم تقدمهم هذه الامدادات ، فقد أحسوا أنهم ليسوا على قدر من اليأس  
يكفى لنجاتهم من الوقوع فى قبضة الملك الذى هاجم بمن معه من  
الرجال الكتائب المتجمعة ضدهم ، وضغطوا عليهم ضغطا شديدا  
بروح عالية ، ومضى بلديوين فى الوقت ذاته يشجع رجاله بالمقول  
والعمل فتزايد بأسهم ، وأخذ البطرك يسير بين صفوف الجند  
حاملا فى يده الصليب الواهب الحياة ، ومقويا عزيمة المحاربين  
الذين كانوا على وشك النزول الى المعركة ، وداعيا إياهم لأن يتذكروا  
على الدوام من ارتضى أن يموت على الصليب لخلاص الخطاة .



كما راح يحرضهم على الاستبسال فى قتال أعداء المسيح وخصوم دينه ، ليدق لهم أن يطعموا فى غفران خطاياهم وجبها ، ويمنحهم السيد مائة ضعف ما يجازى به خدمه ، فامتألت نفوس الصليبيين حيوية وشجاعة بهذه الكلمات ، وتوجهوا الى السماء يسألونها العون ، وانصبوا فى غضب على الأعداء ، ونجحوا فى قتل عدد كبير منهم ، وأرغموا الباقين على الفرار .

وقتل فى هذا الاشتباك حاكم عسقلان ، أما القائد العام للجيش فقد هرب فنجاً ، ويقال ان قتل الخصى بلغوا فى هذا اليوم حوالى أربعة آلاف شخص ، أما رجالنا فلم يهلك منهم سوى ستين .

وتمكنت قواتنا - برحمة الرب - من الاستحواذ على معسكر العدو فعثروا فيه على قوافل من الجمال والحمير والخيول ، فانتشروا صدورهم بما غنموا ، ثم عادوا أدراجهم الى يافا حاملين معهم اثمن الأسلاب وأغلى الغنائم ، ومستصحبين معهم كثيراً من الأسرى ، وكان من بين من أسروه فى هذا اليوم رجل جليل القدر فى قومه ، كان قد ولى أمر عكا ذات مرة فافتداه قومه فيما بعد من الملك بقدية قدرها عشرون ألف قطعة من الذهب .

وكان أسطول العدو فى هذا الوقت لايزال راسياً فى ميناء يافا ، فما كادت تبلغه أخبار النكبة التى حلت بقواته البرية حتى اغتنم فرصة هبوب ريح جنوبية مواتية وانسحب الى ميناء صور ، غير أن ريحا صرصراً عاتية هبت على هذا الأسطول وهو على وشك الرحيل الى مصر فمزقته فتبدد ، ودفعت خمسا وعشرين من سفنه الى شاطئنا لعجزها عن مقاومة الأمواج العاتية ، فأمسك عسكرينا أكثر من ألفى رجل من بحارته ونوحيته ، كما هلك الكثيرون من رجال العدو غرقاً .

كان « دامبيرت » بطرك بيت المقدس فى هذه الأثناء موجوداً برومة ، وطالت إقامته بها إذ استبقاه البابا « بسكال » والكنيسة الرومانية حتى يتقرر ما إذا كان ملك بيت المقدس ومن أخرجه يتقدمون بأية تهمة ضده يرمونه بها لتبرير شرعية مسلكهم معه ، لكن لم يتقدم أحد منهم باتهامه بما يدينه أو بما يستوجب اللوم عليه من أجله فى هذه القضية ، فعرف وظهر للعيان أن شلح البطررك لم يكن إلا نتيجة غضب ملكى ، ومن ثم زوده « بسكال » برسالة بابوية ورده إلى مكانه ، حافظيا بكل العطف لمتابع أمر بطركيته التى أخرج منها ظلما بغير حق ، فذهب إلى صقلية وظل مقيما بها فى انتظار وسيلة لنقله ، غير أنه أصيب أثناء وجوده هناك بمرض خطير مات منه يوم ٢٦ يونيو ، وكان قد تولى البطرركية مدة أربع سنوات قضاهما فى هدوء ، ثم اتبعها بثلاث أخريات قضاهما فى الملقى .

على أنه قبل وصول الخبر بموت « دامبيرت » كان « ابريمار » مغتصب هذه الوظيفة (١) - قد عزم على الإبحار قاصداً زيارة رومة بعد أن علم أن المعظم « دامبيرت » عائد مرضيا عليه ليتبوأ مكانه الشرعى ، فرغب ( ابريمار ) أن يؤكد تبرئة ساحته نفسه ، ويثبت أن كل شيء قد تم على غير إرادته ، وأن وضعه فى مكانه هذا كان على غير سعى منه ، فلما وصل إلى رومة لم يلق مايرضيه ، ولكنهم أنباوه أنهم معينون نائبا رسوليا بالقدس ومرسلوه معه إلى هناك ليتقصى حقيقة الموضوع على أكمل وجه ، وعين لهذه المهمة « جيلين » رئيس أساقفة « آرليس » وكان قد بلغ من السن أرذله ، فصدرت

---

(١) أى بطركية بيت المقدس

اليه أوامر البابا بالمضى الى بيت المقدس ، فمضى حتى اذا بلغها  
عقد مجمعا من اساقفة المملكة ، واستقصى الحقائق المتعلقة بقضية  
« ابريمار » كل الاستقصاء (٢) .

وأدلى اليهود الصادقون الموثوق بكلامهم الذى لا يرقى اليه  
الشك بشهاداتهم التى اقتنع بها النائب البابوى « جبلين » ، فأدرك  
أن خلع « دامبيرت » لم يكن له سند شرعى يبرره ، بل كان نتيجة  
مكائد « أرتولف » وبطش الملك ، وأن « ابريمار » اعتلى كرسي كاهن  
لا يزال حيا ، ولا يزال ينعم بعطف الكنيسة الرومانية ، ومن ثم فإن  
« جبلين » - بناء على السلطة المخولة له - قام بخلع « ابريمار »  
من البطركية ، ولكن نظرا لتقواه العميقة وبساطة خلقه غير المألوفة  
فقد كلف « ابريمار » بإدارة كنيسة قيسرية التى كانت خالية آن ذاك .



ثم حدث قيمسا بعد أن اتبعوا ما كان مألوقا ليكون تناول  
الموضوع قد تم بالاعتبار الواجب له ، فحددوا يوما معينا يناقش  
فيه رجال الدين والشعب معا أمر اختيار بطرك لكنيسة القدس ،  
وبعد استعراض ما أسفر عنه الحوار بين الجانبين من شتى الوجوه

---

(٢) اشارت الترجمة الانجليزية ( ج ١ ص ٤٦٧ ، حاشية رقم ١٧ )  
الى أن البابا باسكال الثانى كان قد أرسل خطا بابا الى الملك بلديون  
يستفاد منه غير الذى جاء بالمتن وأن « ابريمار » غادر القدس بعد وفاة  
« دامبيرت » ليتسلم الصلاحية من يد البابا ، ثم مضى « أرتولف » فى أثر  
« ابريمار » مزودا برسائل تنهم ابريمار ، وقد بنت الترجمة الانجليزية  
هذا القول على ما ورد فى

R. Rohricht, Regesta regni Hierosolymitani, No. 19.

وقع الاختيار بالاجماع على مندوب الكنيسة الرسولية « جبلين »  
ليجلس فى كرسى البطريركية ، ويقال ان هذا الاختيار كان بتدبير  
ماكر من ارنولف الذى ذهب الظن به - وقد رأى تقدم سن جبلين  
وهرمه - الى ان جبلين لن يظل طويلا فى المنصب البطريركى .



وحدث فى نفس سنة ١١٠٧ من مولد سيدنا ان قام العسقلانيون  
بما طبعوا عليه من مكر فنصبوا كمائن فى مواضع معينة على طول  
الطريق الكبير الواصل بين بيت المقدس والبحر ، ووضعوا فى هذه  
الكمائن خمسمائة فارس وألف جندي ، وكان ذلك بسبب ما ترمى  
الى سمعهم من ان طائفة من شعبنا قد غادرت مدينة يافا ، ميممة  
وجهها شطر بيت المقدس ، فارادوا ان ينالوا بالدهاء والخديعة ما  
عجزوا عن نيله بالقوة ، فوضعوا كمائن تقربص بالعسكر الحجاج الذين  
كانوا لا يعلمون شيئا عن كل هذه الكمائن ، فما كاد هؤلاء الحجاج  
يسيرون فى طريقهم حتى وقعوا فى الشرك الذى نصبه العدو لهم ،  
فاستولى عليهم القلق الشديد ، وترددوا فيما اذا كانوا يقاتلون أم  
يعودون من حيث جاءوا ، وبينما هم فى هذا التردد اذا بالعدو يغير  
عليهم ، ففضى على كل جدل يمكن ان يثيروه ، ولما ادرك رجالنا انهم  
بين خيارين لا مفر لهم من أحدهما ، وهما اما ان يحاربوا بكل ما فى  
وسعهم ، واما ان يقعوا مجاللين بالعار ، فقد رضخوا للضرورة  
وعاودتهم جراتهم واستردوا شجاعتهم واندفعوا بجاش قوى على  
من كانوا يحسبونهم رجالا لا تنالهم الأيدي ، فكان للمفاجأة وقعها  
على الكفار الذين لم يستطيعوا الصمود لهذا الهجوم فلاذوا بأذيال  
الفرار ، فمضت قراتنا فى أثرهم بعضا من الوقت وقتلت نفرا ممن  
وقعوا فى يدها من أسراهم ، وهكذا كتب الله النصر للصليبيين الذين

لم يفقدوا سوى ثلاثة رجال فقط ، واستمروا فى طريقهم الى بيت المقدس .

- ٥ -

كانت مدينة صور لاتزال حتى ذلك الوقت فى قبضة الجاحدين الذين كانوا يحاولون اعاقاة تقدم الصليبيين بشتى الطرق ، وكان « هيج دى سنت أومير » - ذلك الرجل الشريف القوى الباذل نفسه فى خدمة المسيح قد خلف تانكريد فى حكومة مدينة طبرية ، وكان دائم القيام بهجمات خاطفة على صور ، ومرأوحتها بالغارات المستمرة بقدر ما تسمح به المسافة بين البلدين ، وهى ثلاثون ميلا ، وكان العسكر فى غدوهم الى صور ورواحهم عنها يتعرضون للخطر لعدم وجود أى فلاح أو أماكن حصينة بين المدينتين يلجأون اليها لم تعقبهم العدو ، لذلك حاول هذا الرجل العظيم تذليل تلك الصعوبة فعزم على بناء حصن على قمة أحد الجبال المطلة على مدينة صور ، وإن كان يبعد عنها حوالى عشرة أميال ، وكان الاسم الأصلى لهذا الموضع هو « تبنين » ، ولما كان الحصن واقعا على جبل شاهق الارتفاع ، شديد الانحدار ، فقد أطلق عليه اسم « ثورون » واشتهر بطيب هوائه وبديع مناخه وهو يوجد فى قبيلة « عشير » فيما بين البحر وجبل لبنان ، وعلى مسافة متساوية من كلتا المدينتين : صور ويانياس ، وأرضه شديدة الخصب ، وصالحة تماما لزراعة الكروم والأشجار ، كما أن محاصيلها وفيرة بفضل عناية فلاحيها بها ، ومن ثم فإن هذا المكان لم يقتصر على أنه أمد بانيه بالفوائد الملائمة كل الملائمة لاحتياجاته فى وقته حينذاك ، بل أنه كان ذا جدوى قصوى لمدينة صور أيضا وبقيّة الناحية ، وذلك بفضل خصبية أرضه وتحسيناته الرائعة للشهيرة .

\*\*\*

وبعد قليل من تشييد هيج النبيل لهذا الحصن اقتحم أرض العدو على رأس سبعين فارساً قاتل بهم أربعة آلاف دمشقى ، وصدمهم مرتين فى يومه هذا صدا عنيقا ، كما حاول ذلك مرة أخرى ولكن فى ظروف أحسن من سابقتها ، إذ ترادفت الامدادات الاضافية عليه هذه المرة ، كما أن العناية الالهية لاحظته بعينها ، فشدت من عزمته ، حتى استطاع بعون الله أن يرغم العدو على الفرار ، ولكنه رمى عن قوس بسهم جرحه جرحا قاتلا أرداه ، وكان هيج رجلا عاقلا وبطلا جديرا بكل ثناء على خدماته ، مقبولا كل القبول عند الملك ورجال مملكته .

وقد فقد العدو فى هذا الاشتباك مائتى رجل ، كما استولى رجالنا على مثل هذا العدد ، لكن من الخيل .

وتلى هذه الأحداث ظهور علامات ونذر كثيرة فى الأفق الشرقى من السماء ، حيث ظل يظهر على مدى أربعين يوما أو أكثر كوكب مذنب يتبعه خط طويل من اللهب ، ويكون ظهوره بعد دخول الظلام ، أما فى الصباح فتبدو الشمس منذ ظهورها حتى الساعة الثالثة من النهار وكأن شمسين تتبعانها وقد تكافأتا فى الحجم ، وإن كانتا أقل منها اشعاعا ، كما كان يرى حول الشمس قوس قزح بكل ألوانه الواجحة ، فكانت كل هذه العلامات تؤذن فى الواقع بتغير فى أحوال الناس .

- ٦ -

فى هذا الوقت كان الخائن الوغد «الكسيوس كومندين» امبراطور القسطنطينية يكثر من وضع العراقيل فى طريق الحجاج الراغبين فى عبور بلاده وهم فى طريقهم الى بيت المقدس ، وإذا كان قد عمل على مضايقة الحملة الأولى التى لم يجن منها فائدة كبيرة كما قلنا

وذلك بتلمسه مساعدة أحد الولاة الترك الأقوياء وهو قلعج أرسلان وينشد مساعدة هذه الأمم والشعوب الكافرة ضد هذه الحملة فانه في المرة الثانية أخذ يبعث رسله الكثيرين لاثارة نفس هذه الأمم والشعوب الكافرة ضد الحملة الثانية التي كانت بقيادة كونت بواتو، فاسفرت خيانتته هذه عن اندحار الحملة (٣) الثانية اندحارا يكاد يكون تاما ، ولم يكتف باللجوء مرة أو مرتين للغدر بالصلبيين ، بل انه ما من مرة أتتحت له فرصة انزال الخسائر والحاق الدمار بهم الا عندما كسبا لنفسه ، ومع ذلك فانه لم يكد ريموند ( دى بواتيه ) يمثل بمن معه أمام الامبراطور ويصبح في حضرته حتى اعطاهم الامبراطور من طرف اللسان حلوة وامطرهم بهداياه وتحفه ليكون أكثر قدرة على خداعهم ، وبذلك حافظ على ما اشتهر به شعبه من انطباق المثل التالي عليه القائل : « لشد ما أخاف الاغريق حتى ولو قدموا الهدايا » لأنه كان على وجه العموم ينظر بريية الى تقدم اللاتين ، ولا يأتان بزيادة سطوتهم أو انتشار نفوذهم اذا كان في مقدوره منع ذلك -

كانت هذه المآلئ لاتزال حية في ذهن بوهيموند حين عاد من البلاد الواقعة وراء الجبال على رأس خمسة آلاف فارس وأربعين ألفا من الجند المشاة ، عاقدا النية على العمل لما فيه صالح جميع اللاتين . وكانت عودته بحرا ، ووصله الى بلاد الامبراطور في اليوم التاسع من أكتوبر ، فلما فرغ من اجتياحه جميع المدن الساحلية وخرب منها ما خرب مضى فدمر ابروس الأولى والثانية على السواء ثم حاصر « دورازو » قصبة ابيروس الأولى ، وأشعل النار في كل النواحي المجاورة ، وانطلق يصليها خرابا ويعاملها وفق هواه ، وكان

---

(٣) المقصود بذلك الطائفة الثانية من الصليبيين الذين كانوا بقيادة ريموند الصنجلي كونت تولوز ، وليس بقصد بها « الحملة الثانية » التي كانت بقيادة كونراد امبراطور المانيا وحك فرنسا -

يتأهب لشق طريقه الى أقصى بقاع الامبراطورية وقد آلى على نفسه - يعون الرب - الا أن يقضى على كل ما يضر اللاتين .

ولما سمع الامبراطور بدخول بوهيموند بلاده على رأس جيش كبير من اللاتين جمع عسكره وتقدم لملاقاته ، واقام قواته قرب قوات بوهيموند ، غير أن تدخل بعض اصدقاء الطرفين فى هذه الأزمة أدى الى عقد معاهدة بينهما ، اكداها باليمين الصادقة ، وتعهد الامبراطور أن يقوم منذ هذه اللحظة بنية حسنة ومن غير أن يبيت شرا - ببذل النصيح والعون لاتباع المسيح الراغبين فى المضى الى الشرق ، وأن يمنع رعاياه من وضع العراقيل فى طريقهم .

ولما اتفقوا على هذه الشروط واكدها باليمين ، قام بوهيموند فأقسم من جانبه قسمًا آلى فيه على نفسه ألا يحدث فيه - بالمحاظلة على صداقته للامبراطور وأن يكون تابعًا مخلصًا له الى الأبد .

حينذاك قدم بوهيموند امامه طائفة الحجاج الذين كانوا قد التزموا باكمال الرحلة الى بيت المقدس ، أما هو فقد عاد أدراجه الى « أبوليا » حيث تطلبت بعض الشؤون الخاصة أن يزيد فى امد بقائه هناك ، فلما كان الصيف التالى بدأ يعد الترتيبات اللازمة ويجمع السفن ، غير أنه فى اثناء تأهبه للرحيل - وقد جمع العسكر من كل ناحية - داهمه مرض خطير أدى الى وفاته ، فمات تاركًا وريثًا ورت اسمه وامارته ، وكان الوريث ذكرًا أنجبته (هـ) له ليدى كونستانس ابنة فيليب العظيم ملك الفرنجة .

كذلك مات خلال هذه السنة (٦) حموه فيليب ملك الفرنجة الجليل .

---

(٤) وكان ذلك فى مارس سنة ١١١١ م .

(٥) كان مولده سنة ١١٠٩ أى قبل وفاة ابيه بعامين .

(٦) اخطأ وليم الصوري اذ يقول « فى هذه السنة » ، فينصرف الذهن

الى عام ١١١١ م ، كما هو وارد فى الحاشية رقم ٤ ، لكن موت فيليب كان فى سنة ١١٠٨ .



فى ايان ذلك الحين بينما كان العظيمان اللذان اشرنا اليهما من قبل وهما كونت بلدوين وقربيه جوسلين لايزالان فى أسر العدو تجمع عسكر من الترك فى أعداد تفوق الحصر جىء بهم من بلاد المشرق فاعتنموا فرصة غياب هذين الأميرين وأغاروا على أرض الجزيرة غارة شعواء، وعاثوا فسادا وتدميرا ونهباً فيما حول الرها، واستولوا عسفا على بعض الحصون، وأضرموا النار فى القرى، وأمسكوا بالفلاحين وغيرهم ممن يعملون فى الحقول، ولم ينبج من ذلك الدمار أى مكان خارج المنطقة الموجود بها المدن المسورة، مما أسفر عن توقف فلاحه الأرض ونذرة الطعام حتى كاد أن ينعدم.



كان الحفاظ على المنطقة مركولا الى تانكريد الا أنه جد من الأمور أمور عاقته واضطرته للبقاء فى أنطاكية التى أصبح مسئولاً عنها هى الأخرى أيضاً كما قلنا منذ رحيل بوهيموند، فلما علم بما أحدثه العدو من نهب وسلب فيما حول الرها أرسل الى ملك بيت المقدس ليششرح له ماحدث من أمور اقتضت منه أن يبعث فى استدعائه، كما قام هو ذاته بحشد قوات كثيفة من كل البلدان والحصون، فما غبرت أيام قلائل حتى كان الملك فى طريقه للانضمام اليه، لحظة أن كان تانكريد مسرعا الخطى الى هناك وقد استبد به الخوف على أمارته، وانضم الجيشان بعضهما الى بعض فى الحال، وعبرا الفرات معا، فلما بلغوا الرها وجدوا المارقين - كما قيل - يعربدون هنا وهناك لم يتركوا ناحية من النواحي الا جاسوا خلالها، دون أن يعترضهم معترض، لكنهم لما علموا بقدم قواتنا بعثوا فى

استدعاء عساكرهم ، وقلت عربدتهم عن ذى قبل لطول معرفتهم بياض جنودنا ، فتملكهم الخوف من قتالهم ، وان كانوا رغم ذلك لم يرحبوا بعودتهم الى بلادهم ، لادراكهم ضيق وقت كل من الملك وتانكريد ضيقا يمنع هذا وذلك من طول اقامته ، ومن ثم فقد حاولوا تعويقهما املا منهم فى ان يؤدى طول هذا التأخير الى ارغام القادة على الرحيل ، واذ ذاك يتمكنون هم من معاودة ما جرت به عادتهم من السلب والنهب ، لكن لم تخف حقيقة مقصدهم على زعمائنا فنهجوا نهجا شديدا للملاءمة لهذه الظروف الصعبة ، ذلك انه لما كان الاقليم الواقع فى منطقة نهر الفرات ينتج معظم المحاصيل فقد عمد الزعماء للاستفادة من هذا الوضع ، فأمروا أن تجمع شتى انواع المؤونة ثم تنقل على ظهور الجياد والابل والحمير والبغال وذلك عبر النهر ، وبهذا تسنى حصول البلدان والقلاع على كميات وفيرة من مواد المعيشة تكفى امدا طويلا ، كما انصب اهتمامهم على وجه الخصوص على امداد مدينة الرها فأمدوها باعدادات وفيرة زادت عن حاجتها ، حتى اذا اطمأن بال هؤلاء القادة على المدن والحصون ، وزالت دواعى الخوف عليها بعد تزويدها بالعتاد والرجال والطعام غادوا الى نهر الفرات لأمر أكثر خطورة ، تستدعى التفاتهم اليها ، وبينما كان الصليبيون يعبرون النهر فى قوارب صغيرة خفيفة قليلة العدد ، شرع العدو الذى كان يتعقبهم فى مهاجمة من دونهم ممن لازلوا على الشاطئ الآخر من النهر ، ينتظرون دورهم للعبور ، وفتك بيعضهم وأسر البعض الآخر أمام أعين تانكريد والملك اللذين وقفا عاجزين عن مد يد المعونة اليهم ، فقد حال بينهما وبينهم وجود النهر الذى لم يكن بمقدورهما اجتيازه ، كذلك كان من الصعب عليهما وعلى من معهما ان ينجحوا فى مساعدة قوات ضخمة العدد كهذه القوات على العبور مرة أخرى اذ ليس لديهم سوى القليل من القوارب ، ومن ثم كانت قواتنا مضطرة للعودة الى بلدها ، وقد

مصر الحزن قلوبهم حزنا على مصير أولئك التعمساء الذين رأوهم  
رأى العين يروحون ما بين قتيل وأسير .

أما الرجال البارزون الذين وكل اليهم حراسة الاقليم فى هذه  
الناحية من الفرات فقد بذلوا أقصى جهدهم فى تحصينها .

أما الذين قتلوا أو أسروا على شواطئ الفرات فكانوا من  
فقراء الأرمين الذين فروا أمام الدمار الساحق الذى أنزله الترك  
بالناحية ، فراحوا يلتمسون مكانا آمنا يلجأون اليه .

#### - ٨ -

فلما كانت السنة التالية أعنى سنة ١١٠٩ من مولد المسيح  
عاد بلدوين كونت الرها وقريبه جوسلين الى أملاكهما بعد خمس  
سنوات موصولة قضياها أسيرين لدى العدو ، ثم آن لهما أن  
يستردا حريتهما منه بعد أن قدما اليه الرهائن ، ورضيا أن يدفعما  
له المال الذى طلبه فداء لأنفسيهما ، ثم شاء الرب أن تمسهما رحمته  
حين قام الرهائن بقتل حراسهم الموكلين بهم فى إحدى القلاع إذ  
وثبوا عليهم وهم يغطون فى سباتهم وقد أثقلهم كثرة ما شربوا من  
الخمر ، فلما تم لهم ذلك تسللوا خلسة تحت جناح الظلام وسلكوا  
دروبا ملتوية واتخذوا طريقهم الى بلادهم .

ويقال انه لما وصل الكونت الى الرها رفض تانكريد فى بادىء  
الأمر أن يأذن له بدخولها ، لكنه مالبث أن تزحزح عن رايه حين  
ذكروه باليمين التى قطعها على نفسه لحظة أن عهد اليه القيام بإدارة  
دفة امورها وقت وقوع الكونت فى الأسر ، وحينذاك أمر أن تسلم  
المدينة بكل ما حولها الى بلدوين .

وأخيرا قام القاتدان ( بولدوين وجوسلين دى كورتناى ) واستنكرا هذه المعاملة التى يعاملهما بها تانكريد وأعلنها حربا عليه ، وأن كان جوسلين أكثر الاثنين تشسدا ، ذلك لأن وجود قلاعه وحصونه على ذلك الجانب من النهر كان يجعله أدنى ما يكون لأرض أنطاكية ، وحدث فى أحد الأيام أن خرج ( جوسلين ) ومعه رهط كبير من الأتراك الذين استنجد بهم فأنجدوه ، فشنواياهم غارة شعواء على تانكريد الذى علم بنواياه فهب لقتاله ، وشبت الحرب بينهما فمات فى ساحتها من طليعة رجال تانكريد ما يقرب من خمسمائة رجل ، لكن مالبث جنوده أن عاودتهم شجاعتهم فتجمعوا من جديد وفتكروا بكثير من الترك ، ونجحوا فى هزيمة قوات جوسلين .

حين وصلت الأمور الى هذا الدرك تدخل كبار رجال الاقليم ورهط من اهل الادراك المقدرين للأمور وعرفوا مدى الخطر الداهم الذى يندر بما يكون بين رجلين كبيرين كهذين الرجلين من العداء ، والذى لا يستبعد أن يؤدى الى ضرر يلغ بالشعب الصليبي ، ومن ثم أخذوا على عاتقهم القيام بدور صناع السلام ، ونجحوا فى التوصل الى تهدئة الأمور بين الطرفين .

## - ٩ -

وقد حدث فى هذه الأثناء أن جاء « برترام بن ريموند » كونت تولوز الطيب الذكر بأسطول من الجنويين ، وأرسى قرب طرابلس التى كان قريبه « وليم جوردان » لايزال محاصرا لها حصارا دام بلا انقطاع منذ موت ريموند الموقر ، وسرعان ما شب الصراع بين الاثنين ( برترام وليم جوردان ) ، لأن أولهما تمسك بحقه فى أن يخلف أباه ، على حين أن ثانيهما وليم طالب بمكافاته على جهوده ،

وما تكبده من المصروفات طوال السنوات الأربع المتتالية التي قضاهما متحملا مسؤولية ادارة امورها .

وأراد الأول أن يخلف أباه ( ريموند كونت تولوز الصنجيلي ) باعتباره الوريث الشرعي له في ممتلكاته على حين كان وليم يجاهد للاستحواذ على المدينة التي لم يكف عن الحرب فيها من غير كلل ، واستمر النزاع بين الاثنين طويلا ، حتى تدخل أصدقاء الطرفين بينهما لاقرار السلام فتم ، وتوصلوا الى حل وسقط ارتضاه الجانبان يقضى بأن يتسلم وليم جوردان عرقه وطرسوس وملحقاتها ، وأن يكون لبرترام طرابلس وجبيل وقل الحجاج بكل ملحقاتها هي الأخرى ، وتم الأمر على هذا الوضع الذي ارتضاه الجانبان .

ولقد أصبح وليم - بسبب ما آل اليه من نصيبه في الامارة - نائبا لأمير انطاكية ، وقطع له يمين التبعية ، أما برترام فقد تسلم براءة تقلده الأراضي التي اقطعها له ملك بيت المقدس ، ملتزما له بالتبعية الاقطاعية المعتادة ، على أنه في أثناء تدوين الاتفاق اشترطوا أنه اذا مات أحد الطرفين من غير وريث يرثه خلفه الآخر في كل ما بيده مما يملك .

غير أنه بعد اقرار الأمر على هذه الصورة جد سبب تافه أدى الى شبوب النزاع بين كبار اتباع الأسرتين ، وسرعان ما امتطى الكونت وليم جوردان في لحظته جواده وخب به سريعا الى هناك رجاء اعادة الأمور الى مجاريها ، لكن اصابه بالصدفة سهم غرب افضى الى موته ، فزعم البعض أن هلكه إنما تم بمكيدة من مكائد برترام الدنيئة ، لكن لم يعرف حتى اليوم على وجه التحقيق الفاعل الحقيقي لهذا الجرح المميت ، وبذلك أصبح برترام المالك الوحيد للملاقيم كله بعد زوال خصمه ومنافسه في امتلاك طرابلس على هذه الصورة

وكان الأسطول الجنوى الذى جاء معه يتألف من سبعين قرقورة بقيادة اثنين من أشرف الجنوية هما أنسالدوس ، و « هيج امبرياكوس » اللذان اتضح لهما أن الوقت الذى يصرفانه فى حصار طرابلس وقت ضائع من غير سدى ، وأنه من الأجدى محاولة عمل شىء يستحق الذكر ، ومن ثم فقد التمسا من برترام - بأسلوب ودى - أن يصحبهما برا الى جبيل « ثم وجها الأسطول بنفسهما » .

وتقع مدينة جبيل على ساحل فينيقية ، وهى احدى المدن التى اشتهرت بتبعيتها لأسقفية صور التى كان لها عليها كل حقوق السيادة الدينية كما أشار حزقيال (٧) اذ يقول : « شيوخ جبيل وحكامها كانوا فيك فلاقوك ، جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك » .

ونطالع مرة ثانية فى الكتاب الأول من سفر الملوك فى شأن هذه المدينة ذاتها (٨) قوله : « نحت الجبيليون الحجارة المربعة ، وميأوا الإخشاب والحجارة لبناء البيت » .

وكان الاسم القديم لهذا المكان هو « ايف » اذ يعتقد الناس أن « ايفيوس » سادس أبناء كنعان هو مؤسسها .



احدثت الجيوش بمدينة « جبيل » برا ويحرا حين أصبحت أمامها ، فاستولى على الأهالي حالة من الفزع الشديد لعدم ثقتهم

---

(٧) حزقيال ٢٧ : ٩ .

(٨) ملوك أول ٥ : ١٨ .

فى قدرة وسائل الدفاع المتوفرة لديهم ، لذلك ارسلوا سفارة الى قائدى الاسطول « أنسالدوس » « وهيچ امبرياكوس » تعلن اليهما استعدادهم لفتح أبواب المدينة لهما والاعتراف بسلطانهما عليها ، على أن يؤذن بمغادرتها لمن أرادوا المغادرة من تلقاء أنفسهم ، ومعهم نساؤهم وولداؤهم ، لا يلقون فى الخروج عنقا ولا ارهاقا ، وأما الذين لا يحبون ترك دورهم بالمدينة فيسمح لهم بالبقاء فيها تحت شروط مقبولة ، فأجيبوا الى طلبهم ، وتم استسلام المدينة للقائدين ( الجنويين ) ، وقام أحدهما وهو هيچ امبرياكوس بتسليمها لأمد محدد بعد الاتفاق على قدر معين من المال يدفع سنويا لخزينة الجنوبية ، وهذا الرجل هو نفسه جد هيچ الذى يحكم المدينة اليوم ويحمل نفس الاسم واللقب ، ولما تم اخذ المدينة على هذه الصورة رجع الاسطول مرة ثانية الى طرابلس .

- ١٠ -

بادر الملك بالذهاب الى طرابلس حين علم أن اسطول الجنوبية لا يزال يتجول فى نواحيها بعد انتهائه من الاستيلاء على جنيل ، وسعى الى ضم الجنوبية الى خدمته الخاصة وفق شروط معينة ليتمكن بمساعدتهم من اخذ مدينة أخرى من المدن الساحلية ، إذ كانت لاتزال على شاطئنا أربع مدن ناشزة هى بيروت وصيدا وصور وعسقلان التى تكون فى مجموعها عائقا كبيرا أمام خططنا لتوسيع رقعة مملكتنا الشابة ، لذلك أحدث حضور الملك فرحة كبرى فى نفوس الجميع ممن كانوا قائمين بالحصار برا وبحرا ، وزادتهم حماسة فى الإقبال على ما بيدهم من العمل ، كما كان حضوره مصدر طمأنينة كبيرة للقائمين بالحصار أمام المدينة ، وتضاعف بأسهم ، وزادت ثقتهم بقدرتهم ، وكان وصوله هذا داعيا - من ناحية أخرى - لتزايد يأس المحصورين والقضاء التام على أملهم فى المقاومة .

على أن عدد الصليبيين أخذ في التناقص بقدر ما تضاعفت قوتهم التي كانت كلما زادت زاد ظهور ما عليه أعداؤهم من ضعف ، لذلك عمد عسكرينا إزاء هذا الموقف لتجديد هجومهم اعتمادا على الامدادات الجديدة التي جاءتهم ، فكانوا لا يدعون فرصة تلوح لهم الا اغتتموها لتشديد ضغطهم على العدو بروح عالية حتى ليخيل لرائيهم أنهم في مستهل الحصار رغم أنه كان قد مضى عليهم ما يقرب من سبع سنوات متتالية وهم يمارسونه ببأس كبير .

ورأى الأهالي أن قوة الصليبيين تتزايد يوما بعد يوم عكس التناقص المستمر في قوتهم هم أنفسهم ، وادركوا أن قد انهكهم الجهد المتواصل الذي يبذلونه ، كما فقدوا كل أمل في وصول أي نجدة اليهم ، فقلبوا الأمر على شتى وجوهه فيما بينهم ، جاعلين نصب أعينهم وضع حد لهذه الأهوال الكبيرة ، فبعثوا بالرسل إلى الملك وإلى الكونت يقترحون الاستسلام لهما بالشروط التالية :

أن يسمح بحرية الخروج بلا عائق لمن أراد مغادرة المدينة ، مع الإذن له باستصحاب أهل بيته وحمل حاجاتهم إلى أي جهة شاءوها ، أما الذين لا يحبون الرحيل عنها فيسمح لهم بالبقاء في دورهم سالمين آمنين ، مع احتفاظهم بها تملكه أيديهم لقاء دفعهم للكونت سنويا قدرا معيناً من المال .

استمع الملك إلى مطالب الأهالي هذه وراح يتشاور بشأنها مع الكونت وأهل الرأي ثم أعلن قبوله لهذه الشروط على أن تسلم له المدينة في الحال ، ووقع هذا القرار موقع الرضا من الجميع ، فبعثوا في أحضان الأهالي وأجابوهم إلى ما التمسوه ، واقسموا اليمين على الوفاء لهم بهذه الشروط دون شجب أو غدر ، وأذ ذاك استسلمت المدينة وفتحت أبوابها لجميع من أراد دخولها .



ونتم الاستيلاء على طرابلس عاشر يوم من يونيو سنة ١١٠٩ من ميلاد المسيح كما قام « برترام » فى الوقت ذاته وأعلن ان طاعته للملك حق فى عنقه ، وأصبح تابعا اقطاعيا ، وصار خلفاؤه منذ هذا الحين حتى اليوم ملتزمين بنفس هذه الذبعية لك بيت المقدس .

بعد أن استرد بلدوين كونت الرها حرّيته عزم على الذهاب الى ملطية فى صحبة رفاقه فى السلاح لزيارة جبريل والد زوجته الذى كان رجلا فاحش الثراء ، ونظرا لكثرة الرجال الذين كان الكونت يستخدمهم فقد كانت حاجته ماسة للمال يسد به جامعياتهم لقاء خدماتهم الحربية والتزاماتهم التى يؤدونها له على أحسن وجه ، ولذلك فقد عمد الى خطة ذكية كل الذكاء ، مأكرة كل المكر درس فيها - فى مهارة محسوبة - كل تفاصيلها لتطابق الوقت الذى يمكنه فيه مقابلة حميه .

وبعد أن أعد الكونت كل الترتيبات اللازمة للرحلة مضى الى حميه جبريل الذى رحب به ترحيبا حارا فاق كل واجبات الضيافة ، فقد تناه جبريل واعتبره واحدا من أهل بيته وتبوّلت التهانى - كما هى العادة - بين الجانبين ، وأظهروا علامة السلام بالأحضان الكثيرة .

وظل الكونت مقيما عنده بعضا من الوقت حتى جاء يوم وقد استغرق فيه الاثنان فى حديث طويل فى بعض الشؤون الهامة حين ظهرت جماعة من فرسان الكونت - بناء على تدبير سابق بينه وبينهم - وقطعت على الاثنين حبل حديثهما ، ثم تقدم أحد هؤلاء الفرسان الى الكونت وقال له نيابة عن رفاقه : « ليس من أحد يعلم أكثر منك أيها الكونت كيف أخلص هذا النفر من الفرسان فى الحرب من أجلك زمتنا طويلا وصدق اخلاصهم ، وكيف أدوا ذلك بشجاعة فائقة اعتمادا منهم على وعدك الصادق لهم .

« واذك لتعلم أيضا مدى الأموال الكثيرة والبلايا الجمة التي تحملوها زمنا طويلا في سبيك ، وما كابوده من السهر الدائم والجوع الشد والظما الممض والبرد القاسي والقيظ اللافح ، اعتمادا منهم على وعدك الصادق لهم ، وحفاظا منهم على سلامة روحك وسلامة امارتك التي وضعتها العناية الالهية وديعة في يدك لقرعها ولتدفع عنها ضرر العدو »

« واذك لتعلم كيف تعرضوا لهجمات الأهلالي ومن لازال مقيما هناك من الكفار ، وكيف قضرا على محاولات أعداء الصليب »

« والآن فان هذا الرهط من الفرسان يدعوك لأن تشهد بالخدمات التي ادوها لك ، وانت تعرف اننا ظللنا نخدمك وقتا طويلا دون أن نتسلم فيه منك أجرا حتى اضطررنا - تحت الحاجة الملحة - لأن نطلب منك مرارا اعفاءنا من الخدمة عندك ، وكثيرا ما ادنى تعاطفنا معك الى استجابتنا لتوسلاتك في أن نتريث بعض الوقت ، وكنا نستمع اليك مستمسكين بالصبر يوعا بعد يوم ، أما الآن فقد بلغت الروح الحلقوم ، وصرنا في حال لانستطيع معها الانتظار أكثر مما انتظرنا ، فقد كثر الفقر العاتي عن انيابه لنا ، وهذا ما يحملنا على أن نرفض أن نستجيب لك في التاخير أو التأجيل أكثر مما احتملنا ، فاختر لنفسك أحد اثنين ، اما أن تنقذنا ما نستحقه عندك من أجر يسد حاجتنا ، واما أن نصبح في حل من الاتفاق الذي ربطت به نفسك معنا »

وتعجب جبريل من مغزى هذا الكلام ومن خشونة هذه اللجة التي تنذر بشر مستطير ، وتمكن أخيرا من أن يحاط علما بالموقف عن طريق المترجمين ، ثم استفسر عن طبيعة هذا الالتزام الذي ربط به الكونت نفسه ليدفع أجورهم ، فاعتصم الكونت بلويين بالصمت كما لو كان الخجل قد عقد لسانه حتى الجمه فلم يعد ينطق ، ولكن

المتحدث باسم الفرسان أجاب بأن هذا الالتزام يقضى بأنه إذا جاء اليوم المحدد لدفع أجورهم ولم يدفعها لهم حلّقوا بحيته دون معارضة منه . فذهل جبريل من هذا الاتفاق الذى لم يسمع بمثله من قبل ، وجاوز دهموله كل حد حتى أنه ضرب كفا بكف وهو يزفر ويغلى غضباً .

ذلك أن الشرقيين - من أغريق وغيرهم من الشعوب - يحترمون اللحية احتراماً بالغاً ، وإذا حدث أن انتزعت - ولو صدفة - شعرة واحدة من لحية أحدهم كان ذلك إهانة عظمى وعاراً لا يمحي :

واستفسر جبريل من الكونت عما إذا كان واقع أمره يتفق والصورة التى قررها الفرسان ، فجاءه الرد بالإيجاب ، فسأله ثانية وهو لا يزال مندهشاً عما حمله لأن يقسم لهم بشيء له من التقدير العظيم ما يرقى إلى أن يكون ظاهرة فردية خاصة ويعتبر شرفاً للإنسان يعلى مكانته ، فإن ضاع ضاع شرفه ، فاجابه الكونت قائلاً :

« لقد اقسمت بلحيتى لأنى لا أملك شيئاً أغلى قدراً منها يتكافأ ومطالب جندى القوية ، ولكن لا يشغلن مولاي ووالدى بآله بهذا الأمر ، لأننى أطمع أن تسعفنى رحمة الرب فيمنحتنى هؤلاء الفرسان مهلة أعود خلالها إلى الرها فألبى مطالبهم ، وحينذاك أكون قد وفيت لهم العهد الذى أكدته بشرفى » .

غير أن الفرسان - بناء على ما لقنوه - أعلنوا على لسان واحد منهم أنهم متفدون تهديداتهم للدوق ، ومنفضون عنه فى الحال إلى غير رجعة . وحينذاك ظهر التردد قليلاً على جبريل الساذج الطبع ، والذى كان يجهل ما دبروه سرا فيما بينهم ، ثم أعلن قراره بأنه سوف يدفع للجنود ما فى ذمة خنته من مال ، ولن يترك رجلاً

مثل هذا الكونت الذى ينزله منزلة الابن ليعانى هذا العار ، ثم سألهم ما قدر هذا الدين ؟ ، فقالوا له « ثلاثون الف قطعة ذهبية ميخائيلية » وهى نوع من السكة الذهبية كان يجرى التعامل بها فى المعاملات التجارية العامة فى ذلك الوقت ، وقد سميت باسم ميخائيل أحد أباطرة القسطنطينية الذى امر بسك عملة عليها صورته .

وإذ ذاك وعد جبريل أن يدفع لزوج ابنته الكونت المبلغ الواجب عليه ، شريطة أن يعده وعدا قاطعا مؤكدا بإيمانه أنه لن يعود فيقيد نفسه لأى فرد مرة أخرى - مهما كانت الظروف الملحة - بمثل هذا القيد ، فلما تم دفع المال استأذن الكونت حماه فى السفر والعودة برجاله ، فأنزلهم وقد امتلات جيوبهم عن آخرها بالنقود ، وزال عنهم فقرهم . وهكذا عاد الكونت الى امارته وهو أثرى مايكون .

## - ١٢ -

كان الملك بلدوين شديد التطلع دائما لمفرصة تواتيه لرفع ذكر المملكة التى وهبها الله له ، وللقيام بعمل جدير بالقبول عند مولاه وحاميه ، لذلك فكر - وهو فى غمرة حماسه الدينية - فى السنة التالية أعنى سنة ١١١٠ من مولد سيدنا ) أن يرفع الكنيسة الموجودة فى بيت لحم الى مرتبة الكاتدرائية ، وكانت حتى ذلك الوقت لا تعدو أن تكون كنيسة عادية .

وسوف تتضح طبيعة هذا القرار وتصبح أكثر جلاء حين نطالع المرسوم الذى أصدره هذا الملك الشديد التقوى ، فهو كما يلى :

« لقد استطاع شعب الفرنجة بإيحاء وتوجيه علويين أن يحرر مدينة القدس الطاهرة من انتهاكات الكفار بعد أن طالت مضايقة الوثنيين لها ، وهى المدينة التى مات بها مخلصنا مية قضت على

الموت الذى جرى أول ما جرى على الجنس البشرى من جراء خطيئة  
أول أبوين لنا ، •

« وقد دخل ذلك الجيش ( اللاتينى ) هذه المدينة العابدة الرب  
يوم السابع من يونيو ، فلما كان الخامس عشر من يوليو سقطت  
فى يده لأن الرب حارب من أجلها •

« وفى سنة ١١٠٠ من مولد سيدنا ألهمت الإرادة الالهية  
رجال الدين وريموند دى سنت جيل ، وكونت روبرت دى نرمندى ،  
وكونت روبرت دى فلاندرز ، وتانكريد ، وسواهم من كبار الرجال  
المصاحبين لجيش الفرنجة أن يقرروا وضع أمر المدينة المفتوحة فى  
يد أخى المحبوب الخالى ، والتقى الرحيم نونق جود فروى ، غير أن  
إرادة الرب قضت أن يرحل عن الدنيا فى هدوء هذا الرجل الجدير  
بحب الله وحاكم هذه المدينة ، وكان رحيله (٩) فى اليوم الثالث بعد  
مرور العام الأول من حكمه •

« وأعلن - أنا بلدوين الذى اختارته العناية الالهية ليخلفه كأول  
ملك للاتين ارتضاه رجال الدين والأمراء والشعب - أننى قد نظرت  
بعين الأجلال الى عظمة كنيسة بيت لحم التى هى موضع ميلاد  
سيدنا يسوع المسيح ، والمكان الذى توجت فيه رأسى بالتاج المتلألئ  
وعزمت على أن أعزها بالمكانة الأسقفية الكاملة » (١٠) •

« ولقد ظل هذا الخاطر يراودنى زمنا طويلا بنية خالصة حتى  
انتهى بى الأمر أخيرا الى مفاتحة الأسقف المعظم « أرنولف » ورجال

---

(٩) كان موت جودفروى يوم ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ •

(١٠) ذلك أن كنيسة بيت لحم كانت لاتعد حتى ذلك الوقت أن تكون  
مجرد كنيسة عادية •

الاكليروس فى القدس ، وألصحت عليهم فى الرجاء أن يناقشوا معى ذلك الموضوع ، فوافقونى على التماسى العادل ، وقرروا الذهاب الى رومة لبحثه مع موضوع كنيسة القدس التى كانت رياستها فى ذلك الوقت شاغرة من غير رأس يدير أمورها ، وكانت هذه السفارة مؤلفة من رئيس الشمامسة « ارنولف » ومن « ارشارد » الذى كان فى ذلك الوقت كاهنا ، فمضيا الى رومة مؤيدين بالروح القدس ، ولقيا مساعدة كريمة فى كلا الموضوعين من جاثيسكال بابا الكنيسة الجامعة ، ثم عادا بعدئذ الى بيت المقدس ، وقام البابا بسكال بعد رحليهما فأرسل الى بيت المقدس رئيس أساقفة « آرليس » المدعو « جيلين » وكان رجلا المعيا يحيا حياة شديدة الطهارة ، وعهد اليه فى حضرة كل من « ارنولف وارشارد » بالقيام بهذه المهمة .

وقد قوبل « جيلين » بأعظم فرحة من قبلى وقبل رجال الدين والشعب قاطبة ، وراح يتصرف وفق مايرى ، بناء على الأوامر التى تلقاها من البابا بسكال وبفضل حسن نيتى ، ورضاء جميع رجال الدين ببيت المقدس وتأييد المجتمع ، فقرر أن يصبح « اشتينوس » المبجل أول أسقف لبيت لحم ، وكانت له من قبل الرئاسة على هذه الكنيسة ذاتها ، كما كان كبير مرتليها ، وهو الذى اختاره رجال الاكليروس بالقدس بناء على رغبتى ورغبة كبار رجالاتى والشعب ليكون أسقف عسقلان ، فجعل كنيسة عسقلان - تنفيذا لأرادتى وأمرى - تابعة لأبرشية بيت لحم الى حد ما .

« وأخيرا فأننى - أنا بلدوين الذى هو برحمة الرب أول ملك لا تبنى لبيت المقدس - قد رحبت مسرورا لقراراته هذه واكبتها بكل قواى .

« كذلك منحت بمحض ارادتى الأسقف وحلفاءه ملكية مدينة بيت لحم ويكون لهم التصرف فيها ، وهى التى كنت قد أقطعتها

للكنييسة لخلاص روحى وروح أخى الدوق الرحيم جود فروى وجميع  
أرواح أقاربى .

« كذلك أقطمته ومنحته قرية فى إقليم عكا تدعى « البيدر »  
وأخرى فى إقليم نابلس اسمها « سيلون » وثالثة قرب بيت لحم  
اسمها بيت بيزان ، وكذلك قريتين فى أرض عسقلان هما « زوفير »  
وكيكفا بكل محلاتهما .

« كذلك خلصت الكنييسة المشار إليها مما كانت تئن منه ومما  
كانت ترميها به كنييسة بيت المقدس فيما يتعلق بالأرض والبساتين  
الموجودة فى ضواحي بيت المقدس التى هى جزء من أملاكى  
الخاصة .

« وزيادة على ذلك فأننى قررت أنه إذا استسلم أحد رجال  
الدين أو العلمانيين للطمع الدنىء ، فتجاسر بعد موتى على شجب  
ما تم برضائى وتأيد الروح القدس ( فيما يتعلق بكنيسة بيت لحم  
المعظمة باعتبارها موضع ولادة سيدنا ومخلصنا ) ، وبمعونة  
بسكال العظيم بابا الكنييسة الرومانية الموقر وبواسطة وكالة نائبه  
« جبلين » رئيس أساقفة « أريلس » فإن هذا الشخص سيعتبر متهما  
بالتعدى ، فإن لم ينفذ معه التحذير الكافى بالتراجع عما أقدم عليه  
فسيعاقب عقابا صارما وينفى نهائيا من مملكتنا .

« وزيادة على ذلك فأنه إذا رغب أحد من نبلائى أو فرسانى أو  
مواطنى الملهمين بروح الرب فى أن يتنازل عن بعض ما يملك لهذه  
الكنيسة ذاتها من أجل خلاص روحه وأرواح أقاربه فأننى أمنحه  
الحرية فى تنفيذ وصيته الطاهرة ، وتعتبر هبته هذه نافذة شرعا ،  
وتؤخذ من أملاكه .

« أن قرار هذا التنازل وتقدير الأشياء التي تمت قد وضعت وتأكدت بامضائنا في سنة ١١١٠ من مولد سيدنا ، وفي الدورة الثالثة ، وفي زمن بابوية بسكال الثاني بابا الكنيسة الرومانية ، ووقت أن صار رئيس اساقفة « أريس » « جبلين » نائب الكنيسة الرسولية هو البطرارك المنتخب لبیت 'القدس' شهد على ذلك :

- أرنولف المخلان : رئيس الشمامسة
- ارشارد الكاهن
- استاس جرتنيه
- أنسلم قيم برج داود
- رالف دي فور تيانيتو ، فيكونت بيسلوس
- سيمون بن الدوق
- انفريد رجل الدين
- جيرار الحاجب
- وكثيرون غيرهم

- ١٣ -

كان جلالة الملك الفاتح العظيم والعابد لله بالحق يسعى دائما وابدا من غير ملل لزيادة رقعة المملكة التي عهد الرب بها اليه ، وحدث في فبراير من تلك السنة ذاتها ان اغتتم فرصة مجيء بعض الشوانى لتمضية الشتاء في المملكة فجمع من كل رحاب مملكته عسكريا بقدر ما أستطاع الصليبيون تقديمه وحاصر بهم بيروت .



وتقع هذه المدينة على ساحل البحر في فينيقية بين جبيل وصيدا ، وهى إحدى المدن الكبرى التابعة لأسقفية صور ، وكانت فى القديم موضع رعاية الرومان الذين اعتبروها إحدى مستعمراتهم ومنحوها حقوق المواطنة ، وحين كتب « أولبيان » عن ولاية فينيقية فى « مختصره » تحت عنوان « الاحصاء » قال : « تمتاز مستعمرة بيروت - الواقعة أيضا فى نفس الولاية - عن غيرها بالعطف السامى يحبوها به الامبراطور » ، ويتكلم هارديان المبجل عنها فى خطبة من خطبه بأعتمارها مستعمرة « أوغستوس التى تتمتع بالحقوق الايطالية » ، ولم يقتصر هذا الامبراطور على منح بيروت الحقوق الايطالية فحسب ، بل زاد فخصها بميزة أخرى هى حقها فى تأسيس المدارس الرومانية بها وهى ميزة لم تمنح الا لقلّة من المدن .

ويطالع المرء فى الكتاب الأول من القانون الدستورى الذى يبدأ بقوله : « وفى بيروت يوجد أيضا مدرس القانون دوروثيوس » ، والمعتقد أن اسم هذه المدينة كان فى زمن سابق جدا هو « جيرسى » نسبة الى مؤسسها « جيرسيوس » خامس أبناء كنعان .



ولما وصل الملك بلدوين أمام بيروت استدعى اليه « برترام » كونت طرابلس ، طالبا منه الانضمام اليه ، وشرعا فى الحال فى الاطباق عليها أطباقا عنيفا ، ولكن أقيلت السفن من صور وصيدا وعليها المحاربون الشجعان استعدادا لمساعدة المدينة ، ولو اتحدت لهؤلاء الناس حرية الذهاب والمجيء لتبددت هباء جميع محاولات الذين حاصروها ، لكن حين وصل الأسطول المسيحى الذى كان الملك يعتمد على معاونته فى الحصار خافت تلك السفن المعادية أن تخرج الى عرض البحر ، وسرعان ما ارتدت الى الميناء ، ومن ثم لم يعد الأهالى قادرين على القدوم من البحر أو الخروج اليه .

وكان على مقربة من المدينة غابة من الصنوبر استطاع الجيش المحاصر أن يحصل منها على كميات ضخمة من الخشب تصلح لصناعة سلال التسلق وكل أنواع الآلات ، فصنعوا منها الأبراج الخشبية وآلات الرمي وشتى صنوف العدد النافعة فى الحصار ، وواصلوا هجومهم على المدينة بصورة لم تدع للمدافعين عنها ولو ساعة واحدة من الراحة بالليل أو النهار ، وأخذ الصليبيون يتناوبون العمل فى دوريات الواحدة منها بعد الأخرى ، فانهكوا قوى خصومهم ان حملوهم من الجهد مالا يطيقون ، واستمر الصليبيون مدة شهرين فى هذه المهمة بهمة صارمة ، وبينما كانوا فى أحد الأيام يشنون غاراتهم على أماكن متفرقة من المدينة فى وقت واحد وبعنف أكبر مما يتطلبه العمل اذا برهط من العسكر قد نفذ صبرهم فقفزوا على السور من الأبراج الخشبية التى كانت مسندة الى الجدران ، واقتدى بهم غيرهم ، وانطلق غير هؤلاء يتسلقون سلال الصعود ثم هبطوا جميعا وراء السور ، وشقوا طريقهم الى داخل المدينة .

لم يجد الأهالى حينذاك بدا من الفرار الى الساحل مما مكن جيشنا من دخول المدينة من غير أن يلقي كيدا واستحوذ عليها كلها ، ولما جاء الخبر بأن الملك وعسكره اقتحموا البلد وثب الصليبيون الموجودون على ظهور السفن الى اليابسة واحتلوا الميناء ، وردوا الى وراء بسيفهم جموع الأهالى الذين فروا على وجوههم عسى أن يجدوا مكانا آمنا ، وأرغموهم على الرجوع حتى صاروا وسسط أعدائهم ، ولما شاء سوء طالع أهل البلد أن يحصروا بين فريقين معادين لهم فقد ضاقت بهم السبل وضلوا الخطى ، فكانوا يمضون تارة نحو هذا الفريق وتارة نحو الفريق الآخر ، فتناوشتهم سيوف الجانبين فأهلكتهم .

وأخيرا استنقذ الملك هذه المذبحة التى لاتعرف الرحمة ، فأمر  
أن ينادى بوقفها ، ومن بالحياة على من بقى على قيد الحياة من  
المخلوبين الذين راحوا يلتمسون رحمته .

وكان الاستيلاء على هذه المدينة يوم ٢٧ إبريل سنة ١١١٠ من  
ميلاد سيدنا .

## - ١٤ -

وأبحر فى هذه السفينة ذاتها طائفة من الحجاج من الجزر  
الموجودة فى الغرب ، لاسيما من البلاد المسماة بالنرويج بعد أن  
سمعوا بخبر استيلاء أتباع المسيح الصادقين على مدينة بيت المقدس  
الطاهرة ، ومن ثم رغبوا فى الذهاب إليها طمعا منهم فى تأدية  
الواجب الدينى ، لذلك أعدوا أسطولا لايأس به وأقلعوا ، فهب عليهم  
ريح رخاء ظلوا معها مبحرين فى القنال الانجليزى حتى اجتازوا  
المضيق الموجود بين كالب وجبل أطلس ودخلوا بحرنا وساروا  
مصائبين لساحله حتى بلغوا يافا ، وكان قائد أسطولهم شابا فارح  
القامة ، أبلج الطلعة هو أخو ملك النرويج ، فلما القوا مراسيهم  
بالميناء ونزلوا الى البر يعموا وجوههم مباشرة شطر القدس وهى  
الغاية المنشودة من حجبهم هذا .

ولما ترامى نبا وصولهم الى سمع الملك أسرع الى مقابلتهم  
ورحب ترحيبا كريما بالأمير محييا آياه ، وحاول فى اثناء حديثه  
الودى ان يتأكد عما اذا كانت هذه الحملة البحرية تعزز البقاء فى  
المملكة بعضا من الوقت ، فان كان الأمر كذلك فهل يقبلون ان يبذلوا  
عن طيب خاطر بعضا من وقتهم لخدمة المسيح حتى يستطيع  
الصلابيون بفضل جهودهم الحماسية أن يزيّدوا رقعة ما يملكون  
باستيلائهم على واحدة من مدن الكفار ؟ .

وبعد أن تشاور الاسكندرانيون فيما بينهم أجابوه بأنهم ما جاءوا  
الا بهدف تكريس أنفسهم لخدمة المسيح ، وزادوا على ذلك بأنهم  
على اتم أهبة للابحار على وجه السرعة الى أى مدينة سساحلية  
يريد الملك وجيشه محاصرتها ، ولم يطلبوا ثمنا لقاء خدماتهم هذه  
سوى امدادهم فقط بما يلزمهم من الطعام .

أصاخ الملك الى ما قالوه والفرحة تغمره ، وسرعان ما تجمع  
لديه حشد كثيف من جند المملكة صار جيشا ضخما زحف به لحظة  
إبحار الأسطول من ميناء عكا وأسرع ما وسعه الاسراع حتى وصل  
الجيشان أمام المدينة فى وقت واحد تقريبا .



وصيدا ، مدينة بحرية بالغة الأهمية ، وتقع بين بيروت وبين  
صور العظيمة التى تعتبر جزءا هاما من فينيقية ، وكثيرا ما ترد  
الإشارة اليها فى كتابات المؤلفين القدامى والمحدثين على السواء ،  
فمن ذلك أن سليمان فى كتاب الملوك يكتب الى حيرام ملك صور  
فيقول :

« والآن فأمر أن يقطعوا لى أرزا من لبنان ، ويكون عبيدى  
مع عبيدك ، وأجرة عبيدك أعطيك اياها حسب كل ما تقول ، لأنك تعلم  
أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين » (١١) .

ويشير سيدنا أيضا فى الانجيل الى هذه المدينة فيقول : « لو  
صنعت فى صور وصيدا القوات المصنوعة فيكما لتابنا قديما فى  
المسوح والرماد » (١٢) .

---

(١١) حلوك أول ٥ : ٦ .

(١٢) متى ١١ : ٢١ .

ونقرأ فيما نقرأ أن المدينة تأسست على يد كنعان حيث لانزال  
الى اليوم نحفظ باسم منشئها ، كما انها تعد واحدة من المدن  
العظمى التابعة لمطرائية صور \*

وهكذا أهدقت قواتنا بصيدا بحرا وبراً حتى تملك الأهمالي  
الخوف بصورة أدركوا معها ألا جدوى من وراء مقاومتهم هذه  
القوات وأيقنوا أنهم عاجزون عن الصمود فى وجهها ، ودفعتهم  
الرغبة فى تجنب الخطر المهدق بهم الى محاولة الحصول بالحيلة  
على ما يعجزون عن نيله بالقوة \*

\* \* \*

وكان فى حاشية الملك رجل يدعى بلدوين وكان من اخلص  
الناس له ، ويعتبر حاجبه الخاص ، وكان فى بادئ أمره وثنيا ،  
ثم طلب أن يعمده ، فلم يكثف الملك بدافع من حماسه الدينية أن  
يرحب به فى جرن المعمودية المقدس ، بل سماه باسمه ، وجعله واحدا  
من خاصكيته \*

وان كان كبار رجال صيدا قد أجمعوا عزمهم على التماس أى  
وسيلة لتحرير أنفسهم ، فقد أرسلوا فى السر وسطاء لمفاوضة هذا  
الرجل ، ووعدوه بقدر كبير من المال وبأملاك شاسعة فى المدينة أن  
هو تمكن من اغتيال الملك فيخلصهم بذلك من خطر كبير ، وكان هذا  
الرجل بلدوين ( المنتصر ) مقربا من الملك كل القرب اثيرا عنده ،  
وكثيرا ما كان يصاحب مولاه ولأحد معهما ، بل انه كان يرافقه  
حتى حين يمضى لقضاء حاجته الطبيعية ، ومع ذلك فقد رحب  
بالاقتراح الذى عرضوه عليه ووعدهم بتنفيذه ، والواقع أنه كان  
ضالعا تماما فى الجريمة ، ولم يكن ينتظر الا اللحظة المناسبة لاتجاز  
فعلته \*

غير أن طرفا مما دبروا ترامي الى علم بعض مسيحيي المدينة الذين خافوا أن يتم هذا العمل البغيض بسبب غفلة الملك ، فبعثوا إليه خطابا مجهولا يفصلون فيه المؤامرة ، وربطوه بسهم رموه فوقه في وسط جيشنا ، وشاعت الصدفة أن يقع الكتاب في يد الملك فيتبلبل خاطره أشد بليلة ، وحق له أن ينزعج ، فاستدعى إليه في الحال جميع كبار نبلائه وسألهم ماذا يشيرون عليه فيتبعه ، ثم جاءوا بالذئب أمامهم فاعترف بجرمه ، وقضى القضاء بموته شنقا .

حين ذاع فشل هذه الخطة حاول الأهالي بلوغ غايتهم بطريقة أخرى ، إذ بعثوا رسلا يلتمسون الاذن لكبار رجالهم بمغادرة صيدا ، على أن يبقى الأهالي على ما كانوا عليه من قبل وفق شروط مقبولة حتى يتابعوا زراعة الحقول ، فأجيبوا الى ما التمسوه ، واستسلمت المدينة ، وأذن لوجه القوم بالرحيل من غير مضايقة والذهاب حيثما شاءوا ، مستصحبين معهم حريمهم وأولادهم .

وبادر الملك في لحظته هذه فتفضل على أحد نبلائه وهو « أستاس جرنبيه » فأقطعه المدينة ( أى صيدا ) وجعلها وراثية في عقبه ، فلما تم ذلك استأذن رجال الأسطول ( النرويجي ) في العودة من حيث جاءوا فأذن لهم فرحلوا محملين بالهدايا الثمينة ، وعادوا الى بلادهم ، تشيعهم دعوات الجميع .

وكان الاستيلاء على المدينة يوم ١٩ ديسمبر سنة ١١١١ من مولد سيدنا .

- ٩٥ -

مات في غضون هذا الوقت « جبلين » بطارك بيت المقدس الطيب الذكر ، فاختر مكانه ( من غير تأييد الإلهي في رأينا ) أرتولف كبير رجال الدين الذي عرف على السنة العامة بذى التاج المشين ، وهو

الرجل الذى اشررت اليه كثيرا فى الصفحات السابقة ولكن « حتى لا يملك الفاجر ولا يكون شركا للشعب » (١٣) ، ظل « ارنولف » يتابع نهجه الذى اخذ نفسه به سابقا ، ثم زاد فارتكب كثيرا من المعاصى تفوق ما ارتكبه من قبل ، منها أنه زوج بنت أخته (١٤) للورد « أسكاس » جرنبيه « أحد عظماء الملكة وحاكم المدينتين الرائعتين : صيدا وقيصرية ، وحين زفها اليه أقطعه معها أحسن أرض من أوقاف الكنيسة وهى « أريحا » بكل ملحقاتها مع دخلها السنوى الذى يقال انه يبلغ اليوم خمسة آلاف قطعة من الذهب ، كما أن ارنولف هذا لم يتورع - حتى وهو فى كرسي البطركية - عن ممارسة حياة الدنس حتى صار عاره امرا معروفا للجميع غير خاف على احد ، ولم يحاول هو كتمان هذه الحقيقة فبذل النظام الذى كان القادة الأوائل قد ارسوا قواعده بعد تدبر دقيق فى كنيسة بيت المقدس ، فسن هو شرائع جديدة ، كما أغرى الملك بالزواج من امرأة أخرى فى الوقت الذى كانت زوجته لاتزال حية ، كما سسنسوق ذلك فى موضع آخر .

## - ١٦ -

لم تكد تنقضى فترة قصيرة على سقوط صيدا حتى حشد القوم بفارس جيشا ضخما أرادوا من ورائه التظاهر بماهم عليه من قوة ، حتى يتسنى لهم التفاوض فى أيامهم القادمة ، وانطلقوا بهذا الجيش الى بلاد الشام فكانوا وباء استشرى خطره فى المسيحيين ولم يسلموا منه منذ أول قدوم اللاتين حتى السنة الأربعين من تأسيس المملكة ، وكان هذا الطاعون أشد فتكا فيهم من الحية « هيدرا » ذات الرؤوس

(١٣) أيوب ، ٣٤ : ٣٠ .

(١٤) هى الكونتيسة أوليدا الصقلية الثرية ، ثم بدا له وقد دنسا أجله أن يتوب عن أفعاله ، وأن يرد اليه زوجته السابقة .

التسعة التى ما ان تقطع لها رأس حتى تظهر أخرى مكانها تزيد من شمرها ، فقد كان يحدث كل عام تقريبا أن تخرج من قلب فارس جموع كثيفة من ذلك الشعب البفيض ، وينساب فى أرتال ضخمة تكاد تغطى وجه البسيطة ، ولكن الرحمة الالهية عطفت على آلامنا فأقامت مملكة استطاعت أن تقف فى وجه سفاهة الفرس المستبدين ، وتمثلت هذه المملكة فى شعب الايبيريين (١٥) الذى شاعت رحمة الرب أن يتزايد فى العدد والياس بفضل نجاحه المتواصل ، حتى تمكن من القضاء على جبروت الفرس الذين كان الايبيريون من قبل يتوجسون منهم خيفة ، ويفزعون منهم فزعا شديدا ، أما الآن فقد جاء دور هؤلاء وأصبحوا أكثر من الفرس جنداً ويفوقونهم فى استعمال السلاح ، وهكذا فإن السلاجقة الذين ظلوا مدى طويلا يبيتون الفزع - حتى فى أقصى الممالك عنهم - أصبحوا الآن يحسون بالرضا ان هم وجدوا شيئاً من السلام ولو مؤقتاً داخل حدود بلادهم .



ونرى أن ايبيريا المعروفة أيضا باسم « افسجوييا » تتصل بفارس من الشمال ، وأهلها قوم طوال القامة عرفوا بقوتهم الجثمانية وبطشهم وبحبهم للقتال ، وقد مكنتهم ممارستهم الحروب وهجماتهم المستمرة من أن يمرغوا فى التراب أنف القوات الفارسية التى أصبحت تشعر بانها غير مكافئة لهم ، ومن ثم أصبح الفرس جزعين على حالهم وكفوا عن اجتياح أراضي الغير .

---

(١٥) أشارت الترجمة الانجليزية ( ج ١ ص ٤٩٠ حاشية رقم ٦٧ ) الى أن ايبيريا <sup>IBERIA</sup> التى نسب اليها هذا الشعب كانت إحدى ولايات الامبراطورية البيزنطية الادارية قبل مقدم السلاجقة ، وتقع جنوب القوقاز .



أقد خرج ذلك الجيش الضخم (أعنى سلاحفة فارس) كما قلت من بلاده مارا ببلاد العراق فعبّر نهر الفرات العظيم مخربا النواحي التي يمر بها هناك ، وحاصر تل باشر حيث أمضى شهرا بأكمله يبذل الجهود المضنية أمام هذا المكان ، لكنها ضاعت هباء ، حتى اذا يئس فى النهاية من النجاح رأى التخلّى عن هذه المحاولة فمضى الى حلب ، واذا كان يعتمد على كثرة عدده فقد كان يطمع أن يرغم تانكريد على الخروج والاندفاع فى مهاجمته دون أن يأخذ حذره . غير أن تانكريد كان رجلا كيسا لا يصدر عنه عمل الا عن روية وتفكير ، فبعث بالكتب على ايدي رسل من قبله الى بلدوين يلتمس منه فى ضراعة أن يسرع ما وسعته السرعة للحضور لنجدته والوقوف الى جانبه ، فجمع بلدوين فى الحال عسكره ، واستنصحب معه « برترام » كونت طرابلس ، وزحفا الى تلك الناحية بجيوشهما ، فلما وصلا الى مدينة « الروح » وجدا تانكريد قد سبقهما اليها ، فساروا جميعا جنبا الى جنب ، وتقدموا ضد الخصم الذى وجدوه معسكرا عند شيزر حين بلغوها .

وأخذ كل من الجيشين يطالع الآخر ويتأمله ، وانتهى الأمر أخيرا بانصراف الترك عن القتال ومغادرة تلك الناحية ، واذا ذلك استأذن الصليبيون بعضهم بعضا فى الرجوع فعاد كل الى بلده .

- ١٧ -

فى هذا الوقت كانت جميع المدن الساحلية الممتدة من اللانقية بالشام حتى عسقلان - التى هى آخر مدن المملكة - قد صارت فى يد الصليبيين ، باستثناء صور التى كانت لا تزال وحدها فى أسر الجاحدين ، ولما شاءت ارادة الرب أن يتمكن الملك من تحرير كل ماسواها فقد أزمع بلدوين الأول على أن يكرس نفسه لتخليص صور ايضا ، فجمع كل السفن التى أمكنه العثور عليها على امتداد

الساحل كله ، وجعلها أسطولا وجهه للسير الى تلك المدينة بأقصى سرعة ، وكذلك حشد كل القوات البرية ، وجمع الناس من شتى رحاب المملكة ومشى بهم الى هناك ، وجعل من عسكره دائرة أحاطت بالمدينة من كل جهاتها وحاصرتها .



وتقع صور في قلب البحر أشبه بجزيرة تحيط بها المياه من كل جانب ، وهى عاصمة فينيقية وقصبتها الدينية التى تمتد من نهر « بانياس » الى « بئرا انكسيا » على حدود « دورا » وتضم فى نطاقها أربع عشرة مدينة كبرى .

وسنفصل فيما بعد جميع المزايا التى يتمتع بها موقع هذه المدينة حينما نأتى الى رواية خبر حصارها النهائى والاستيلاء عليها بمشيئة الرب .



وهكذا فرض الحصار على صور .

ولما كان بلديون شديد التطلع لتجاح مشروعه فإنه صرف نفسه قلبا وروحا الى مراوحة المكان ومفاداته بشتى أساليب المضايقة حتى يحملة على الاستسلام ، ولم يترك وسيلة من وسائل الحصار الا وطبقها ، بإذلا غاية جهده لادخال مدينة صور تحت سيطرته ، وراح يواصلها بسلسلة من الغارات قد أخذ بعضها بحجز البعض الآخر ، فانهكت قوى الأهالى ، وزلزلت أسوار المدينة وأبراجها من كثرة ما كانت ترميها به الآلات ، كما سقط على البلد وابل غير منقطع من السهام والرماح ، وعمد بلديون - رغبة منه فى صب الأهوال على

المدينة -- الى اصدار امره ببناء برجين خشبيين اعلى من جميع  
الأبراج الحجرية ، حتى أصبح من اليسير على المرء - وهو واقف  
فوقهما - أن يشاهد المدينة كلها تحته . وقد استفاد بلديون من هذين  
البرجين أجل فائدة لما كانا ينزلانه بالبلد من الخراب والدمار اللذين  
لم يكن هناك سبيل للنجاة منهما .

غير أن أهل البلد أثبتوا أنهم رجال انكباء وابطال مغاوير ،  
بارعون فى تدبير كل أنواع المكائد ، فكانوا يقابلون كل خطة بخطة  
مثلا ، ويجدون فى دفع كل ضرر ينزل بهم بضرر مثله يلحقونه  
بالصليبيين ، من ذلك أنهم جلبوا كميات كبيرة من الأحجار والاسمنت ،  
واعتلوا برجين يواجهان آلاتنا الحربية تمام المواجهة ، ثم راحوا  
يزيدون فى ارتفاعهما زيادة تشاؤ ارتفاع أبراجنا ، وسرعان ما صار  
برجاهما فى وقت قصير جدا أعلى من الآلات النخشبية التى أمامهما ،  
والموجودة خارج الأسوار ، وشرع من بهما من مدافعيهم يصبون  
النيران على الآلات الحربية التى تحتهم ، وتأهبوا لحرق كل شيء  
دون أن يجدوا معارضا لهم .

حينذاك رأى الملك أن كل خطة يدبرها تقابل فى الحال بخطة  
مثلا تفسدها ، هذا بالإضافة الى ما أصابه من انهالك بسبب مواصلة  
العمل الطويل الذى استمر أربعة شهور أو أكثر دون أن يجنى منه  
أى فائدة ، وأن ذلك أدرك أنه مضيع وقته أمام أسوار صور ، فتخلى  
عن محاولته هذه ، مغلوبا على أمره فى مشروعه ، ورفع الحصار  
عن المدينة وانكفأ عائدا الى عكا ، وفرح الباقون بالرجوع الى  
ديارهم .

مات في هذه الاثناء تانكريد ذو الذكر الطيب والمخلص للسيد ،  
وستظل كنيسة القديسين الجامعة تذكىه وتذكر اياديه عليها وتشيد  
بتقواه ، وحدث وهو مسجى على فراش موته ان كان ممن يقومون  
على خدمته شاب اسمه « بونس » هو ابن برترام كونت طرابلس ،  
ويقال انه لما عرف تانكريد ان قد نلى يوم رحيله عن هذه الدنيا امر  
بان يحضروا اليه كلا من زوجته سيسيليا ابنة فيليب ملك الفرنجة  
وبونس ، ونصحهما ان يتزوج كل منهما الآخر بعد موته ، وتم تنفيذ  
الوصية بحذافيرها اذ لم يكذ تانكريد يسلم انفاسه ، ويتبعه برترام  
كونت طرابلس والد الشاب بونس حتى تزوج بونس هذا من ارملة  
تانكريد .

كما ان احد (١٦) اقارب تانكريد واسمه « روجر بن ريتشارد »  
خلفه حسب وصيته الأخيرة في اماره أنطاكية على شرط أن يردها  
الى بوهيموند الصغير بن بوهيموند الكبير حين يبلغ السن القانونية  
ويطالب بأنطاكية ، ويكون رده لها بلا منازعة أو جدال .

وقد تم دفن تانكريد العظيم فى ظلة كنيسة الرسل فى سنة  
١١١٢ من مولد سيدنا .

ولما جاء الصيف التالى ، أعنى صيف سنة ١١١٣ من مولد  
سيدنا ، بعثت فارس للمرة الثانية بعسكر من عسكرها لا يحصيهم  
العد ، فكانوا اشبه ببركة أقذار يتفجر منها على الدوام الماء الأسن  
المؤدى الى نشر الوباء ، وكان هذا العسكر بقيادة امير قوى شريف

---

(١٦) قيل انه كان ابن أخت تانكريد .

المنبت اسمه « مودود » الذى سارت فى ركابه قوات كثيرة يعجز العد  
عن احصائها فاجتاز بهم المناطق الوسطى حتى بلغ الفرات حيث  
سار على خطة خالف بها خطة الجيوش التى سبقت جيشه والتى  
جرت عادتها على تجربة قوتها ، لكن خاتمة خطة مودود هذه المرة  
دلت على انها كانت تباين كل ما سبقها من حيث التدبير والقصد ،  
اذ عبر كل بلاد اعالى الشام جاعلا دمشق على يساره ، ومر بطبرية  
الواقعة بين جبل لبنان والساحل ونصب معسكره عند الجسر  
الموجود على نهر الأردن .

فلما وصل هذا الخبر الى الملك - وكان يعرف اعتماد خصومه  
على كثرة عددهم - دعى لمساعدته كلا من روجر بن ريتشارد امير  
انطاكية وكونت طرابلس ، ولكنه تعجل الرحيل مع عسكره قبل وصول  
هذين الاميرين ، ونصب خيامه فى الناحية الموجد بها عدوه ، فما  
كاد الفرس يكتشفون ذلك حتى ادركوا انهم فى حاجة الى التدبير  
الحربى اكثر من حاجتهم الى الوفرة العددية .

ومن ثم ارسلوا الفى فارس ، وامروا الفا وخمسمائة منهم ان  
يكنوا لعسكر الملك فى بعض الطريق ، اما الخمسمائة الباقون فقد  
كلفوهم بالتقدم فى غير نظام حتى تجوز المكيدة على الملك فيمضى  
فى مطاردتهم . وتم تنفيذ كل شئ وفق ما رتبوا ، اذ ما كاد الملك  
يبصر هؤلاء الخمسمائة فارس يسيرون بجيادهم غير مبالين بشئ  
ولا آخذين حذرهم كأنهم يفرون حتى استدعى اليه رجاله واندفع بهم  
اندفاعا هوج ضد هؤلاء الفرسان وانطلق يطاردتهم فى طيش ، فاذا  
به يسقط فى الكمين الذى نصبوه له ، ومالبت ان طلع عليه الأعداء  
من مخابئهم ، فاذا هم قوة كبيرة ، كما عاد الخمسمائة فارس  
وانضموا اليهم ، وتجمعت هذه القوات فشنت هجوما شرسا على  
رجالنا الصليبيين الذين عمدوا فى أول الأمر الى مقاومتهم بالسيوف

وقاتلوهم قتالا عنيفا لعلهم يردونهم على أعقابهم ، ولكن كادت الغلبة للعدو بسبب كثرتة التي اجتاحت رجالنا وأرغمتهم على الفرار ، ولم يسعقهم هذا القرار بالسلامة بل جرت مذبة مروعة في صفوف الهاريين ، حتى ان الملك ذاته ألقي بعلمه الذي كان في يده الى الأرض ، وكانت نجاته هو احدى المعجزات ، وجرى مثل هذا على أرنولف البطرك الذي كان معه ، وعلى غيرهما من سادات المملكة ، ان فروا مخلفين وراءهم المعسكر بكل متاعهم .

وهكذا استولى العدو على مخيمنا ، وعوقبنا على خطايانا ، فذب الاضطراب في صفوف شعب الرب على أتبج ما يكون الاضطراب ، ويرجع السبب في هذه النكبة الى الملك الذي لم يطق صبرا حتى تصل اليه النجدة اطمئنانا منه الى شجاعته الذاتية . مع أن روجر أمير أنطاكية وكونت طرابلس كانا قرييين منه كل القرب ، وليس من شك في أنهما كانا سوف يصلان اليه في مدى يوم أو يومين .

وهلك في ذلك اليوم ثلاثون فارسا صليبييا وألف ومائتا جندي من المشاة ، ثم وصل القائدان الكبيران القويان اللذان أشرنا اليهما حالا ، ( وهما أمير أنطاكية وكونت طرابلس ) في أعقاب هذه الملمة ، فلما أحيطا خبرا بالنكبة التي ألمت بالملك لأماه على تهوره ، ثم انضمت القوات كلها بعضها الى بعض حتى صارت جيشا واحدا عسكر في الجبال المجاورة حيث كانوا يستطيعون أن يطلوا على جيوش العدو وهي تحتهم في الوادي .

ولما أدرك خصومنا ان المملكة خلت من المدافعين عنها بعثوا زمرا من عسكرهم الى كل ناحية فاجتاحت الاقليم بأجمعه وجاست

خلال الديار سافكة الدماء فى كل جهة مرت بها ومضرمة النيران ،  
ناهية القرى كما أمسكت بالفلاحين وسارت فى الاقليم كله كما لو  
كانت تحتله .

ولقد هجرنا فى تلك الأيام خدمنا وكذلك الشرقيون الساكنون  
فى قرانا المسماة بالمستعمرات ، وانضموا الى كتائب العدو  
وارشدوهم الى كيفية القضاء علينا ، وكان ذلك أمرا ميسورا عليهم  
لمعرفتهم التامة بكل تفاصيل وضعنا ، ان ليس هناك وباء أشد فتكا  
بالمرء وأشنع فعالية من عدو داخل بيته .

واذ استرشد العدو بهؤلاء الرجال فقد أصبح أقدر عن ذى قبل  
بسبب مساعدتهم اياه فاستمر فى عيشه بالمدن والقلاع ينهب الغنائم ،  
ويأسر الناس ، ومجمل القول ان الملكة بأجمعها قد آلت الى حال  
من الفزع الشديد أدى الى عدم تجرؤ أحد ما على الخروج من  
التحصينات .

- ٢٠ -

ولقد حدث حوادث أكمل فزع قومنا اكمالا تاما ،  
ذلك ان العسقلانيين كانوا يعرفون ان الملك قد اضطرت الظروف  
للبقاء فى طبرية مع جميع قوات المملكة ، وأن العدو يسيطر فى  
الواقع على كافة أرجاء الناحية ، ومن ثم تسللوا كاللدود القارض فى  
عسكر ضخم الى الاقليم الجبلى ومضوا يحاصرون بيت المقدس التى  
كانت مجردة اذ ذاك تماما من كل قوة تدافع عنها ، فلم يكن أحد  
يقابلونه خارج المدينة بمنجاة من وقوعه فى أيديهم قتيلا أو أسيرا ،  
كما أشعلوا النار فى تلال الغلال التى جمعها الفلاحون فى الأجران

بعد أن استوت على سوقها ، وظل الجاحدون مقيمين بضعة أيام أمام بيت المقدس ، وإن كان كافة أهلها قد أخذوا حذرهم منهم فظلوا مقيمين وراء أسوارها ، ثم تملك الخوف المهاجمين من عودة الملك فارتدوا أخيرا الى بلادهم .

وكان الصيف وقتذاك يخلى مكانه سريعا لفصل الخريف الذى جرت عادة السفن فيه أن تبدأ بجلب الحجاج الذين ما أن علم من جاء منهم بالأموال الجسماء التى يصطليها الملك وشعبه ، حتى أسرع مشاتهم وفرسانهم بالانضمام عن طيب خاطر الى جيشه ، مما نجم عنه تزايد أعداد عسكرينا يوما بعد يوم زيادة ملحوظة ، وهو أمر لم يخف على فؤاد عسكر الجاحدين الذين استتبد بهم اللرب من أن يستعد الصليبيون بهذه الامدادات الضخمة للانتقام مما نزل بهم من النكبات ، ومن ثم شدوا رحالهم الى دمشق ، وفعل الصليبيون قعلهم فكروا راجعين الى ديارهم .

وحين وصل الى دمشق مودود قائد الجيوش المعادية الذى كان قد أنزل كثيرا من البلوى بالمملكة اغتاله الحشاشون ، ويقال أن ذلك الاغتيال تم بعلم الملك طغتكين وموافقته إذ كالت الشائعة انه لم يكن يأمن بأس هذا القائد ، ويخشى أن يحرمه من المملكة .

- ٢١ -

بعد رجوع الجيش الصليبي والجميع الى ديارهم قدم على الملك رسول يعلن اليه وصول ( أدايد Adelaide ) كونتيسة صقلية الى ميناء عكا ، وكانت هذه السيدة النبيلة هى أرملة روجر الملقب ببورصة أخى روبرت جيسكارد ، وكانت فاحشة الثراء ، واسعة النفوذ ، وكان الملك قد بعث فى السنة المنصرمة اليها بعض اشرافه يلحون عليها أن تقبل الاقتران به ، فانتهت رسالته هذه الى ابنها



روجر الذى صار فيما بعد (١٧) ملكا على صقلية وشاورته فى الأمر ويبدو أنهما ادركا ما وراء هذا الرجاء من خير للجاذبين ، فوافقا عليه وإن أوفقا قبولهما على أن يستجيب الملك لشروط اشتراطها ، ننص على أنه إذا مات الملك ( بلدوين ) وقد أنجب طفلا من الكونتيسة آلت المملكة الى هذا الوليد دون أية معارضة أو منازعة فى الأمر ، أما أن وافاه أجله دون أن ينسل ورثه ابنها الكونت روجر وخلفه ملكا على المملكة لا يشساققه فى ذلك أحد ، ولا ينكره عليه جاحدا ، وكان الملك قد أوصى رساله - حين رحيلهم عنه - أن يستجيبوا لكل ما تشترطه الكونتيسة ، والا يدعوا وسيلة من الوسائل الممكنة الا عمدوا اليها ليعودوا وفى صحبتهم الملكة ، لأنه كان قد سمع بثرائها وأنها تملك من كل شيء قدرا عظيما بفضل ما بينها وبين ولدها من حسن الرابطة ، على حين أنه هو ( أعنى الملك ) كان على العكس منها مملقا ذا متربة ، لاتكاد موارده المالية تكفى متطلباته اليومية وسداد رواتب فرسانه ، ومن ثم فإنه تطلع أن يزيد هذا الزواج من دخله الضئيل بفائض مما تملكه ( أدليدا ) وهو فائض ضخم .

ووافق الرسل عن طيب خاطر بالشروط التى قدمت اليهم ، واستجابوا لماطلب منهم ، واقسموا اليمين على ذلك، مؤكدين أن الملك وكبار نبلائه سوف يوافقون على الشروط من غير غش ولا نقض .

حينذاك استعدت الكونتيسة للسفر ، وجهزها ابنها بكل مايلزمها، فأوسقت السفن بالحنطة والنبيد والزيت واللحم القديد ، ورتب عليها الرجال وهم فى كامل أسلحتهم ، والفرسان بخيولهم المطهمة، وحملت الكونتيسة معها قدرا كبيرا من المال ، وأخذت معها كل متعلقاتها دون أن تترك وراءها شيئا ، ووصلت الى بلادنا كما ذكرنا .

كان قد أحكم تدبير هذا المشروع البطرك « أرذولف كما شرحنا من قبل خديعة منه لهذه السيدة الشريفة ، ان لا يستطيع أحد ان ينكر انه قد غرر بها ، لأنها ظنت لطيفة قلبها وصفاء نيتها ان الملك فى وضع يجيز له شرعية الزواج منها ، وهو أمر كان يبعد كل البعد عن الحقيقة ، لأن زوجته التى كان قد عقد قرانه عليها عقدا شرعيا فى الرها كانت لاتزال حية ترزق . وبعد ان أرست الكونتيسة تجددت كل الوعود والأيمان على نفس الصورة التى تمت من قبل فى صقلية ، وكان هذا التجديد فى حضرة الملك والبطرك وكبار رجال المملكة ، ولكن لما كان هذا الحلف قد تم بليل وبقصد شرير ، ولم يكن صادرا من قلب صاف فكان أمره الى الله الذى لم ينعم على هذه المرأة - رغم طيبتها - ببركة الانجاب المعتاد طول اقامتها بالمملكة ، وانتهى الأمر أخيرا بأن حل الشجى محل الغبطة ، والحزن محل الفرحه ، كما سنذكر ذلك فى الصفحات التالية ، ذلك لأن الأشياء التى تبدأ بداية سيئة قل ان تنتهى بالفلاح ، وسع ذلك فان وصولها أجدى - بعض الوقت - على المملكة كثيرا من النعم ، حتى ان أقل ما يقال هو ما قيل (١٨) : « من ملئه نحن جميعا أخذنا ، ونعمة فوق نعمة » .

## - ٢٢ -

حدث فى تلك الأيام ان اجتاحت المجاعة بلدة الرها ، ويرجع بعض السبب فى ذلك الى قسوة الجو التى أقسدت الزرع وأضرمت به ، كما يرجع بعضه الآخر الى وقوع الناحية بين المتربصين لها بالسوء ، واحدق العدو بها من كل حذب وصوب احداقا بث الضوف منهم فى نفوس المقيمين بها ، حتى حال بينهم وبين العنسية بزراعتها ، مما ترتب عليه اضطرار النازلين بها وبالأقاليم المجاورة

(١٨) يوحنا ١ : ١٦ .

لها تحت شدة الحاجة الى أن ياكلوا خبز الشعير بل والمخلوط أحيانا  
بحب الصنوبر .



اما أرض لورد جوسلين فقد نعمت بالسلام لوقوعها على ذلك  
الجانب من الفرات الذي وفر لها الغلة وأسعفها بكثير من مواد  
المعيشة ، غير أن جوسلين - رغم امتلاء بلاده بكل ما هو طيب -  
سلك مسلكا غيبيا فيه جحود للنعمة التي هو فيها ، فلم يقدم أى شىء  
من فائض ما عنده لسيده الذى تربطه به أيضا وشيجة القربى ،  
والذى يدين له بكل ما تملكه يداه رغم معرفته التامة أن الكونت  
وشعبه كانوا فى أشد الحاجة .

ثم حدث أن تهيأت الفرصة لكونت بلدوين لأن يبعث بالرسل  
فى أمر شخصى بحث الى روجر ابن ريتشارد أمير انطاكية الذى كان  
قد تزوج واحدة من أخوات الكونت ، وممر هؤلاء الرسل بالفرات فى  
ذهابهم وإيابهم واجتازوا أرض جوسلين الذى أكرم وفادتهم وتلقاهم  
لقاء كريما ، غير أن رهطا من أتباعه فعلوا فعل السفهاء ، فأخذوا  
يتندرون على الرسل ويسخرون من فقر بلدوين ، ويتباهون فى الوقت  
ذاته بما يملكه مولاهم من مال كثير ، وبما عنده من فائض غزير من  
القمح والنبذ والزيت ومواد الأكل والأحمال الثقيلة من الذهب  
والفضة ، وما تحت يمينته من الفرسان والجند والمشاة ، وزادوا  
على ذلك بأن قالوا قول ذى اللسان البذئ الذى لا يأبه بشىء مطلقا  
أن الكونت ليس بأهل لحكم البلاد ، وأن الأجدى عليه أن يبيع كونتيته  
الى مولاهم لورد جوسلين فينقده عليها مبلغا كبيرا من المال ، ثم  
يعود الى فرنسا .

ولقد مزقت هذه الملاحظات نياط قلوب الرسل رغم ما بذلوه  
 من جهد لكتم مشاعرهم ، وعلى الرغم من أن هذه الأقوال قد صدرت  
 من أشخاص ليسوا في العير ولا الذفير إلا أنها بدت وكأنها انعكاس  
 لأحاسيس سيدهم ( جوسلين ) الذي استأنذنه الرسل حينذاك في  
 الانصراف وعادوا الى الكونت ( بلدوين ) ، فلما صاروا عنده  
 أفضوا اليه بالخبر كاملا غير منقوص ، وحدثوه بكل ما جرى في  
 رحلتهم ، بما في ذلك الملاحظات التي قيلت في بيت لورد جوسلين ،  
 فاستشاط الكونت غضبا مما حدثوه به ، وراح يفكر تفكيرا عميقا  
 فيما سمع ، فهداه يقينه الى أن جوسلين هو مصدر كل هذه  
 الأحاسيس ، وإنما لم تتولد الا في خاطره ، وغضب من أن رجلا  
 كان هو سبب ثرائه الفاحش ، وكان المنتظر منه أن يقوم بأداء كل  
 ما يقرضه ما أحسن به عليه من ماله الخاص فيفعل نقيص مايقضى  
 به الذوق إذ راح ينتقصه ويزرى بفقره ، كان الفقر رذيلة ونقيصة ،  
 وبين أن الضيق الذي ألم به لم يكن راجعا الى غفلة منه ، لكنه  
 قضاء شاءه قدره ، وأن ليس له من قوة على دفعه ، وزيادة على  
 ذلك فإن الثروة الضخمة التي ينعم بها الآن جوسلين ويتباهى بها  
 إنما هي بعض مما كان يملكه الكونت ، ولذلك جاش مرجل الغضب  
 في صدره عليه ، فتظاهر بالمرض ، ولأزم فراشه وأشار على من حوله  
 أن يستدعوا اليه على جناح السرعة قريبه جوسلين الذي بادر اليه  
 غير متوجس خيفة ولا مستريب منه ولا مقدر أن قد يلحقه أذى من  
 هذه الرحلة ، فلما بلغ مدينة الرها وجد الكونت في قلعته في القسم  
 المعروف باسم رانحولات « وأبصره راقدا في حجرة داخلية ،  
 فادخلوه عليه ، فلما فرغ من أداء التحية الواجبة في مثل هذا  
 المقام سال الكونت عن صحته فاجابه بلدوين « لقد تحسنت كثيرا  
 بفضل الله تحسنا أكبر مما تود أنت » ، ثم تابع كلامه قائلا :  
 له :

« الا خبرنى يا جوسلين : هل تملك شيئاً الا ما منحتك اياه ؟ »  
 فاجابه جوسلين « كلا يامولاي فقال له الكونت « لماذا وانت فى  
 بحبوحة النعيم والثروة اللتين تدين بهما الى تكفر بالنعمة التى  
 اغدقها عليك ولا تشكرها شكر المقر بحقها ؟ ، ولماذا لا تتعاطف معى  
 - وانا المحسن اليك - فى حاجتى التى لم تصبنى بسبب رعونة من  
 جانبى ، ولكنها من جراء امور لا يستطيع احد أن يتجنبها مهما بلغ  
 من الحكمة والمهارة لأن ذلك لم يحصل من غير قضاء الله ؟ ، ولماذا  
 لا تعيد الى بعض الذى أقطعك اياه ، لكى بدلا من ذلك رحمت تنهكم  
 على فتعيرنى بالفقر الذى ابتلانى به الرب ، كما لو كان هذا الفقر  
 خطيئة أو اثماً ؟ فهل ترانى بلغت من العوز الحد الذى يجب على  
 أن أبيع لك فيه كل ما أنعم به الرب على ثم أرحل هاربا كما تريد أنت؟  
 والآن يا جوسلين عليك أن تعيد الى كل الأملاك التى منحتها لك ،  
 وكل شيء أقطعك اياه ، لأنك سلكت سلوك جاحد نعمة لا يستحقها  
 وليس بأهل لها . »

فلما فرغ الكونت من كلامه هذا أمر برمى جوسلين فى  
 الحبس ، وهناك تعرض بصورة عجيبة محزنة لكل انواع المسألة  
 والتعذيب حتى يسلم الأرض كلها ويرد كل شيء كان الكونت أنعم  
 به عليه ، حتى اذا جرد من كل ما تملك يدها غادر الرها وتوجه أول  
 ما توجه الى بلدوين ملك بيت المقدس ، وفصل له كل ما جرى ،  
 وصارحه بعزمه على الرجوع الى بلده الذى جاء منه . فلما سمع  
 ( الملك ) ما كان من خبره أقطع مدينة طبرية وما حولها اقطاعا  
 لا يسترد منه أبدا ، وذلك ادراكا منه بأن جوسلين سوف يؤدى  
 للمملكة خدمات رائعة ، ولأنه كان يريد أن يشد أزر نفسه بمثل هذا  
 الرجل الخطير .

ويقال ان جوسلين ساس هذه المدينة وملحقاتها بشـجاعة  
 وحكمة طوال فترة ولايته بها ، كما زاد فى رقعة ممتلكاتها

زيادة ملحوظة ، ويقال انه اشتد فى مضايقة سكان مدينة صور  
كذاب اسلافه حيالها ، اذ كانت لا تزال فى ايدى المارقين ، وعلى  
الرغم من انه كان بعيدا عن اهل صور لوقوع الجبال فاصلا بينه  
وبينهم ، الا انه كان كثير الاغارة على اراضيهم مكبدا اياهم افدح  
الخصائر .

- ٢٢ -

ولما كانت سنة ١١١٤ من مولد سيدنا ضرب زلزال عنيف كل  
بلاد الشام مدمرا كثيرا من مدنها وقلاعها تدميرا تاما ، وكان  
تخريبه اظهر ما يكون فى قيليقية وايسوريا وسورية الوسطى .  
فاما فى قيليقية فقد اجتاح الزلزال « المصيصة » وكثيرا من الاماكن  
الحصينة ، كما دمر مدينة مرعش وامتد قبلغ نواحيها القاصية حتى  
لم يبق من بعضها الا اطلال تدل عليها ، وارتجت كذلك الأبراج  
والتحصينات ، وادى انهيار المبانى الضخمة الى هلاك العدد الغفير  
من الناس ، واستحالت اكثر المدن الى اكوام من الانقاض ، وصارت  
كيمانا وقبورا واجداثا ضسست من طواه الردم ، وفر الاهالى  
من مساكنهم فى المدن فزعا من قهدم الدور وطمعوا ان يجدوا  
السلامة فى العراء ، ولكن الخوف اطار النوم عن جفونهم جزعا من  
ان تتراعى لهم فى أحلامهم صورة المصير الذى يفرون منه فى  
يقظتهم .

لم تقتصر هذه النكبة المدمرة على منطقة بذاتها بل امتدت الى  
جميع النواحي حتى بلغت اقصى اعماق مناطق المشرق .



فلما كان العام التالي حشد الوالى التركى القوى برسق - على  
مألوف عادته - حشدا كثيفا من قومه ، واقتحم امارة انطاكية مضمرا  
لها السوء ، وبعد ان جاس خلال ديار الناحية كلها ضرب معسكره  
بين حلب ودمشق فى انتظار الفرصة المواتية لشن غاراته هنا وهناك  
من أرضنا ، فاضطرب طغتكين ملك دمشق كل الاضطراب من هذه  
الحملة التى هلع لها أشد الهلع ، مخافة أن تكون مستهدفة الاضرار به  
هو ذاته أكثر من استهدافها الصليبيين الذين طالما اختبر الترك  
بأسهم ، فقد لقى مودود العظيم موته على باب بيته غيلة ، واعتقد  
الناس أن طغتكين كان على علم بما تم تدبيره ، وأن اغتياله كان  
برضى وتدبير منه .

لذلك فانه ما كاد طغتكين يعلم بوصول الترك ويدرك تمام الادراك  
مقصدهم حتى أرسل رسلا من لدنه الى الملك ( بلنوين ) والى أمير  
انطاكية ومعهم غالى التحف وثمان الهدايا ، واكد لهما بالايمان أن  
يظل طول مدة سريان الهدنة مخلصا فى مراعاة تحالفه مع صليبيين  
المملكة والامارة ، وفى الوقت ذاته قام أمير انطاكية فناشد الملك أن  
يمد اليه يد العون لأنه عرف أن الترك أقرب ما يكونون الى بلاده ،  
وأن الأخبار الكثيرة التى وصلتته تدل على أنهم يتآمرون للاغارة على  
أراضيه ، كما دعى من جانبه طغتكين - حسب العهد المبرم بينهما -  
أن يأتيه على رأس عسكره .

وكان الملك خائفا أشد الخوف على سلامة الامارة ، فلم يضع  
لحظة واحدة من الوقت بل عجل فجمع قواته ، وصحبه بونس كونت  
طرابلس ، وتبعهما رهط كبير من الفرسان ، وزحفت جموعهم الى  
هناك فوصلوا بعد أيام قلائل الى حيث حشد الأمير كتائبه ، كما أن  
طغتكين الذى كان أقرب اليه من سواه وإفاه بجند قبل مجيء الملك  
وانضم الى معسكر الصليبيين حليفا لهم .

حينذاك انضم العسكر بعضهم الى بعض حتى صاروا جيشا واحدا واجمعوا الرأي على الزحف شطر مدينة « شيزره » التى قيل ان الجيش المعادى كان موجودا فيها ، لكن ما كاد الترك يعلمون بهذه الحركة حتى أدركوا أنهم لن يقدرُوا على الصمود فى وجه قواتنا لأنهم ان فعلوا ذلك أصابهم ضرر فادح ، فتظاهروا بالارتداد ارتدادا كان يخيل معه أنهم لا ينوون العودة ، واذاً ذلك سرّج الصليبيون عسكرهم ورجعوا الى أرضهم (١٩) .

— ٢٤ —

اغتنم العسقلانيون فرصة انشغال الملك على هذه الصورة فى أرض أنطاكية وتغيبه مع معظم قواته وقاموا بمحاصرة يافا ، وكان قد حدث قبل ذلك بقليل أن نهض لمعاونتهم من مصر أسطول مؤلف من سبعين سفينة بقصد احتلال الساحل القريب من يافا ، اما الجيش البرى المكون من آلاف كثيرة من الجند فقد تبعهم ناشرا راياته حيث ظهر فجأة أمام المدينة .

ماكاد من فى الأسطول يعلمون بوصول القوات البرية حتى استخفهم السرور فوثبوا من السفن وتاهبوا للاغارة على النواحي المجاورة ، واحاطوا بالمدينة من كل جانب ، فلما أعطيت الإشارة لهم اغاروا عليها من شتى الجهات غارة شعواء ولكن اهالى يافا دافعوهم دفعا مجيدا على الرغم من قلة عددهم ، وأنهم كانوا دون خصومهم ياسا لكنهم كانوا يذبون عن نساءهم وأولادهم وحريتهم وعن بلادهم ، بل عن كل شئ يجدرون أن يموت المرء من أجله ، وراحوا يحصنون الأبراج والأسوار تحصينا منيعا بقدر استطاعتهم ، وتمكنوا من رد العدو الى وراء مسافة بعيدة حتى لم يستطع العدو من أسوارهم

---

(١٩) كان رجوعهم هذا فى منتصف سنة ١١١٥ .



بفضل ما قذفوه به من النبال ، ورموه به من المنجنيق ، وصبوه عليه من السهام من آلاتهم ، فخاب مسعى العسقلانيين بعد أن كانوا يعتقدون الآمال على أن يجدوا المدينة خالية من كل من يدافع عنها ، وكان هؤلاء العسقلانيون قد أقاموا من سلالم التسلق مجموعة كافية من ناحية الطول أو العدد مؤملين من وراء ذلك ألا يلاقوا مشقة في هدم الحصون ، ولكنهم صادفوا من المقاومة الشديدة ما لم يتح لهم الفرصة لنصب سلالهم على الأسوار ، أو رمى المدافعين الموجودين بالأبراج بأي نوع من القذائف ، ذلك لأن العناية الإلهية بسطت رعايتها على المواطنين الذين لم يشعروا بخوف ما من العدو الذي كان يكتنفهم من كل جانب .

وكانت أبواب المدينة مصنوعة من الخشب الخالص بدون أي غطاء من النحاس أو الحديد ، فقفزها المهاجمون بالنيران قذفا محكما احترقت معه بعض أجزائها ، كما استطاعوا إلحاق الضرر التام بالأهالي ، ووضعهم في موضع لا يستطيعون الدفاع عنه .

وأخيرا وبعد انقضاء بضعة أيام على ذلك الوضسع أدرك العسقلانيون أن محاولاتهم لم تكلل بالنجاح ، وخافوا أن يحضر أهالي الناحية التي حولهم لنجدة المدينة المحاصرة ، قرفعوا الحصار عنها وانقلتوا إلى ديارهم ، كما اغتتم الأسطول فرصة هبوب الرياح المواتية وعاد أدراجه إلى ميناء صور .

ومع ذلك فقد طمعوا بعد عشرة أيام أن يعرفوا عما إذا كان في مقدورهم مباغطة أهل يافا الذين لم يكن هناك من يحمي ظهورهم ، لذلك جمعوا الكثيرين من قومهم وغادروا عسقلان سرا ثم ظهروا فجأة - وفي سكون للمرة الثانية - أمام يافا وباغتها ، ولكن أهلها كانوا مستعدين لمقاومتهم فقد ألفوا مثل هذه الحيل . لذلك كانوا يتناوبون حراستها ليلا حتى لا يؤخذوا على غرة ، وترتب على هذا أنهم ماكانوا يطالعون عسكر العدو وقد عاد متأهبا لمعاودة القتال حتى

تجلت بطولتهم في اعتلائهم الأبراج والشرقات ، وزاد في شجاعتهم  
 ملاحظوه من ضعف قوة أعدائهم وضآلة عددهم عما كانت عليه من  
 قبل ، ذلك لأن الأسطول الذي كان في السابق مصدر خطر عليهم كان  
 قد أبحر وبعدت الشقة بينه وبينهم ، ولم يعد من اليسير عليه أن  
 يرجع اليهم ، وزاد من طمأنينة الأهالي نبا طرق سمعهم يشير الى  
 قرب وصول الملك ، فزادهم هذا النبا بأسا على بأس ، وحالفهم  
 الحظ مرارا فواظبوا على قتل الأعداء ، وفثكوا بالكثيرين منهم  
 واستمرت المعركة قرابة سبع ساعات من غير انقطاع ، حتى اذا  
 أدرك الجاحدون فشل جهودهم أمروا رجالهم بالعودة فانطلقوا الى  
 عسقلان .

## - ٢٥ -

أما الموقف في المملكة ابان ذلك الحين فكان على الصورة  
 التالية :

تظاهر « برسق » بالفرار من أرض أنطاكية عند اقتراب الملك  
 ورفاقه النبلاء ، فلما فارق كل من الملك وأمير أنطاكية وطفنتكين  
 بعضهم بعضا وعاد كل منهم الى بلده لتدبير شئونه الخاصة  
 تبين « ليرسق » انه لن يكون من اليسير عليهم حشد قواتهم هذه  
 مرة أخرى ، ففكر راجعا الى أنطاكية ، وأخذ يعيث في أركانها فسادا  
 ويضرم النار في حقولها وفي أطرافها ، وأباح لجنوده كل ما يجدونه  
 خارج الأماكن الحصينة يأخذونه نهبا وسلبا ، ثم قسمهم الى  
 مجموعات أرسلها الى جهات مختلفة ، وأمرهم أن يفتكوا بكل من  
 يلاقونه ، فان صادفوا في الحقول أو في الطرقات العامة من تخلف  
 عن متابعة رفاقه ولم يأخذ حذره أخذوه أسيرا أو عرضوه على  
 السيف ، ولم يقف أمر هذه المعاناة على الأماكن التي انعدمت فيها

الحراسة بل أخذوا بالعنف أيضا المدن الحصينة فأحالوا المعرة وكفر طاب اتفاقا حتى راح أهلها ما بين أسير وقتيل ، ومجمل القول ان اليد العليا فى الاقليم بأجمعه صارت للأعداء الذين كانوا يحملون كل يوم ما تصل اليه أيديهم من الغنائم ، وفرضوا الرق على الصليبيين .

فلما علم أمير أنطاكية بهذه الأمور استدعى الى جانبه كوند الرها ، ثم خرج هو بنفسه يوم ١٢ سبتمبر من أنطاكية دون ان يضع أى وقت حتى وصل الى « الروج » بقواته ، وتقدمت الكشافة فى الحال لاستجلاء خطط العدو وأحواله ، واستعد الأمير فى الوقت ذاته للمعركة فرتب جنده وتاهب بشجاعة لصد المغير ، وبينما هو مشغول بهذه الترتيبات وفق ما تقتضيه أصول الحرب - وقد أخلص الكونت فى مساعدته - اذا برسول يأتبه على جناح السرعة منبئا اياه بان العدو ضرب معسكرا له فى وادى سرمد ، فعمت الفرقة الجيش بأجمعه بهذا النبا كما لو كان النصر قد واتاه .

ولما علم برسق بخبر اقترابنا أمر جنده بالتسلح واعداد صفوفهم للقتال . وراح يحضهم على الاستبسال ، وكان قد عمل على تأمين سلامة نفسه قبل وصول الصليبيين ، اذ اتخذ له مكانا مع أخيه وبعض أصدقائه على قل مجاور لقل « دانيث » يستطيع من اعلاه مشاهدة رجاله وهم يحاربون ، واصدار التعليمات اللازمة لضمان استمرار القتال ، وبينما كان هو مشغولا على هذه الصورة اذ بالكتائب الصليبية تأخذ فى التقدم راقعة أعلامها .

كان بلدون كوند الرها فى الطليعة مع جنده فلم تفرغه كثرة عدوه حين رآه ، بل اندفع مهاجما اياهم اندفاعا ضاريا نازل

قلوبهم ، وحذت الكتائب الأخرى حذوه فالتحمت السيوف بالسيوف وقد أجمعوا العزم على الثأر مما أنزله عدوهم من أهوال بالضعةاء والفقراء ، فحاول هذا العدو فى بداية الأمر مقاومة الصليبيين باذلا فى هذه المحاولة كل ما فى طاقته فما أجدها ذلك نفعا ، إذ هالطت رجاله ان ولوهم الأدبار فى غير انتظام فزعا من بأسهم وبطشهم وبما هم عليه من صبر عجيب .

وشاهد برسق وهو واقف على قمة التل تدهور قوة جنده وتزايد نجاح الصليبيين ، ففر الى ما وراء تلك الأكمة مستصعبا معه أخاه وأصدقاه ، تاركا وراءه رايته ومعسكره بكل ما حواه من المتاع ، لا يعنيه شئ سوى انقاذ حياته بالهرب .

ومضت قواتنا تطارد العسكر الذين اختل نظامهم مطاردة عنيفة ، واقتفت خطاهم مسافة تقرب من ميلين ، واذاقوا الهاربين الويل الأليم ، وحكموا السيف فيهم فقتلوا الكثيرين منهم ، أما أمير ( انطاكية ) فقد ظل مقيما فى ساحة النصر يومين مع طائفة من عسكره ينتظر عودة رجاله الذين راحوا يطاردون العدو فى شتى النواحي ، فلما رجعوا أمر باحضار كل ما غنموه بين يديه ، وكافا من ساهموا فى النصر بما هم أهل له ، وكان المارقون حين فروا على وجوههم خلفوا خيامهم غير عابئين بما اشتملت عليه من المئونة الكبيرة والأموال الكثيرة ، ولم يقتصر الصليبيون على الاستحواذ على الغنائم والأسلاب التى جمعت من كل النواحي ، بل زادوا على ذلك فاستعادوا اخوانهم الذين كانوا فى أسر العدو وقيده وأرسلوهم الى دورهم ، فعادوا فرحين الى أهلهم ونسائهم وأبنائهم وحيواناتهم ، ويقال ان خسارة العدو بلغت أكثر من ثلاثة آلاف رجل فى هذا الاشتباك .

فلما تم كل شيء على هذه الصورة قدم الأمير ( روجر بن ريتشارد ) أمامه عددا كبيرا من الخيول واليغال والأسرى ، ومقادير ضخمة من مختلف المتاع ، ودخل هو فى اثرها انطاكية دخول الظافر المنتصر وسط هتافات الناس وغبطتهم .

- ٢٦ -

وفى حوالى هذا الوقت وفد السرى الأُمجد الطاهر الذيل أسقف أورنج المبجل ، نائبا عن البابا لتقصي الحقائق فيما بلغه من مسلك البطررك أرنولف الرذيل ، وما تلوكه الألسن عن حياته الخليعة التى يحيها ، فلما صار الرسول البابوى بيننا يادر فى لحظته الى عقد مجلس حضره كل أساقفة المنطقة ، أمرا « أرنولف » بالمثل أمامهم ، وانتهى الأمر أخيرا بأسقف أورانج - بحق ما للكنيسة الرسولية من السلطة - بأن خلع « أرنولف » من وظيفته الكهنوتية جزاء وفاقا على فعله ، مما حمل أرنولف - اعتمادا منه على دهائه الخبيث الذى أفسد به عقول الجميع - ان يعضى الى كنيسة رومة ، واستطاع - بكلماته الناعمة واسرافه فى تقديم الهدايا - ان يتغلب على شكوك البابا ورجال الكنيسة فيعود الى مستقره ناعما بعطف الكنيسة الرسولية ، ورد الى كرسى البطركية فى بيت المقدس ، فرجع اليه فى لحظته معاودا حياة التبذل التى كانت سببا فى خلعه .

\*\*\*

لم يكن بيد الصليبيين اذ ذاك أى قلعة فيما وراء نهر الأردن ، فلما تطلع الملك لتوسيع حدود مملكته فى هذه الناحية استعان بالله وفكر فى بناء قلعة فى اقليم الأراضى العربية الدانية المسمى ايضا باسم سورية الداخلية حتى تصبح الحامية التى توضع فى هذا

المكان قادرة على رد عادية المغير على الحقول الواقعة وراءه والتي كانت تابعة للمملكة وتعتبر أرضاً خراجية ، فقام الملك من أجل تنفيذ مشروعه هذا بجمع قوات مملكته وسار بهم عبر البحر الميت مجتازاً بهم الأرض العربية الثانية التي عاصمتها البتراء ، حيث تخير موضعاً مرتفعاً ملائماً لمشروعه شيد فيه قلعة شديدة المناعة بفضل موقعها الطبيعي وما امتازت به من وسائل دفاعية زودتها بها الطبيعة ، وأخرى صناعية ، فلما كمل البناء وضع به حامية من الفرسان والمشاة وأقطعهم الأراضي الشاسعة ، وكان المكان محصناً بالأسوار والأبراج وبخندق ، وجهن الموضع بالأسلحة والطعام والآلات ، وإن كان يأنيه ملكاً فقد سماه اسماً مشتقاً من الهيبة الملوكية هو « مونديال » وكانت أرض الناحية أرضاً خصبة تنتج كميات وفيرة من الحنطة والنبذ والزيت ، وزيادة على ذلك فقد كانت مشهورة بموقعها الصحي الممتع للعين ، كما أن هذه القلعة كانت تطل على كل المنطقة المجاورة لها .

- ٢٧ -

كان بال الملك في هذه الأثناء مشغولاً كل الانشغال بمشكلة قلة سكان المدينة المقدسة - حبيبة الله - قلة تجعلها شبيهة خالية منهم . إذ لم يكن بها العدد اللازم للقيام بما تحتاجه المملكة ، ولم يكن هناك عدد كاف منهم لحراسة مداخل المدينة والدفاع عن أسوارها وأبراجها ضد أية غارة عدوانية تباغتتها على غير توقع منها ، ومن ثم فقد أولى الملك هذه المشكلة غاية اهتمامه ، وراح يدير الأمر في ذهنه ، ويتحدث مع غيره عن الخطط التي تؤدي إلى تعميرها بقوم مؤمنين بالرب الحق ، مخلصين في عبادتهم له ، ذلك أن « الأمم » التي كانت تعيش بالمدينة قد بادرت - الا قلة ضئيلة فاذن لها بالعيش هناك ،

لكن هذه القلة التى نجت لم يسمح لها بالبقاء فى المدينة ، كما انه لم يسمح لأحد من أتباع الملة المسيحية بالعيش فى بلد له هذه القداسة والا كان وجوده طعنا فى تقوى الزعماء ، وكان سكان قطرنا قليلى العدد قلة ملحوظة ويعيشون فى فقر مدقع حتى أنهم كانوا أقل من أن يشغلوا شارعاً واحداً من شوارعها ، فاهيك بتضائل عدد «السوريين» الذين كانوا أصلاً من مواطنى المدينة تضاضاً بالغا من جراء ماتحملوه من المصائب أيام الممارك التى قلصت عددهم حتى كانوا الا يكونوا شيئاً مذكوراً ، فلما جاء اللاتين الى سورية - لاسيما وقد شرع الجيش فى السير الى القدس بعد الاستيلاء على انطاكية - راح رفاقهم ومواطنوهم الكفار يسيئون الى خدام الرب هؤلاء اساءة افنت الكثيرين قتلاً لأتفه الأمور ولم يرعوا فيهم الا ولا ذمة ، ولم يقيموا وزناً للسن او الظروف ، واساء المسلمون السيرة فيهم اعتقاداً منهم بأن هؤلاء السوريين هم الذين بعثوا برسلكهم وكتبهم يستدعون امراء الغرب الذين قيل انهم جاءوا للقضاء على الكفار .

ولقد شعر الملك انه يحمل على كاهله مسئولية خلاص المدينة من هذا الحزن المخيم عليها ، ومن ثم راح يستقصى ادق الاستقصاء من بعض المصادر كيف يمكنه جلب السكان اليها ، فعلم أخيراً ان هناك كثيراً من المسيحيين يعيشون فى القرى الواقعة فيما وراء نهر الأردن فى بلاد العرب ، قد ضرب عليهم الزق وفرضت عليهم الجزية ، فأرسل اليهم يعدمهم بحياة أحسن من حياتهم التى يعيشونها الآن ، ثم عالبثت نفسه ان طابت بمن توافق عليه منهم وقد جاءوه بحریمهم وأولادهم ومواشيهم وقطعانهم وكل ماملكته أيديهم ، ولم يكن أنجذابهم للسكن فى المدينة ناجماً فحسب بسبب احترامهم لها بل وأيضا لما يكونونه لقومنا من المودة ولما تخفق به ضلوعهم من حب الحرية . حتى ان الكثيرين ممن لم يستدعهم الملك نفضوا عن كاهلهم نير

العبودية الثقيل الذي يرضحون تحته ، وقدموا للإقامة فى المدينة  
المبجلة عند الرب ، فمنحهم الملك نواحي المدينة التى كانت أكثر من  
غيرها فى مسيس الحاجة لمساعدتهم فعمرت الدور بهم .

- ٢٨ -

وقد عزم الملك فى هذه الأثناء - وربما كان مدفوعا فى ذلك  
العزم بالمحاح رجال الدين - على أن يبعث طائفة من الرسل الى  
رومة يرفعون بعض التماسات معينة للبابا ، تتضمن أن يصدر  
اعلانا يضم بمقتضاه الى سلطان كنيسة بيت المقدس والى سيطرتها  
جميع المدن والنواحي التى يتمكن الملك بعون الله من الاستيلاء عليها  
بفضل يأسه كمحارب ، وكذلك مايسطيع أن يستخلصه من يد العدو ،  
ونجح الملك فى الحصول بالنسبة لهذا الموضوع على مرسوم من  
الكنيسة البابوية ترى ان محتوياته جديرة بان تدرج فى كتابنا هذا  
حيث جاء فيه :

« من بسكال خادم خدام الرب الى الملك المبجل بلدوين ملك  
بيت المقدس ، له التحيات والبركات الرسولية . ان طول فترة امتلاك  
الكفار وحكمهم الطاغى قد أديا الى حدوث بلبلة بشأن حدود ممتلكات  
الكنائس التى كانت والتى لاتزال فى نطاق أراضيكم .

« ولما وجدنا - بعد امعان الفكر - اننا غير قادرين على رسم  
حدود ثابتة لهذه الممتلكات فقد رأينا من الظلم ان لا نستجيب  
لالتماسك .

« ولكن لما كنت قد اخلصت الاخلاص الصادق فى تعريض  
حياتك لأشد الأخطار هولا من أجل اعلان قدر كنيسة بيت المقدس  
فاننى أعلن ان تصبح أى مدينة من مدن الكفار اخذتها أو تآخذها  
فى المستقبل قسرا خاضعة لسلطان تلك الكنيسة وتحت ادارتها .



« وزيادة على ذلك فانى أمر أن يحرص أساقفة تلك الكنائس كل الحرص على أن يظهروا للبطررك من الطاعة مثل الطاعة التى يظهرونها لمطارنتهم حتى يشهد ساعده بمؤازرتهم له وحتى يجنوا باتحادهم ثمار الأعمال العظيمة من أجل مجد كنيسة بيت المقدس فيتمجد اسم الرب بحملات الصليبيين » .

صدر هذا فى اللاتيران فى اليوم الثامن من شهر يونيو ١١١١ .



ولما كان بلدوين قد ضمن كتابه التماسا آخر فى نفس الموضوع فقد استجاب له البابا فميز ( قداسته ) البطررك جبيلين بميزة يتمتع بها هو وخلفاؤه من بعده الى ابد الأبدىين ، ندرج نصها فى هذا الكتاب وهو :

« من بسكال الاسقف خادم خدم الرب الى اخيه الجليل الشأن جبيلين بطرك القدس ، والى خلفائه الذين يجيئون من بعده وفق القانون الكنسى :

« ان الممالك الدنيوية تتغير بتغير العصور والأحوال ، الأمر الذى يتطلب أن تتغير معه حدود الأبرشيات الكنسية فى كثير من الأقاليم وان تنتقل من مكان لآخر ، وإذا كانت حدود كنائس آسيا قد رسمت فى الأزمنة الأولى الا انه اعتور هذه الحدود كثير من الاضطرابات لتوالى تدفق اجناس مختلفة ذات عقائد متباينة »

أما فى وقتنا الحاضر ، فقد عادت بفضل الله - مدينتنا بيت المقدس وانطاكية وما جاورهما من النواحي - الى حكم الأمراء المسيحيين ، لذلك فالواجب يفرض علينا ان نتدخل فنغير ونبدل بأذن من الله ما يقتضيه سير الزمن ، كما ينبغى علينا أن نعيد تنظيم ما يحتاج الى إعادة تنظيم ، ومن ثم فاننا نمنج الكنيسة بالقدس هذه

المدن والولايات التى تم فتحها بمشيئة الرب بفضل الدماء التى بذلها كل من الملك بلدوين الرفيع الشأن والجيش التابعة له .

« وكذلك فإننا نعهد اليك أيها الأخ الحبيب والأسقف الشريك جبيلين وإلى خلفائك من بعدك ، وإلى كنيسة بيت المقدس بالحق الذى يخوله المقام البطرركى أو المقام المطرانى ، ونمنحك بمقتضى ملفوظ هذا المرسوم الحالى - حق التحكم والتصرف فى جميع الولايات والمدن التى ردتها العناية الالهية الى سيطرة الملك المشار اليه ، أو التى تقضى مشيئة الرب أن تسترد فى المستقبل ، لأنه من الملائم لكنيسة القيامة أن تحظى بالمجد الذى هى أهل له بناء على رغبات جنودها المخلصين - وحق لها - وقد تحررت من نير الترك المسلمين - أن تلقى التعظيم الفياض رمى فى أيدي المسيحيين » .



على أن طاهر الذيل برنارد بطرك أنطاكية غضب أشد الغضب من هذا المرسوم لما رأى فيه من زيادة فى إهانة كنيسته فأرسل فى الحال رسلا الى الكنيسة بروما يشكو من الشكوى من هذا القرار ومن الظلم الفادح الذى نزل به وبكنيسته ، كما يعث بالكتب التى ضمنها عتابه على البابا والكنيسة بأجمعها على الأخطاء التى تضمنتها هذا الأمر ، ولما كان البابا راغبا فى أن يذهب غضبه فقد رد عليه بالكاتب التالى :

« من يسكال الأسقف خادم خدم الرب الى أخيه الموقر برنارد بطرك أنطاكية : لك التحية والنعم الرسولية ، انه على الرغم من أن كنيسة رومة الأولوية بين الكنائس الأخرى العظام ، وعلى الرغم من أن العناية الالهية شرفتها بأن يموت القديس بطرس

فيها بالجسد ، الا انه قام حب متين العرى بين أسقفى روما ونطاكية ، وهو حب لا يسمح بقيام أى خلاف بينهما لأن بطرس هذا نفسه زاد الكنيستين رفعة .

« لقد طرأ تغيير كثير خلال الفترة التى تدخل فيها الاحتلال الكافر فى هذه الوحدة التى تربط عظيمى هاتين الكنيستين ، وأنا لنحمد الرب على انه رد حكم المسيحيين الى مدينة انطاكية فى عهدنا .

« ومن ثم فانه ينبغي أياها الأخ الغالى أن تبقى بيننا نفس هذه الرابطة الوثيقة متينة وقوية ، كما ينبغي عليك الا تسمح أن يساورك أى ظن بأننا نرغب فى أن نخط من قدر كنيسة انطاكية أو نقلل من شأنها ، وإذا كنا قد كتبنا عن غير قصد الى الكنيسة فى انطاكية أو الى الكنيسة فى بيت المقدس عن أى شيء آخر يتعلق بحدود بعض أبرشيات معينة ، فلا ينبغي أن ينسب ذلك الى نازع شر أو رعونة ، ولا يجوز أن يشب بيننا نزاع حول هذا الموضوع ، ذلك أن موضع الأماكن البعيد والتغيرات التى طرأت على الأسماء القديمة للمدن وللولايات قد سببت عندنا اضطرابا وقلقا كبيرين ، وزيادة على ذلك فقد كان من أغلى أمانينا على الدوام ومن أقربها الى قلبنا أن نعمل على تشجيع قيام ظروف سلام لا ظروف شقاق بين الاخوان ، وأن نحفظ لكل كنيسة حقها ومكانتها .

صدر فى لاتيران فى اليوم الثامن من أغسطس (سنة ١١١٢) .

ولكى تكون مشاعر اليايا ازاء هذا الموضوع مفهومة ، وكذلك غرضه من وراء منحه الملك وكنيسة القدس الامتياز الذى تضمنته مراسيمه فانه كتب ايضا ما يأتى الى البطررك برنارد :

« من يسكال الأسقف خادم عبيد الرب الى غبطة رفيقه الأسقف بطرك أنطاكية : لك التحية والبركات الرسولية (٢٠) »

« اننا كما كتبنا الى اخوتكم فى رسالة سابقة نخبرك بحبنا الصادق لك وللكنيسة التى عهد اليك برعايتها ولا نرغب بأى حال من الأحوال أن نقلل من شرف قدركم السامى ، بل تجدون على العكس من ذلك اننا راغبون فى أن يظل على الدوام ( بمشيئة الرب ) تفوق بطركية أنطاكية الذى حازته فى الأزمنة السالفة تفوقا كاملا غير منقوص ، ولو أمعنت النظر فى المضمون الذى أنطوت عليه رسالتى هذه لتبينت أن المنحة التى منحناها لأبننا بلدوين ملك القدس بناء على التماس مبعوثيه لا يمكن أن تقلل أبدا - ولو قيد أنملة - من حبنا لك ، فقد جاء فيها : أن امتلاك الكفار الطويل للبلاد وحكمهم الظالم قد أديا الى اضطراب بالنسبة لحدود ممتلكات الكنائس التى كانت ولا تزال فى أرضك ، ومن ثم فاننا نرى انفسنا - بعد طول التروى والأناة - غير قادرين على أن نقرر حدودا معينة لها ، لذلك رأينا أن العدل يقتضينا أن نوافق على ملتصك ، ونظرا لأنك قد عرضت حياتك عن اخلاص للخطر الجسيم سعيا وراء اعلام شأن كنيسة بيت المقدس فاننى أقرر أن جميع مدن السكفار التى استوليت عليها حتى الآن ، وما سوف تستولى عليه : تكون تحت حكم تلك الكنيسة وسلطانها »

« كما يجب أن تفسر بنفس روح التفاهم ما كتبناه الى جيلين بطرك بيت المقدس ذى الذكر الطيب حول المدن والولايات التى شاءت رحمة الرب أن تؤول الى يد الملك بلدوين بفضل بعد نظره

---

(٢٠) كلام البابا هنا موجه الى بطرك أنطاكية .

ويفضل دماء العساكر التي سارت وراءه ، أما الكنائس التي مازالت حدودها الموجودة موضع نظر ، وكذلك الكنائس التي لم يعثر حدودها وممتلكاتها أى اضطراب رغم طول الاحتلال الكافر وطغيانه ، كذلك المدن التابعة لنفس الكنائس فأننا نرغب أن تكون خاضعة لتلك الكنيسة التي تنتمي إليها عن حق منذ آمام بعيدة ، لأننا لا نريد أن نقلل من مكانة الكنائس سعياً لزيادة قوة الأمراء ولا نقصد أن نخرج قوة الأمراء من أجل تعظيم المكانة اللاهوتية .

صدر في بنفنتوم في الثاني عشر من شهر مارس ( سنة ١١١٣ ) .

كذلك كتب الى الملك بلدوين بنفس المعنى ، شارحاً له ماذا كان غرضه حين وافق على نفس الالتماسات ، ومبيناً له أنه لا ينبغي بحال من الأحوال أن تحمل كنيسة أنطاكية فوق طاقتها ، فقال :

« من بسكال الأسقف خادم خدم الرب الى ولده وحبيبه بلدوين ، ملك بيت المقدس : لك التحية والبركات الرسولية . »

لقد انزعج اخونا البطريرك برنارده وجميع رجال كنيسة أنطاكية اشد الانزعاج من قرار الموافقة الذي منحناه لكم استجابة لالتماسك بأن يكون كل ما استوليتم عليه من مدن الكفار وما قد تستولون عليه منهم خاضعاً لسلطان كنيسة بيت المقدس ومقامها ، ولما كان هذا التنازل المنسوح لتلك الكنائس التي اضطربت حدودها وممتلكاتها من جراء احتلال الكفار الطويل لها فقد تعالت الشكاية من أن بطريرك القدس قد جار - برضا منك - على حقوق تلك الكنائس المشار إليها والتي لا يشك أحد في أنها كانت تابعة لمطرانية أنطاكية حتى زمن الترك والشرقيين ، ذلك لأن أساقفة تلك الكنائس - كانوا يظهرون تبعيتهم وطاعتهم لبطريرك أنطاكية ، ومن ثم فقد بعثنا الى

البطرك المشار اليه بالكتب التى قررنا فيها استمرار الحفاظ على سلامة الوضع السامى الذى تتمتع به بطركية انطاكية ، كما قررنا صـيـانته من أن يجور عليه أحد ما ، حسبما هو مقرر منذ الأزمنة البعيدة حتى الآن ، لذلك فاننا نذكرك جادين - بل ونأمرك - الا يصدر من جانبك أى تعد من هذا القبيل ، لأن الصدق فيه واضح والحق فيه جلى ، بل ينبغى أن تتمتع كل كنيسة بحقها الكامل فى الهيمنة على الاقاليم التى تتبعها تبعية شرعية ، لأننا لا نستطيع أن نقضى بما يخالف نظم آباءنا القدسة المعروفة بالبداية ، كما أننا لا نحب أبدا التقليل من مكانة الكنائس لنزيد من قوة الأمراء ، ولا أن نفتات على سلطان الأمراء من أجل تعظيم مكانة الكنيسة ، حتى لا يتعكر فى الحالين صفو سلام الكنيسة بينكم . وقاكم الرب اياه .

« أما رجال الدين فى بيت المقدس - وهم الذين خلقوا وزاءهم أملاك أسلافهم وغادروا مهد نشأتهم من أجل تعظيم شأن الكنيسة والاهتمام بالملة ، فاننا نأمرهم عن طريق هذه الوثيقة الحالية أن يكونوا قانعين بحقوق كنيسة بيت المقدس ، والا يحاولوا ظلما وعدوانا اغتصاب هذه الأملاك التى يعرف الجميع معرفة تامة أنها حق خالص للكنيسة فى انطاكية ، وادعوا الله القادر على كل شىء أن يكلاً كل خطواتكم برعايته فى جميع ما تقدمون به ، وأن يمنحكم النصر على أعداء الكنيسة . »

صدر فى لاتيران فى الثامن عشر من شهر مارس (سنة ١١١٣)

أراد الملك بلديون أن يحصل على معلومات دقيقة تتعلق  
بالتواحي المجاورة ، وتقصى أحوال الولايات ، ولذلك فإنه قام في  
السنة التالية مستصحبا معه الأدلاء من أهل الخبرة بالمنطقة وجماعة  
من الحاشية رآهم أهلا لتحقيق غرضه المنشود فعبر بهم نهر الأردن  
وجاس في أنحاء سورية الوسطى ثم اجتاز الصحراء  
الفسيحة إلى البحر الأحمر حتى أفضى به الزحف إلى مدينة « هليم »  
وهي مكان كان معروفا تمام المعرفة لشعب إسرائيل حيث كان به  
— كما نقرأ في الأخبار — اثنا عشر نبيا وسبعون شجرة نخيل ، فلما  
بلغ الملك هذا الموضع وجد أن خير مجيئه قد تسامع به سكانه  
فترجسوا خيفة منه وهربوا ناحية البحر المجاور لهم ، وركبوا  
قوارب صغيرة نجاة بأنفسهم من الموت ، وبعد أن تفحص الملك هذه  
النواحي تفحصا دقيقا ورآها بعيني رأسه : عاد أدراجه عبر الطريق  
المؤدي إلى قلعة مونتريال التي شيدها منذ أمد قريب ، ثم غادرها  
مميما وجهه شطر بيت المقدس ، فلما كان في بعض الطريق ألم به  
على غير توقع — مرض خطير أضواه حتى لم تعد له طاقة على احتماله ،  
فلما خشى دنومنيته وخزه ضميره وأنبه أشد التائب ، لأنه ارتكب  
الخطيئة حين سرح زوجته الشرعية (٢١) ، وندم على ما كان منه ندما  
أورثه حسرة فاقضى بآثامه إلى نفر اتقياء يخافون الله وأعترف لهم  
بجرمه ، ووعدهم أن يكفر عما ارتكب ، فنصحوه أن يصرف المرأة

---

(٢١) أما هذه الزوجة الأولى فهي « اردا » بنت طوروس التي أشار  
وليم هذا الجزء من الترجمة العربية إلى أن الملك بلديون فرض عليها حياة  
الرهينة ، فدخلت في دير القديسة حنة ،

التي تزوجها منذ قليل وأن يرد زوجته الأولى الى المرتبة التي حرمها منها ، فوافقهم على هذا الرأي لو مدت له الحياة وأكد الوفاء بذلك بيمين أقسمها •

ثم استدعى الملكة الى حضرة وفصل لها الأمر تفصيلا ، دقيقا وكان قد بلغها من قبل بعض الشيء من عزمه هذا فقد حدثها به نفر غير قليل من الناس ، فتسمرت غيظا أن تكون قد استدعيت من وطنها من غير هدف بعد أن مكر بها كبار رجال الملكة الذين ذهبوا اليها لاحتضارها ، وأن احزنها ما جرى ، وأمضتها الامانة التي لحقتها ، وشجها ضياع ثروتها من غير جدوى فقد تاهبت للعودة الى بلادها ، وذلك في السنة الثالثة من وصولها الى سورية •

اما ابنها فقد فار مرجل غضبه فورة جاوزت الحد لرد أمه على هذه الصورة ، وغلى جوفه بالكراهية الممينة ضد الملكة وشعبها •

وقام أمراء مسيحيون آخرون من اجزاء شتى من العالم فجاءوا بأنفسهم أو قدموا الهدايا بسخاء ، فزادوا في رقعة مملكتنا الناشئة وشدوا من ساعدها ، اما ابنها ومن خلفه من بعده فلم تستل الضغينة من قلوبهم حتى يومنا هذا ، ولم يحدث ان تعطفوا علينا ولو بكلمة ود واحدة ، هذا على الرغم من أنه كان في استطاعتهم أن ينقذونا في اوقات شدتنا بالمشورة والمعونة أكثر مما يستطيعه سواهم من الأمراء ، الا أنهم لم ينسوا قط هذه الأخطاء بل راحوا يصبون من غير حق حنقهم وانتقامهم على الشعب كله بسبب جرم فرد واحد منه •



كانت صور هي المدينة الوحيدة الواقعة على الشاطئ التي  
لا تزال حتى ذلك الحين في حوزة العدو وكان الملك ( بلديون الأول )  
حريصا أشد الحرص على الاستيلاء عليها ، ومن ثم فانه قام في  
نفس السنة - بعد أن زالت علقته - فشييد ( في سنة ١١١٧ ) قلعة  
بين صور وعكا في نفس الموضع الذي يقال أن الاسكندر المقدوني  
شييد فيه - حين أراد الاستيلاء على صصور - قلعة سماها  
« الكسنداريوم » ، نسبة اليه .

وتقع الكسنداريوم هذه على شاطئ البحر ، وتبعد عن  
صور بما يقرب من خمسة أميال ، وتكثر بها الينابيع المائية التي  
منها ريشا ، وقد جدد الملك بلديون بناءها لتكون شوكة في جنب أهل  
صور تقض مضجهم وتصلح أن تشن الغارات منها عليهم ، ويصحف  
الناس اليوم اسم هذا المكان فيقولون « سكنداليوم » ، ويرجع ذلك الى  
أن الاسكندر يسمى في العربية « بسكندر » ، والكسنداريوم  
بسكنداريوم ، وإن كان حرف الراء يتحول في العادة الى حرف  
« لام » فإن الموضع يعرف عادة باسم سكنداليوم .

ولما كانت السنة التالية مضى الملك ( بلديون الأول ) الى مصر  
على رأس جيش كبير انتقاما من المصريين لكثرة ما انزلوه به من  
المصائب ، وشن غارة عنيفة استولى فيها على مدينة الفرما ذات

التاريخ الموغل فى القدم ، وقزل عن كل ما وجده فيها من الميرة الى رفاقه الحرييين ، وأذن لهم باستباحتها .

والفرما — كما قلنا — مدينة قديمة على ساحل البحر ، ولا تبعد كثيرا عن احد فرعى النيل المسمى بفرع « دمياط » الذى تقع على مصبه مدينة أخرى أقدم منها تسمى « تنيس » التى شهدت المعجزات التى اظهرها الرب لفرعون على يد نبيه موسى ، فلما تم للملك الاستيلاء عليها مضى فزار مصب النيل ليتعلمى بصره اعجابا بمياهه التى لم يكن قد رآها قط من قبل ، وكان لهذا الامر اهميته الكبرى عنده لأنه لم يكن قد رأى النيل وهو يصب بعض مائه فى البحر عبر هذا الفرع ، والقول السائد الذى ينزل منزلة العقيدة عند الناس هو ان هذا النيل احد اربعة انهار تنبع من الجنة ، فاصطاد الملك ومن معه من هذا الخليج بعض السمك الذى يكثر به كثرة هائلة .

وبعد ان تم له ولهم ما ارادوه عادوا أدراجهم الى المدينة التى استولوا عليها وجهزوا نه افطاره من السمك الذى اصطادوه له ، لكنه ما كاد ينهض من مائدة افطاره حتى أحس باضطراب داخلى شديد ، وبمغص ممض فى بطنه ، كما عاوده الألم من جرح قديم كان به فأنهك قواه انهاكا خطيرا أياسه ومن معه من البقاء حيا ، فأذن المؤذن فى القوم بالرحيل فى لحظتهم هذه ، بيد أن العلة أخذت تتفاقم بالملك ، وبلغ من الضعف حدا عجز معه عن الركوب ، فجاءوه ان ذاك بمحفة حملوه عليها وهو فى أشد حالات الكرب ، وساروا به وهو على هذا الوضع وعبروا تلك الناحية من البادية الممتدة ما بين مصر والشام حتى وصلوا الى العريش إحدى المدن الساحلية القديمة فى تلك الصحراء ، وأذن الملك لرضه ، وجاءه أجله فحمل عسكريه المفجوع فيه جثمانه ودخلوا به القدس يوم الأحد المعسروف بعد

الشعانيين عبر وادى يهوشافاط ، حيث كان الناس مجتمعين كعادتهم  
للاحتفال بهذا العيد .

\*\*\*

وكان موت بلديون الأول فى سنة ١١١٨ من مولد سيدنا ، وذلك  
فى العام الثامن عشر من حكمه ، ودفن فى ابهة علوكية مجاورا  
لأخيه ( جودفروى ) فى الموضعسمى بالجلجلة أسفل موضع  
الصلب المعروف باسم كالفارى .

\*\*\*

هنا ينتهى الكتاب الحادى عشر

## الكتاب الثاني عشر

### بلدوين الثاني : الاضطرابات في شمال سورية

#### فصول الكتاب الثاني عشر :

- ١ - ارتقاء بلدوين كونت الرها العرش ، وذكر شيء عنه وعن  
نسبه وأصله .
- ٢ - سبب سفر بلدوين الى بيت المقدس حيث اختير ملكا لها .
- ٣ - وصف طريقة اختياره ، وذكر خبر العمل الخالد لكونت  
استقاس دى بويون .
- ٤ - ذكر صفة الملك بلدوين الثاني وعاداته وأحاديثه .

٥ - وفاة الكسيوس كومنين امبراطور القسطنطينية وموت كل من  
البابا بسكال ، وكونتيسة صقلية التي كانت ذات مرة ملكة  
لبيت المقدس .

٦ - الجيش المصرى يقتحم المملكة بقواته البرية والبحرية فيخرج  
الملك بعسكره لصدده ولكن لا يحدث اشتباك بين الطرفين .  
الموت يوافق « أرنولف » بطرك القدس فيتم اختيار جيرموند  
مكانه .

٧ - تأسيس هيئة فرسان المعبد الحربية فى بيت المقدس .

٨ - موت الملك « جلاسيوس » وتولى « كاليقوس » مكانه .

٩ - ايلغازى الوالى التركى القوى يهاجم اماره انطاكية بحشد  
كثيف ويعيث فسادا فى البلد شرقا وغربا .

١٠ - مصرع الأمير روجر فى المعركة وهزيمة جيشنا .

١١ - زحف الملك بلدوين الثانى وكونت طرابلس الى انطساكية  
لمقاومة ايلغازى .

١٢ - الملك والكونت يساهمان فى محاربة ايلغازى فتدور الدائرة  
على جيش الجاحد ، وتحدث مجزرة فظيعة يهلك فيها هذا  
الجيش ، واذ ذاك توضع الامارة تحت رعاية الملك .

١٣ - عقد مجلس بنابلس فى السامرة .

١٤ - ايلغازى يشن حملة ثانية ، ويعاود الهجوم على انطاكية  
فيخرج الملك لصدده ، اصابة ايلغازى بالسكتة فتميته .

- ١٥ - الملك يمنح الصرية التامة لمواطني القدس ، ويؤكد ذلك  
بمرسومه \*
- ١٦ - طغتكين ملك دمشق يخرب منطقة طبرية فيخرج الملك لصدده ،  
ويدمر مدينة جرش \*
- ١٧ - بلك ( أحد امراء الترك الأقوياء ) يهاجم أرض انطاكية  
ويأسر جوسلين ، كما يقع الملك ( بلدوين الثاني ) هو الآخر  
في أسر بلك \*
- ١٨ - جماعة معينة من الأرمن يعرضون انفسهم للخطر الشديد في  
محاولة منهم لانقاذ الملك ويستولون على القلعة حيث يوجد  
السجناء ، ويطلقون سراح جوسلين \*
- ١٩ - بلك يسترد القلعة عنوة ، ويفتك بالأرمن معسلا فيهم  
السيف \*
- ٢٠ - الكونت جوسلين يجمع قوة كبيرة لانقاذ الملك ولكن الفزع  
الشديد يستبد به من جراء النكبة المنحوسة التي ألمت ببلدوين  
فيسرح عساكره ويردهم الى أراضيهم \*
- ٢١ - المصريون يعاودون دخول المملكة بقوات ضخمة فيقابلهم  
الصليبيون بجيش قوى ويهزمونهم هزيمة نكراء \*
- ٢٢ - دوج البندقية يبحر الى سورية باسطول كبير \*
- ٢٣ - الدوج يصادف أسطول العدو قرب يافا فيهاجمه بضراوة ،

فيضطر العدو الى الارتداد وتقع كثير من الشوانى فى ايدى  
المسيحيين \*

٢٤ - الاتفاق المبرم بين دوج البندقية وبارونات المملكة بشأن  
موضوع حصار صور \*

٢٥ - نسخة من العهد الذى تضمن الاتفاق المبرم بين البنادقة  
وأمرأء مملكة بيت المقدس بشأن حصار صور \*

\* \* \*

هنا يبدأ

## الكتاب الثاني عشر

---

### بلدوين الثاني : الاضطرابات في شمال الشام

- ١ -

كان بلدوين دى بورج ثانى ملوك القدس اللاتين يلقب بأكيوليوس، وكان رجلاً ورعاً يخشى الله ، مشهوراً بوفائه وخبرته الكبيرة بأمور الحرب ، وهو من أمة الفرنجة من أسقفية ريمز ، وأبوه هيج كونت « ريثيل » وأما أمه فكانتسة مليزاند الفاضلة ، التى يقال أنها إحدى اخوات كثيرات أنجبهن العبد من البنيين والبنات ، ولا يعرف حقيقة عدد من أنجبوا سوى الدارسين دراسة دقيقة لأنساب الأمراء .

ولقد خرج بلدوين الثانى فى حياة أبيه فى صحبة رهب من الأشراف الذين تفيض قلوبهم بنفس مايفيض به قلبه من التقوى ، وخرج فى حياة أبيه الشيخ المسن الذى تقدم به العمر حاجاً الى



القدس كواحد من حاشية قريبه الدوق جودفروى ، وكان بلدوين ان ذاك اسن اقراء عائلته ، وترك بلدوين فى وطنه اخوين واختين ، فأما أحد هذين الأخوين - واسمه جرفيز - فقد اختير فيما بعد أسقفا لكنيسة « ريمز » ، وأما الآخر فاسمه « مناسيس » ، وقد تزوجت إحدى أختيه واسمها ماتيلدا من حاكم قلعة « فيترى » ، كما اقترنت الثانية ، وتدعى « هيدونا » من أحد الأشراف نوى النفوذ واسمه « هيربراند دى هيرجز » وقد أنجبت له « مناسيس دى هيرجز » الذى صار فيما بعد الكونستابل الملكى زمن الملكة مليزاند .

ولما مات والد هذا الملك بلدوين خلفه ابنه مناسيس ، وذلك لأن بلدوين - وهو أكبر منه - كان مشغولا بأمور الملكة فيما وراء البحر ، ثم مات مناسيس ، دون أن ينجب ، فتخلى أخوه « جرفيز » عن وظيفته كأسقف ريمز وتزوج ، مما كان خروجا على قوانين الكنيسة ، فألت إليه شرعا كونتية ريثيل ، وقد اثمر هذا الزواج ابنة واحدة زوجها أبوها لأحد أشراف نورماندى ، فلما مات « جرفيز » انتقلت الكونتية الى هورتية ابن أخته « ماتيلدا » التى كانت قد تزوجت من حاكم قلعة فيترى ، ويكفى هنا ما ذكرناه .

## - ٢ -

لما مات طيب الذكر جودفروى بعث القوم فى استدعاء أخيه بلدوين الأول ليتبوا عرش بيت المقدس مكانه ، وألقوا اليه بمقاليد أمور المملكة فى حفل يليق بجلال ولاية المملكة وإن ذاك قام باختيار خليفة له على كونتية الرها قريبه بلدوين الذى نتكلم عنه الآن والذى امتدت ولايته على الكونتية أكثر من ثمانية عشر عاما ، تميز خلالها حكمه بالقوة والنجاح ، فلما رأى فى السنة الثامنة عشر من حكمه استقرار أمور إمارته وهدوءها عزم على زيارة ملك بيت المقدس الذى

هو مولاه وقريبه والمتفضل عليه بما فى يده من الاقطاع ، كما أراد فى الوقت ذاته زيارة الأماكن المقدسة من أجل الصلاة بها فلما تم اتخاذ كافة الترتيبات اللازمة للرحلة عهد برعاية الاقليم الى جماعة معينة من أتباعه الأوفياء الذين يثق فى اخلاصهم وكفاءتهم ثقة تامة ، ولما كان رجلا يقظ الفؤاد لبيبا يأخذ لكل أمر أهيته فقد رتب جميع ما من شأنه حفظ سلامة المدن ، حتى اذا أنجز ذلك الأمر مضى لطيقته وفى معيته معشر من الأشراف .

وبينما هو فى الطريق اذا برسول يعترضه حاملا اليه نبأ تأكد له صدقه ينعى اليه الملك بلديون الأولى فى مصر ، فانشغل بال كونت الرها بخبر موت مولاه وسيده انشغالا ليس بالمستغرب منه ، لكنه لم يتنل عن الرحلة التى خرج من أجلها ، بل تابع الذهاب الى القدس فوصلها فى اليوم المعروف بأحد الشعانين ، وكان الناس قاطبة قد اجتمعوا على جارى عادتهم فى وادى يهوذا فافاء احتفاء بمراسيم ذلك اليوم العظيم الدينية ، وشاءت الصدفة العجيبة أنه فى اللحظة التى كان الكونت وحاشيته يدخلون المدينة من ناحية كان موكب نعش الملك يدخلها من ناحية أخرى وقد سار من ورائه - جريا على العرف - جميع عسكره الذى كانوا يرافقونه فى ذهابه الى مصر (١) .

### - ٣ -

وجيء الى المدينة الطاهرة بجثمان الملك ودفن فى وقار الى جوار جثمان أخيه فى كتيسة القبر المقدسة امام المكان المسسمى بالجلجثة عند سفح جبل كلفارى ، فلما فرغ القوم من مواراته

(١) راجع ص ٢٢٩ - ٢٢٠ من هذا الجزء .

التراب اجتمع كبار رجال المملكة من رؤساء الأساقفة وغيرهم من رجال الكنيسة ، كما حضر هذا الاجتماع البطريرك أرنولف وبعض الأمراء العلمانيين ، منهم جوسلين صاحب طبرية الذي ألمانا بشيء من خبره آنفا ، وكان رجلا على جانب كبير من الشجاعة ، قويا في كلامه وقعه ، وراحوا يتشاورون ماذا هم فاعلون ، وطرحوا في هذا الاجتماع الذي عقد من أجل هذا الموضوع ذاته آراء شتى متباينة ، فكان من رأى البعض وجوب الانتظار حتى يصل كونت « استاس » كما أوصوا إلا يحدث أى تدخل فى القانون القديم الخاص بوراثة الولاية ، ذلك لأن أخويه صاحبى الذكر الطيب قد أدارا سفة أمور للمملكة على خير وجه ، ووقع حكمهما موقع الرضا والقبول عند الجميع .

وقال آخرون إن أمور المملكة وما ينجم على الدوام من حاجات ملحة لا تسمح بمثل هذا التأجيل ، كما أن المتاعب المستمرة لا تأذن بهذا الابطاء ولا تجيز لنا أن نمر بفترة يخلو فيها العرش من حاكم ، بل إن السرعة واجبة ، وأن الواجب يتطلب أن نبادر فنتخذ القرارات التى يتطلبها صالح البلاد ، مضافة أن يجد طارئ من الطوارئ فلا يكون هناك أحد يقود العسكر أو يباشر شئون المملكة ، لأن صالح البلد سوف يكون عرضة للخطر إن خلعت من رأس يدبر أمورها .

ولقد أشرت آنفا الى أن جوسلين كان رجلا واسع النفوذ فى المملكة فاتفق مع البطريرك فى رأيه الذى وجدده مطابقا لما فى نفسه ، ومن ثم قانه وضع حدا لتردد الأحزاب وتوقفها عن التصويت إذ أيد المطالبين بتعيين ملك فى الحال وقال :

« ان كونت ألرها حاضر معنا وهو رجل جليل القدر تربطه بالملك وشيجة القرابة ، ثم انه الى جانب ذلك مقدم جسيم فى

الحرب ، عظيم القدر من كل جانب عند الجميع ، عقلت كل أرض  
ورلاية عن أن تنجب مثيلا له فهو نسيج وحده وقريم دهره ، ولذلك  
فتتويجه ملكا علينا خير لذا وأجدى من انتظار أمور خطيرة •

كان هناك الكثيرون ممن يعتقدون ان كلمات السيد جوسلين  
صادرة عن نية صادقة لأنهم كانوا عالمين تمام العلم بالمعاملة التي  
لقيها منذ قريب على يد الكونت والتي أشرنا اليها من قبل ، وورد  
على أذهانهم المثل القائل « ان الحق ما شهدت به الاعداء » فوثق  
هذا الفريق كل الثقة بما قاله جوسلين واستجابوا له طائعين فيما  
نطق به غير عالمين أن هدفه الحقيقي كان مخالفا لما قال ، ولم  
يدركوا ما يرمى اليه فالواقع أنه كان يطمع أن يخلف بلدين في  
الغد في امارة الرها وقد حمله هذا الطمع على محاولة وضع  
الكونت على العرش •

ولما كان البطررك أرنولف ولورد جوسلين قد تبنيا هذه الفكرة  
ورتباهما فيما بينهما فقد كان من اليسير ان يعتنقها بقية القوم ، ومن  
ثم تم انتخاب بلدين برغبة الجميع واجماعهم فنصبوه ملكا عليهم ،  
حتى اذا وافى يوم الاحتفال بعيد القيامة المجيدة الذي كان بعد قليل  
أقيم احتفال عظيم مسحوه فيه بالزيت ، وباركوه جريا على العادة  
المألوفة ووضعوا على رأسه العصاية الملكية •

وأيا كان غرض البطررك ولورد جوسلين من وراء هذا الاختيار  
فإن الله برحمته منه جعل الخاتمة خيرا فقد أثبت عدل ( بلدين )  
وتقواه انه الرجل الكفء ، وحالفه النجاح في كل أمر أقدم عليه •

ومع ذلك فانه يبدو ان سوق العرش اليه كان على غير القاعدة  
المرعية ، ذلك أنه كان من الحقائق الثابتة ان الذين دلسوا فرفعوه

الى كرسى الملك قد حرموا وريث المملكة الشرعى من حقه فى العرش،  
ان انه لما مات الملك (بلدوين الأول) أرسل القوم رهطا من كبار النبلاء  
يقدمون العرش بأجماع عام الى « أوستاس » كونت بولونيا شقيق  
كل من الدوق جود فروى العظيم والملك بلدوين الأول ، ولست بقادر  
على الحزم البات عما اذا كان هذا الأمر قد تم حسب رغبة الملك  
الأخيرة ، أم انه تم نزولا على اجماع تام من أمراء المملكة .  
وعلى أية حال فقد زار المبعوثون « استاس » وراحوا يغرونه بالمضى  
معهم حتى أبوليا لينذكروا له المبررات الشرعية لاختياره ، فإطاعهم  
على كره منه لمورعه وتقواه وخشيته الرب ، فقد كان الأخ الحق  
لهذين الرجلين الجليلين ، والخليفة الصادق لهما .

فلما بلغوا أبوليا علم هذا الرجل الموقر بتنصيب قريبه بلدوين  
كونت الرها ان ذاك ملكا على بيت المقدس ، فلم يمنع ذلك الخبر  
الرسل الذين وفدوا لمصاحبته الى المملكة من الاصرار على مواصلة  
الرحلة وصرحوا بأن الاجراء الذى تم ان هو الا اجراء مناقض  
للقانون الوضعى ومخالف للشريع الالهى ، وانه على غير اقدم  
قاعدة للاستخلاف الوراثى ، ولا يمكن ان تقوم له قائمة .

ولكن قيل ان الرجل الفاضل الذى تفيض نفسه بروح الله  
أجابهم بقوله : « باعدوا بينى وبين كل عمل يؤدى الى النزاع  
فى مملكة الرب التى كان دم المسيح سببا فى ان يعمها السلام ،  
وهى نفس المملكة التى ضحى من أجل هدوتها اخوانى الرجال النبلاء  
أصحاب الذكر ، وجادوا للعلى بأرواحهم الطاهرة » .

واذ ذاك أعيد حزم أمتعته وتجمع مرافقوه وكر على أعقابهم  
راجعا الى وطنه رغم جميع المحاولات التى بذلها الرسل لحمله على  
الذهاب الى المملكة .

كان ( الملك الجديد بلدوين الثانى ) كما يقولون رجلا فارح الطول ، تستلفت هيئته العيون وكان وسيم الخلقة جميلا ، يتخلل البياض شعره الأشقر ، أما لحيته فطويلة تصل الى صدره وان كانت مدببة ، وأما وجنتاه فمشويتان بالحمرة مع حيوية لا تتفق وتقدم سنه ٠

وكان خبيرا باستعمال السلاح ، بارعا كل البراعة فى القتال على ظهر الخيل ، متمرسا بفنون الحرب ، قويا فى السيطرة على رجاله ، ناجحا فى حملاته ، مطبوعا على الرحمة والشفقة ، مبالا لفعل الخير ، ورعا يضاف الله ، دؤوبا على الصلاة والركوع حتى نمت على يديه وركبته نثرءات جافة بسبب كثرة سجوده ، وعلى الرغم من انه كان طاعنا فى السن الا انه كان لا يكل أبدا عن تلبية أمور المملكة اذا دعاه الداعي ٠

ولما تبوأ العرش صادفته بعض المشاكل بشأن كونتيته الرها التى أصبحت بلا مدبر يرعى شئونها ، ومن ثم استدعى اليه - ومن تلقاء ذاته - قريبه جوسلين ، رغبة منه فى التكفير عن خطا ارتكبه فى حق ذات مرة ، فلما صار بين يديه عهد اليه بإدارة أمور الرها باعتبارها يرى الناس بالاقليم ، وما كاد جوسلين يقطع له يمين التبعية حتى أسلمه العلم وملكه الرها ٠

ثم بعث بلدوين بعدئذ فى طلب زوجته وبناته وجميع أهل بيته من الرها فوصلوا اليه على جناح السرعة سالمين آمنين بفضل ما أحاطهم به جوسلين من الرعاية ، وكانت زوجته موريا « ابنة شريف اغريقى اسمه جبريل تكلمنا عنه من قبل(٢) » ، وكان قد عقدوا له

---

(٢) سبق لوليم أن نسب جبريل هذا الى أصل أرمنى ولم يشير الى اغريقته ،

عليها وقت ان كان كونتا وتسلم - ان تزوجها - مهرا كان قدرا كبيرا  
من المال وانجبت له ثلاث بنات هن «مليزند» و «اليس» و«هودييرنا»  
اما الرابعة واسمها « ايفيتا » فقد ولدت بعد ان صار ملكا .

وقد نصب بلدوين وتوج ملكا في سنة ١١١٨ من مواد  
السيد ، ثانى شهر ابريل ، وكان بابا الكنيسة الرومانية يومذاك هو  
البابا « جلاسيوس » الثانى ، كما كان برنارد اول بطرك للاتين  
حينئذ فى انطاكية ، وارنولف بطرك كنيسة القدس ، وهو رابع  
البطاركة اللاتين بهذه المدينة .

- ٥ -

فى هذا الوقت بالذات رحل عن هذه الدنيا « الكسيوس »  
امبراطور القسطنطينية ، وهو اقبح رجل اشتط فى اضطهاد اللاتين ،  
وخلفه ابنه يوحنا ( الثانى ) الذى كان اكثر انسانية منه فاستحق  
ان ينزل من نفس شعبنا منزلة سامية من المحبة ، هذا على الرغم من  
انه لم يكن صادق الاخلاص فى نيته تجاه اللاتين ، كما سنفصل ذلك  
فى الصفحات التالية .

\*\*\*

ومشى البابا الرومانى بسكال فى الطريق الذى يمشى فيه كل  
الخلائق قاطبة ، وذلك فى السنة السادسة عشرة من بابويته وخلفه  
« جلاسيوس » الذى يسمى أيضا « بيوحنا خايقانوس » مدير شئون  
الكنيسة الرومانية الطاهرة .

كما ماتت السيدة « ادليدا » كونتسة صقلية التى عرفت ذات  
مرة عند الناس بأنها زوجة الملك بلدوين الثانى المذكور آنفا ، وان  
لم تكن شرعا كذلك .

وفى صيف تلك السنة جمع الأفضل أمير مصر وصاحب الأمر  
فيها أعدادا كبيرة من الفرسان والمشاة من شتى أقاليم مصر ،  
ورتب أموره على أن يقتحم مملكتنا قسرا بقواته البرية والبحرية  
معاً ، لأنه كان يحسب أنه من السهل عليه أن يقضى بالسيف على  
شعب صغير جدا كهذا الشعب ( الصليبي ) ويلحق به الهزيمة ،  
ويشرد أفرادَه على وجوههم فى كل بلاد الشام ، لذلك قام بحشد  
طائفة كبيرة من الفرسان وأعداد لا يحصيها العد من المشاة  
البارعين فى الرمي بالحراش واجتاز الصحراء الفسيحة الواقعة  
بيننا وبين مصر وعسكر بهم أمام عسقلان .

وكان ملك دمشق طفتكين « قد علم بأن المصريين قادمون ،  
فقام بجمع جيش كبير ، وربما كان جمعه ذلك الجيش من تلقاء ذاته  
أو بإيعاز من ( المصريين ) ، وسلك بهم دروبا لم تجر العادة على  
سلوكها حتى يتحاشى مواجهة عسكرنا ، وعبر الأردن بمن معه  
وانضم بهم الى معسكر المصريين لعله يزيدهم قوة فيتمكن من الحاق  
الاذى بالصليبيين ، وارسى بعض السفن عند عسقلان ، ومضى غيرها  
شطر مدينة صور الشديدة الحصانة ، ذات الميناء الفسيح ، وتلبثوا  
هناك فى انتظار ما تقضى به أوامر مولاهم ومشينته قائد الأسطول ،  
ولكن لما كان ملك بيت المقدس يتوقع منذ زمن بعيد مجيئهم فقد  
استدعى اليه قوات اضافية من أنطاكية وطرابلس ، أما قواته هو  
فقد ركزها فى بقعة من بقاع سهل الفلسطينيين ، ثم مضى بعدئذ  
لواجهة العدو ، واجتاز الموضع الذى كان يسمى من قبل باسم  
« أسدود » والذى يعرف بأنه كانت به احدى مدن الفلسطينيين  
الخمس حيث ضرب معسكره ، فصار على مقربة من المصريين ،



وأصبح الجيشان - وقد دنى أحدهما من الآخر دنوا يستطيع معه كل منهما أن يرى معسكر خصمه يوما بيوم .

وأعقب ذلك فترة توقف امتدت حتى قاربت ثلاثة أشهر لم يتحرك فيها أحد المصافين للهجوم على الآخر إذ كان الصليبيون يخشون أن يحملوا هذا الجيش الكثيف على الاندفاع لقتالهم أن هم بدءوا بالهجوم عليه .

كما كان العدو هو الآخر متخوفا مما يشاع عن جرأة جندنا وقوتهم وبراعتهم في القتال .

وأخيرا رأى القائد المصري أن الحكمة تقتضيه الرجوع الى بلده سالما فذاك أجدى عليه وأسلم من أن يعرض نفسه ورجاله لمعركة لا يدرى بوائقها ، فعادت الحملة أدراجها الى مصر ، فلما اطمأن رجالنا الى عدم عودة المصريين فجأة استأذنوا الملك في الرجوع هم أيضا فعادوا فرحين الى ديارهم .



ومات في هذه الأثناء (٣) ارنولف بطرك بيت المقدس ، وكان رجلا يكثر من اختلاق المتاعب ، ولا يكثر بمراعاة مهام وظيفته المقدسة ، فتولى مكانه « جورموند » وكان رجلا مستقيما يرضى الله ، وهو من شعب الفرنجة من بلدة « بكويني » ومن أسقفية « أميين » ، والحق أنه تمت في أيام هذا الرجل - وبسبب فضائله كما يعتقد الكثيرون - أمور جليلة أدت الى رفعة مجد المملكة واتساعها ، وسنقص خبرها في الفصول التالية من هذا الكتاب .

---

(٣) كانت وفاته يوم ١٨ أبريل سنة ١١١٨م .

وقام فى هذه السنة ذاتها طائفة من النبلاء المؤمنين من طبقة  
الفرسان الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واعلنوا عن رغبتهم فى  
اخذ انفسهم على الدوام بحياة الفقر والطهارة والطاعة ، واقسموا  
بين يدى البطرك ، واخذوا العهد على انفسهم ان يكرسوا انفسهم  
لخدمة الله حسب القوانين الشرعية ، وكان من أبرز هؤلاء الرجال  
واسبقهم لذلك الأمر « هيچ دى باين » الموقر ، و « جود فروى دى  
سبذت اومير » ، ولما لم يكونوا ينتمون الى كنيسة معينة ،  
وليس لهم مكان معين يقيمون فيه فان الملك منحهم سكنا مؤقتا فى  
قصره الخاص يقع على الجانب الشمالى من هيكل السيد ، كما  
منحهم ساحة كانت تابعة للهيكل وقريبة من نفس المكان يستطيع  
فيها هذا النظام الجديد ان يمارس واجباته الدينية .

كما وفر لهم الملك ونبلاؤه والبطرك ورجال الكنيسة اوقافا  
خاصة مما تملكه ايديهم ، فاصبحت دخولها تدر على هؤلاء الفرسان  
ما يقوم بسداد جميع مطالبهم وما يحتاجونه من مأكلا وملبس ،  
وكانت بعض هذه الهبات مقيدة بفترة زمنية محددة ، وبعضها كانت  
ملكا لهم للأبد ، وكانت مهمة هذا التنظيم الرئيسية التى اوصاهم  
بها البطرك والاساقفة الآخرون لاجب خطاياهم هى انه يجب عليهم ان  
يبدلوا ماتسعفهم به طاعاتهم لحفظ المسالك والدروب العامة ، وجعلها  
آمنة من تهديد اللصوص وقطاع الطرق ، مع بذل العناية الخاصة  
لحماية الحجاج .

وظل الفرسان الداوية هؤلاء لمدة تسع سنوات من تأسيس نظامهم  
هذا وهم يلبسون الملابس المدنية كبقية الناس ، ويرتدون ثيابا مما

يخلعها الناس عليهم وذلك لخلاص ارواحهم ، حتى اذا كان العام التاسع لقيام نظام الفرسان هذا عقد فى مدينة « تروى » بفرنسا مجمع حضره رئيسا أساقفة « ريمز » و « سنس » ومساعدوهم . كما حضره أسقف « البانز » مندوبا عن البابا ورؤساء اديرة « سيتو » و « كليوفو » و « بوتيلى » وكثيرون غيرهم ، وتقرر فى هذا المجمع بأمر من البابا « هونوريوس » و « سيستيفان » بطرك القدس وضع قاعدة عامة لهذه المنظمة ، كما اتفقوا على أن يكون البياض لباسهم .

وعلى الرغم من أنه كان قد انقضت تسع سنوات على قيام فرسان المعبد هؤلاء الا أن عددهم لم يتجاوز التسعة فقط ، ثم أخذوا فى الزيادة بعد هذه الفترة ، وتضاعفت املاكهم ، كما يقال انهم شرعوا منذ عهد البابا يوجين - فى خياطة صلبان من القماش الأحمر على عباءاتهم حتى يمكن التفريق بينهم وبين سواهم ، ولم يقتصر وضع شارة الصليب على الفرسان وحدهم بل لبسها أيضا الاخوان الذين هم دونهم مكانة والمسمون بالسرجندية ، وقد تزايد فرسان المعبد تزايدا كبيرا حتى أنه لىوجد اليوم منهم مايقرب من ثلاثمائة فارس يلبسون العباءات البيضاء ، هذا بالإضافة الى عدد لا يكد يحصى من الاخوان الذين هم دونهم مرتبة .

ويقال انه كانت لهم املك شاسعة ، سواء على هذا الجانب من البحر أو فيما وراءه ، ولا توجد ولاية فى العالم المسيحى اليوم الا وتمنع جزءا من ممتلكاتها لهؤلاء الاخوان ، حتى ليقال ان ما أصبحوا يملكونه يعادل ما عند الملوك من الثروات والأموال ، وهم يسمون باخوان فرسان المعبد ، ذلك لأنهم أقاموا - كما قلنا - فى القصر الملكى على مقربة من هيكل السيد .

ولقد ظل فرسان الهيكل زمنا طويلا وهم أوفياء لهدفهم النبيل ، مؤدين واجبههم على أكمل وجه ، ثم بدا لهم أخير أن يهملوا «التواضع الذى هو حارس جميع الفضائل ، فنزلوا به الى الدرك الأسفل » إذ خرجوا على بطرك بيت المقدس الذى تسلموا منه امتيازاتهم الأولى ورفضوا أن يطيعوه الطاعة التى كان يبدونها أسلافهم له ، كما أصبحوا مصدر متاعب شديدة لكنائس الرب لأنهم رفضوا أن يسلّموها الأعشار التى هى أولى ثمرات فاكهتهم ، وعاثوا فسادا فى أملاكهم .

- ٨ -

ولما كانت السنة التالية مات كذلك البابا « جالسيوس » المسمى أيضا بيوحنا جايتانوس ، وكان رجلا اشتهر بالعلم ، وهو خليفة البابا بسكال ، ولما كان يتجنب العنف فقد هرب من اصطهاد الامبراطور هنرى وخصمه البابا الزائف « بوردينوس » ولجأ الى مملكة الفرنجة حيث ظل بها بقية أيامه حتى وافاه أجله ودفن فى « كلونى » فخلفه الرجل النبيل الأصل رئيس أساقفة فينا ، المدعو « جيدو » الذى صارت اليه البابوية فسمى « كاليكستوس » وكانت تربطه صلة القرابة بالامبراطور هنرى ويحظى بعطفه الكبير ، ثم انتهى به الأمر أخيرا اعتمادا منه على عطف الامبراطور وتشجيعه - الى الضى الى ايطاليا مستصحبا معه الكرادلة وكل حاشيته ، حتى اذا بلغ « سوتريوم » القرية من مدينة روما ، أمسك بخصمه « بوردينوس » رأس الهراقة مسكا عنيفا وأمر أن يلبسوه جلد دب ، وان يحمل على جمل ويسيروا به فى صورة كريهة شنعاء الى أحد الأديرة فى كانى قرب « سالرنو » حيث فرضوا عليه أن يعيش حتى آخر أيامه عيشة الرهبان حسبما تقضى بذلك نظم هذا المكان .

وهكذا انتهى الشقاق الذي ظل ثلاثين عاماً يقلق بال الكنيسة ، وهو شقاق ظل مستمرا منذ عهد جريجورى السابع وطوال بابوية ايربان ( الثانى ) وبسكال وجالسيوس « أسلاف كاليكستوس » ، وبقي الامبراطور فى خلال هذا الشقاق سنوات طويلة محروماً من صحبة المؤمنين بسبب قرار الحرمان ضده ، اما الآن فقد عاد الى حضن الكنيسة .

## - ٩ -

وفى نفس هذه السنة (١) هاجم ايلغازى امارة انطاكية ، وهو أحد الأمراء الجاحدين الأقوياء وصاحب الأمر والنهى على هذا الجنس التعس الغادر : جنس التركمان ، وكان شعبه يرهبه كل الرهبة ، وقد عسكر بجموع كثيرة من رعاياه قرب حلب ، كما كان معه طغتكين ملك دمشق ودبيس ( بن صدقة ) أحد الولاة العرب الأقوياء ، وقد ضم هذان الأخيران قواتهما الضخمة الى جيش ايلغازى .

وكان بعض الناس قد أفضوا الى روجر أمير أنطاكية الذى تزوج أخت الملك بخير قدوم هذه الجيوش محذرين إياه منهم . فأرسل الى السادة المجاورين له وإلى لورد جوسلين كرنز الرها ، ويونس بل وإلى الملك ذاته يصور لهم الخطر الذى يهدده ، ويلح عليهم الحاحا شديدا الا يتوانوا فى المجيء اليه لمساعدته فى هذه الأزمة الطارئة التى اشتدت عليه وطلاتها .

سرعان ما بادر الملك الى جمع كل من أمكن جمعه من مملكته من العسكر استجابة لهذه الدعوة التى جاءت على غير توقع منه ، وتقدم يحث الخطا الى طرابلس حيث وجد الكونت يتأهب هو الآخر

---

(١) يعنى سنة ١١١٩ .

للخروج ، فأنضمت قواتهما بعضهما الى بعض وتأبعوا الزحف معا  
بقية الطريق .

فى هذه الأثناء تباطأ الأمير عن عمد ، شأنه فى ذلك شأن كثير  
من البشر، وكان قد غادر أنطاكية وعسكر أمام ارتاح «الحصينة» غير  
عالم بما اندخره له الغد ، وكان هذا الموضع قد اختير اختيارا صالحا  
للجيش ، لأن بلوغه أرضنا كان ميسورا وقد توافر فيه جميع  
ماحتاجه هذه الحملة ، كما زخر بشتى وسائل الراحة التى لا توجد  
عادة الا فى المدن ، فظل الأمير مقيما هنا لبضعة أيام يترقب وصول  
الملك والكونت ، لكنه مالبث أن أمر الجيش بالتقدم على الرغم من نهى  
البطرك الذى تبعه الى هناك واحجام الزعماء ، فلم يكن منه الا أن  
أعلن الى أمرائه أنه لن يترى أكثر من هذا ، وقد شجعه على ذلك  
بعض نبلاء هذه الناحية الذين لم يكن يدفعهم الى ذلك رغبتهم فى  
إداء خدمة للجيش بل كانوا يطمعون أن يكون فى مجيئه حماسية  
لأراضيهم الواقعة قرب معسكر العدو .

فاستجاب الأمير لما أشار به عليه هؤلاء الأمراء ، وترك المكان  
الذى كان قد عسكر فيه أولا ، واندفع فى طيش فاقحم نفسه وجيشه  
فيما يجر عليه البوار ، إذ نزل بموضع يقال له حقل الدم « وأحصى  
هنا جيشه فوجده سبعمائة فارس وثلاثة آلاف من المشاة المدربين ،  
هذا بالإضافة الى جماعة من التجار كانوا يتبعون الجيش للمتاجرة  
وبيع مامعهم من السلع .

ولما رأى الأعداء أن الأمير عسكر على مقربة منهم نقضوا  
خيامهم وتظاهروا بسحب قواتهم كأنهم يريدون مهاجمة حصن  
الأتارب ، أملا منهم فى أن تؤتى هذه المناورة ثمار خطتهم الحقيقية  
فى سهولة ويسر ، قبلغوا حصن الأتارب وعسكروا قربه هذه الليلة ،  
ولكنهم لم يقوموا بأى عمل لأن الوقت كان متأخرا ، فلما طلع الصباح  
بعث الأمير « روجر » كشافته للتجسس وليعرف عما إذا كان الخصم

عازما على مهاجمة المكان فى الحال ، أم أنه مسرع الى المعسكر  
لقتال قواتنا ، ورتب الأمير جنده للقتال توقعا لهجوم قد يباغثونه به  
فى لحظتهم هذه ، وبذلك كان مشغولا حين عاد اليه جواسيسه  
سراعا يخبرونه ان العدو فى ثلاث كتائب ، قوام كل كتيبة منها  
عشرون ألفا من العسكر ، وأنهم مسرعون فى الاقتراب من جيشنا ،  
فاستعد الأمير ( روجر صاحب انطاكية ) فى الحال للقتال جاعلا  
جيشه أربعة أقسام ، ثم راح يدور بين صفوفه مخبا بجواده ومشجعا  
رجالہ بكلمات تشد من عزائمهم ، وبينما هو فى غمرة هذه الأمور  
إذا برايات العدو تخفق معلنة اقترابه الشديد من قواتنا ، وبدأ القتال  
فى الحال ، واستبسل كل من الجانبين استبسال عظيم فى حربه ،  
وان انتهى القتال بانتصار أعدائنا بسبب أخطائنا .

وصدرت الأوامر الى القوات التى كانت بقيادة القائدين النبيلين  
البطليين « جودفروى الرأهب » و « دى فريميل » بأن تتقدم هى أولا  
ضد العدو ، فسارت قدما على أتم نظام يقتضيه العمل الحربي وشقتوا  
الجانب الأكبر من قوات الخصم وعسكره الكثيف ، وأرغموه على  
الفرار .

اما الفريق الثانى الذى يقوده « روبرت دى سنت لو » فكان عليه  
ان يفعل ما فعله الأول ، فواصل الهجوم ، وان يكون هجومه أعنف  
من سابقه ، ولكنه جلب ما يستوجب المعرة ، ان توقف بعضا من  
الوقت أتاح فيه للعدو فرصة يسترد فيها أنفاسه ويكر كرة ضارية  
على قلب كتيبة الأمير وهى تنأى لمساعدة الفرق الأخرى ، واكتسح  
معه بعضا من هذه القوة فأصبح الرجوع معها ضريما من الحال .  
على أنه حرت أثناء هذه المعركة حادثة تجدر الإشارة إليها ، ذلك انه  
بينما كان القتال على أشده بين الطرفين ، اذا بعاصفة هوجاء تهب

من ناحية الشمال ثم تهبط فتلتصق بالأرض وسط ساحة المعركة ، ثم تسفى تراباً كثيفاً أعمى رجال الجيش فلم يستطع أحد قتال الآخر ، ثم ارتفع هذا العثير على شكل دوائر تشبه تمام الشبه جرة ضخمة ملتفة تتصاعد منها شعل كبريتية ، وأدى هذا الحادث العارض المذعر بالسوء الى أن يكون الطفر للعدو فى هذه المرحلة وأن تدور الدائرة على الصليبيين ويهلك معظم عسكرنا بحد السيف .

## - ١٠ -

كان الأمير ( روجر ) فى هذه الأثناء يبذل جهده بلا طائل فى دعوة قواته للعودة ، وكان هو ذاته يحارب حرب الأبطال فى شرملة ضئيلين من خاصته ، ويخاطر بنفسه وسط صفوف العدو غير هياب ولا وجل ، على أنه بينما كان فى معمران القتال اذا بضربة سيف تصيبه فتريده فقر على أثرها بقية رجالنا الذين كان قد تركهم لحفظ الأمتعة والذخيرة ، وآووا الى جبل قريب ، ولما شاهد الهاربون ما كان من أمر الذين نجوا من سلاح العدو وفروا من المعركة ، تجمعوا على قمة هذا التل وراحوا يبذلون محاولات محمومة ليصلوا اليهم ، وكانوا يؤملون أن تكون هذه العصبة من القوة بالدرجة التى تمكنهم من المقاومة والنجاة معها ، لكنهم لم يكادوا يصلون الى هذا الموضع حتى كان خصوم ملتهم قد أجهزوا تماماً على من كان فى المعسكر ، ثم التفتوا الى هذه الجماعة فتبددت أيدي سبى ، وما انقضت ساعة من نهار حتى كان رجالها قد قتلوا على بكرة أبيهم .

كان رينالد ماسوييه ( المعروف برينيه منصور ) من أحسن رجال تلك الناحية العظام ، وكان قد التجأ هو وجماعة من الأشراف الى أحد أبراج مدينة «الماورة» طلباً للسلامة، فما كاد ايلغازى يعلم بذلك حتى حث خطاه الى هناك على رأس طائفة مسلحة ، وأرغم النبلاء



الموجودين بالبرج على الاستسلام ، وهكذا ترقب على ما ارتكبناه من الخطأ ان لم تقدر النجاة لأحد من الألوف العدة الذين تبعوا مولاهم فى ذلك اليوم ، ولم يبق منهم أحد فى الحياة ليروى خير ماجرى ، هذا فى الوقت الذى كان فيه قتلى العدو شرذمة قليلين أو لاشيء مطلقا .

كان هذا الأمير روجر مذموم السيرة غاية المذمة ، فهو رجل كما تقول الشائعة داعر لا خلاق له ، لا يحترم الروابط الزوجية ، كما أنه كان شديد البخل ، قد اغتصب - طول حكمه لانطاكية - ارث سيده بوهيموند الصغير بن بوهيموند الكبير الذى كان يعيش ان ذاك مع أمه فى أبوليا ، ان كان تانكريد الطيب الذكر قد عهد - وهو على فراش الموت - بالحكم الى روجر ، مقدرا أنه لن يرفض تسليم الحكومة الى بوهيموند الصغير أو ورثته ان طلب أحدهم استرجاعها - على أنه يقال انه قيل الواقعة التى مات فيها يحد السيف اعترف باخطائه أمام الرب بقلب كله ذل وندم ، وكان اعترافه على يد بطرس الموقر رئيس أساقفة « أفامية » الذى كان حاضرا فى هذه اللحظة الحرجة ، وزاد على ذلك بأن وعد - بمعونة الرب - ان يعطى عطاء يعادل رجوعه عن اثمه ، ثم خاض المعركة صادق التوبة .

- ١١ -

فى هذه الأثناء كان الملك وكونت طرابلس قد وصلا الى المكان المسمى بجبل « نجرة » ، فما كاد ايلغازى يعلم بخبر وصولهما حتى بعث بكتيبة قوامها عشرة آلاف فارس من خيرة فرسانه لصددهما ، وكانت هذه الكتيبة مقسمة الى ثلاث فرق ، تقدمت أولاها تجاه الشاطئ الى ميناء القديس سمعان ، اما الفرقتان الأخريان فقد زحفتا ضد الملك وان اتخذت كل منهما طريقا يخالف طريق الأخرى ، لكن شاءت

الصدفة البحتة أن يلتقى بلديون ( الثاني ) باحدى هاتين المجموعتين الآخرين فهاجمها برحمة من الله ، وأقنى الكثيرين من رجالها الذين أسر بعضهم ، وارغم البقية على الفرار ، ثم تابع بعدئذ زحفه مع كل من قبضت لهم الحياة من أتباعه بعد المعركة مستعرضا معهم عبر « لاتورس » و « كازابلا » حتى وصل الى انطاكية ففرح بمقدمه البطرك ورجال الدين والناس قاطبة فرحا عظيما ، ثم راح يتشاور مع كل من قبضت لهم الحياة من أتباعه بعد المعركة مستعرضا معهم أحسن السبل التي ينبغي عليه اتباعها فى مثل هذا الموقف الشديد التآزم .

كان ايلغازى فى هذه الأثناء قد مر ببيلتى « عم » و « ارتاج » وضرب الحصار على الأتارب وكان شديد الأملئنان لقيامه بهذه الخطة لأنه كان قد أذبح ان الملك دعى اليه الوالى وأتباعه الفرسان الى انطاكية ، وقد برهنت الأحداث على صدق هذا الخبر ، فقد تقدم ايلغازى من المكان ووجده غير مجهز بما هو لازم للقتال ، فبعث فى لحظته الى شتى النواحي يستقدم الجند الذين يعملون فى بناء التحصينات فمفروا السراييب وكلفهم بنسف الأكمة التى يقوم عليها الحصن فنسفوها واضرموا النيران فى الأعمدة الخشبية التى يستند اليها البناء ، فلما انهارت الرابية التى ترتكز عليها الأسوار والأبراج خاف رجال الحامية أن تهوى القلعة بأكملها حين يتم نسف التل فاستسلموا ، على أن تؤمن لهم حياتهم وأن يسمح لهم بالرجوع الى أهلهم من غير أى عائق ، ثم قاد ايلغازى جيشه الى قلعة « زردنا » وبدأ عمليات الحصار بها فلم تنقض أيام قلائل الا وقد استسلم من بها على نفس الشروط ، فأيقن الأمير أن لمن يقاومه أحد ، ومن ثم أضجره التريث فسار فى الاقليم كله وفق هواه الشخصى ، وهكذا فقد أهالى الأماكن المجاورة كل أمل لهم فى النجاة من بطش رجل قوى كهذا الرجل .

خرج الملك وكونت طرابلس من أنطاكية بكل القوات التي أمكنهما جمعها ، واتجها في زحفهما شمسـطر « الروح » ظنا منهما أنهما واجدان العدو قرب « الأثارب » ومرا عبر « دانيث » وعسكرا على هضبة يقال لها تل دانيث ، وما كاد خبرهما يصل الى سمع ايلغازى حتى استدعى اليه قواده وهددهم بالموت ان لم يهجروا النوم ويصرفوا كل ليلهم في الحصول على السلاح والخيـل ، وأمرهم أن يبذلوا أقصى الجهد في الاستعداد لمهاجمة معسكر الملك مع اطلالة الفجر قبل أن يطلع النور ، وبذلك يفاجئون رجال الملك وهم لا يزالون يغطون في نومهم فيحكمون السيف فيهم جميعا ولا يمتكون احدا منهم من الفرار .

ولكن الرحمة الالهية قدرت غير ما رسموا ، ذلك ان الملك ورجاله لم يتوانوا في تيقظهم ولم تغمض لهم عين طول الليل ، وظلوا منهمكين في ترتيب التفاصيل الضرورية للمعركة القادمة ، ومضى « ابرمار » رئيس اساقفة قيصرية الموقر الذي صـحب الملك الى هذه النواحي حاملا صليب المسيح في يده وراح يعظ الناس ويشجعهم ، فانتضوا أسلحتهم وتأهبوا للاستبسال في القتال في شجاعة كبيرة، وليثوا ينتظرون هجوم العدو عند طلوع النهار .

ويقال انه كان مع الملك في هذه المعركة سبعمائة فارس أمرهم أن يقسموا أنفسهم الى سبع كتائب حسب النظام الحربى ، واصطف صفوفهم في انتظار رحمة الرب، فجعلوا في طليعة الجيش ثلاث كتائب قدموها أمامهم ، اما المشاة فجعلوهم في الوسط ، واما كونت طرابلس وقواته فكانوا يؤلفون اليمينه ، على حين وقف بارونات أنطاكية في الميسرة . وكان في المؤخرة الملك نفسه على رأس أربع كتائب اتفقوا على أن تكون مهمتها مساعدة الآخرين .

وبينما هم مصطفون على هذا النحو من التنظيم الحربى فى انتظار مجيء العدو اذا به يكرر عليهم فى صرخات مدوية ، ويتقدمه نفخ الأبواق ودىق الطبول ، وكأذوا فى هجومهم معتمدين كل الاعتماد على أعدادهم التى لا يحصيها العد ، ولكن قرائنا كاذت تعتمد على الصليب المنتصر وعلى صدق إيماننا ، وهو أمل لا يخون صاحبه ولا يخزيه .

ثم التحمت الصفوف المتراصة القريب بعضها من بعض وتقاتلت وجها لوجه بالسيف ، ولم يحقل الجانبان أبدا بالشرائع الانسانية ، بل كاتا يتقدان عنفا ويتفجران كراهية لا ينضب معينها ، ويتقاتلان كما لم كان كل منهم يقاتل وحوشا ضارية .

ورأى المارقون ان جراءة مشائنا تنذر بشر مستطير ، قبذلوا محاولات بطولية للقضاء علينا ، فهلك فى ذلك اليوم طائفة كبيرة من جندينا المشاة بسيف العدو ، وان كان ذلك باذن من الرب .



سرعان ما تبين الملك ان مشائنا قد اجهدوا انفسهم فوق طاقتهم ، وان المقدمة فى حاجة الى الأخرى للمساعدة ، ومن ثم وثب بحرسه وهم ركوب وشقوا طريقهم قدما الى قلب العدو ، وراح بلدوين يضرب بسيفه ضربا عنيفا ذات اليمين وذات الشمال حتى تخلخلت صفوف الخصوم التى كانت أكثر الصفوف حشدا ، وحذا رفاقه حذوه ، ونجح تشجيعه اياهم فى شد عزائمهم فانشالوا على العدو لاتهمكم غير فكرة واحدة ، واستنجدوا بالسما عساها تعينهم ، فاستجابت لهم الرحمة الالهية ، فافحشوا القتل فى العدو الذى لم يعد احياءه قادرين على المقاومة بل فروا على وجوههم .

ويقال انه سقط من رجالنا فى هذه المعركة مايقرب من سبعمائة من المشاة ومائة من الفرسان ، اما خسائر العدو فبلغت أربعة آلاف

قتيل سوى من جرحوا جرحا مميتة ، أو وقعوا فى الأسر ، فلما شاهد ايفازى هذا الأمر خلى جنوده وحدهم يواجهون الموت وهرب هو مع كل من طغتكين ملك دمشق ودبيس أمير العرب ، أما الصليبيون فقد راحوا يطاردون القوم فى شتى الجهات ، على حين بقى الملك بلدوين ( الثانى ) هو ورهط قليل من فرسانه فى ساحة القتال خلال الهزيع الأول من الليل ، لكنه اضطر تحت حاجته الى الطعام للعودة الى قلعة « هاب » المجاورة لتناول بعض ما يقيم أودهم .

ولما رجع فى الصباح الى ساحة المعركة ارسل نفرا من الرسل الى اخته والى البطرك يحملون اليهما خاتم الملك كرمز الكيد للنصر الذى أحرزه ، وأمرهما أن يعلنّا أن السماء قد أسمعته بنعمة الغلبة . وظل بلدوين فى الساحة يومه هذا بأكمله لم يبرحها حتى انتصف الليل حين جاءه الخبر اليقين ان الأعداء فقدوا عسكرهم ولا عودة لهم ، وحينذاك جمع هو كل الجند الذين أمكنه جمعهم فى ساعته هذه وسار بهم الى انطاكية يحملون السعف منصورين ، فرحب به بطركها وجميع رجال الدين وأهل المدينة .

وقد جادت العناية الالهية بهذا النصر على الصليبيين(٥) فى سنة ١١٢٠ من مولد المسيح وهى السنة الثانية من حكم الملك بلدوين الثانى وذلك فى شهر أغسطس ليلة عيد رفع مريم العذراء الطاهرة أم المسيح .

وأرسل الملك الى القدس الصليب الواهب الحياة فى رعاية رئيس أساقفة قيسرية ، وصحبهم حرس من النبلاء ، فقبول فى يوم تمجيده بترحاب من قبل رجال الدين ومن الناس الذين ساروا كلهم

---

(٥) لم يكن ذلك النصر فى سنة ١١٢٠ كما يذكر وليم بل كان فى السنة التى قبلها ، سنة ١١١٩ .

حواله ينشدون التراتيل والاعانى الدينية ، أما بلدوين فقد اضطرته ظروف الامارة الملحة الى البقاء فى انطاكية ، ثم انعقد رجاؤهم الحار باتفاق من البطررك وكل وجوه القادة ورجال الدين على أن يعهدوا الى الملك برعاية شئون امارة انطاكية وخولوه السلطة ، واذنوا له باطلاق يده كما لو كان فى مملكته ينظم امورها كيفما شاء فيعزل من يرى عزله ويسير كل شىء وفق مشيئته ، وحينذاك قام فأعطى انصبه من سقطوا فى المعركة لابنائهم ولن يمت اليهم بوشيجة قريى ولو بعدت ، حسيما تقضى به الاعراف التى جرى عليها البلد ، كما زوج الارامل برجال كرام مساوين لهن فى المكانة .

ثم جهز الحصون بالرجال وزودها بالذخيرة والمثونة كلما رأى الحاجة ماسة لذلك ، فلما فرغ من هذا كله غادر انطاكية فترة من الوقت رجع فيها الى المملكة حيث تم تنويجه هو وزوجته معا يوم عيد ميلاد السيد فى كنيسة بيت لحم .

### - ١٣ -

وفى نفس سنة ١١٢٠ من مولد المسيح حل بمملكة بيت المقدس كثير من النكبات بسبب خطايانا ، فاذا خلىنا جانباً ما ابتلىنا به من الضرر على يد العدو ، فقد اجتاحت البلاد أسراب الجراد ، ونزلت بنا نازلة الفئران المتوحشة فالتهمت الزروع واتت عليها على مدى سنوات أربع متتالية ، حتى لقد عز الخبز من كل البلاد ، لذلك قام بطرك القدس « جورموند » التقى الورع وذهب الى نابلس وهى احدى مدن « السامرة » حيث التقى بالملك بلدوين وبكبار رجال الكنيسة واشراف المملكة ، وعقد اجتماع شعبى ومجمع عام دعى اليه « جورموند » فألقى عظة وعظ فيها الناس ، ولما كان من البين الواضح للجميع أن خطاياهم قد أثارت غضب الرب عليهم فقد اتفقوا

بالاجماع على أن يصلحوا ما قد فسد من أمورهم ، ويقوموا ما اعوج  
من سلوكهم ، ويكبحوا جماح شهواتهم ، وقال انهم ان فعلوا ذلك  
حسنست عقباهم في الدياة الدنيا ، وان هم نبذوا أعمالهم الشريرة  
انفتح باب الأمل أمامهم ان لا يد أن يرق لهم الخالق ويبسط عليهم  
ظل رحمته ، لأنه لا يريد الموت للمخطيء بل يؤثر رده ولا يريد له  
الموت ليهتدى (٦) ، ثم جاءتهم نذر من السماء تهددهم فضربتهم  
بالزلازل والموت بهم النكبات الجسام الفادحة ، وعضتهم المجاعة بنايها ،  
وأرهمقتهم غارات العدو التي كادت أن تكون يومية ، ورأوا ان دفع  
ذلك يقتضيهم استرضاء الرب بأعمال الخير ، فانفق اجماعهم الذي  
لم يشذ عنه أحد على وضع اتفاق عام من خمس وعشرين مادة لها  
قوة القانون ، وذلك لرغبتهم في اعلاء القيم الأخلاقية وقرار النظام ،  
ومن يشأ أن يقرأ هذه المواد فالأمر يسير لأنها محفوظة في سجلات  
معظم الكنائس .

كان من شهود هذا المجمع « جور موند » بطرك بيت المقدس  
وبلدوين ثانى ملوكها اللاتين ، و « ابريمار » رئيس أساقفة قيصرية ،  
« وبرنارد » أسقف الناصرية ، و « اشيتينوس » أسقف بيت لحم ،  
وروجر أسقف اللد ، و « جلدوين » الراهب المنتخب لدير القديسة مريم  
في وادى يهوشافاط ، وبطرس رئيس أساقفة « مونت تابور » ،  
و « أشارد » رئيس فرسان المعبد ، وأرنولد مقدم جبل صهيون ،  
و « جيرارد » حارس القبر المقدس ، وبابن مستشار الملك ، واستاس  
جرتيه ، ووليم دى بيورى « وباريسون » كونستابل يافا ، وبلدوين  
صاحب الرملة وكثيرون غيرهم من جميع المنظمات ممن لا تتوافر  
لدينا أعدادهم ولا اسماءهم .

(٦) هذه اشارة الى ما جاء في حزقيال ( ٣٣ : ١١ ) : « يقول السيد  
انى لا أسر بموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا » .

كان ايلغازى رجلا لا يلم به الكلال فى اضطهاد المسيحية : رسما واسما ، وكان أشبه فى ذلك بالزواجف القارضة تسعى للأذى ، من ذلك انه جمع عسكره فى السنة التالية وافتهن فرصة غياب الملك وحاصر بعض قلاعنا ، فلما علم الناس بهذا الخبر بعثوا الى الملك يستدعونه على عجل ، ولما كان الملك مستعدا على الدوام للاستجابة فقد نهض فى كوكبة من فرسان حاشيته وأسرع الى هناك ، حاملا معه صليب المسيح ، واستدعى اليه جوسلين كونت الرها واثنين من كبار السادة اللذين كانا قد انضموا الى كبار زعماء انطاكية وزحفوا على القلعة الحصينة التى اشترنا اليها حالا ( وهى قلعة زردنا ) وكان ظنهم انهم سوف يشتركون فى القتال حال وصولهم الى غايتهم لكن حدث أن ضرب الله ايلغازى بالسكتة القلبية فحرم قادة جيشه من مساعدة زعيمهم لهم ، وكان ما نزل به قضاء عادلا حال دون اشتباكهم فى معركة بينهم ، فحملوا مولاهم وهو فى النزع الأخير فى محفة وأسرعوا به الى حلب ، غير انه يقال انه وهو المخلد فى النار الأبدية - قد لفظ أنفاسه قبل أن يصلوا به الى هذا المكان .



ولقد ظل الملك مقيما فى انطاكية فترة من الوقت لمعالجة الأمور الهامة ، ثم رجع بمشيئة الله سالما الى المملكة ، وكان محبوبا من الجميع ، قريبا الى نفوس الناس فى المملكة وفى الامارة اللتين كان اليه تصريف شئونهما ، فصرف أمورهما على أحسن وجه : امانة واخلاصا رغم بعد كل منهما عن الأخرى بعدا كبيرا ، وليس من اليسير أن نقول لايهما كان اهتمامه الأكبر ، هذا على الرغم من أن المملكة كانت ملكه الخاص التى يورثها شرعا لخلفائه ، اما الامارة فلم تزد عن أن تكون أرضا عهد اليه برعايتها ولكن الحق انه كان يبذل اهتماما أكثر بشئون انطاكية التى ظل صادقا فى تدبير أمورها



حتى جاءها بوهيموند ( الثانى ) الصغير ، كما سنقص خبر ذلك  
فى الصفحات التالية •

~ ١٥ ~

حين كان الملك ( بلدوين ) بالقدس فى ذلك الوقت ، منح سكانها  
منحة جليلة القدر يدافع من أريحته الدينية وسخائه الملوكى ، فرفع  
عن كاهل الأهالى الضرائب التى كانوا مطالبين بدفعها من قبل ،  
سواء فى استيرادهم البضائع أو تصديرها ، وزاد فأكد هذا القرار  
بوثيقة ممهورة بالخاتم الملكى حتى تكون سارية النفاذ الى الأبد ، ولم  
يعد أى لاتينى يدخل المدينة أو يخرج منها ومعه سلعة ما ملزما بدفع  
أى شئ تحت أية حجة ، بل أصبح هذا اللاتينى حرا يشتري ويبيع  
ما يريد لا يكلف من أجل ذلك شيئا • وزاد الملك فمنح السريان  
والاغريق والأرمن وجميع الناس على اختلاف أممهم ، وشمل ذلك  
المسلمين أيضا ، فصار لهم الحق فى أن يحملوا الى المدينة المقدسة  
القمح والشعير وكل ذى روح لا يسألون شيئا يدفعونه على  
ما يحملون ، وزاد على ذلك فجب الضريبة المعتادة المفروضة على  
المكايل والمقاييس ، فاستألف بهذا الصنع قلوب الناس واكتسب  
رضاء الأهالى ، لأنه بهذا الأسلوب الملوكى وبالحب الذى يستحق  
التقدير عمل على خير المواطنين وسعادتهم بطريقتين :

اولاهما : أنه جعل المدينة تفيض أكثر من ذى قبل بمواد الاماشة  
لأنها أصبحت تستورد البضائع من الخارج معفاة من الضرائب ،  
وثانيهما أنه سار على نهج سلفه فى بذل كل محاولة لزيادة عدد  
سكان المدينة ، حبشية الرب (٧) •

---

(٧) انظر ما سبق من هذه الترجمة ، ج ٢ ، ص ٣١٧ - ٣١٩ •

ولما كانت السنة الثالثة قام طغتكين ملك الدماشقة الغادر الماكر ، وتحالف مع أحد شيوخ العرب ، وانضمت قوات الواحد منها الى قوات الآخر ، ولما رأى أن الملك ينهض وحده بتحمل مسئولية يذره بها كاهله ، الا وهى رعاية شئون البلدين ( بيت المقدس وأنطاكية ) فقد اغتتم فرصة انشغاله وأنفذ عسكريا اقتحموا اراضينا الواقعة فى منطقة طبرية وعاشوا فيها فسادا وعدوانا .

فلما علم الملك يلدوين بهذه الوقاحة حشد الجند من شتى أرجاء مملكته وأسرع الى هناك بما طبع عليه من سرعة المبادرة ، فترامى خبر اقترابه الى سمع طغتكين فأخذ حذره وانسحب الى ناحية قاصية من بلاده ، ذلك لأنه أدرك عجزه عن تحقيق أى شىء لو أنه واجه الملك ، ورأى الخير فى أن يتحاشى ما ينجم عن هذا الاشتباك من المخاطرة .

كان الملك فى هذه الأثناء قد زحف بقواته شطر الجنوب وبلغ « جرش » إحدى المدائن الكبرى فى ولاية «ديكابوليس» والتي تقع فى يد قبيلة مناساس قرب جبل جلعاد ، ولا تبعد سوى ٩ أميال قلائل من تهر الأردن ، وكانت هذه المدينة قد ظلت مهجورة خوفاً الحرب ، حتى اذا كانت السنة المنصرمة بذل طغتكين المال الكثير وأمر أن يقام بها قلعة من الحجر الأصم الضخم فاقامت فى أحسن بقعة منها ، وزودها بالذخيرة ، وجيهاها بالسلاح ، واقام بها بعضاً من خاصة رجاله ممن يثق بهم كل الثقة .

سرعان ما هاجم الملك ذلك المكان حال وصوله اليه وهو فى سورة غضبه ، فاستسلمت القلعة بمن فيها من الجند وكانوا أربعين

أقيموا لحراستها ، فاشتروطوا أن يسمح لهم بمغادرة المكان الى ذويهم  
سائلين في انفسهم ، فأجيبوا الى ما طلبوه ، واذ ذاك أخذ بلدوين  
في التشاور مع مستشاريه عما اذا كان يهدم هذه القلعة ويدك  
أسوارها ويسويها بالأرض أم يستبقوها ليستخدمها الصليبيون ،  
فاجتمع الرأي على وجوب هدمها وجعلها أنقاضا ، اذ لا جدوى تعود  
عليهم ان هم استبقوها في أيديهم ، لما يكلفهم ذلك من النفقات  
الباهظة ، والمتاعب المستمرة ، يضاف الى ذلك ان لا أحد يستطيع  
الوصول الى هذه القلعة دون أن يتعرض للخطر البالغ .

#### - ١٧ -

على هذه الصورة أخذت أمور المملكة في التحسن والازدهار  
بشكل مرض بنعمة من الله ، غير أن أعداء السلام ومحبي الفوضى  
كانوا يحاولون في هذه الأثناء إثارة المتاعب ، فراح بعضهم يوغر  
صدر « بونس » ثانی كونهات طرابلس ضد ملك بيت المقدس ، حتى  
دفعه لنبد طاعته ، وتصرف تصرفا ملؤه الاستخفاف ، اذ رفض أن  
يؤدي التزامه بخدمة الملك حسب يمين الولاء الذي في عنقه له .

ورجد الملك أنه يستحيل عليه الاغضاء عن هذه الاهانة ، ومن  
ثم جمع الفرسان والمشاة من شتى أرجاء المملكة وتقدم بهم الى  
هناك نحو المار الذي ألحقه به بونس ، غير ان رجالا أشسرافا  
تداركوا الأمر وتدخلوا بين الطرفين قبل أن تحقيق بهما الخصامة  
ويلحق بهما النكال ، فعاد السلام يزفر من جديد ، ثم يمم الملك  
وجهه بعدئذ شطر أنطاكية استجابة لنداء أهلها الذين جابهتهم  
المشاكل حتى طلبوا منه المعونة ، لأن أميرا تركيا كبيرا قويا اسمه  
« بلك » أخذ في مكيدة الاقليم بأجمعه بكثرة ما شنّه عليه من الغارات  
التي يقوم بها وهو واثق من نفسه كل الثقة ، لأنه كان قد قام قبل

ذلك بفترة وجيزة بحملة فجائية أسفرت عن وقوع كل من جوسلين كونت الرها وقريبه « جاليران » في أسره قُزج بهما في السجن ، غير أن بلك أخذ يقلل من هجماته التي كادت ، كثيفة ، وذلك حين سمع أن الملك قدم بنفسه فتجنب حدوث صدام بينه وبين بلدوين الذي طبق الآفاق صيت انتصاراته الحربية ، كما أدرك بلك أنه من الأسير على أي واحد أن يهزم الملك ، لكنه مع ذلك دنى بعض الشيء منه على رأس فرسانه المسلحين بالأسلحة الخفيفة لعل الفرصة تسعفه فينجز رغبته في انزال المضرة بقواتنا .

أما الملك فقد تابع السير بمن جاء بهم من القوات متجها إلى أرض كونت الرها ، راجيا أن يكون ذا جدوى لأهلها الذين لم يعد لهم قائد يصرف أمورهم ، فكان يذرع أرجاء الناحية دون أن تغفل له عين عن تقصى أحوال الاقليم تقصيا دقيقا ، ملاحظا ما إذا كانت القلاع محصنة تمام التحصين . وعما إذا كانت بها القوة الكافية من الفرسان والمشاة ، والوفرة من السلاح والذخيرة ، ورتب أن يسد كل نقس يراه بما يفرضه عليه الواجب الملزم به .

وبعد أن خلف قلعة تل بآشر وراءه أسرع إلى الرها وهو يفكر مليا في هذه الأمور لأنه كان يرغب في التأكد من العناية بحال الاقليم الواقع فيما وراء الفرات وضبط أموره من كل الوجوه ، وحدث في ذات ليلة من ليالى زحفه أن خرج مع نفر من خاصة أتباعه ، وكان الكرى قد ران على عيون معظمهم فتراخؤا في حذرهم ولم يتوقعوا أي خطر يفاجئهم ، فساروا متفرقين ، وإذا ببلك يطلع عليهم بخته ويهاجمهم ، إذ كانت الأخبار قد جاءت عن سير الملك فنصب له ولن معه كميناً ، وكان حرس الملك غير مستعدين للقتال فقد أثقلهم الانعاس وخلطهم الدرس وشاء الحظ العاثر أن يقع بلدوين ذاته في يد بلك أسيرا ، وكان الحرس الذين في الظليعة والمؤخرة قد قروا في هذه

الأثناء على وجوههم وتفرقوا فى شتى الجهات غير عالين بالنكبة  
التي حاقت بمولاهم ، وأمر بك بالملك أن يقيد ورماء فى قلعة خرتبرت  
الواقعة وراء نهر الفرات حيث كان كونت جوسلين ، «وجاليران»  
فى الحبس كما ذكرنا .

فلما تسامع زعمائنا فى المملكة بخبر النكبة الفادحة التي حاقت  
بالمك انشغل بالهم أشد الانشغال حول مصير الملكة ، فاجتمعوا فى  
مؤتمر مع البطريرك وكبار رجال كنيسة مدينة عكا ، وكلهم شعور  
واحد ، واجتمعوا - دون أن يشذ واحد منهم - على اختيار « استاس  
جرنييه » - وكان رجلا عاقلا مدبرا ذا خبرة كبيرة فى الأمور الحربية  
لتصريف أمور الملكة ولولوه عليهم ، وترجع ثروة استاس الضخمة  
الى أنه كان قد ورث شرعا مدينتين كبيرتين فى الملكة هما صيدا  
وقيصرية بكل ملحقاتهما ، ومن ثم فقد عهد اليه زعمائنا بحكم الملكة  
وإدارة دفة شئونها العامة حتى يأذن الله بالفرج فيطلق سراح الملك  
ويعود الى حريته ، ويومذاك يكون قادرا مرة أخرى للهيمنة على  
شئون الملكة .

ولنعد الآن لمتابعة خبر نكبة الملك .

- ١٨ -

بعد أن قيد الملك والكونت وأصبحا رهينى محبسهما فى تلك  
القلعة المشار اليها سمع رهط معين من الأرمن ( يبلغون الخمسين  
رجلا ) أن عاملى المسيحية العظميين فى الأسر بقلعة خرتبرت ،  
فصمموا على القيام بمحاولة إنقاذهما دون اكتراث بما يحق بهم  
من الخطر ان هم فشلوا فى مسعاهم .

واختاروا خطة جديدة كل الجدة .

وهناك رواية أخرى تقول انهم قاموا بمحاولتهم هذه استجابة لاستصراخ كونت جوسلين بهم ، ومن ثم طمعوا فى الحصول على مكافأة سخية لقاء تعريضهم انفسهم لهذا الخطر . وعقد هؤلاء الأرمن الخمسون اتفاقا لا نقض فيه ، واكدوا اتفاقهم بأغلظ الايمان ، وكانت خطتهم أن يذهبوا الى الحصن لتحرير هذين الرجلين العظيمين دون اعتبار للأخطار التى تكتنف هذا العمل . فتنكروا فى مسرح الرهبان ولكنهم حملوا الخناجر تحت اثوابهم القضاضة ، وانطلقوا الى تلك القلعة حتى ليحسبهم الراى انهم فى بعض اعمال ديرية ، ثم راحوا يصطنعون الكلمات والآهات ، والنظرات الحزينة مما يظهرهم وكأنهم قد اوذوا اذية بالغة ، وأن بعض الناس أصابوهم بضرر كبير ، وأعلنوا - والدموع تنسكب من عيونهم - أنهم يريدون أن يحتجوا عند حاكم الناحية على المعاملة التى صادفوها لأنه هو المسئول عن حفظ النظام حتى لا يقع أى سوء فى المنطقة .



وهناك رواية أخرى تقول انهم نجحوا فى دخول القلعة متخفين فى زى تجار جاءوا لبيع سلع رخيصة ، فلما اذن لهم أخيرا بدخول المكان استلوا سيوفهم من أعمادها وفتكوا بجميع من اعترضهم .

فهل ثم مزيد نقوله ؟

لقد سيطروا على القلعة ، وخلصوا الملك والكونت وحصنوا المكان على أحسن قدر استطاعوه ، وأذ ذاك رأى الملك أن يبعث الكونت جوسلين فى جلب العون على جناح السرعة لانقاذه وانقاذ تلك الجماعة التى كان لجهودها الفضل فى تحريرهما .

ولما اكتشف الترك الذين يعيشون فى تلك النواحي كيف احتال الملك ورفاقه للسيطرة على القلعة حملوا هم أيضا سلاحهم وأخذوا السير اليها وصمموا الا يدخلها أو يخرج منها أحد حتى يصل مولاهم بك ، لكن على الرغم من ذلك فان كوند جوسلين خرج فى لحظته غير عابىء بالخطر الذى يعرض نفسه له من الكمائن التى ينصبها له الخصم ، وانطلق ، وانطلق معه ثلاثة رفاق له ، يلزمه اثنان منهم طول الطريق ، فان كللت محاولته بالنجاح بعث بالثالث الى الملك رأسا يبشره بما تم ، وهكذا خرج الكونت ورفيقاه حسب الاتفاق ترعاهم عناية الله دون أن يعلم بهم أحد من أولئك الذين كانوا قائمين بحراسة القلعة ، وأن ذاك ردوا زميلهم الثالث الى القلعة ومعه خاتم جوسلين ، دليلا على نجاحهم فى اختراق صفوف العدو .

وفى أثناء غيبة جوسلين قام الملك والنفر الذين كان لمساعدتهم الفضل فى إنقاذه بتحسين القلعة بكل وسيلة ممكنة ، لأنهم كانوا يطمعون أن يظلوا قادرين على السيطرة عليها حتى تجيء النجدة التى كانوا يدركون أنها لن تغيب عنهم طويلا .

— ١٩ —

وحدث فى هذه الليلة بالذات أن رأى بك فى نومه رؤيا مزعجة أفزعته وبلبلت خاطره ، عفادها أن جوسلين سمل عينيه بيديه ، فانتزع قلبه رعبا ، وبات نجى الوسائس ، حتى اذا طلع النهار بعث الى القلعة رجالا من لدنه كفهم بقطع رأس جوسلين دون تمهل أو إبطاء ، فلما اقترب هؤلاء الرجال من القلعة جاءهم الخبر بأنها قد سقطت فى يد العدو ، فارتدوا الى مولاهم على أذبارهم بأسرع ما يمكنهم الارتداد ، وفصلوا له تفصيلا كل ماجرى ، لم يتركوا شاردة ولا واردة الا قصوها عليه ، فلم يقوان الأمير فى استدعاء العسكر من شتى

النواحي في لحظته هذه وأسرع بهم دون ترتيب الى ذلك المكان وحاصره ، وسد المسالك في وجه اللاجئين الى الحصن ، ثم عمد بعد ذلك الى الاتصال بالملك بلدوين عن طريق الوسطاء ، يعده وعدا لانكث فيه أنه سوف يأذن له ولجميع من معه بالخروج دون مضايقة ، وأنه سوف يعطيهم كتاب أمان حتى يصلوا الى الرها اذا رد بلدوين اليه القلعة من غير قيد .

الا ان الملك كان شديد الثقة بمناعة القلعة ، كما أنه كان يعتمد على معونة هؤلاء الأرمن الذين انضموا اليه ، مما حمله على أن يعتقد أنه قادر على المحافظة على القلعة في يده حتى تصله النجدة ، ومن ثم رفض العروض التي تقدم بها بلك ، واستمر في الدفاع عن الحصن دفاعا مجيدا ، فاسخط هذا الرقض بلك سخطا بالغا ، واستدعى اليه في الحال القلعة ، وأمرهم باعداد شتى أنواع الآلات التي يكون في حاجة اليها في مهاجمة القلعة وفيها العدو ، وراح يضاعف مضايقتها ، وأصر على أنجاز العمل مستغلا استغلالا مفيدا كل الخطط البارة التي تمكنه من انزال الأذى بالمحصورين .

وكانت القلعة مشيدة على تل ذي طبيعة جيوية قديمة ، جعلت الدخول اليها يسيرا ، ولذلك رأى « بلك » أنه من السهل عليه تدمير الموضع بملغمته وتقويضه من أساسه ، فجدد لذلك الجند المهرة في حفر الخنادق وأمرهم بحفر أنفاق كبيرة داخل التل، ودعمها بالكتل الخشبية وما شابه ذلك من المواد الأخرى ، وما كاد العمال يفرغون مما كلفوا به حتى اضرموا النار في المواد القابلة للاشتعال التي وضعت داخل الانفاق ، فلما أتى الحريق على الأعمدة انخسف التل وسقط أحد الأبراج التي عليه سقوطا صحبته رجة هائلة حملت الملك على الاستسلام في الحال لبلك من غير قيد ولا شرط ، لأنه خاف أن تنهار القلعة بأكملها بنفس الصورة ، فأكتفى بلك بامتلاك الحصن



ومن على بلديين وابن اخته وجاليران بالحياة ، وأمر بتقييدهم وحملهم الى مدينة حران القريبة من الرها ليبقوا تحت المراقبة الدقيقة ، أما الأرمن المؤمنون الذين عرضوا أنفسهم للأخطار ابتغاء اطلاق سراح مولاهم الملك من الأسر ، فقد لاقوا أنكر صنوف العذاب ، اذ سلخت جلود بعضهم وهم احياء ، ونشرت أعضاء آخرين ، ودفن سواهم احياء ، ثم سلم بلك غير هؤلاء الى رجاله يجعلونهم هدفا يفوقون اليه سهامهم .

وهم وان لاقوا العذاب فى هذه الدنيا الا ان طمعهم فى حياة خالدة أبدية كان أملا لا يخبو فى نفوسهم ، وعلى الرغم من أنهم امتحنوا فى بضعة أمور الا أن مثوبتهم - من ناحية أخرى - كانت أعظم .

\*\*\*

- ٢٠ -

سيطر الغزع المقيم على جوسلين وزملائه الرجالة وهم يتابعون طريقهم فى حذر شديد ، ولم يكن عندهم غير قدر ضئيل من الطعام ، وسوى راوييتين من النبيذ أحضروهما معهم عن غير قصد ، وظلوا ماضين فى زحفهم هذا حتى أبلغهم الزحف أخيرا شاطئ نهر الفرات ، فتشاور جوسلين مع رفاقه الذين يواجهون معه الخطر عن أيسر الدروب ليعبروه ، فقر رأيهم أخيرا على نفخ الراويتين وربطهما الى جوسلين بالحبال ، فاستطاع بهذه الوسيلة وبعون الرب وإرشاد اثنين من السباحين المهرة - كان كل واحد الى أحد الجانبين - أن يصل الى الشاطئ الآخر من النهر سالما آمنا ، ثم تابع سيره - وان لم يخف الخطر - حافى القدمين فعانى مشقة بالغة لما بذل من جهد لم يالف بذله ، وأضناه السغب وأمضه الظما وأرهقه اللخب حتى

بلغ فى النهاية برحمة الله حصن تل باشر الشهير ، لكن لم تمسكه  
شدة جزعه عن المهمة التى وكلت اليه من متابعة السير الى أنطاكية ،  
مصحوبا بحرس مؤقت كان لايد له منه ، نظرا لما هو فيه من وضع  
خطير ، ثم نزل على نصيحة البطريرك برنارد فتابع سيره الى القدس  
حيث شرح لبطركها ولأمراء المملكة أحداث النكبة التى ألمت بالملك ،  
وقص عليهم بالتفصيل كل ما يتعلق بهذا الأمر ، سائلا اياهم أن  
يبادروا فى لحظتهم هذه الى ارسال نجدة للملك لأن موقفه المتزعزع  
لا يتحمل أى تأخير ، بل يتطلب المشاورة السريعة والمعونة العاجلة  
وان يتم ذلك دون تريث ولا ابطاء .

ولقد ترتب على التماساته هذه ان اجتمع اهل المملكة جميعا  
وقاموا قومة رجل واحد رافعين صليب الصليبيوت، وخرجوا من ساعاتهم  
هذه ، وكانوا كلما مروا بمدينة فى طريقهم توالى عليهم الامدادات  
لتزيد عددهم ، حتى بلغوا أنطاكية حيث انضم اليهم كبار أهلها  
وعامتهم ، وساروا تحت قيادة الكونت كتلة واحدة الى تل باشر ،  
وهنا جاءهم الخبر اليقين بكل ما جرى للملك فى خلال هذه الفترة ،  
وإن رأوا عدم جدوى التقدم أكثر من هذا فقد تقرر باجماع الآراء  
أن يعودوا كلهم الى أوطانهم ، فيرجع كل واحد من حيث أتى ، غير  
أنهم لم يشاءوا أن تنفض الحملة دون أن تجنى ثمرة لخروجها ،  
لذلك اتفقوا على أن تنزل هذه الكتائب أقصى مايمكنها من المضرة  
بالخصم أثناء مرورها قرب حلب ، وتم كل شيء حسب ما رسموا ،  
ان بينما كانوا سائرين على مقربة من هذه المدينة برز أهلها لهم  
قاصدين قتالهم ، فما كان من المسيحيين الا أن أرغموهم بقوة السلاح  
على الارتداد الى المدينة التى ظل عسكرنا أمامها أربعة أيام على  
السواء رغم محاولات أهلها دفعهم .

قلما كان المسيحيون فى طريق العودة انفصل من كانوا من  
اهل المملكة عن سواهم وتابعوا زحفهم على انفراد ، حتى اذا

غزبوا الأردن أغاروا فجأة على بلد للعدو قرب بيسان ، وباغثوا  
سكانها الذين لم يكونوا مستعدين أبدا لمثل هذه الغارة .  
فلاقى الكثيرون منهم حتفهم بحد السيف ، ووقع فى الأسر عدد كبير  
من الرجال والنساء على السواء ، ثم عاد الصليبيون فرحين مهلين  
الى بلدهم قد فاضت أيديهم بأوفر الغنائم وأحسن الأسلاب .

## - ٢١ -

كان لأمير مصر ما يبرر سوء ظنه بمملكة بيت المقدس ورآى  
الفرصة مواتية لغزوها اذ ذاك بسبب وقوع عائلها فى الأسر ، ومن  
ثم أمر باستدعاء قوات اضافية من كل ارجاء مصر ، كما أمر ولاية  
المدن الساحلية الذين لم تكن لهم مهمة سوى الاهتمام بها باعداد  
السفن وتجهيز الأسطول ، فقم فى الحال كل ما هو لازم للقتال بحرا .

وما كادت السفن السبعون تأخذ للامر أهميته حتى عبر الأحير  
( الأفضل ) الصحراء بجيش برى ضخم ، وعسكر قرب عسقلان  
حيث بقى هنا مع فيالقه ، على حين أبحر الأسطول الى مدينة يافا  
والقى مراسيه أمامها ، ثم نزلت القوات البحرية الى البر فى أعداد  
ضخمة ، وأحاطوا فى الحال بالمدينة من كل نواحيها احاطة السوار  
بالمعصم ، وشنوا سلسلة من المناوشات العدوانية المتواصلة  
مستهدفين من ورائها مضايقة عدوهم ، ولما كان عدد المدافعين بالغ  
القلة فقد استطاع المحاصرون الاقتراب آمنين من سور المدينة اقتربا  
شديدا مكنهم من نقضه فى كثير من المواضع ، ولو كان قد تسنى  
لهم متابعة الهجوم فى اليوم التالى ايضا لانهارت الأسوار كلها تحت  
ضرباتهم واستطاعوا الاستيلاء على المدينة عنوة لقلة من بها من  
المدافعين عنها .

الا أن البطرك واستاس جرنبيه الكونستابل الملكى وغيرهما من  
كبار رجال المملكة ركزوا فى هذه الأثناء كافة القوات التى استطاعوا

جمعها فى سهل قيسرية عند موضع يقال له « القاقون » واستعدوا للقتال ، وبعثوا بهم الى يافا ، فلما وصل خبر تقدمهم الى اسماع رجال القوات المصرية المحاصرة الموجودة أمام المدينة ارتدوا سريعا الى سفنهم خوفا من مجيء قواتنا ، ونزل رجال البحرية الى قواربهم وأمسكوا بمجاديفهم فى انتظار ماسوف يحدث لقواتهم البرية التى كانوا يعرفون انها قريبة من العدو ، وأما الصليبيون فقد أخذوا فى التقدم الى الامام فى هذه الأثناء رافعين صليب المسيح ، وقلوبهم عامرة بالإيمان ، مستعنين بعطف الرب ، مما زاد فى أملهم فى أن تكون لهم اليد العليا وأن يكون النصر حليفهم ، وتقدمت صفوفهم حتى صارت قرب موضع اسمه « ابلين » فواجهت العدو الذى جاء بجيوش رتبها خير ترتيب على مألوف عادته وبصورة توحى بأنهم عازمون على الاشتباك مع الصليبيين ، لكنهم ماكادوا يطالعون تنظيمنا الرائع ، ويتذكرون الدليل البين على بأسنا حتى دب الوهن فى أوصالهم ، ومع أنهم بدءوا وكأنهم الأسد الضارية الا أنهم صاروا الآن أجبن من الأرانب وأرادوا أن يتحاشوا للقتال بل أنهم ندموا أشد الندم على أنهم سعوا اليه بأنفسهم وتمنوا لو أنهم لم يفعلوا ذلك قط .

ويقال أن مجموع قواتنا عامة بما فيها شتى طبقات العامة بلغ قرابة سبعة آلاف شخص . أما العدو فكان فى ستة عشر ألف رجل مدججين بالسلاح خرجوا للحرب ، بالإضافة الى العاملين فى الأسطول من أهل السفن ، ولكن روح الصليبيين المعنوية كانت عالية وإن اضطربت قلوبهم ألما وامتلأت نفوسهم بالخوف من الله فاستغاثوا به يطلبون العون منه ، واندفعوا على خصومهم بسيوفهم اندفاعا شديدا دون أن يتركوا لهم لحظة يلتقطون فيها أنفاسهم رغم خطر الموت المحقق بهم ، إذ كان القتال وجها لوجه .

وتملك المصريون الدهشة من قوة الصليبيين وجراتهم ، فقد شاهدوا بأعينهم وتأكدوا مما نزل بهم من الضربات صدق الأخبار التى جاءتهم عنهم ، وإن لم يمنعهم ذلك من الاستعداد لهم . فنشطوا فى مصارعتهم وردوا ضرباتنا العنيفة بعنف مثلها ، لكنهم لم يكونوا لنا ندا فى الأقدام ولا فى الشجاعة ، ففشلت محاولتهم ضدنا ، واضطروا للفرار مخلفين وراءهم معسكرهم الذى كان يفيض بكل صنوف الثروة والمتعة ، ولم يكن يشغلهم سوى النجاة بأنفسهم .

وتحسس الصليبيون فى مطاربتهم الى أبعد ماوسعتهم المطاردة ، واعملوا فيهم السيف حتى لم ينبج من جموعهم الكثيفة الا شردمة لم يبلغها القتل ولم يجر عليها الأسر حتى ليقال ان من مات من العدو فى ذلك اليوم بلغ سبعة آلاف رجل .

ثم انفلت جندنا منصورين الى معسكر العدو فوجدوا به ثروات المصريين ممثلة فى كميات كبيرة من الذهب والفضة وشتى انواع الأوعية الثمينة والخيم والفساطيط والجواري والدروع والسيوف ، فقسموا الغنائم بينهم حسب قوانين الحرب ، وعاد العسكر الى بلادهم أثرياء فوق الوصف .

ما كاد نبا نكبة الجيش البرى يصل الى سمع أهل الأسطول حتى ابحروا الى مدينة عسقلان التى كانت لاتزال فى قبضة المصريين فكانت ملجأ آمنا لهم ، وقد سمعوا هنا تفصيلا اتم عن هزيمة الجيش .

\*\*\*

وقد مات فى هذه الأثناء انستاس « جرنبيه » وكان رجلا عاقلا ، محمود السمائل ، القوا اليه بادارة دفة شئون المملكة اثناء

غياب الملك ، فلما مات نصبوا مكانه الرجل الطيب الذكر « وليم دى بيورى » صاحب طبرية ، وكان ممدوحا وجيها ، ولما نمت الى علم دوج البندقية «دموينجو ميكائيللى » خبر الصعاب التى آلت بمملكة الشرق أمر بأعداد الأسطول الذى خرج مؤلفا من أربعين قرقورة وثمان وعشرين شينى ، وأربع سفن كبار ملائمة لحمل الأمتعة ، وأبحر فى هذا الوقت متجها الى سورية، وصحبه فى حملته هذه بعض كبار رجال بلده ، فلما بلغوا جزيرة قبرص علموا أن الأسطول المصرى قد أبحر الى ساحل يافا فى سورية حين بلغه خبر اعتزام البنادقة المجيء ، وكان أسطولهم لا يزال راسيا هناك وان نظرت اليه المدن البحرية بكثير من الشك والارتياح ، فكان هذا النية مؤديا بالدوج لأن يأمر بالرحيل فى ساعته ، وأسرع بالابحار الى الشاطئ القريب من يافا ، وكان مستعدا للقتال ، لكن جاءه الخبر ان الأسطول المصرى غادر يافا راجعا الى ناحية عسقلان ، ذلك لأن الأنباء المحزنة عن النكبة التى بلغهم خبر وقوعها لجيشهم البرى فى المعركة التى كانت بينه وبين الصليبيين حملتهم على الارتداد الى مدينة تكون تحت سيطرتهم ، فلما جاء الى البنادقة جواسيسهم بهذا النباء أداروا دفة سفنهم فى الحال الى عسقلان متطلعين فى لهفة لأن يشتبكوا فى قتال مع الأسطول المصرى ان كان لا يزال هناك ، وان كانوا أهل تجربة عظيمة ومهارة فائقة فى مثل هذه الأمور فقد أعدوا سفنهم للحرب على أحسن صورة ممكنة .

كان فى هذا الأسطول البندقى بعض سفن ذات متقار أكبر من السفن ذات المجاذف التى تسمى بالمشوانى ، وقد جهزت كل واحدة منها بمائة مجذاف يحتاج كل واحد منها الى رجلين، وبالإضافة الى هذا كله كانت هناك - كما قلنا - أربع سفن أكبر حجما من هذه لحمل المؤنة والآلات والأسلحة وكل ما يحتاجونه وقد وضعت

هذه السفن والقراير فى المقدمة حتى اذا رآها العدو من بعيد  
ظننا سفنا تجارية ولم يحسبها سفن الخصم . وسار من ورائها  
السفن العراض ، وهكذا مضت القوة على هذا النسق متجهة شطر  
الساحل ، وكان البحر هادئا أشد الهدوء ، والرياح فى جانبيهم ،  
وأسطول العدو على مقربة منهم ، حتى اذا أخذ الصبح فى الاشرار  
وأعلنت آلهة الفجر طلوع النهار أدرك المصريون ان الاسسطول  
المسيحى يتقدم نحوهم ، فلما طلع النهار رأوه قريبا منهم غاية  
القرب فتملكهم الفزع ، واستبدت بهم الدهشة ، وانطلقوا الى  
مجاديفهم ، وقد تأكد لديهم أن القتال واقع لامحالة راحوا يصيحون  
بالبحارة ويلوحون لهم بأيديهم ان يقطعوا الحبال وينتزعوا المراسى  
ثم يجمعون النوتية ويمتشقون أسلحتهم .

#### - ٢٢ -

فى غيرة هذا الارتباك والفزع تناثر عقد نظام العدو غاية التناثر،  
وفى وسط هذه المعمة أخذ قارب من قوارب البندقية - وعليه  
الدوق - ينساب بسرعة أمام غيره ، وشاعت الصدفه ان يرتطم  
هذا المركب بالسفينة التى كانت تحمل قائد الأسطول المصرى وكان  
الارتطم قويا بالدرجة التى أدت بالأمواج لأن تبتلع مركب العدو  
بمن عليها من المجدفين .

وانطلقت القراير البندقية الأخرى بنفس السرعة ، ونجحت  
كل واحد منها تقريبا فى قلب واحد من مراكز العدو ، وتلى ذلك  
معركة حامية الوطيس حارب فيها كل جانب الآخر حريا لا هراة  
فيها ، واستحضر القتل ، ومما لا يكاد يصدقه العقل أن الذين شاركوا  
فى هذه المعركة أكدوا تمام التأكيد ان دماء القتلى كانت تغطى  
المنتصرين وظلت مياه البحر - فى دائرة قطرها ميلان - حمراء قانية

بسبب الجثث التي ألقيت هناك ومن الدم الذي كان ينساب من السفن  
وغطت السواحل الجثث التي لفظها البحر حتى فسد الهواء وعم  
الطاعون المنطقة المحيطة بها بسبب جيف الموتى العفنة .

واحتدم القتال في الأحياء المجاورة لأن أحد الجانبين كان  
يحارب حربا ضارية ، والجانب الآخر يجاهد كل المجاهدة ويقاومه  
نفس المقاومة ، ثم شاءت إرادة الله في النهاية أن يكتب النصر  
للبنادقة ، فادبر العدو وولى ، واستولى البنادقة على أربعة شوان  
من شوانيه ، كما أخذوا كثيرا من القراقير ، وكذلك سفينة كبيرة  
قتل أميرها ، وهكذا أحرزوا نصرا خالدا إلى الأبد .

لم تكن الرحمة العلوية تمنح شعبنا هذا الفوز حتى أصدر  
الدوج أوامره بمواصلة الإبحار تجاه مصر من غير تريث ولا إبطاء ،  
وكان أمله أن يلتقى رجاله ببعض أسطول العدو ، ومن ثم فقد أبحروا  
مصاقيب للساحل حتى بلغوا العريش إحدى المدن البحرية القديمة  
الرابضة على حافة الصحراء ، وتم كل شيء وفق ما أرادوا حتى  
وأفاهم رسول بالخبر اليقين وأنباهم بكل ما سوف يصادفونه ،  
ذلك أنهم بينما كانوا يجدفون بهمة في تلك المياه أن بهم يلمحون  
عشرة من سفن العدو على مسافة غير بعيدة عنهم ، فأتجهوا في  
إبحارهم سراعاً شطرها واستولوا عليها بالقوة في أول نزال بينهم  
وبينها ، فقتلوا بعضاً ممن كان على ظهرها وأخذوا الباقين  
أسرى ، وكانت هذه السفن محملة بالبضائع القادمة من الشرق ،  
وأعنى بها التوابل والأقمشة الحريرية ، فوزع البنادقة تلك الأسلاب  
فيما بينهم حسب مالوف عادتهم ، فامتلات أيديهم بالثروة ، ثم  
سحبوا معهم القوارب التي استولوا عليها ، ثم يعمدوا وجوههم  
شطر مدينة عكا حيث أرسوا هناك .



سرعان ما وصل الى بيت المقدس نبأ رسو دوج البندقية على سواحلنا بقرة بحرية ، وعلم الناس كيف انتصر الدوج على العدو انتصارا قشيبا ، ومن ثم قام « جورموند » بطرك القدس ووليم دى بيورى الكونستابل الملكى وأمين خزانة المملكة ومستشار الملك « يآينز » مع رؤساء الأساقفة والأساقفة وغيرهم من وجوه أهل الدولة فأرسلوا الى الدوج سفارة من أحكم رجالهم وأشرفهم يحملون اليه وإلى قواد البندقية وقواد الجيش تحيات البطرک والبارونات والشعب ، ويشرحون لهم فرحة أهل القدس وتطلعهم فى لهفة الى قدوم البنادقة اليهم، ويدعونهم للتمتع بكل ما تستطيع المملكة تقديمه لهم كما لو كانوا مواطنين للمدينة ، ويذكرون لهم ان الجميع على أتم استعداد وشوق لضيافتهم أكرم ضيافة حسبما تقتضيه الفرائض الانسانية الواجبة عليهم ، وأبدى الدوج رغبته فى زيارة الأماكن الطاهرة ، وهى رغبة دينية كان يتطلع اليها منذ سنوات طويلة غابرة ، كما أبدى رغبته فى الحديث الى الأمراء الذين كانوا قد بعثوا اليه من قبل دعوة قلبية ، لذلك فإنه خلف وراءه للرعاية عددا كافيا من أهل الحجى ، وشد رحالته الى القدس غير مستصحب معه سوى كبار رجالاته ، فلما بلغ المدينة قوبل بترحاب كريم وأحاطوه بأعظم آيات التشريف والتعظيم ، فاحتفى فيها بعيد ميلاد سيدنا ، وألح عليه أمراء المملكة الحاحا صنادقا أن يهب نفسه بعض الوقت لخدمة المسيح ورفعته الممكة، فكان رد الدوج عليهم أنه لم يأت الا وفى نفسه تحقيق هذا الغرض ، وأنه آلى على نفسه الا أن يهب ذاته لهذا الهدف ، ولما كان البطرک وكبار رجال المملكة موجودين فقد انعقد الاجتماع على مهاجمة إحدى المدن الساحلية ولاشئ سوى ذلك ، وان ينصب الهجوم على مدينة صور أو عسقلان لأن جميع المدن

- بدءا من نهر مصر حتى انطاكية - قد صارت بفضل الرب ملك  
يمينا . غير ان رغباتنا تباينت تباينا شديدا حول هذه النقطة ،  
وأوشك الأمر أن يؤدي الى نزاع خطير ، لأن معملى بيت القدس  
والرملة ويافا ونابلس وما حول هذه المدن بذلوا قصارى سعيهم كي  
يوجهوا الحملة ضد عسقلان باعتبارها اقرب ما تكون اليهم ، وانها  
لا تكلف جهدا كبيرا ولا تتطلب المال الكثير .

أما الرجال من اهل عكا والناصره وصيدا وبيروت وطبرية  
وجبيل وغيرها من مدن الساحل فكانوا على العكس من ذلك ، اذ  
أصروا على أن تتجه الحملة ضد صور ، وحجتهم فى ذلك انه لما  
كانت صور مدينة عظيمة وشديدة التحصين فانه يجب بذل جميع  
الجهود الممكنة لجعلها تحت سيطرتنا حتى لا يتمكن العدو من اتخاذ  
أرضها معبرا الى بلادنا فيستطيع ان ذاك معاودة الاستيلاء على  
الناحية كلها .

كان من جراء هذا الاختلاف الشديد فى الآراء أن أوشكت  
المسألة على التاجيل تاجيلا فيه المضرة ، غير أنه عن طريق جهود  
بعض الوسطاء رؤى انه من الأوفق أن يحسم هذا النزاع بالقرعة ،  
وزيادة على ذلك فان الطريقة التى اتخذت لعمل القرعة كانت سوية  
لا حيف فيها ولا غبن ، فقد وضعت على المذبح قصاصتان من الورق  
كتب على واحدة منهما كلمة « صور » وعلى الأخرى « عسقلان » ، ثم  
جاء بيتيم صغير برئى وكلفوه أن يختار احدهما بعد أن عرف  
الجميع أن الجيش سوف يزحف من غير نقاش على المدينة المكتوبة  
على الورقة المسحوبة ، فوقع الاختيار على « صور » .

وقد عرفت هذه التفاصيل من شيوخ معينين اكبروا تأكيدا باتا  
انهم كانوا شهود عيان لكل هذه الأحداث التى ذكرناها .

وبعد اقرار هذه التفاصيل اجتمع البطررك المعظم وكبار رجالات هذه المنطقة مع الناس فى مدينة عكا حيث كان اسطول البنادقة راسيا فى مرفأ أمين بالميناء ، وتبادل الفريقان الايمان الغليظة على ان يلتزموا جميعا بشروط الاتفاق الذى ارتضوه ، وأعدت جميع التجهيزات اللازمة لحملة من هذا النوع .

حتى اذا كان اليوم السادس عشر من شهر فبراير ١١٢٤ ضرب الحصار برا وبحرا على مدينة صور .

- ٢٥ -

ورغبة منا فى الا يخلو الكتاب من وثيقة بشأن الأحداث التى جرت فى الأزمنة السالفة فاننا ندرج هنا وثيقة هامة تدل على ما جرى ، وهى نسخة من الامتيازات التى تضمنتها الاتفاقية المبرمة بين البنادقة وكبار رجال مملكة بيت المقدس وهى كالآتى :

« باسم الثالوث المقدس الذى لا يتجزأ ، وباسم الواحد الآب والابن والروح القدس : انه فى زمن حكم البابا «كاليسيوس» الثانى وهنرى الرابع (١٨) امبراطور الرومان العظيم والذى يحكم أولهما كنيسة رومة وثانيهما يحكم الامبراطورية ، وفى نفس العام الذى عقد فيه بروما مجمع اقر السلام بمشيئة الرب بين الكنيسة والدولة بخصوص الخاتم والصولجان فان «دومينيجو ميكيلي» دوج البندقية ودلماشيا والكروات وأمير الامبراطورية أى جمهورية البندقية جاء وفى صحبته نفر كبير من الفرسان واسطول قوى من السفن ، جاء مدافعا عن المسيحيين الذين هم فى أشد الحاجة لدفاعه وقدم مباشرة

(١٨) الصواب ان يقال « الخامس » .

٢٧٨

من ساحة انتصاره على اسطول الوثنيين التابع لملك بابلينيون ، بعد أن  
أنزل به هزيمة نكراء أثناء رسوه أمام شواطئ عسقلان .

وهي وثيقة مدونة في ذيل هذا الكتاب ، ومن ثم سوف تبقى  
سليمة لا يعثرهما التغيير و لا التبديل ولا تشجب في المستقبل .  
سواء بالنسبة له أو لشعبه بل تظل محفوظة على الدوام آمين .

« انه سوف يكون للبنادقة في كل مدينة من مدن الملك المشار اليه ،  
والموجودة تحت حكم خلفائه كذلك وفي جميع مدن باروناته . . سوف  
يكون في كل هذه المدن للبنادقة كنيسة خاصة بهم وشارع خاص بهم  
بأكمله ، وكذلك يكون لهم ميدان وحمام ومخبز ، ويكون ذلك حقا لهم  
يتوارثونه ، ولا يدفعون عن ذلك أيأ ايدا أي ضرائب ، كما لو كان  
ذلك ملكا للملك ذاته .

« ويكون لهم في الميدان المطجود ببيت المقدس مثلما يكون للملك  
ذاته ، لكن اذا أراد البنادقة أن يقيموا بعكا في حيههم هناك فرنا  
وطاحونة وحماما وتكون لهم موازينهم ومكاييهم ومكاييلهم لكيل النبيذ  
والزيت وعسل النحل فيسمح بذلك بالمجان لكل شخص ساكن هناك  
دون معارضة ، ويسمح له بالطبخ أو الطحن أو الاستحمام من غير  
رسم يدفعه كما هو الحال تماما فيما هو ملك خاص للملك ، ويحق  
لهم أن يستعملوا المكاييل والموازين وأدوات الكيل كما يلي :

اذا أراد البنادقة المتاجرة فيما بين بعضهم والبعض الآخر  
فيجب عليهم أن يستعملوا موازينهم الخاصة بهم ، أي موازين  
البندقية ، واذا باع البنادقة بضائعهم لشعوب أخرى غير شعبهم  
فعلينهم أن يبيعوا بموازينهم الخاصة ، أي بموازين البندقية .

« اما اذا باع البنادقة أو تسلموا أي شيء للمتاجرة فيه من أي

شعب اجنبى عنهم ليس ببندقى فيؤذن لهم أن يأخذوا بالميزان الملكى  
ويشمن معلوم ، ومن أجل هذه الامتيازات فليس على البنادقة أن  
يدفعوا أى ضريبة سواء ما جرت العادة بدفعها أو لأى سبب آخر :  
أيا كان هذا السبب ، وسواء أكان ذلك عند الدخول أو البقاء أو  
البيع أو الشراء ، وسواء أكانوا مقيمين أو فى أثناء مغادرتهم  
البلد .

ولأن يكون البنادقة ملزمين لأى سبب من الأسباب بدفع أى  
ضريبة الا فى حالة مجيئهم أو ذهابهم حاملين الحجاج على سفنهم  
الخاصة ، وحينذاك يكونون ( حسب جمرك الملك ) ملزمين بأعطاء  
الثلث للملك نفسه .

« ونوافق ملك بيت المقدس - وكلنا نيابة عنه - أن ندفع لدوج  
البندقية من دخول صبور يوم الاحتفال بعيد الرسولين بطرس  
وبولص ثلاثمائة قطعة بيزنطية شرقية سنويا كما هو المتفق عليه .

« ويضاف الى ذلك اننا نتعهد لك أيها الدوج دوج البندقية  
ونتعهد لشعبك اننا لن نأخذ شيئا أكثر من تلك الشعوب التى تتاجر  
معكم فوق ما اعتادوا دفعه ، ولا نأخذ منهم أكثر مما نأخذه من  
أولئك الذين يتاجرون مع الشعوب الأخرى .

« وبالإضافة الى ذلك فان ذلك القسم من نفس المكان وشارع  
عكا الذى يوجد فى أحد أطرافه دار « بطرس » « زنى » ، وفى الطرف  
الآخر دير القديس ديمتريوس ، وكذلك أيضا جزء آخر من نفس  
الشارع الذى فيه بيت خشبى واحد وبيتان من الحجر كأننا من قبل  
كوخين من القصب الفارسى ، هما نفس ما خصصه بلدوين ملك  
بيت المقدس فى الأصل للطويانى مرقص فتمنح الى الدوج « اردولافو »  
وخلفائه نظرا للاستيلاء على صيدا .

« واننى » لأقول أننا نؤكد منح هذه الأماكن للقديس مرقس ولك أنت أيها السيد دومينيغو ميكيلي دوج البندقية ولخلفائك بمقتضى هذه الوثيقة .

« واننا لنعطيك الحق فى أن تمتلك على الدوام هذه المواضع وان تفعل بها ما تريد .

« اما فيما يتعلق بالجزء الآخر من نفس الشارع الممتد فى خط مستقيم من بيت « برنارد دى نيف شاتل » الذى كان من قبل تابعا لجون جوليان حتى بيت جبلبرت اليافاوى الذى هو من أسرة « سنت لور » فاننا نعطيك نفس السلطة التى للملك .

« وبالإضافة الى ذلك فانه لا يجوز لأى بندقى فى جميع أملاك الملك أو فى جميع أملاك باروناته أن يدفع أى ضريبة سواء فى الدخول أو فى الإقامة أو فى الخروج تحت أى حجة ، وانما يكون حرا تماما كما لو كان فى البندقية ذاتها .

« لكن اذا حدث وكان لأى بندقى قضية قانونية أو مقاضاة فى أى تجارة أو عمل ضد بندقى آخر فان الفصل فى هذه القضية يكون فى محكمة البنادقة ، كما انه اذا شعر أى شخص ان له نزاعا أو قضية ضد أحد البنادقة فيكون نظرها والفصل فيها فى نفس محكمة البنادقة ، لكن اذا اشتكى بندقى شخصا آخر ليس ببندقى فان النظر فى هذه الشكوى يكون فى محكمة الملك .

« كذلك فانه اذا مات بندقى وكان موصيا بوصية قبل موته أو غير موص بوصية ( وهى التى نقول نحن عنها انها بلا لسان ) فان أملاكه تؤول الى إشراف البنادقة وتكون تحت رقابتهم .

« وإذا حدث لبندقى أن تحطمت سفينته فإنه لا يتكبد خسارة أى شيء من أملاكه ، أما إذا كان موته فى جنوح السفينة فإن الأملاك التى يتركها سوف ترد الى ورثته أو البنادقة الآخرين » وزيادة على ذلك فإنه يكون للبنادقة نفس صلاحيات العدالة ونفس الحقوق التى للمواطنين من أى شعب يكونون ساكنين فى شارع وبيوت البنادقة مثل ما للملك من حقوق على شعبه .

« وأخيرا فإنه يكون للبنادقة ثلث مدينتى صور وعسقلان وملحقاتهما ، وثلث جميع الاراضى المتصلة بذلك من يوم عيد القديس بطرس ، ويسرى هذا فقط على الاراضى التى هى خاضعة الآن للشرقيين ( أى المسلمين ) ولم تصبح بعد فى قبضة الفرنجة .

« فإذا قدر بمساعدة البنادقة أو بأى وسيلة أخرى ان منح الروح القدس احدى هاتين المدينتين ، أو كليهما ان شاء الرب . لتكونا فى يمين المسيحيين فان ثلث هذه المدينة أو ثلثى هاتين المدينتين - كما قيل - يملكه البنادقة تمام التملك ويكون لهم سلطات تنظيمية فى هذه النواحي التى تصبغ وراثية الى الأبد دون أى اعتراض أو معارضة ، شأنهم فى هذه الملكية شأن الملك فى تملك الثلثين من المدينة .

« ومن ثم فإننا جورموند بطرك بيت المقدس سنحمل الملك نفسه - اذا شاء الرب ان يطلق سراحه من الأسر - على أن يصادق بالتأكيد على الاتفاق المذكور أعلاه كاملا غير منقوص ، لكن اذا اقيم غيره ملكا على مملكة بيت المقدس فإننا سنحمله على تنفيذ العهد المشار اليها قبل اعتلائه العرش والا رفضنا اعتلاءه العرش ، كما ان خلفاء البارونات ، وأى بارونات جدد فى المستقبل سوف يكونون ملزمين بالموافقة على نفس الاتفاق وبالطريقة ذاتها .

« أما فيما يتعلق بأنطاكية فأننا نعرف تمام المعرفة بأن الملك بلديون الثاني وعدكم أن يكون لكم فى أنطاكية نفس الترتيب كما هو الحال فى بقية المدن الأخرى التابعة للملك ، وإن شعب أنطاكية يؤكد برضائه التام الاتفاق الملكى المبرم معكم .

« ونحن جورموند بطرك بيت المقدس وكذلك أساقفتنا ورجال الدين والبارونات وأهل بيت المقدس نمحضكم النصيحة ونسدى إليكم العون ، ونعدكم أن ننفذ بدقة وبايمان صادق كل ماسوف يكتب به البابا إلينا بشأن هذا الأمر وإن تنفذ جميع الأمور السالفة المشار إليها لمراعاة شرف البنادقة .

« وأؤكد بخط يدى أنا جيرموند الذى هو برحمة الرب بطرك بيت المقدس الأشياء المكتوبة أعلاه .

وأنا أبريمار رئيس أساقفة قيصرية تؤكد مثله هذه الأشياء ذاتها .

وأنا برنارد أسقف الناصر ، أؤكدها أيضا .

وأنا اشيتيفوس أسقف بيت لحم ، أؤكدها أيضا .

وأنا روجر صاحب اللد وأسقف كنيسة سنت جورج أؤكدها أيضا .

وأنا جلدوين رئيس دير سنت ماري فى وادى يهوشافاط أؤكدها أيضا .



- وأنا جيرارد مقدم القبر المقدس ، أؤكد لها أيضا .
- وأنا ايكارد مقدم هيكل السيد ، أؤكد لها أيضا .
- وأنا أرنولد مقدم جبل صهيون أؤكد لها أيضا .
- وأنا وليم دى بيورى كونستابل الملك أؤكد لها أيضا .

« كتب هذا فى عكا بيد بابنس مستشار ملك بيت المقدس فى  
سنة ١١٢٢ فى الدورة الثانية » .

\* \* \*

هنا ينتهى الكتاب الثانى عشر

## صدر من هذه السلسلة :

- ١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ  
د \* عبد العظيم رمضان
- ٢ - على ماهر  
اعداد : رشوان محمود جاب الله
- ٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة  
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر
- ٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة  
د \* محمد تيمان جلال
- ٥ - غارات أوروبا على الشواطئ المصرية فى العصور  
الوسطى  
عطية عبد السميع
- ٦ - هؤلاء الرجال من مصر ج ١  
نعى المطيعى

- ٧ - صلاح الدين الأيوبي  
د • عبد المتعم ماجد
- ٨ - رؤية الجبرتي لازمة الحياة الفكرية  
د • على يركات
- ٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل  
د • محمد أنيس
- ١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية  
محمود فوزي
- ١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية  
شكري القاضي
- ١٢ - هدى شعراوي وعصر التنوير  
د • تبيل راغب
- ١٣ - أكذوبة الاستعمار المصري للسودان  
د • عبد العظيم رمضان
- ١٤ - مصر في عصر الولاة  
د • سيدة اسماعيل كاشف
- ١٥ - المستشرقون والتاريخ الاسلامي  
د • على حسن الخريوطي
- ١٦ - فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعي في مصر  
د • حلمي أحمد شلبي

- ١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى  
د ٠ محمد نصر قرحات
- ١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية  
د ٠ على السيد محمود
- ١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين  
د ٠ أحمد محمود صابون
- ٢٠ - المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى  
د ٠ محمد أنيس
- ٢١ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ١  
توفيق الطويل
- ٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر  
جمال بدوى
- ٢٣ - التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢  
توفيق الطويل
- ٢٤ - الصحافة الوفدية  
د ٠ نجوى كامل
- ٢٥ - المجتمع الاسلامى  
ترجمة : د ٠ عبد الرحيم مصطفى
- ٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة  
د ٠ سعيد اسماعيل على
- ٢٧ - فتح العرب لمصر ج ١  
ترجمة : محمد فريد أبو حديد
- ٢٨ - فتح العرب لمصر ج ٢  
ترجمة : محمد فريد أبو حديد

- ٢٩ - مصر فى عهد الاخشيديين  
د • سيدة اسماعيل كاشف
- ٣٠ - الموظفون فى مصر  
د • حلمى أحمد شلبي
- ٣١ - خمسون شخصية وشخصية  
شكرى القاضي
- ٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر ج ٢  
لمعى الطيعى
- ٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الافريقى  
د • خالد الكومى
- ٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية  
د • يوتان لبيب رزق
- ٣٥ - اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة  
عبد الحميد توفيق زكى
- ٣٦ - المجتمع الاسلامى والغرب ج ٢  
ترجمة : د • احمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣٧ - الشيخ على يوسف  
تأليف : د • سليمان صالح
- ٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى  
العصر العثمانى
- د • عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم
- ٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان  
د • جميل عبيد

- ٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب ١٩٤٨  
د . عبد المعتم الدسوقي الجميلى
- ٤١ - محمد فريد الموقف والمأساة  
رفعت السعيد
- ٤٢ - تكوين مصر عبر العصور  
محمد شفيق غريال
- ٤٣ - رحلة في مقول مصرية  
إبراهيم عبد العزيز
- ٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر  
العثماني  
د . محمد عفيفي
- ٤٥ - الحروب الصليبية  
تأليف : وليم الصورى  
ترجمة : أ . د . حسن حبشى
- ٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٩ : ١٩٥٧  
تأليف : د . عبد الرؤوف أحمد عمرو
- ٤٧ - تاريخ القضاء المصرى الحديث  
تأليف : أ . د . لطيفة محمد سالم
- ٤٨ - الفلاح المصرى  
تأليف : د . زبيد عطا
- ٤٩ - العلاقات المصرية الاسرائيلية  
تأليف : أ . د . عبد العظيم رمضان

- ٥٠ - الصحافة المصرية والقضايا الوطنية  
تأليف : د . سهير اسكندر
- ٥١ - تاريخ المدارس في مصر الاسلامية  
اعداد : د . عبد العظيم رمضان
- ٥٢ - مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في  
القرن الثامن عشر  
تأليف : د . الهام محمد علي ذهني
- ٥٣ - اربعة مؤرخين واربعة مؤلفات من دولة المماليك  
د . محمد كمال الدين عز الدين علي
- ٥٤ - الأقباط في مصر في العصر العثماني  
تأليف : د . محمد غنيمي

## الفهرس

### الصفحة

|   |     |
|---|-----|
| مقدمة . . . . .   | ٥   |
| الكتاب السابع :   |     |
| الشفاق بين الصليبيين وزحفهم الى بيت المقدس . . . . .          | ١١٠ |
| الكتاب الثامن :   |     |
| خاتمة رحلة الحج : الاستيلاء على القدس . . . . .               | ٧٩  |
| الكتاب التاسع :   |     |
| جود فروى حامى القبر المقدس ببيت المقدس وانطاكية . . . . .     | ١٣٩ |
| الكتاب العاشر :   |     |
| الملك بلدوين الاول وازدياد رقعة المملكة . . . . .             | ١٨٩ |
| الكتاب الحادى عشر :   |     |
| خاتمة عهد بلدوين الاول وفتوحات اخرى بالقدس وانطاكية . . . . . | ٢٥٣ |
| الكتاب الثانى عشر :   |     |
| بلدوين الثانى : الاضطرابات فى شمال سورية . . . . .            | ٣٣١ |



رقم الايداع ١٩٩٢/٧١٤٦

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977 — 01 — 3113 — X

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



100

100

100



1. The first step is to identify the problem or question that needs to be solved. This involves understanding the context and the specific requirements of the task.

2.

3.

4.

5.

6.

7.

8.

9.

10.

11.

12.

يعتبر كتاب الحروب الصليبية لوليم الصورى مصدراً أساسياً لما  
شاهده المؤلف فى معظم مراحل هذه الحرب ، واشتركه فى بعض  
أحداثها ، إلى جانب ما توفر له من الاطلاع على كثير من الوثائق  
الهامة فى لغات كان يتقن بعضها ، قراءة وكتابة ، كالاتينية واليونانية  
والفرنسية القديمة والعربية .

هذا إلى جانب توليه منصب مستشار ملك بيت المقدس ، ورئيس  
أساقفة صور ، ومشاركته بالرأى فى توجيه هذه الحرب فى بلاد الشام  
ومصر ، وفى كثير من أحداث تلك الحقبة .

وقد توفر له مترجم ضليح ومؤرخ كبير ، جزل العبارة هو الأستاذ  
الدكتور حسن حبشى ، الذى ترجم كثيراً من الأصول الأولى للعصور  
الوسطى ، وقد أضاف للترجمة من التعليق ما دل على أستاذيته .

ويسعد الهيئة أن تكون هذه الترجمة العربية القائمة على مراجعة  
الترجمتين الانجليزية والفرنسية ضمن سلسلة تاريخ المصريين التى  
يرأس تحريرها الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان .

